الحرب والسلم

(الكتاب الرابع)

إلياذة العصور الحديثة



ليو تولستوي

الحرب والسلم (الكتاب الرابع)

إلياذة العصور الحديثة

تأليف
ليو تولستوي



الحرب والسلم (الكتاب الرابع)

ليو تولستوي

War and Peace (Book 4)

Leo Tolstoy

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٤٧٢ ٥

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الروسية عام ١٨٦٩.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٥٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤٫٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

الكتاب الرابع



الجزء الأول

الفصل الأول

رسالة نيافته

خلال ذلك الوقت، في أجواء بيترسبورج العليا، استمر النضال بين أنصار روميانتسيف والفرنسيين وماري فيدوروفنا وألتساريفيتش وشخصيات رفيعة أخرى أشد من ذي قبل، وظل زنابير البلاط كعادتهم يشتركون فيه وهم يدندنون. لكن تلك الحياة المترفة الخالية التي لا يشغلها إلا المظاهر والسراب ظلت تتبع مجراها الطبيعي، والذين يحيونها كانوا ملزمين ببذل مجهودات كبيرة ليدركوا الخطر والموقف الدقيق الذي تردَّى إليه الشعب الروسي. ظلت الحفلات الراقصة نفسها والاستقبالات إياها والمسرح الفرنسي ذاته ومصالح البلاط نفسها ومصالح الخدمة والدسائس هي هي. أما في المقامات العليا فكانوا يظهرون ما يكفي من القلق لتذكر خطورة الحالة، كانوا يرون همسًا أن الإمبراطورتين في هذا الظرف العصيب تتصرفان تصرفًا معاكسًا تمامًا؛ فالإمبراطورة ماري فيودوروفنا المنشغلة بحماية المؤسسات الاستشفائية والثقافية المؤسسة باسمها وتحت حمايتها تتخذ الإجراءات لنقلها إلى كازان، فكان كل ما يخص تلك المؤسسات معدًّا محزومًا. أما الإمبراطورة إليزابيث ألكسييفنا فإنها عندما تسأل عما إذا كان يجب اتخاذ إجراءات الرحيل، تجيب بوطنيتها الروسية المألوفة بأنها لا تستطيع إصدار أي أمر بهذا المعنى، وأن هذا من اختصاص الإمبراطور وحده، ولقد أعلنت أنها في ما يخصها ستكون آخر من يغادر بيترسبورج.

في السادس والعشرين من آب يوم معركة بورودينو بالذات، كانت آنَّا بافلوفنا تقيم حفلة ساهرة نواتها قراءة رسالة نيافته المرفقة بصورة السعيد القديس سيرج المرسلة إلى الإمبراطور. كانت تلك الرسالة تُعتبَر نموذجًا للوطنية والفصاحة الدينية، وكانوا يعتمدون على الأمير بازيل في قراءتها، وهو المشهور بموهبته كقارئ الذي مارس هذه الموهبة لدى

الإمبراطورة نفسها، وكانت تلك الموهبة تقوم على أساس لفظ الكلمات بصوت مرتفع غنائي، تتناوب فيه الخطورة مع العذوبة دون التقيد بالمعنى لدرجة كانت بعض المقاطع الأخرى في ما يشبه الهمس. وكان لتلك القراءة كما لكل حفلات آنَّا بافلوفنا الساهرة لونًا سياسيًّا، إذ اتُّفق على أن يحضر عدد من كبار الشخصيات وجب استصراخ شعورهم الوطني وتخجيلهم، لأنهم ما زالوا دءوبين على حضور حفلات المسرح الفرنسي. وكان عدد كبير من المدعُوِّين قد حضر، لكن آنَّا بافلوفنا لم ترَ فيهم من تنتظر، لذلك فقد أخرت القراءة وسمحت بإثارة مناقشة عامة.



بطرس يُسَاق أسيرًا.

كان النبأ الجديد يومذاك يتعلق بمرض الكونتيس بيزوخوف، لقد شعرت فجأة بتوَعُّك وتغيبت هذه الأيام الأخيرة عن حضور بعض الاجتماعات التي كانت زينتها، تناقلت الألسن

أنها لا تستقبل أحدًا وأنها منحت ثقتها إلى إيطالي زعم أنه سيشفيها وفق طريقة جديدة خارقة، بدلًا من أن تمنحها إلى المشهورين من أطباء العاصمة الذين كانت تعهد إليهم بعلاجها.

وكان كلٌّ يعرف أن مرض الكونتيس الفاتنة ناجم عن الارتباك الذي وقعت به بسبب اقترانها برجلين معًا، وأن علاج الإيطالي يتوقف على إزالة هذا الارتباك، ولكن ما من أحد كان يجرؤ على التنويه بالشيء في حضرة آنَّا بافلوفنا، فكانوا جميعًا يتظاهرون بجهلهم كل ما له علاقة بهذا الموضوع.

– يقولون إن مرض الكونتيس رديء جدًّا، يقول الطبيب إنه الذبحة الصدرية.

– الذبحة؟! أوه، إنها مرض خطير.

– يقولون إن المتنافسين قد تصالحوا بفضل الذبحة …

وكانت كلمة «ذبحة» تنعم بالرضى العام.

– إن الكونت العجوز يثير الشفقة كما يروون، لقد بكى كطفل عندما أنبأه الطبيب بأن الحالة خطيرة.

– أوه! ستكون خسارة رهيبة، إنها امرأة ساحرة.

قالت آنَّا بافلوفنا وهي تقترب: إنكم تتحدثون عن الكونتيس المسكينة، لقد أرسلت أستطلع أخبارها فقالوا لي إنها متحسنة بعض الشيء.

ثم أضافت وهي تبتسم لحماسها الشخصي: أوه! لا ريب أنها أكثر نساء العالم فتنة. إننا نَمُتُّ إلى معسكرين مختلفين، لكن هذا لا يمنع من تقديرها كما تستحق. إنها تعيسة جدًّا!

ولقد خمن شاب طائش أن كلمات آنَّا بافلوفنا ترفع قليلًا حجاب السر الذي يغطي مرض الكونتيس، فعمد إلى إظهار دهشته من أن المريضة استبقت إلى جانب سريرها مشعوذًا إيطاليًّا قادرًا على وصف أخطر العقاقير لها بدلًا عن الأطباء المعروفين. فرددت آنَّا بافلوفنا على الفور بلهجة خشنة على الشاب الغِرِّير: يمكن أن تكون معلوماتك أفضل من معلوماتي، لكنني أعرف من ثقة أن هذا الطبيب رجل عالم جدًّا وماهر جدًّا، إنه الطبيب الخاص لملكة إسبانيا.

وبعد أن أعادت الشاب إلى حدوده على هذا النحو، التفتت آنَّا بافلوفنا إلى بيليبين الذي كان في حلقة أخرى يجعد جبينه ويتأهب لبسطه، وهو يطلق «كلمة» وهو يتحدث عن النمساويين.

قال بصدد وثيقة سياسية أُرسلت إلى فينَّا مع عَلَمين نمساويين غنمهما ويتجنشتاين[1] «بطل بير بيروبول» كما كانوا يسمونه في بيترسبورج: أرى أن هذا رائع.

فقالت آنَّا بافلوفنا رغبة منها في وضع حد للمناقشات كي تتيح للمدعوين فرصة سماع «الكلمة» التي كانت تعرفها سلفًا: ماذا تقول؟

ردد بيليبين الكلمات التالية من الرسالة الدبلوماسية التي دبجها: يعيد الإمبراطور الأعلام النمساوية، وهي الأعلام الصديقة التائهة التي وجدها متنكبة الطريق.

وبسط جبينه عند المقطع الأخير، فهتف الأمير بازيل: رائع! رائع!

وفجأة قال الأمير هيبوليت بصخب: لعلها طريق فارسوفيا.

حطت الأنظار كلها عليه، ولكن ما من أحد أدرك ماذا يريد أن يقول.

وألقى الأمير هيبوليت نظرة حوله لأنه لم يكن هو الآخر يدرك أكثر من سواه المعنى الذي يتصل بكلماته، لقد لاحظ أكثر من مرة خلال حياته السياسية أن كلمة تقال عرضًا تبدو فجأة وكأنها منتهى الذكاء، لذلك فقد راح في كل مناسبة يصرف أول الكلمات التي تتوارد على شفتيه وهو يفكر: «لعلها ستكون شيئًا جيدًا، بل إنهم سيستخلصون منها شيئًا ماحقًا ولو كانت لا تساوي شيئًا.» وفي الواقع أنه خلال الفترة التي أعقبت ذلك والتي ران فيها صمت مربك دخل شخص ما، وكان واحدًا من المواطنين شديدي الفتور الذي كانت آنَّا بافلوفنا تنتظره، فتوعدت هيبوليت بأصبعها ودعت الأمير بازيل وهي بالابتسام إلى الجلوس قرب المائدة وأتت له بشمعتين وبالرسالة، ثم رجته أن يشرع في تلاوتها، وران الصمت.

نطق الأمير بازيل بلهجة خطيرة، وهو يتأمل وجوه المستمعين وكأنه يسألهم عما إذا كان لأحدهم اعتراض: «أيها الإمبراطور والعاهل كثير الجود.»

ولما لم يرمش أحد تابع: «إن موسكو عاصمتك الأولى، أورشليمنا الجديدة، ستستقبل مسيحها»، وحرك الضمير المضاف «ها» بقوة … «وهي كالأم التي يرتمي بين أذرع أبنائها المولعة، وخلال الضباب الذي يبدو تغني باندفاع وهي تتبصر بمجد حكمك اللامع: هوزانا، ليكن مباركًا ذلك الذي سيقدم!»

نطق الأمير بازيل بهذه الكلمات الأخيرة بلهجة ناحبة.

---

[1] لويس أمير ويتجنشتاين أو ويتجنستن، فيلد ماريشال روسي، وُلِد في بيرياسلاف عام ١٧٦٩ وتُوفِّي عام ١٨٤٣، وهو من أصل بروسي، برز في ليبزيج وخلال حملة فرنسا عام ١٨١٤.

وكان بيليبين يمعن النظر بأظافره بعناية، وعدد من الموجودين متخوفين حقًّا، يبدو على وجوههم كأنهم يتساءلون عما ارتكبوا من ذنوب. وكانت آنَّا بافلوفنا تهمس بالكلمات سلفًا أشبه بعجوز على استعداد لتناول الخبز المقدس وتغمغم: «لينشر جوليات الجسور السفيه ...»

«ولينشر جوليات[٢] الجسور السفيه القادم من طرف فرنسا القصي على الأرض الروسية أهواله المجرمة، فإن الإيمان الخاشع، هذا المقلاع لداود[٣] الروسي، سيصرع فجأة رأس تجبره الدموي. إن هذه الصورة لسيرج السعيد الغيور القديم على سعادة وطننا ستُقدَّم إلى جلالتكم الإمبراطورية، وإنني آسف لأن قواي المترنحة لا تسمح لي بتأمل طلعتكم الجليلة. إنني أرفع إلى السماء صلوات حارَّة ليتفضل عظيم القدرة بإكثار نسل العادلين وليتم أماني جلالتكم!»

هتفوا على شرف القارئ والمؤلف: يا للقوة! يا للأسلوب!

تحدث مدعُوُّو آنَّا بافلوفنا طويلًا حول الموقف والوطن، وقد حركت مشاعرهم هذه المقطوعة من البلاغة، وأكثروا من الرجم بالغيب حول نتيجة المعركة التي ستقع دون تأخير، فقالت آنَّا بافلوفنا: سوف ترون أننا سنتلقَّى أنباءً غدًا بمناسبة يوم ميلاد عاهلنا، إن لديَّ إحساسات مسبقة ممتازة.

---

[٢] جوليات: عملاق فلسطيني قتله داود النبي بحجر من مقلاعه أصابه في جبهته.

[٣] جوليات، عملاق فلسطيني، قتله داود النبي بحجر من مقلاعه أصابه في جبهته.

الفصل الثاني

موت هيلين

صدقت والحق يُقال إحساسات آنًّا بافلوفنا المسبقة، ففي اليوم التالي، أثناء تلاوة صلاة الشكر «تيديئوم» في القصر بمناسبة عيد ميلاد الإمبراطور، استُدْعِي الأمير فولكونسكي، فخرج من الكنيسة ليتلقى رسالته من لدن كوتوزوف. كانت الرسالة تحوي ذلك التقرير الذي دُبِّج يوم معركة تاتارينوفو، والذي ذكر فيه كوتوزوف أن الروسيين لم يتراجعوا خطوة واحدة، وأن الفرنسيين فقدوا أكثر مما فقدنا بكثير، وأنه يحرر تقريره على عجل دون أن يتريث حتى يجمع المعلومات الأخيرة. وكان ذلك يبدو أشبه بالبشرى التي تُزَفُّ بمناسبة النصر، لذلك فقد رُفِعَت إلى الله فورًا، دون الخروج من الكنيسة، صلوات شكر على المساعدة التي أنعم بها في سبيل النصر.

لقد تحققت إحساسات آنًّا بافلوفنا المسبقة، وباتت المدينة كلها تُكِنُّ روح العيد طيلة ذلك الصباح، فكان كلٌّ يعتقد بنصر شامل، بل إن بعضهم زعم أن نابليون أصبح سجينًا وأنهم خلعوه وانتخبوا في فرنسا رئيسًا جديدًا.

وكان من العسير جدًّا أن يدرك المرء بعيدًا عن الجيش وفي جو البلاط الوقائع في كل دقائقها وقوتها. إن الأحداث تتجمع تلقائيًّا حول واقعة خاصة، ففي تلك الآونة كان مبعث أفراد الحاشية بالنصر نفسه أقل مما كانت عليه لورود النبأ نفسه في يوم ميلاد الإمبراطور بالذات، لقد كان أشبه بالمفاجأة الناجحة. كان تقرير كوتوزوف يشير إلى أسماء الضحايا من الروسيين، وفي عدادهم أسماء توتشكوف وباجراسيون وكوتائيسوف. لذلك فإن فاجعة هذه الأنباء اجتمعت بالنسبة إلى الطبقة البيترسبورجية الراقية حول واقعة واحدة هي خسارة كوتائيسوف، فكلٌّ منهم يعرفه والإمبراطور نفسه يقدره، لقد

كان شابًّا وفتَّانًا، فكانوا ذلك اليوم إذا ما تقابلوا يقولون لبعضهم: يا له من أمر مذهول! وسط الصلوات! لكن كوتائيسوف، يا للخسارة! آه! للشقاء!

وأصبح فاسيلي يهتف الآن، وهو فخور أن كان متنبئًا موفَّقًا: ماذا قلت لكم عن كوتوزوف؟ لقد قلت دائمًا إنه وحده القادر على هزيمة نابليون.

ولكن في اليوم التالي لم ترد أية أنباء عن الجيش، فمال الرأي العام إلى القلق، وراح أفراد الحاشية يتألمون لرؤية الإمبراطور متألمًا لافتقاره إلى الأنباء.

أخذ الأنصار يقولون، وقد كفُّوا عن إطراء كوتوزوف وباتوا يتهمونه بأنه سبب كآبة الإمبراطور: «يا له من موقف، موقفه!» ولم يحاول الأمير بازيل ذلك النهار أن يمتدح «محميه» كوتوزوف، والتزم الصمت كلما ورد ذكر الجنرال القائد الأعلى، بل إن كل شيء ذلك المساء بدا كأنه متواطئٌ لإبلاغ قلق الأفكار البيترسبورجية إلى الذروة إذا انتشر نبأ رهيب جديد: لقد ماتت الكونتيس بيزوخوف فجأة بتأثير ذلك المرض المريع، الذي كانوا يسرون بذكر اسمه، كانوا يؤكدون رسميًّا في الأبهاء الكبرى أنها ماتت إثر نوبة ذبحة صدرية، أما في حلقات العارفين فكانوا يروون أن «طبيب ملكة إسبانيا الخاص» وصف لهيلين جرعة صغيرة من دواء خاص يقصد به إحداث بعض الأثر الحسن، لكن هيلين في غمار اضطرابها من أن يُظَنَّ بها الظنون في ما يتعلق بالكونت العجوز، وبسبب عدم تلقيها أي جواب من زوجها (بيير ذاك التاعس الفاجر)؛ أخذت كمية كبيرة من علاجها وماتت تفترسها الآلام العنيفة قبل أن يمكن إنقاذها. وكانوا يروون أن الأمير فاسيلي والكونت العجوز أرادا توقيف الإيطالي، لكن هذا كان يملك في يده أوراقًا تدين المرحومة التاعسة بشدة، حتى اضطُرَّ إلى إخلاء سبيله على الفور.

إذن، لقد تركز الحديث حول ثلاث نقاط: التردد الذي كان العاهل عليه وخسارة كوتائيسوف وموت هيلين.

وفي غداة اليوم التالي لتقرير كوتوزوف وصل بيترسبورج خبر سقوط موسكو، فلم يلبث نبأ استسلام موسكو إلى الفرنسيين أن انتشر في المدينة كلها. كان ذلك شيئًا مرذولًا! وبالنسبة إلى الإمبراطور يا له من موقف! إن كوتوزوف ليس إلا خائنًا. وراح الأمير فاسيلي خلال زيارات التعزية التي كان يتلقاها بمناسبة موت ابنته، يقول عن كوتوزوف هذا نفسه، الذي كان في ما مضى يغطيه بالمديح (ولقد كان مسموحًا له في حزنه الأبوي أن ينسى ما قاله من قبل): إنه لا يمكن أن ينتظر خلاف ذلك من كهل أعمى فاجر، ويضيف: إن ما يدهشني هو أن يُعهد إلى شخص كهذا بمصير روسيا.

كان يمكن الاحتفاظ ببعض الشكوك طالما ظل النبأ غير رسمي، لكنهم في اليوم التالي تلقوا التقرير التالي من الكونت روستوبتشين:

> حمل إليَّ مساعد عسكري للكونت كوتوزوف رسالة، يسألني فيها ضباطًا من الشرطة لمرافقة الجيش على طريق ريازان، ويقول إنه يأسف لترك موسكو يا صاحب الجلالة! إن فعلة كوتوزوف هذه تقرر مصير عاصمة ملككم، سوف تنتفض روسيا عندما تعلم بهجر المدينة التي تمثل عظمتنا، والتي تضم رفات أسلافكم. ولقد أذعنت للجيش وأمرت بنقل كل شيء، فلم يبقَ لي إلا أن أبكي مصير وطني.

وبعد أن اطَّلع العاهل على فحوى التقرير، أبلغ كوتوزوف عن طريق الأمير فولكونسكي الكتاب الملكي التالي:

> الأمير ميخائيل إيلاريونوفينش، لم أتلقَّ منك أي تقرير منذ التاسع والعشرين من آب، في حين تلقيت يوم الأول من أيلول عن طريق إياروسلافل تقريرًا من حاكم موسكو العام ينهي إليَّ النبأ الكئيب المتعلق بتقريرك هجر هذه المدينة. يمكنك أن تتصور الأثر الذي يمكن أن يحدثه مثل هذا النبأ في نفسي، إنه يدهشني بقدر ما يجعل سكوتك أكثر إقلاقًا. أرسل إليك هذه الرسالة بواسطة مساعدي العسكري الجنرال فولكونسكي، الذي عليه أن يطلع على حالة الجيش الحقيقية منك، وعلى الأسباب التي دفعتك إلى اتخاذ قرارك المؤسف.

الفصل الثالث

حتى آخر رجل ...

بعد تسعة أيام على هجر موسكو، حمل رسول من لدى كوتوزوف النبأ رسميًّا إلى بيترسبورج، وكان ذلك الرسول الفرنسي ميشو الذي لم يكن يعرف الروسية، والذي كان «روسيًّا قلبًا وروحًا رغم أنه أجنبي» كما كان يؤكد.

استقبله الإمبراطور على الفور في مكتبه في قصر كامينِّي — أوستروف. ولقد شعر ميشو الذي لم يرَ موسكو قط قبل الحرب، والذي لم يكن يعرف اللغة الروسية، بتأثر كبير عندما وجد نفسه في حضرة «عاهلنا الجواد» — كما كتب في ما بعد — ينهي إليه نبأ حريق موسكو «التي كانت نيرانه تضيء طريقه».

وعلى الرغم من أن مبعث «حزن السيد ميشو لا ريب مختلف تمامًا عنه لدى الروسيين الحقيقيين»، فإن ميشو كان بادي الحزن الشديد عندما أُدْخِل إلى مكتب الإمبراطور، حتى إن هذا بادره على الفور سائلًا: هل تحمل إليَّ أنباء سيئة أيها الزعيم؟

أجاب ميشو زافرًا وهو يخفض عينيه: حزينة جدًّا يا صاحب الجلالة؛ إخلاء موسكو.

سأل الإمبراطور فجأة في انتفاضة غضب: هل سلمت عاصمتي القديمة دون قتال؟!

نقل إليه ميشو باحترام رسالة كوتوزوف التي أورد فيها بصورة خاصة أن كل معركة عند أسوار المدينة مستحيلة، وأن الماريشال عندما وجد نفسه مخيرًا بين خسران الجيش وموسكو أو خسران موسكو وحدها فضَّل خسارة المدينة.

كان الإمبراطور يصغي بصمت دون أن ينظر إلى ميشو، ثم سأل: وهل دخل العدو المدينة؟

فقال ميشو بلهجة مطمئنة: نعم يا صاحب الجلالة، وهي الآن رماد في هذه الساعة، غادرتها وهي تحترق.

لكنه عندما نظر إلى وجه الإمبراطور ذُعِر للأثر الذي خلفته كلماته فيه، كان الإمبراطور لاهثًا ترتعد شفته السفلى وقد امتلأت عيناه الجميلتان الزرقاوان بالدموع.

لكن ذلك لم يدم أكثر من لحظة، قطَّب حاجبيه فجأة وكأنه يأخذ على نفسه ضعفها ورفع رأسه، ثم قال لميشو بصوت حازم: أرى أيها الزعيم من كل ما وقع أن المشيئة الإلهية تتطلب منا تضحيات جمة … إنني على استعداد للخشوع لكل إرادتها. ولكن قل لي يا ميشو، كيف غادرت الجيش وهو يرى هكذا، دون أية مقاومة، عاصمتي القديمة تُخْلَى؟ ألم تلاحظ شيئًا من خمود العزم …؟

ولما رأى ميشو أن «عاهله الجواد» استرد هدوءه هدأ بدوره، لكن ارتباكه عاد عندما طرح عليه الإمبراطور سؤالًا دقيقًا لم يكن قد أعد الرد عليه من قبل، التمس كسبًا للوقت: يا صاحب الجلالة، هل تسمح لي بأن أكلمك بصراحة كعسكري وفيٍّ؟

فاستأنف الإمبراطور يقول: إنني أتطلب الصراحة دائمًا أيها الزعيم، لا تخفِ عني شيئًا، أريد مهما كلف الأمر أن أطَّلع على حقيقة الواقع.

فقال ميشو وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة لا تكاد تُرَى، إذ نجح في أن يعطي جوابه صيغة التلاعب بالكلمات الخفيفة المحترمة: يا صاحب الجلالة، يا صاحب الجلالة، لقد تركت الجيش ابتداءً من ضباطه وحتى آخر جندي فيه في رهبة مريعة مخيفة دون استثناء …

فقاطعه الإمبراطور وقد زوى حاجبيه بعنف: كيف ذلك؟ هل ينهار روسيَّوي بفعل المصيبة؟! … أبدًا! …

لم يكن ميشو يتوقع إلا هذا لينعم بنجاح لعبة الكلام التي أعدها، فقال وعلى وجهه ابتسامة تنم عن الاحترام: يا صاحب الجلالة، إنهم يخشون فقط أن تندفعوا جلالتكم بطيبة قلبكم إلى عقد الصلح.

وأكد مبعوث الشعب الروسي: إنهم يتحرقون شوقًا للقتال، ليبرهنوا لجلالتكم بتضحية حيواتهم مدى تفانيهم في سبيلكم …

فقال العاهل المطمئن وقد التمعت عيناه ببريق مهدهد، وربت على كتف ميشو بمودة: آه، لقد طمأنتني يا زعيم.

وأطرق الإمبراطور برأسه وظل بضع لحظات صامتًا، وفجأة قال وهو ينصب قامته المديدة ويخاطب ميشو بلهجة مفعمة بالبشاشة والعظمة: حسنًا، عد إلى الجيش وقل لبواسلنا، قل لكل أتباعنا الطيبين حيثما تمر إنني عندما لا يبقى جندي واحد سأضع

نفسي شخصيًّا على رأس طائفة النبلاء الغالية وفلاحيَّ الطيبين، وسأنحو على هذا المنوال حتى آخر قطرة من موارد ملكي.

وهتف وهو يزداد حماسًا: إن ملكي يقدم لي من الإمكانيات أكثر مما يفكر أعدائي.

وأردف وهو يرفع عينيه الجميلتين اللامعتين من الانفعال نحو السماء: ولكن إذا صدف وكان مكتوبًا في ألواح القدر أن ذريتي لن تستمر في اعتلاء عرش أجدادي، حينئذ وبعد أن أستنفد كل الإمكانيات الكائنة تحت سلطتي سأطلق لحيتي حتى تصل إلى هنا — وأشار بيده إلى منتصف صدره — وسأمضي لتناول البطاطا مع الأخير من فلاحي مملكتي، على أن أُوقِع العار وأمتي العزيزة التي أعرف كيف أقدر تضحياتها ...

نطق الإمبراطور بهذه الكلمات بصوت مضطرب، ثم وكأنه يرغب في إخفاء الدموع التي ملأت عينيه عن ميشو استدار ومضى إلى أقصى مكتبه. وبعد أن تمهل هناك بضع لحظات عاد بخطًى واسعة نحو ميشو وضغط على ذراعه فوق المرفق بيد قوية، وكان وجهه الهادئ الجميل متوردًا وعيناه تلتمعان بنار العزم والحِفْظَة؛ قال وهو يقرع صدره: أيها الزعيم ميشو، لا تنسَ ما أقوله لك هنا لعلنا ذات يوم سنستعيد ذكراه بسرور ... نابليون أو أنا لا يمكن لنا بعد الآن أن نملك معًا، لقد تعلمت كيف أعرفه ولن يخدعني بعد الآن ...

وصمت الإمبراطور مقطب الحاجبين، ولقد تأثر ميشو بما قاله منذ حين وبأمارات وجهه الحازمة الثابتة، ولقد شعر في تلك اللحظة الجليلة «وهو الروسي قلبًا وروحًا رغم أنه غريب» — وتلك هي عبارته في مذكراته — بتحمس لكل ما سمعه من أقوال، فكان شعوره الشخصي مضافًا إلى شعور الشعب الروسي الذي كان يعتبر نفسه بمثابة الناقل لإرادته، هما ما ظهرا في جواب ميشو الذي قال: يا صاحب الجلالة، إن جلالتكم في هذه اللحظة توقعون على مجد الأمة وخلاص أوروبا.

فصرفه الإمبراطور بإشارة من رأسه.

الفصل الرابع

مهمة روستوف

نحن نتصور رغم أنفسنا، لأننا لم نعشْ في تلك الفترة التي كانت نصف مساحة روسيا محتلة، وكان سكان موسكو يفرون منها إلى أعماق الأقاليم النائية، وذوو الشأن يجندون الرجال على نطاق واسع للدفاع عن البلاد؛ أن كل الروسيين، من أحطهم قدرًا حتى أرفعهم شأنًا، ما كانوا يفكرون إلا في التضحية بأنفسهم في سبيل إنقاذ الوطن أو البكاء على ضياعه. والواقع أن كل الروايات عن تلك الحقبة، دون استثناء، مليئة بأعمال التفاني والحب الوطني واليأس والمرارة والبطولة بين الروسيين، لكن الحقيقة لم تكن هذه. إن الأمور تتخذ هذا الشكل لأننا لا نرى في الماضي إلا جانبه التاريخي، الذي يجعلنا نتغاضى عن الجانب الإنساني وعن المصالح الشخصية للأفراد، إن المصالح الشخصية تأخذ في حينه معنى يختلف في شدة أهميته عن معنى الصالح العام دون أن يشعر بذلك أحد. لم يكن السواد الأعظم من أناس ذلك العصر يدركون سير الأحداث لشدة انشغالهم بمصالح الساعة الخاصة، مع ذلك فإن هؤلاء الناس أنفسهم هم الذين كانوا باعثي تلك الأحداث الحقيقيين.

كان أولئك الذين يحاولون فهم سياق الأحداث، والذين يريدون المساهمة فيها بعقلية تجنح إلى التضحية وأعمال البطولة؛ الأعضاء الأقل نفعًا في المجتمع، كانوا يرون الأشياء على عكس ما يراها الآخرون فيبدو ما يعملونه بنية حسنة أشبه بالتفاهة والبلاهة، مثلًا فَيْلَقَا بيير ومامونوف ونهبهما للقرى الروسية، والنَّسِيل الذي كانت السيدات تعده والذي لم يكن يصل إلى الجرحى قط ... إلخ. بل إن أولئك الذين كانوا يحاولون إظهار فهمهم وعواطفهم وهم يناقشون موقف روسيا الحقيقي، كانوا يظهرون في أحاديثهم برغمهم تنويهًا، سواء بالتكلف أو بالمبالغة أو الكذب، أو يأتون بأحكام خبيثة لا طائل تحتها، فيدينون بعض الرجال حيث لا مجال لإدانة أحد. إن الأكثر بداهة في الأحداث التاريخية

هو ممنوعية لمس ثمرات شجرة العلم، والتصرفات اللاشعورية وحدها هي التي تبلغ درجة النضوج، أما الرجل الذي يلعب دورًا في حدث تاريخي فإنه لا يفقه قط مدلوله، وهو ما إن يحاول التعمق في فهمه حتى يجدبه فيصبح عقيمًا.

ولقد كان مدلول ما يحدث حينذاك في روسيا أقل وضوحًا بالنسبة إلى رجل يساهم فيه عن قرب منه بالنسبة إلى سواه، ففي بيترسبورج والأقاليم الواقعة على مسافة بعيدة من موسكو كان سادة وسيدات في زي المتطوعين الأنيق يتوجعون على مصير روسيا والعاصمة، ويتحدثون عن التضحية بحياتهم وأشياء أخرى، ولكن في الجيش الذي هجر موسكو ما كانوا يتحدثون عن موسكو تقريبًا ولا يفكرون فيها، بل إنهم حتى وهم ينظرون إلى الحريق ما كان أحد يقسم على الانتقام من الفرنسيين، لقد كان كلٌّ منشغلًا في الدفعة ثلث الشهرية المقبلة من راتبه والمرحلة القادمة، وفي ماتريوشكا بائعة المؤن … إلخ.

لقد كان نيكولا روستوف الذي فاجأته الحرب وهو يؤدي خدمته العسكرية لا يشعر قط بوجوب التضحية بحياته، مع ذلك فقد كان يضطلع بنصيب عملي في الدفاع عن وطنه، وينظر إلى الأحداث وهي تتعاقب في غير يأس ولا خُتم متشائمة، فلو سألوه رأيه عن موقف بلاده الحالي لأجاب بأنه ليس عليه أن يفكر فيه، وأن كوتوزوف وآخرين هم موجودون لمثل هذا العمل، ولكنه بالنظر إلى أنه سمع بإعادة تشكيل الفيالق والأفواج الناقصة، فإنه يعتقد بأنهم سيحاربون وقتًا آخر طويلًا، وأنه في الظروف الحاضرة لن يصعب عليه في غضون عامين آخرين أن يترأس فيلقًا.

وبفضل هذه الطريقة في تصور الأمور قَبِل بسرور مهمة السفر إلى فورونيج لاستكمال الخيول لفرقته، ليس أن يأسف على عدم استطاعته الاشتراك في المعركة الأخيرة فحسب بل وإنه أظهر ابتهاجه بالذهاب، ووجد زملاؤه ذلك منه طبيعيًّا تمامًا.

تلقَّى نيكولا قبل أيام قليلة من معركة بورودينو المال والأوراق اللازمة، وأرسل طليعة من الفرسان تسبقه، ثم استقل هو نفسه عربة البريد إلى فورونيج.

إن الذي مرت به هذه الظروف، أي الذي ظل خلال أشهر متتالية في جو الحرب وحياة المعسكرات، يستطيع وحده أن يفهم البهجة التي أحس بها نيكولا وهو يغادر منطقة الجيوش بنواجعها وقوافل الأرزاق فيها ومستشفياتها النقالة. ولما وجد نفسه بعيدًا عن الجنود وعربات النقل والنفايات المتخلفة عن المعسكرات، ورأى من جديد القرى عامرة بالفلاحين والفلاحات، وبيوت الأسياد والحقول حيث ترعى القطعان، ومنازل عربة البريد بنظارها نصف النائمين؛ استخفه الفرح وكأنه يرى هذه الأشياء للمرة الأولى. والذي

أدهشه وفتنه بذات الوقت كان مشهد النساء، كن فتيات صحيحات الأجسام لا يحيط بكل منهن «دزينة» من الضباط، سعيدات راضيات عن دعاباته كضابط عابر سبيل.

وصل نيكولا ليلًا إلى نُزُل فورونيج، وكان على أفضل مزاج فأمر لنفسه بكل ما كان محرومًا منه في الجيش، وفي اليوم التالي بعد أن أزال لحيته ارتدى أجمل ثوب لديه لم يكن قد لبسه منذ أمد طويل، ومَثَل لدى الحاكم.

بدا قائد المتطوعين، وهو جنرال مدني عجوز، مفتونًا حقًّا بثوبه ورتبته، استقبل نيكولا بوجه جاهم يعتقد أنه ضرورة ملازمة لمثل منصبه، وسأله بلهجة ذي النفوذ وكأن له الحق بالسؤال أو كان هناك لفحص الموضوع وتقبله أو رفضه. ولقد كان مزاج نيكولا على غاية من الصفاء حتى أن بعث المرح في نفسه.

انتقل إلى مكتب الحاكم بعد أن غادر قائد المتطوعين، وكان الحاكم رجلًا قصير القامة نشيطًا لطيفًا وبسيطًا، دلَّ نيكولا على المرابض التي يستطيع أن يحصل على الجياد منها، وزكَّى له وسيطًا ماهرًا في المدينة ومالكًا يقطن على بعد عشرين فرسخًا يستطيع أن يجد عنده أفضل الأفراس، وبالإيجاز قدم له الحاكم كل عون.

قال له وهو يستأذن في الانصراف عنه: أنت ابن الكونت إيليا أندرييفيتش؟ لقد كانت زوجتي صديقة حميمة لأمك، إنني أستقبل الزوار في بيتي كل يوم خميس، ولما كان اليوم يوم خميس فأرجو أن تحضر دون حاجة إلى رسميات.

ولدى خروجه من عند الحاكم استقل نيكولا عربة بريد، ومضى يصحبه رقيب طليعته لزيارته المالك على بعد عشرين فرسخًا ومعاينة خيوله، لقد كان كل شيء في بدء إقامته في فورونيج مسليًا وسهلًا بالنسبة إليه، وسار كل شيء على ما يُرَام بسبب مزاجه المشرق وحده.

كان المالك الذي ذهب نيكولا لزيارته ضابطًا قديمًا في سلاح الفرسان، عزبًا مُخْشَوْشِنًا، عليمًا خبيرًا بالجياد نقية الدم، صيادًا ومالكًا لكحول الخوخ الذي مر على تقطيره مائة عام، ولخمر هنغاري معتَّق وخيول أصيلة رائعة.

اشترى نيكولا دون مساومة سبعة عشر مهرًا منتقاة، كانت ستساعد على حد قوله في إبراز كتيبته الراكبة، ودفع ستة آلاف روبل. وبعد أن تناول طعامًا جيدًا أُتْرِعَت فيه الخمرة الهنغارية، عانق المالك الذي بات يخاطبه بصيغة المفرد، وعاد يجتاز طرقًا فظيعة دون أن يخسر شيئًا من مزاجه الرائق، وأخذ يحث سواقه باستمرار كي يصل في الوقت المناسب ويحضر سهرة الحاكم.

وبعد أن بلَّل رأسه بالماء البارد أبدل ثيابه وتعطر، ثم دخل بيت الحاكم رغم تأخره عن الموعد وفي رأسه هذه الجملة المعدة: التأخير أفضل من عدم الحضور.

لم تكن السهرة راقصة، كما لم يعلن أحد عن رقص خلالها، ولكن كل مدعوٍّ كان يعرف أن كايترين بيتروفنا ستعزف على بيانها مقطوعات فالس وإيقوسيات، وأنه بالتالي لا بد من الرقص، لذلك فقد توافدت السيدات في ثياب الرقص.

كانت حياة الأقاليم عام ١٨١٢ شبيهة تمامًا بالحياة المألوفة فيها، مع فارق واحد هو أن الحميا قد زادت في المدينة بسبب توافد أسر غنية عديدة من موسكو، وأنه كان يخيم في كل مكان — وهي ميزة اختص بها ذلك العهد التذكاري — إسراف كبير تبعًا للمثل القائل: بعدي الطوفان، وأنه بدلًا من المحادثات الفارغة حول المطر والصحو وصحة الأشخاص من المعارف التي لا بد عنها في مثل هذا الظرف؛ كان الحديث يدور حول موسكو والحرب ونابليون.

كان الأشخاص المجتمعون لدى الحاكم باقة مجتمع فورونيج.

كان هناك عدد كبير من السيدات عرف نيكولا كثيرات منهن في موسكو، ولكن لم يكن هناك رجل واحد ينافس فارس وسام القديس جورج فارس التعبئة اللامع وبنفس الوقت اللطيف المعتبر الكونت روستوف. وكان بين الرجال أسير إيطالي من الجيش الفرنسي، فشعر نيكولا بوجود هذا الأسير برفعة قيمته الشخصية بوصفه بطلًا روسيًّا، فكان ذلك بالنسبة إليه أشبه بالنصر والافتخار، ولما تمالكه هذا الشعور خُيِّل إليه أن كلًّا من الموجودين يرى الأمر كما يراه، لذلك فقد أظهر حيال الإيطالي غاية من التأدب المفعم بالحرص والترفع.

لم يلبث روستوف إثر دخوله في زي الفرسان، ناشرًا حوله موجات من العطر والخمرة الجيدة، وبعد أن كرر مرات عديدة عبارته «التأخر أفضل من التخلف» وأُعِيد ذكرها مرارًا؛ أن أُحِيط بجمع غفير وحَطَّت الأنظار كلها عليه فشعر فجأة بأنه مصطفى كل هؤلاء الإقليميين، الأمر الذي يكون مقبولًا دائمًا، والذي كان أكثر تقبلًا عنده بسبب حرمانه الطويل من ذلك الإحساس المسكر بالوقوع موقع الرضى في النفوس. ففي المراحل التي قطعها والمنازل التي حل فيها وكذلك لدى المالك المولع بالموسيقى، أُعجِبت الخادمات بالتفاتاته، أما هنا في سهرة الحاكم فقد راح عدد كبير من السيدات الشابات والأوانس — على ما بدا له — ينتظرن بصبر نافذ أن يتنازل بالالتفات نحوهن، كانت السيدات والأوانس يتحدثن بظرف معه، وبنفس الوقت لم يعد للكهول من شاغل إلا تزويج هذا

الفارس الأنيق، وكانت زوجة الحاكم نفسها في عداد هؤلاء؛ «ولقد استقبلت روستوف وكأنه أحد الأقارب المقربين، ولم تلبث أن راحت تخاطبه بصيغة المفرد وتناديه باسمه المجرد نيكولا.»

بدأت كايترين بيتروفنا بالفعل تعزف الفالس والإيقوسيات، وبدأ الرقص فأَسِر نيكولا ببراعته كل هذا الجمع من الإقليميين أكثر فأكثر، لقد أدهشهم بطريقته الطليقة الرشيقة في الرقص حتى إنه نفسه فوجئ باندفاعه، إنه لم يرقص قط مثل ذلك في موسكو، بل إنه كان قمينًا بأن يجد هذه الطريقة الطليقة مبتذلة ورديئة. لكنه هنا شعر بحاجته إلى إدهاش الموجودين جميعًا، وأن يعمل شيئًا خارقًا يعتبرونه ابتكارًا من العاصمة لم يبلغ الأقاليم بعد.

لم تتوقف أنظار نيكولا خلال السهرة كلها إلا على شقراء فاتنة سامنة، ذات عينين زرقاوين، كانت زوجة أحد الموظفين في المنطقة، وكان روستوف ممتلئًا بتلك الثقة الساذجة التي للشبان المشتطِّين في المرح، الذين يعتقدون أن نساء الغير صُنِعْن من أجلهم، لذلك فإنه لم يفارق تلك السيدة لحظة واحدة، وراح يعامل زوجها في ألفة أنيسة بل وفي شيء من التآمر، وكأنهما دون أن ينطقا به يعرفان مدى التفاهم الذي سيجمع بينه هو نيكولا وبين زوجة هذا الزوج. غير أن الزوج رغم ذلك لم يكن يبدو عليه أنه يشاطره هذا الاعتقاد قط، فكان يعمل جاهدًا على لقاء روستوف بوجه عبوس. لكن سلامة طوية نيكولا كانت متخطية كل حد، حتى إن الزوج كان أحيانًا يرى نفسه رغمًا عنه مدفوعًا إلى مشاطرته ذلك الاعتقاد. وفي تلك الأثناء كان وجه الزوجة يزداد حيوية وتضرجًا كلما شارفت السهرة على نهايتها، بخلاف وجه الزوج الذي كان يزداد كآبة ورزانة، وكأن جرعة البهجة محدودة كلما أوفت على جانب منها هبط مستوى المتبقي منها.

الفصل الخامس

مشروع زواج

استلقى نيكولا مبتهجًا على مقعده وقد أفرط في الاقتراب من المرأة الشقراء الشابة، وراح يغدق عليها كل أنواع الإطراء.

كان لا يني يعقد ساقيه ويبسطهما وهما ملفوفتان في سراويل ركوب ضيقة الأكمام، تفوح منه رائحة طيبة، يتأمل السيدة فخورًا بنفسه وبشكل حذائيه الأنيقين، يحدث الشقراء بأنه ينوي هنا في فورونيج اختطاف سيدة معينة.

– وأية سيدة؟

– أكثرهن فتنة وكمالًا، عيناها — ونظر نيكولا إلى جارته — زرقاوان وفمها مرجاني وبشرتها … — ونظر إلى كتفيها — وقامتها تشبه قامة ديانا …

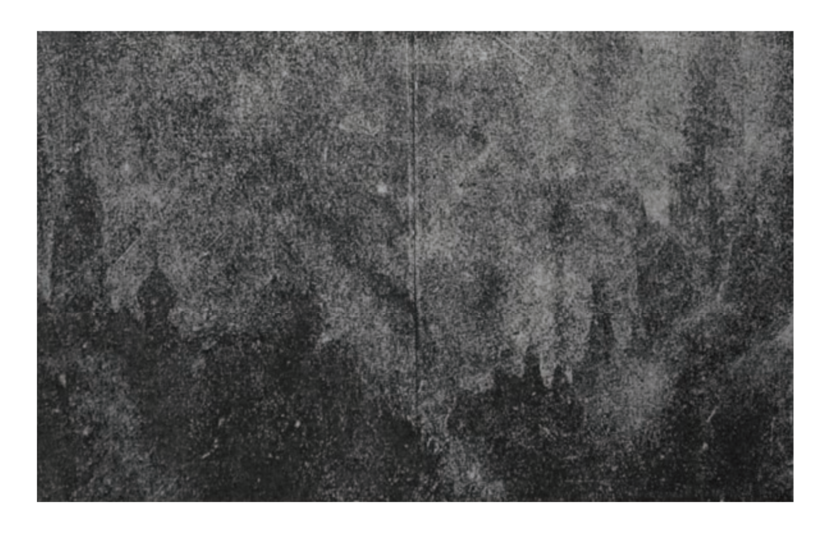
واقترب الزوج وسأل زوجته عن موضوع الحديث وهو كالح الوجه، فقال نيكولا وهو ينهض بأدب: آه! ها أنتذا يا نيكيتا إيفانيتش.

وكأنه كان راغبًا في إعلامه بفحوى دعابته، إذ راح يشرح له نيته في اختطاف شقراء معينة.

ضحك الزوج ضحكة مغتصبة والزوجة بانشراح، واقتربت ربة البيت العطوف وعلى وجهها أمارات لومه وقالت: إن آنَّا إينياتييفنا تود أن تراك، هيا يا نيكولا، إنك تسمح لي أن أناديك كذلك، أليس كذلك؟

وضغطت على كلمتَي آنَّا إينياتييفنا بشكل خاص، جعل روستوف يدرك على الفور أنها سيدة مهمة. قال يجيبها على سؤالها: بالطبع يا عمتاه، من هي؟

– هي آنَّا إينياتييفنا مالفنتسيف، ولقد تناهى إليها ذكرك عن طريق ابنة أختها التي أنقذتها … هل تخمن من هي؟



حريق موسكو.

هتف نيكولا: لقد أنقذت الكثيرات!

– إن ابنة أختها هي الأميرة بولكونسكي، إنها هنا في فورونيج مع خالتها، أوه! أوه! كم تضرج وجهك! هل هناك شيء ما؟ ...

– أبدًا، أوه! أبدًا يا عمتاه.

– هيا، حسنًا ... أوه! كم تبدو فتى مضحكًا!

قادته امرأة الحاكم قرب امرأة مديدة القامة ضخمة الجثة ترتدي قلنسوة زرقاء، كانت قد انتهت لتوها من لعب الورق مع أرفع شخصيات المدينة شأنًا، وكانت هذه هي السيدة مالفنتسيف خالة الأميرة ماري، أرملة غنية لا أولاد لها، تقضي العام كله في فورونيج، وكانت واقفة تدفع ديونها عندما اقترب روستوف، فنظرت إليه وهي تطرف بعينيها باهتمام، ثم استمرت تعرب عن استيائها للجنرال الذي هزمها في اللعب.

قالت وهي تمسك يده: تفتنني معرفتك يا عزيزي، أدخل السرور على نفسي بالمجيء لزيارتي.

وبعد أن فاهت ببضع كلمات عن الأميرة ماري وأبيها المرحوم الذي لم يبد عليها أنها تحبه، وبعد أن سألته عما إذا كانت لديه أنباء عن الأمير آندريه، الذي بدا هو الآخر غير مرضي عليه كل الرضى من طرفها، صرفته السيدة العجوز الرفيعة وهي تكرر دعوتها.

وعد نيكولا بأن يزورها، واحمرَّ وجهه مرة أخرى وهو ينحني للسيدة مالفنتسيف. كان يشعر وهو يسمع الحديث عن الأميرة ماري بشعور لا يستطيع تفسيره، شعور يمتزج فيه الارتباك بالخوف.

أراد نيكولا بعد أن غادر السيدة مالفينتسيف أن يلحق بجلبة الرقص لولا أن يد زوجة الحاكم السمينة انحطت على ذراعه، قالت له إن لديها ما تحدثه به، وقادته إلى مخدعها فلم يلبث الموجودون في المخدع أن خرجوا متسللين.

قالت زوجة الحاكم وعلى وجهها الصغير الطيب أمارات الجد: حسنًا يا عزيزي، هل تعرف تمامًا الزوجة اللازمة لك؟ هل تريد أن أتحدث باسمك؟

فاستعلم نيكولا: من هي يا عمتاه؟

– الأميرة. إن كايترين بيتروفنا تقول إن ليلي تناسبك، لكنني أرى أنا الأميرة أفضل، هل ترغب في أن أتدخل بالأمر؟ إنني واثقة من أن أمك ستشكرني، إنها فتاة فاتنة حقًّا! ثم إنها ليست دميمة إلى هذا الحد!

ردد نيكولا وهو يشعر بشيء من المهانة: مطلقًا! أنا يا عمتاه بصفتي عسكريًّا لا أطلب ولا أرفض شيئًا أبدًا. ولقد أضاف هذه العبارة دون أن يدع لنفسه وقتًا للتفكير فيما يقول.

– حسنًا، فكر إذن. إنها ليست دعابة.

– ما هو الذي ليس دعابة؟

قالت وكأنها تخاطب نفسها: كلا، كلا، ثم، في عرض الكلام يا عزيزي، إنك شديد الدأب بالقرب من الأخرى، الشقراء، إن الزوج يثير الشفقة حقًّا …

فاعترض نيكولا ببساطة قلبه: ولكن لا، لا، إننا أصدقاء ممتازون. ما كان يخطر له على بال أن هذه الطريقة بقضاء الوقت، المستحبة لديه كثيرًا، يمكن أن تكون غير ذلك بالنسبة إلى الآخرين.

حدث نيكولا نفسه فجأة خلال العشاء: «أية رعونة صدرت عني في حديثي مع زوجة الحاكم؟ إنها تريد أن تزوجني بجدع الأنف! وسونيا؟» ولما استأذن ربة البيت منصرفًا، وكررت له باسمة: «فكر في الموضوع جيدًا»، انفرد بها وقال: على أية حال يا عمتاه يجب أن أقول لك …

– ماذا يا صديقي؟ تعالَ من هنا لنجلس.

شعر نيكولا فجأة بالحاجة الملحة إلى الإفضاء بمكنونات نفسه إلى هذه المرأة المجهولة منه تقريبًا، وأن يقول لها ما لم يكن ليصرح به إلى أمه أو إلى أخته أو صديقه، ولما تذكر

فيما بعد هذه النوبة من الإخلاص التي لا يبررها مبرر، خُيِّل إليه — كما يبدو دائمًا — أنه ارتكب حماقة جسيمة، مع ذلك فإن هذه النوبة من الإخلاص إضافة إلى بعض الوقائع الصغيرة الأخرى، عادت عليه وعلى ذويه كلهم بنتائج جسيمة، قال: إليك الموضوع يا عمتاه، إن أمي تود منذ زمن بعيد أن تزوجني فتاة غنية، لكن هذه الفكرة وحدها تثير اشمئزازي، إنني لا أريد أن أتزوج كسبًا للمال.

فقالت زوجة الحاكم: أوه! إنني أفهم تمامًا.

– بيد أن الأميرة بولكونسكي شيء آخر؛ أولًا: أعترف لك بأنها تعجبني كثيرًا، إنها توافق قلبي، ومنذ أن قابلتها في ملابسات شديدة الغرابة ما زلت أفكر دائمًا في أنها مشيئة القدر. فكري معي: لقد كانت أمي تفكر فيها منذ زمن بعيد وأنا ما كنت أجد المناسبة لمقابلتها، ولست أدري كيف كان يقع ذلك، لكننا ما كنا نتقابل قط، وطالما كانت أختي ناتاشا مخطوبة لأخيها ما كنت أستطيع الاقتران بها، ولقد كُتِب ألا أقابلها إلا بعد أن فُصِمت عرى زواج ناتاشا، وبعد كل شيء ... نعم، كل ما ... إنني لم أتحدث بهذا قط إلى إنسان، ولست أريد التحدث عنه، إنك وحدك ...

ضغطت زوجة الحاكم على مرفقه بحركة متوددة.

– هل تعرفين ابنة عمي سونيا؟ إنني أحبها، ولقد وعدتها بالاقتران بها وسأتزوجها ...

ثم أعقب وهو متردد والحمرة تغزو وجهه: بذلك ترين أنه لا يجب التفكير في هذا الموضوع.

– يا عزيزي، يا عزيزي، ما هذا القول؟ ولكن تمعَّن، إن سونيا لا تملك شيئًا، وأنت نفسك تقول إن أمور أبيك في حالة سيئة، ثم أمك؟ إن مثل هذا الزواج سيقتلها، كن واثقًا من ذلك. أما فيما يتعلق بسونيا، ماذا ستكون حياتها إذا كانت ذا قلب حساس؟ أمك في يأس وثروتك في خطر ... كلا يا عزيزي، يجب أن تفهما الأمور سونيا وأنت.

صمت نيكولا إذ كانت هذه الاستنتاجات لا تروقه قط، قال بعد فترة صمت: على كل حال يا عمتاه إن هذا لا يمكن أن يكون، ثم هل ترغب الأميرة بي زوجًا ...؟ أضف إلى ذلك أنها في حداد، هل يمكن مجرد التفكير في الأمر؟

قالت زوجة الحاكم: وهل تتصور أنني سأزوجك من فوري؟ هناك وسيلة ووسيلة.

فقال نيكولا وهو يقبِّل يدها السمينة: يا لك من مزوِّجة بارعة يا عمتاه ...!

الفصل السادس

الزيارة الأولى

بعد لقائها بنيكولا روستوف، وجدت الأميرة ماري عند وصولها إلى موسكو ابن أخيها مع مربيه ورسالة من الأمير آندريه، يشرح لها فيها خط المسير لتصل إلى فورونيج عند عمتها مالفنتسيف. ولقد كبتت مشاغل الرحلة والقلق الذي تشعر به بسبب أخيها وإقامتها في مسكن جديد والوجوه الجديدة والعناية التي وجب أن تصرفها في تثقيف ابن أخيها، كل ذلك كبت في نفسها ذلك اللون من السأم الذي ناءت به طيلة فترة مرض أبيها وبعد موته، وخصوصًا منذ أن تعرفت على روستوف، لقد كانت حزينة، وكانت خسارة أبيها تختلط في قلبها بخسارة روسيا. والآن بعد أن قضت شهرًا في هدوء عميم، بات حزنها أشد إيلامًا من أي وقت مضى، كانت تشعر أنها مهمومة وفكرة الخطر الذي يتعرض له أخوها المخلوق الأقرب إليها الذي بقي لها لا تني تعذبها. وكانت تُعنَى كل العناية بتثقيف ابن أخيها، وهي المهمة التي ما فتئت تعتبر نفسها عاجزة عن إنجازها، لذلك فقد اتخذت في أعماق نفسها قرارًا بخنق الأحلام والآمال التي أيقظها لقاؤها مع روستوف في نفسها.

في اليوم التالي للسهرة جاءت زوجة الحاكم إلى بيت السيدة مالفنتسيف، وتناقشت معها في خططها بعد أن أخطرتها بأن الأمر في الظروف الحاضرة لا يعني خطوبة رسمية، بل مجرد الجمع بين الشابين والسماح لهما بالتعارف، ولما حصلت على موافقة الخالة راحت زوجة الحاكم تتحدث عن روستوف أمام ماري فتمتدحه، وتروي كيف أنه تضرج وجهه عندما نطقت باسم الأميرة. أما ماري فقد شعرت بضيق بدلًا من شعورها بالفرح، لأن عزمها القلبي أخذ ينهار من جديد ليترك المجال للرغبات والشكوك واللوم والآمال.

ظلت الأميرة ماري خلال اليومين التاليين تنتظر زيارة روستوف، وهي لا تني تفكر في الموقف الذي ستتخذه حياله، فحينًا تقرر أن لا تظهر في البهو عندما يحضر لزيارة خالتها، لأنه لا يليق بها أن تتقبل الزيارات بسبب حدادها، وحينًا تفكر أن ذلك سيكون

غلطة من جانبها بعد الذي عمله من أجلها، تارة تواتيها فكرة أن لخالتها ولزوجة الحاكم وجهات نظر معينة تتعلق بها وبروستوف، إذ كانت نظراتهما وأقوالهما تؤيد هذا الافتراض أحيانًا، وتارة تحدث نفسها بأنها مخطئة بالتفكير على هذا النحو: ألا يجب أن تفكر هاتان السيدتان بأن أفكارًا تتعلق بالزواج تُعتَبر، وهي في وضعها الراهن لم تنزع بعد شارة الحداد، إهانة ليس لها فحسب بل لذكرى أبيها كذلك؟ وعندما تفكر أنها تتقدم نحوه كانت الأميرة ماري تسمع سلفًا الكلمات التي سيقولها والتي ستجيبه بها، فكانت تلك الكلمات تبدو لها تارة على جمود لا يُحتمَل، وطورًا حافلة بشتى المعاني. وفضلًا عن ذلك، كانت تخاف الاضطراب الذي تشعر به والذي سيستولي ولا بد عليها فيفضحها للنظرة الأولى.

ولكن عندما جاء الخادم إلى البهو بعد صلاة يوم الأحد يعلن قدوم الكونت روستوف، لم تظهر الأميرة ماري أي ارتباك باستثناء الحمرة الخفيفة التي صبغت وجنتيها والتماع عينيها ببريق أشد وميضًا.

سألت الأميرة ماري بصوت هادئ، وقد دُهِشت هي نفسها لقدرتها على الظهور بمثل هذا السكون وعلى مثل هذا المظهر الطبيعي: هل رأيتيه من قبل يا خالتي؟

دخل روستوف إلى الحجرة فخفضت الأميرة رأسها وكأنها تتيح الوقت للزائر لتقديم مجاملاته إلى خالتها، ثم رفعت جبهتها في اللحظة نفسها التي استدار فيها نحوها فلاقت عيناها المتوهجتان نظرته، نهضت بابتسامة مرحة ومدت له يدها الدقيقة الرخصة بحركة كيسة جديرة بها، وراحت تتحدث بصوت اهتزت فيه لأول مرة نبرات نسوية وعميقة، فنظرت الآنسة بوريين التي كانت موجودة في البهو إلى الأميرة ماري بدهشة، لأن أية غنية ماجنة ما كانت تستطيع التصرف على نحو أفضل لدى ظهور رجل تريد أن تروق في عينيه.

تساءلت الآنسة بوريين: «أهو اللون الأسود الذي يناسب وجهها، أم تُراها اكتسبت جمالًا دون أن ألاحظ؟! من أين لها بهذا الظرف وهذه اللباقة؟!»

ولو أن الأميرة ماري كانت في تلك اللحظة في حالة تفكير، لدُهِشت أكثر من الآنسة بوريين نفسها للتغيير الذي طرأ عليها، لم تكد ترى ذلك الوجه الفتان الذي تحبه حتى تملكتها حياة قوية جديدة، وجعلتها تتصرف وتتحدث تبعًا لقوتها، لقد تحول وجهها فجأة ودبت الحياة في تقاطيعها، كمثل زجاج مصباح رسم عليه فنان خطوطًا خشنة قاتمة ومحرومة من أي معنى، لا يكاد يضيء داخله حتى تأخذ تلك الخطوط مظهرًا أخَّاذًا

بجماله، كذلك أصبحت تقاطيع الأميرة ماري جديدة في مظهرها، لقد بزغ إلى فجر الحياة لأول مرة ما كان يعتلج في روحها النقية من إحساسات قلبية، أخذت حياتها النفسية كلها وكل ما يسبب عذابها وآلامها واندفاعاتها نحو الخير والضراعة والحب والتضحية، كل ذلك أخذ يتألق الآن في عينيها المشعتين وفي ابتسامتها وفي كل قسمة من قسمات وجهها الحاني.

ولقد أحس روستوف بذلك إحساسًا مسبقًا، بلغ من شدة وضوحه أنه بدا كأنه عرف حياة الأميرة ماري كلها، أدرك أن المخلوقة الماثلة أمامه تختلف كل الاختلاف عن كل من صدفهن في حياته حتى الآن، وأنها أفضل منهن جميعًا وبصورة خاصة أفضل منه هو.

لبثت المحادثة من أكثر الأحاديث سطحية، تكلموا عن الحرب وهم يبالغون في إظهار غمهم دون تعمد أسوةً بكل الناس، وتكلموا عن مقابلتهم الأخيرة، فأظهر نيكولا لباقة ساعدته على الانتقال إلى موضوع آخر، فتحدثوا عن زوجة الحاكم وعن أقربائهم المتبادلين.

لكن الأميرة ماري لم تنبس بكلمة عن أخيها، بل سارعت بدورها تحول مجرى الحديث عندما نوَّهت خالتها بالأمير آندريه في سياق الكلام، وكان واضحًا أنها إذا كانت تستطيع أن تعبر عن آلام روسيا بعبارات اصطلاحية، فإن أخاها قريب جدًّا من قلبها حتى ليتعذر عليها أن تتحدث عنه في عرض الحديث. لاحظ نيكولا ذلك كما لاحظ بفراسة من قبل أن ذويه لا يمكن أن يخمنوا درجات نفسية الأميرة ماري، تلك الدرجات التي لم تزد إلا رسوخ الاعتقاد فيه بأنها امرأة ممتازة تمامًا. لقد كان نيكولا يحس بمثل إحساس الأميرة ماري، لذلك كان يضطرب ويتضرج وجهه احمرارًا كلما ذكروا الأميرة أمامه، بل وكلما فكر فيها، لكنه في حضرتها كان يشعر بارتياح تام ويقول ما يتوارد في ذهنه بساعته وليس ما أعد من قبل، ويجد دائمًا الكلمة المناسبة الصحيحة.

خلال زيارته القصيرة اقترب نيكولا في فترة صمت من ابن الأمير آندريه الصغير كما هي العادة دائمًا كلما وُجِد في المكان أطفال، ولاطفه وسأله عما إذا كان يحب أن يصبح فارسًا، ثم حمله بين ذراعيه وجعله يقفز ببهجة، وألقى نحو الأميرة ماري نظرة مختلسة، وكانت هذه تتبع الطفل الذي تحبه بنظرة حانية سعيدة خجلى، وهي بين ذراعي الرجل الذي تحبه، فلاحظ نيكولا تلك النظرة واحمرَّ وجهه من السرور، وكأنه أدرك كنهها ثم قبَّل الصغير من كل قلبه.

ما كانت الأميرة ماري تخرج بسبب حزنها، فقدر نيكولا أنه ليس من المناسب تكرار الزيارة، لكن زوجة الحاكم لم تكف عن تدابيرها الخاصة بالزواج، وظلت تردد أمام نيكولا ما قالته الأميرة عنه من كلام مفتن، وللأميرة ما يقوله روستوف، وهي تلح دائمًا

على روستوف أن يصارحها برغبته، بل إنها نظمت لبلوغ هذه الغاية لقاءً للشابين عند رئيس الكهنة قبل القداس.

ورغم أن روستوف أخطر زوجة الحاكم بأنه لن يعرب عن عزمه للأميرة ماري في ذلك اللقاء، فإنه وعد بالحضور.

ووقع الأمر كما قدر عندما لم يسمح روستوف لنفسه أن يشك في جودة وسمو ما يراه كل شخص كاملًا، وبعد صراع قصير ولكن مخلص بين الرغبة في تسوية حياته بشكل معقول والخضوع المتوجب عليه للظروف، اختار الجانب الأخير واستسلم للقدر الذي كان يجرفه بقوة لا تُقَاوَم كما كان يشعر. وكان يعرف أن إعلان عواطفه للأميرة ماري بعد وعوده لسونيا، يُعتبَر نذالة من جانبه، ويعرف كذلك أنه لن يكون قط نذلًا، لكنه كان يعرف أيضًا من أعماق نفسه أنه إذا ترك الأشخاص يعملون والأشياء تجرفه إلى الأمام، فإنه لا يرتكب بذلك سوءًا بل على العكس ينجز شيئًا بالغ الخطورة، خطيرًا لدرجة لا يمكن مقارنة كل ما عمله في حياته به.

لم يبدِ أي تغيير على شكل حياته الخارجي بعد مقابلته مع الأميرة ماري، مع ذلك فإن كل ما كان يفتنه من قبل أخذ يفقد فتنته. كان يفكر فيها غالبًا، مع ذلك لم يكن تفكيره في الأميرة ماري كمثل طريقته في التفكير بكل الفتيات اللاتي قابلهن في المجتمع، كما أنه لم يكن يشعر حيالها بالهوَس الذي استولى عليه لفترة ما نحو سونيا. كان ككل الشبان الشرفاء تقريبًا، عندما يفكر بفتاة يرى فيها الزوجة المنتظرة ويميز في خياله شروط حياته العائلية:

الزوجة الجالسة قرب السماور في ثوب منزلي أبيض، عربة السيدة، الأولاد الذين يقولون ماما وبابا، تعلق أحدهم بالآخر … إلى آخر ما هنالك. وكانت هذه اللوحات عن المستقبل تملؤه بالارتياح. لكنه عندما كان يفكر في الأميرة ماري التي يريدون أن يزوجوه بها، لم يكن يستطيع أن يتخيل أية حياة زوجية؛ فكلما حاول التخيل بدا له كل ما أقامه خطأً وفي غير محله، فكان ذلك يترك في نفسه شعورًا بالقلق العميق.

الفصل السابع

حرية نيكولا

بلغت أنباء معركة بورودينو الرهيبة وخسائرنا الجسيمة بين قتلى وجرحى وكذلك إعلان خسارة موسكو؛ مدينةَ فورونيج في أواسط أيلول، وعلمت ماري عن طريق الصحف بجرح أخيها، ولما كانت لا تعرف عنه شيئًا دقيقًا فقد استعدت للسفر بحثًا عنه كما تناهى إلى نيكولا الذي لم يرها حين ذلك.

أما روستوف فإن نبأ معركة بورودينو وهجران موسكو لم يحدث فيه يأسًا ولا غضبًا ولا رغبة في الانتقام ولا أي شعور آخر من هذا النوع، لكنه أحس فجأة بسأم في فورونيج وأنه ليس في مكانه ولا كما يشتهي، فكانت المحاضرات التي يسمعها حول هذا الموضوع تبدو له نشازًا، ما كان يعرف كيف يفكر في تلك الحال، لكنه كان يظن أن الأمور ستنجلي له حال عودته إلى فوجه، لذلك فقد عجَّل في الانتهاء من شراء الجياد وهو يتبرم كيفما اتفق من خدمه ورقيب كوكبته.

أقيم قبل سفره ببضعة أيام قداس جليل في الكاتدرائية احتفالًا بنصر الجيوش الروسية حضره نيكولا، اتخذ لنفسه مكانًا وراء الحاكم قليلًا وعلى سيماه خطورة مصطنعة، وحضر الاحتفال الديني وهو يفكر في شيء مختلف تمامًا. فلما انتهى القداس استدعته زوجة الحاكم وسألته وهي تشير إلى شبح في ثياب سوداء وراء جوقة المرتلين: هل رأيت الأميرة؟

عرف نيكولا على الفور الأميرة ماري ليس بصورة وجهها الجانبية التي بدت تحت القبعة فحسب، بل كذلك من شعور التحفظ والوجل والحنان الذي استبد به، وكانت على صدرها شارات الصليب الأخيرة قبل خروجها من الكنيسة وهي غارقة في انشغالها.

دُهِش لمرأي وجهها، لقد كان ذلك الوجه نفسه الذي يعرفه والذي نُقِشت عليه الأحاسيس الداخلية، لكنه كان مشعًّا بضوء مختلف، إنه يحمل أمارات الحزن المؤثرة

والصلاة والأمل. وكما وقع له من قبل في حضرة الأميرة ماري لم ينتظر نيكولا موافقة زوجة الحاكم ليقترب نحوها، كما لم يتساءل عما إذا كانت الآداب واللياقة تسمح له بالدنو من الأميرة ماري في صلب الكنيسة، بل مضى إليها وقال لها إنه علم بمصيبتها الحديثة، وإنه يشاطرها الأسى من كل جوارحه.

ولم تكد تسمع صوته حتى أضاء وجهها نور متوهج، نور أضاء حزنها وسرورها معًا. قال روستوف: كنت أعتزم أن أقول لك يا أميرة بأن الأمير آندريه نيكولا ييفيتش يرأس فوجًا، وأنه لو فقد حياته لنشرت الصحف ذلك.

نظرت إليه الأميرة دون أن تدرك كنه أقواله، وهي شديدة السعادة بالحماسة التي قرأتها على قسمات وجهه.

أضاف روستوف: وأعرف أمثلة كثيرة كانت فيها الجروح التي تحدثها القذائف — وكانت الصحف تدعوها القنابل — إذا لم تقتل لفورها تبدو على العكس طفيفة، يجب التأمل بالأفضل وإنني واثق أن …

فقاطعته الأميرة ماري وشرعت تقول: أوه! سيكون ذلك شديد الهو … لـ…!

وأطرقت برأسها بحركة كيِّسة ككل الحركات التي تصدر عنها في حضوره، وقد منعتها شدة التأثر عن إتمام جملتها، ثم ألقت عليه نظرة عرفان وتبعت خالتها.

لم يذهب نيكولا ذاك المساء في زيارة إلى أي مكان، بل عكف في غرفته على ترتيب حساباته مع باعة الخيول، فلما فرغ من أعماله كان الوقت متأخرًا جدًّا للخروج ومبكرًا جدًّا للنوم، لذلك فقد ظل يذرع غرفته وهو يفكر في مقدَّره، الأمر الذي ندر أن وقع له مثله.

لقد أحدثت فيه الأميرة ماري من قبل أثرًا عنيفًا في سمولنسك، ولقد أدهشته الظروف الخاصة التي التقى بها فيها، هي التي عنتها أمه على اعتبارها أغنى زوجة يمكن الحصول عليها، لذلك فقد راح يتأمل الفتاة بعناية خاصة، وفي فورونيج لم تترك زيارته لها ذكرى مستحبة في نفسه فحسب، بل تركت كذلك تأثيرًا قويًّا. لقد حرك مشاعره جمالها الخاص الجمال الخلقي الذي اكتشفه فيها، وها هو ذا يستعد للرحيل دون أن تواتيه فكرة الأسف على مغادرته المدينة لأنه سيُحرَم من رؤيتها. لكن اللقاء الذي جرى له معها في الكنيسة، كان ينقش صورة الأميرة في قلب نيكولا — وهو الذي لمس ذلك — نقشًا عميقًا أكثر مما كان يتوقع، نقشًا أعمق مما كان يرجوه لراحته … كان ذلك الوجه الدقيق الشاحب الحزين وتلك النظرة المشعة والحركات الموزونة المليئة بالانسجام وذلك الفم الضعيف العميق الذي تنطق به قسماتها؛ كل ذلك كان يهز نيكولا ويستفز ميله، ما كان يستطيع

احتمال رؤية دلالة تفوق فكري على وجه رجل — وهذا هو سبب امتناعه عن حب الأمير آندريه — كما كان يحس بالاحتقار لكل ما يدعوه فلسفة ولكل أصحاب الأوهام. لكن الحزن عند الأميرة ماري كان ينم عن عمق هذا العالم الفكري المجهول منه، هذا العالم الذي يجذبه بقوة لا تُقَاوَم.

حدَّث نفسه: «لا ريب أنها فتاة مدهشة! ملك حقيقي! لماذا لست حرًّا؟ لماذا تعجَّلت إلى هذا الحد مع سونيا؟!» وراح رغمًا عنه يقارن بين الفتاتين؛ ففي الواحدة فقرها بهذه المواهب الفكرية التي يقدرها بقدر ما تنقصه هو شخصيًّا، وفي الأخرى ثروتها منها. أخذ يحاول أن يتمثل ماذا كان سيتم لو وجد نفسه حرًّا من كل قيد؛ كيف كان سيعلن عن حبه لها؟ كيف كانت ستصبح زوجته؟ ولكن ما فائدة التفكير فيها؟ كان يشعر بالانزعاج فكانت هذه الصور كلها تختلط أمام عينيه، لقد كانت لوحة حياته المقبلة مع سونيا مخطوطة منذ أمد طويل، وكل شيء فيها بسيط وواضح، لأن كل شيء متوقع فيها، ولأنه لا يجهل شيئًا عن ابنة عمه، في حين أنه مع الأميرة ماري عاجز عن تكوين صورة للمستقبل، إنه لا يفهمها بل يحبها فحسب.

أن يحلم في سونيا أمر مبهج يشبه اللعب، أما أن يحلم في الأميرة ماري فشيء صعب بل ومخيف بعض الشيء.

حدَّث نفسه: «كيف كانت تصلي؟! كان واضحًا أن روحها كلها تنساب في صلاتها، صحيح أن الإيمان ينقل الجبال وأنني واثق من صلاتها ستُقبل، لماذا لا أسأل الله أنا الآخر ما أنا في حاجة إليه؟ ولكن ما هي حاجتي؟ أن أكون حرًّا، أن أفصم علاقتي مع سونيا، لن ينجم عنها إلا ما يؤسِّي: الارتباكات المالية، حزن «ماما» ... هذه الهموم ... متاعب، متاعب رهيبة، ثم إنني لا أحبها في أعماق نفسي، كلا، لا أحبها كما ينبغي، آه! يا ربي أخرجني من هذا المأزق البشع الذي لا مخرج له!» وقال فجأة وهو يبتهل رغم أنفه: «نعم، إن الإيمان ينقل الجبال، ولكن يجب أن تكون النفس مشبعة به لا أن نصلي كما نفعل نحن ناتاشا وأنا عندما كنا طفلين، وكنا نسأل أن يصبح الثلج سكَّرًا فما إن تنتهي الصلاة حتى نُهْرَع إلى الفناء لنرى ما إذا كان الثلج قد تحول إلى سكر أم لا. كلا، ليست هذه التفاهات هي ما يجب أن أسأله الآن.» بذلك كان يحدِّث نفسه وهو يضع غليونه في ركن ويمضي أمام الصور المقدسة فيقيم معقود اليدين، ولقد تحنن لذكرى الأميرة ماري فراح يصلي كما لم يفعل منذ أمد طويل، وكانت الدموع تنبجس من عينيه وتتصاعد إلى حلقه عندما فتح لافروشا الباب وفي يديه بعض الأوراق.

هتف نيكولا وهو يبدل وضعيته بسرعة: أيها الغبي، ماذا دهاك حتى تدخل عندما لا يدعوك أحد؟!

فقال لافروشا بصوت خامل: إنه من لدن الحاكم. لقد وصل بريد يحمل رسالتين لك.

– حسنًا، حسنًا جدًّا، شكرًا يمكنك أن تذهب.

أخذ نيكولا الرسالتين، كانت الواحدة من أمه والثانية من سونيا، وبعد أن تعرف على الخطوط فض رسالة سونيا بادئ الأمر، شحب وجهه لدى تلاوة السطور الأولى، وجحظت عيناه من الخشية والفرح، وقال بصوت مرتفع: كلا، هذا لا يمكن أن يكون!

عجز عن البقاء في مكانه فراح يذرع الغرفة والرسالة في يده يقرؤها، تصفحها بادئ الأمر ثم قرأها مرة وأعاد تلاوتها، وأخيرًا تسمَّر في مكانه متأرجح الذراعين فاغر الفم شاخص العينين، إن ما طلبه منذ حين مع كامل الثقة بأن الله سيستجيبه قُبِل فكان ذهوله شديدًا، إن في هذا الأمر شيئًا ما كان يستطيع أن يتوقعه، ولكن السرعة التي استُجيب طلبه بها دلَّت على أن الأمر بدلًا من أن يكون تدخلًا ربانيًّا بات مجرد صدفة.

على ذلك، فقد بدا أن تلك العقدة المستعصية على الحل التي كانت تربط حرية نيكولا قد انحلت من تلقاء نفسها في هذه الرسالة غير المنتظرة التي جاءته من سونيا، تلك الرسالة التي لم يكن هناك ما يشير إليها، أو على الأقل هذا ما يراه نيكولا. كانت تخبره في رسالتها أن مصائب الأيام الأخيرة وضياع كل مقتنيات أسرة روستوف في موسكو والرغبة التي أبدتها الكونتيس مرارًا في أن تراه يتزوج الأميرة بولكونسكي، وسكوتها وبرودها في الأيام الأخيرة؛ كل ذلك دفعها إلى أن تقرر حله من الوعد الذي قطعه على نفسه، وأن تعيد له الحرية المطلقة.

كتبت:

> وإنه سيؤلمني جدًّا أن أفكر بأنني يمكن أن أصبح سببًا للغم أو للتجافي في أسرة أنا مدينة لها بكل شيء، ثم إن غرامي يستهدف شيئًا واحدًا سعادة من أحب، لذلك فإنني أتوسل إليك يا نيكولا أن تعتبر نفسك حرًّا رغم أن ما من أحد يمكنه أن يحبك أكثر من سونياك.

كانت الرسالتان صادرتين من تروئيتسا، ورسالة الكونتيس تصف الأيام الأخيرة التي قضتها الأسرة في موسكو وسفرها والحريق وضياع مقتنياتهم، مع ذلك فإن الكونتيس

كانت تقول في تلك الرسالة إن الأمير آندريه وعددًا كبيرًا من الجرحى يسافرون معهم، وإن الأمير آندريه في حالة شديدة الخطورة ولكن الطبيب يؤكد أن هناك الآن أملًا قويًّا في شفائه، وأن سونيا وناتاشا تقومان على تمريضه.

مضى نيكولا غداة اليوم التالي حاملًا رسالة أمه إلى الأميرة ماري، لم يعلق هو ولا هي على التنويه الذي تحويه عبارة «ناتاشا تقوم على تمريضه»، مع ذلك فإنهما شعرا بتقارب بفضل هذه الرسالة، بل وأشبه بالأقرباء.

وفي اليوم التالي رافق روستوف الأميرة ماري إلى أيا روسلاف، ثم لحق بفوجه بعد بضعة أيام.

الفصل الثامن

أسباب رسالة سونيا

كانت رسالة سونيا التي استجابت لأماني نيكولا مرسلة من ترويئيتسا، وفيما يلي كيف حدث الأمر: باتت فكرة رؤية ابنها يقترن بوارثة غنية، تزيد في تعذيب الكونتيس العجوز وإيلامها يومًا بعد يوم، وكانت تعرف أن العائق الرئيسي هو سونيا، وقد أصبحت حياة سونيا خلال الأيام الأخيرة وخصوصًا منذ أن أرسل نيكولا رسالة يذكر فيها أنه التقى بالأميرة ماري في بوجوتشاروفو؛ تزداد صعوبة، إذ إن الكونتيس ما كانت تترك سانحة إلا واستغلتها لتوجه إلى الفتاة المسكينة تنويهات جارحة بل وقاسية.

وقبل مغادرة موسكو بأيام استدعت الكونتيس — التي قلَّبتها الأحداث ظهرًا لبطن — سونيا إليها، وبدلًا من أن تطالبها بالتضحية وهي تبهظها بالتعنيف توسلت إليها باكية أن تعرب عن عرفانها بكل ما أسدوه إليها من جميل بفصم علاقاتها مع نيكولا، وأضافت: لن يهدأ لي بال قبل أن تعديني بذلك.

داهمت سونيا موجة من الدموع، وأجابت خلال نشيجها أنها ستعمل كل شيء وأنها مستعدة لكل شيء، ولكن دون أن تصرف الوعد القاطع وهي العاجزة في أعماق نفسها عن اعتزام ما يُفرَض عليها أن تضحي بنفسها في سبيل سعادة الأسرة التي أنشأتها وأطعمتها، وكان من عادتها أن تضحي بنفسها في سبيل الآخرين، ولقد كان مركزها في البيت على حال لا يصلح معه إلا نسيان ذاتها لإبراز قيمتها، لذلك فقد باتت تجد حجب نفسها دائمًا أمرًا طبيعيًّا. مع ذلك فإنها كلما قامت بتضحية كانت تجد البهجة في أن تقول لنفسها إنها عظمت في عيني نفسها وفي عيون الآخرين، وإنها بذلك تجعل نفسها أكثر جدارة بنيكولا الذي تحبه أكثر من كل الناس، أما الآن فإن ما يطلبونه منها هو هجران المكافأة على تضحياتها، هجران كل ما له معنى في حياتها. وللمرة الأولى في حياتها شعرت بالمرارة حيال هؤلاء الناس الذين لم يغدقوا عليها إحسانهم إلا ليزيدوا في عذابها،

شعرت بالغيرة من ناتاشا التي لم تحس قط بمثل هذا الإحساس، والتي لم تعرض لها قط الحاجة إلى تضحية نفسها، والتي أرغمت الآخرين على أن يضحوا بأنفسهم من أجلها وظلت رغم ذلك تنعم بحب الجميع. وللمرة الأولى شعرت سونيا أن غرامها الهادئ الطاهر لنيكولا قد تحول فجأة إلى هوًى جامح يطغى على العقل والعرفان والدين، وبتأثير هذا الهوى الجامح أجابت سونيا التي أَلِفت إخفاء كل شيء عن حياتها المستقلة على طلب الكونتيس بعبارات مبهمة وتحاشت كل تفسير، وقررت بينها وبين نفسها أن تنتظر نيكولا لا لتحرره من كلمته بل لتقترن به إلى الأبد.

ولقد غمرت رهبة الأيام الأخيرة التي قضاها آل روستوف في موسكو ومخاوفها أفكار سونيا القاتمة التي كانت تعذبها، ولقد أسعدها أن وجدت الخلاص في الأعمال المادية، لكنها لما عرفت بوجود الأمير آندريه في البيت استولى عليها رغم كل إشفاقها المخلص عليه وعلى ناتاشا شعورٌ خرافي ومنعش، إن الله لا يريدها أن تفترق عن نيكولا. كانت تعرف أن ناتاشا تحب الأمير آندريه وأنها لم تكفَّ عن حبه، وتعرف أنهما وقد اجتمعا الآن في مثل هذه الظروف المؤسية سيتحابان أكثر من أي وقت مضى، وأن نيكولا لن يستطيع حينئذ أن يتزوج الأميرة ماري بسبب روابط القرابة الجديدة التي ستجتمع بينهما — المعروف أن الديانة الأورثوذوكسية لا تسمح بالزواج بين أخوات الزوج وإخوان الزوجة — وعلى الرغم من كل هول ما كان يقع وصعوبات أيام السفر الأولى، فإن الثقة بأن القدرة الإلهية في سبيل التدخل في شئون سونيا الشخصية كانت تبهجها.

توقف آل روستوف في المرحلة الأولى من يوم سفرهم في دير الثلالون «ترينيتيه».

احتجزوا لهم في فندق الدير ثلاث غرف، احتل الأمير آندريه واحدة منها، وكان الجريح ذاك اليوم في حالة أفضل من حالته في الأيام السابقة وناتاشا لا تبارح سريره. وفي الغرفة الملاصقة كان الكونت والكونتيس يتحدثان باحترام مع رئيس الدير الذي جاء يزور معطِيه القدماء وأصدقاءه. وكانت سونيا هناك أيضًا تتحرق فضولًا وتتساءل عما يتحدث به الأمير آندريه مع ناتاشا، إنها تسمع جلبة صوتيهما خلال الباب. وفجأة فُتِح ذلك الباب وتقدمت ناتاشا منقلبة الأسارير، اقتربت من سونيا دون أن تلاحظ الرئيس الذي نهض ليتقدم نحوها ويباركها وهو يمسك بيسراه كم جبته العريض ويبقيه فوق ذراعه اليمنى، وأمسكت بيدها، فقالت الكونتيس: ناتاشا، هه؟ تعالي إلى هنا.

فاقتربت ناتاشا وتلقَّت مباركة الرئيس الذي سألها أن تلتمس عون الله وقديسه — لأن الدير يحوي مومياء القديس سيرج.

وما إن خرج حتى أخذت ناتاشا بيد صديقتها وذهبت معها إلى الغرفة غير المسكونة، هتفت: سونيا، هل صحيح؟ سيعيش؟ سونيا، كم أنا سعيدة وبنفس الوقت تعيسة! سونيا يا عزيزتي، إن الحال كما كانت عليه من قبل تمامًا، ليعِشْ فقط، ولن يستطيع … لأن … لأن …

وقطعت العبرات صوتها، فقالت سونيا: آه! نعم، كنت أعرف ذلك، حمدًا لله! سوف يعيش!

لم تكن سونيا أقل تأثرًا من صديقتها التي كانت أحزانها ومخاوفها تختلط بالأفكار التي ما كانت تستطيع الإعراب عنها أمام أحد، عانقت ناتاشا وواستها وهي مجهشة وراحت تفكر: «المهم هو أن يعيش!» وبعد أن بكتا وثرثرتا ما طاب لهما مسحت الصديقتان دموعهما واقتربتا من باب الأمير آندريه ففتحته ناتاشا بهدوء ونظرت داخل الحجرة، وألقت سونيا التي ما زالت بجانبها خلال الباب الموارب.

كان الأمير آندريه مستريحًا على ثلاث وسائد، ووجهه الشاحب هادئًا وعيناه مغمضتين، وقد اتضح أن تنفسه منتظم. قالت سونيا بصوت أقرب إلى الصراخ وهي تمسك بابنة عمها من ذراعها وتبتعد عن الباب: آه! ناتاشا.

سألت ناتاشا: ماذا بك؟ ماذا بك؟

– إنه لكذلك، كذلك تمامًا …

فقالت سونيا ممتقعة الوجه مضطربة الشفتين: أغلقت ناتاشا الباب برفق، وقادت سونيا قرب النافذة دون أن تفهم ما أرادت أن تقول.

قالت سونيا وعلى وجهها أمارات الذعر والجلال: هل تذكرين عندما نظرت في المرآة من أجلك … في أوتراندويه مساء عيد الميلاد؟ … هل تذكرين ماذا رأيت؟

فقالت ناتاشا وقد اتسعت عيناها: نعم، نعم.

تذكرت بإبهام أن سونيا قالت لها حينذاك شيئًا ما بصدد الأمير آندريه الذي رأته مستلقيًا.

استأنفت سونيا: هل تذكرين؟ لقد رأيته حينذاك، وذكرت ما رأيت لكل الناس، لك ولدونياشا، لقد رأيته في سرير — وراحت تضغط على الكلمات وترفق كل كلمة بحركة من يدها وسبابتها مرفوعة — رأيته في سرير وعيناه مغمضتان، يغطيه غطاء وردي كما هو الآن تمامًا، ويداه معقودتان.

كانت سونيا مقتنعة أنها وهي تصف تفاصيل ما رأته منذ حين إنما تصف ما شاهدته في المرآة ذلك اليوم، في حين أنها لم ترَ شيئًا مطلقًا ولم تقصص إلا ما طاف

بخيالها حينذاك. لكن ما تخيلته بدا لها على مثل حقيقة الذكرى، زعمت حينذاك أنه نظر إليها باسمًا وأنه كان مغطى بشيء أحمر، أما الآن فقد أصبحت واثقة من أنها قالت ورأت أنه مغطى بغطاء وردي هذا الغطاء الوردي بالتدقيق، وأن عينيه كانتا مغلقتين.

هتفت ناتاشا التي باتت هي الأخرى تظن الآن أنها تذكر أن سونيا أخبرتها حينذاك عن هذا الغطاء الوردي، والتي أصبحت ترى في هذه الواقعة تنبئة خارقة في الغموض: نعم، نعم، وردي، صحيح.

ثم سألت ساهمة: ماذا يمكن أن يكون معنى هذا؟

أجابت سونيا وهي تمسك برأسها بين يديها: آه! لست أدري شيئًا، لكنه أمر مثير.

وبعد دقائق، قرع الأمير آندريه الجرس فعادت ناتاشا إلى قربه، وظلت سونيا التي نادرًا ما شعرت بمثل هذا الانفعال واقفة أمام النافذة تفكر في مثل هذه الصدفة المذهلة.

وفي ذلك اليوم عرضت فرصة إرسال التحارير إلى الجيش، فكتبت الكونتيس لابنها … ثم قالت وهي تكف عن الكتابة عندما اقتربت سونيا منها: سونيا، سونيا، أليس لديك ما تقولينه لنيكولا؟

وارتعد صوتها عند طرح هذا السؤال، فقرأت سونيا في عينَي الكونتيس المتعبتين التي أخذت تنظر إليها خلال نظارتيها كل ما أرادت أن تقوله بهذا السؤال، كانت تلك النظرة تعبر عن توسل وخشية من الرفض، والخجل من وجوب طلبه، وأخيرًا الحقد الوشيك الذي لا يُنْسَى في حالة الرفض.

اقتربت سونيا من الكونتيس وركعت أمامها وقبَّلت يدها، ثم قالت: سأكتب لفوري يا أماه.

كانت سونيا مزعزعة متأثرة متحننة بسبب كل ما وقع أخيرًا، وخصوصًا تحت دلالة الأمس بذلك الشكل الغامض. أحست الآن، بعد أن أصبحت مصالحة ناتاشا مع الأمير آندريه تمنع نيكولا من الاقتران بالأميرة ماري، بفرح عودة ذلك الشعور بالتضحية الذي كان أليفًا لديها. ولقد كتبت الرسالة المؤثرة التي أدهشت نيكولا أيما دهشة، وهي تمسح أكثر من مرة الدموع التي تملأ عينيها السوداوين المخمليتين، وكلها ثقة بأنها إنما تقوم بعمل بطولي.

الفصل التاسع

الاستجواب الأول

عامل الضباط والجنود بيير في مركز الحرس حيث ساقوه معاملة عدائية لكنها لم تخل من الالتفات، فكان واضحًا أنهم يخافون أن يكون سجينهم شخصية كبيرة رغم حقدهم عليه بسبب العراك الذي أثاره معهم.

ولكن ما إن أزف الصباح حتى أُبدِل الحرس، فلاحظ بيير أن الضباط والجنود الجدد لم يعودوا يعاملونه بمثل المعاملة التي لقيها من الذين أوقفوه، كان هذا العملاق الطويل الضخم ذو معطف القرويين في نظرهم، ذلك الرجل القوي الذي اشتبك في معركة بالأيدي مع السلابين وجنود الدورية، والذي تحدث بلهجة مهيبة عن طفل أُنقِذ من النار وأصبح يُعرَف برقم ١٧ على لائحة السجناء الروسيين الذين أُوقِفوا بناءً على أمر القيادة العليا. فإذا كان فيه شيء ما خاص فلم يكن إلا تلك الرزانة التي تبدو على حركاته وذلك الفخار، ثم اللغة الفرنسية التي يتحدث بها بكمال وطلاقة تدهشان الفرنسيين أنفسهم. مع ذلك فقد أُلحق بالمشبوهين الآخرين منذ ذلك اليوم، لأن أحد الضباط طلب احتلال الغرفة الخاصة التي أُودِع فيها.

كان كل الروسيين الذين أُوقِفوا مع بيير أناسًا من طبقة منحطة عرفوا فيه كلهم سيدًا، فأخذوا يتحاشونه خصوصًا وأنه يتحدث اللغة الفرنسية، بل إن بيير سمعهم يتفكَّهون على حسابه فكان لذلك وقع أليم في نفسه.

وفي اليوم التالي عرف أن كل الموقوفين — وهو في عدادهم بلا ريب — سيُحَاكَمُون على اعتبارهم مشعلي حرائق. وفي اليوم الذي تلاه اُقْتِيدوا جميعًا إلى بناء يقيم فيه جنرال فرنسي أشيب الشاربين وزعيمان وفرنسيون آخرون يلفون الأشرطة حول أذرعهم، واستُجوِب بيير كالآخرين بتلك اللهجة الواضحة الدقيقة التي يستعملها عادة الرجال

المتجردون — زعمًا — عن كل ضعف بشري عندما يستجوبون متهمين؛ من هو؟ إلى أين كان يمضي؟ ماذا كانت غايته؟ … إلخ.

كانت تلك الأسئلة التي لا علاقة لها مطلقًا بصميم القضية، والتي تجعل أي إيضاح مستحيلًا لا تهدف إلا إلى دعم الاتهام ككل الأسئلة التي تُطرح في القضاء، وإلى تحويل أجوبة المتهم إلى الاتجاه المطلوب أي إلى الاعتراف بجرمه، فكلما شرع يقول شيئًا في غير صالح الاتهام كانوا يسارعون إلى إعادته نحو النقطة التي يريدون إيصاله إليها. أضف إلى ذلك أن بيير كان معرضًا للنهاية المشتركة التي تنتظر كل الموقوفين، فكان الهدف الذي ترمي إليه الأسئلة التي تُطرح عليه، وكان يستطيع أن يخمن أن الحيل التي يستعملها الاتهام ترجع إلى المجاملات أو إلى التأدب الذي يظهرونه حياله، وكان يعرف أنه رهن مشيئة هؤلاء الناس، وأنهم جاءوا به إلى هناك بالقوة، وأن القوة وحدها هي التي تقدر على مطالبته بأجوبة على أسئلتهم، وأن الغاية الوحيدة لهذه الجمعية إنما هي إعلان تجريمه. وبما أن القوة في يدهم وأنهم في حاجة إلى اتهام الناس، فإن بيير لم يكن يرى مبررًا للمكر الذي يستعملونه، من البديهي جدًّا أن كل جواب لا ريب سيُفَسَّر على محمل التجريم. ولما سألوه عما كان يعمل حينما أوقفوه قال بيير بلهجة ميلودرامية إنه كان «يعيد طفلة إلى ذويها أنقذها من النيران»، ولما سُئِل لماذا تعارك مع سلَّاب أجاب بأنه كان «يدافع عن امرأة، والدفاع عن امرأة أُهِينَت واجب كل رجل، وأن …» فاستوقفوه قبل أن يستفيض لأن ذلك لا دخل له بالاتهام. ولكن ماذا كان يعمل في فناء بيت يحترق حيث شاهده بعض الشهود؟ أجاب بأنه «ذهب ليرى ماذا يقع في موسكو». ومن جديد استوقفوه ليسألوه ليس إلى أين كان يذهب، بل لماذا كان بالقرب من الحريق، ثم قالوا وهم يستأنفون السؤال الأول الذي رفض أن يجيب عليه: من أنت؟ فأجاب بأنه لا يستطيع أن يذكر اسمه.

قال الجنرال ذو الشاربين الأشيبين والوجه المتضرج بلهجة صارمة: أيها المسجل، اكتب، إن الحالة خطيرة، إن الحالة خطيرة جدًّا.

شبَّت النار بعد توقيف بيير بأربعة أيام بالقرب من حاجز زوبوف.

ولقد نُقِل بيير وثلاثة عشر متهمًا آخرين إلى «جي دو كريميه» مجازة القرم في بيت مأجور لأحد الباعة، وبينما هو يجتاز الشوارع كاد بيير أن يختنق من الدخان الذي بدا كأنه يخيم على المدينة كلها، لم يكن المرء ليشاهد غير الحرائق في كل مكان، لكنه لم يكن قد أدرك بعدُ أهمية حريق موسكو، لذلك فقد راح ينظر حوله بذهول.

في ذلك البيت المأجور من منطقة «مخاضة القرم» أمضى بيير أربعة أيام عرف خلالها من حديثه مع الجنود الفرنسيين أنهم ينتظرون يومًا بعد يوم القرار الذي سيتخذه الماريشال حيال الموقوفين. مع ذلك فقد ظل يبدو بالنسبة إلى الجنود سلطة غامضة عليا مجسدة فيه ولا ريب.

ولقد كانت تلك الأيام التي سبقت اليوم الثامن من أيلول يوم إخضاع الموقوفين لاستجواب ثانٍ، من أكثر الأيام مشقة وإيلامًا بالنسبة إلى بيير.

الفصل العاشر

الاستجواب الثاني

في الثامن من أيلول جاء ضابط رفيع الشأن، إذا رُوعِيت الاعتبارات التي أظهرها الحراس حياله لزيارة المساجين. راح ذلك الضابط الذي كان ولا ريب تابعًا لأركان حرب الجيش يتفقد السجناء وبيده قائمة، فنادى بيير: الذي لا يدلي باسمه. ألقى عليهم نظرة غير آبهة متراخية، وأمر ضابط الحرس أن يُعنَى بتنظيفهم وإلباسهم ثيابًا مناسبة قبل أن يصحبهم للمثول بين يدي الماريشال. وبعد ساعة اصطفت فصيلة من الجند، ساقت بيير والمساجين الثلاثة عشر الآخرين إلى ساحة العذارى «شان دي فييرج»، وقد أُطلِق هذا الاسم على ذلك المكان ذكرى للتتر الذين أمروا بأن تُدفَع لهم الجزية فضة وعذارى نبيلات في ذلك المكان.

كان يومًا مشرقًا مشمسًا بعد المطر والهواء، يمتاز بنقاء خاص، والدخان بدلًا من أن يزحف كما كان شأنه يوم أن نُقِل بيير من مركز كتيبة الحرس في حاجز زوبوفو، يتصاعد أعمدةً في الهواء النقي. لم يكن المرء يرى نارًا في أي مكان، لكن موسكو كانت تعسُّ بالدخان المتصاعد من كل أجزائها، وموسكو أو على الأقل ما شاهده بيير منها لم تكن إلا خرابًا، ففي كل مكان أراضٍ خواء تناثرت فيها حطام المدافئ والمداخن، وهنا وهناك أجزاء من جدران منهارة متفحمة. ولقد نظر بيير بإمعان لكنه لم يتعرف على أحياء المدينة المألوفة، لقد كانت الكنائس في بعض الأماكن لا تزال قائمة، والكريملن سليمًا من كل أذى يرتسم بلون أبيض بأبراجه وإيفان الأكبر، وهو برج جرس ارتفاعه ٩٧ مترًا، وبالقرب منه قبة دير نوفو — دييفيتشي — واسمه مستمد من ساحة العذارى القريبة منه تلتمعُ ببهجة، وصوت أجراس تُقْرَع مدوية بشكل خاص يتعالى في الفضاء. ولقد ذكرت الأجراس بيير بأن اليوم أحد، وأنه عيد مولد العذراء، لكن ذلك لم يكن عيدًا لأحد؛ لم تكن تُرَى إلا الأطلال التي خلَّفتها الحرائق. أما من حيث السكان، فكان المرء يلاقي

بين الحين والآخر بعض الأشخاص المساكين الفزعين في أسمال بالية يختبئون لدى رؤية الفرنسيين.



الماريشال دافو.

كان واضحًا أن عُشّ روسيا قد دُمِّر وشُتِّت، فكان بيير يشعر شعورًا مبهمًا أن عهدًا آخر مختلفًا جدًّا وقاسيًا هو عهد الفرنسيين، قائمًا على أنقاض العهد الروسي المدمَّر. كان يشعر بذلك من حياة جنود الموكب الذين كانوا يتقدمون بنظام جيد وعلى وجوههم أمارات عرفية مرحة، ويشعر به من رؤية موظف فرنسي هام جاء يلاقيهم في عربة خفيفة يجرها جوادان يقودها جندي، ومن أصوات موسيقى عسكرية جذابة تتصاعد من الجانب الأيسر من ساحة العذارى، بل إنه شعر به بصورة خاصة وتفهَّمه منذ أن جاء الضابط

الفرنسي والقائمة في يده يتفقد السجناء. ولقد أُوقِف بيير من قبل جنود عاديين واقتِيد من مكان إلى آخر مع عشرات من المساجين، فكان يمكن نسيانه والخلط بينه وبينهم. ولكن لا، أبدًا! إن أجوبته التي أدلى بها في الاستجواب الأول ظلت تشير إليه، لقد كان «الذي يرفض الإدلاء باسمه»، فكانوا يسوقونه الآن إلى مكان ما تحت ذلك الميسم الذي يخيفه. ما كان يشك من مظهر المواكبين المطمئن أن السجناء الآخرين، وهو بينهم، هم أنفسهم الذين يحتاجون إليهم، وأنهم يقودونهم إلى حيث يجب سوقهم، فأحس بيير بأنه ليس إلا قذًى تافهًا سقط تحت عجلة آلة مجهولة ذات تجهيز آلي شديد الإحكام.

قادوا بيير والمتهمين الآخرين إلى ساحة العذارى من جهة اليمين قريبًا من الدير، وأدخلوهم بيتًا أبيض تحيط به حديقة كبيرة، ذلك كان بيت الأمير ستشيرباتوف حيث جاء بيير غالبًا، وحيث كان يقطن على حد قول الجنود الأمير ديكموهل.

قادوهم نحو المرقاة ثم أدخلوهم واحدًا واحدًا فدخل بيير السادس، أخذوه عبر الرواق ذي النوافذ الزجاجية والردهة والدهليز التي كانت كلها مألوفة لدى بيير، حتى بلغوا به مكتبًا طويلًا منخفض السقف وقف على بابه مساعد عسكري.

كان دافو جالسًا إلى طاولة عند الجانب الآخر من الغرفة وعلى أنفه نظارتان، اقترب بيير فسأل دافو بصوت خافت دون أن يرفع عينيه عن الورقة المنشورة أمامه التي بدا شديد الانشغال بها: «من أنت؟»

لزم بيير الصمت وهو عاجز عن النطق بكلمة، لم يكن دافو بالنسبة إليه جنرالًا فرنسيًّا فحسب، بل كان رجلًا مشهورًا بقسوته. كان وجه دافو يُذكِّر الناظر إليه بسحنة أحد التربويين القساة وهو ينتظر هنيهة الجواب المطلوب، وكان بيير يعرف أن كل دقيقة تردد يمكن أن تكلفه حياته، مع ذلك فإنه لم يكن يعرف ماذا يقول. بدا له أن تكرار ما قاله خلال الاستجواب الأول لون من السخف المضحك، كما أن إعلان اسمه ومركزه الاجتماعي عار وخطر بنفس الوقت، فالأفضل إذن أن يلزم الصمت. لكن دافو لم يترك له الوقت لاختيار الجهة التي يتشيع لها، إذ رفع رأسه ورفع نظارتيه إلى جبينه وراح يتأمل بيير محدقًا وهو يطرف بعينيه.

قال بصوت مجمَّد موزون كافٍ للتأثير على بيير: إنني أعرف هذا الرجل.

سرى البرد في ظهر بيير، ثم شعر بصُدْغيه وكأنهما بين فكَّي كلَّابة.

– يا اللامعتين جاءت، لا يمكنك أن تعرفني لأنني لم أرك قط …

قاطعه دافو وهو يخاطب جنرالًا آخر كان هناك لم يلاحظ بيير وجوده: إنه جاسوس روسي.

وأدار دافو له ظهره، وفجأة شعر بيير بلسانه ينطلق فشرع يتكلم بطلاقة، قال وهو يذكر فجأة أن دافو أمير: كلا يا صاحب السعادة، كلا يا صاحب السعادة، لم يُتَح لك أن تعرفني، إنني ضابط في فرقة المتطوعين ولم أغادر موسكو.

ردد دافو: اسمك؟

– بيزوخوف.

– ما الذي يبرهن لي بأنك لا تكذب؟

فهتف بيير بصوت فيه توسل أكثر ما فيه من شعور بالمهانة: يا صاحب السعادة!

رفع دافو رأسه ومن جديد حدق في وجه بيير، تبادلا النظر بضع ثوانٍ فكان هذا هو الذي أنقذ بيير، لقد مرت نظراتهما فوق مسائل الحرب والعدالة لتعود من جديد نظرات رجلين وقفا متقابلين، ولقد شعر كلاهما خلال بضع ثوانٍ بإلف شيء شعورًا مبهمًا، وأدركا أنهما من أبناء الإنسان أخوان.

في الفترة الأولى عندما رفع دافو رأسه عن قائمته التي أُشِير إلى مصاير عدد من الآدميين بأرقام، لم يكن بيير بالنسبة إليه إلا شيئًا ما، فكان يستطيع أن يأمر بإعدامه دون أي تبكيت من ضميره، أما الآن فقد أصبح يرى فيه الإنسان. ظل فترة مفكرًا ثم قال ببرود: كيف تثبت لي حقيقة ما تقول؟

تذكر بيير دورامبال، فأشار إلى اسم ذلك الرئيس الفرنسي واسم فوجه والشارع الذي يقطن فيه، فكرر دافو: إنك لست من تزعم.

فقدم بيير بصوت متهدج مرتعد متقطع الأدلةَ على قوله.

وفي تلك اللحظة جاء المساعد العسكري ينهي إلى دافو شيئًا ما.

أشرق وجه هذا بالأنباء التي حملها له المساعد العسكري، فلم يلبث أن زَرَّ سترته ومضى دون أن يأبه بعد ذلك إلى بيير.

ولما ذكَّره المساعد العسكري بسجينه قطَّب حاجبيه وأشار برأسه نحو بيير ثم أمر بأخذه، ولكن إلى أين وجب أن يسوقوه؟ ما كان بيير يعرف شيئًا: هل يأخذونه إلى مستقره القديم أم إلى المكان المعد لتنفيذ حكم الإعدام الذي أروه موقعه على ساحة العذراء؟

أدار رأسه فرأى المساعد العسكري يسأل دافو، فأجاب هذا: نعم، بلا ريب!

ولكن ما معنى نعم تلك؟ وكيف يخمن معناها؟

لم يذكر قط كم سيَّروه من الوقت وإلى أين أخذوه، لقد كان في حالة من التبلد وفقد الشعور حتى إنه لم يكن يرى ما حوله، لقد ظل يضع قدمًا أمام أخرى طالما وجب أن

يمشي، ولما وقفوا توقف بدوره. ظلت فكرة واحدة مستقرة في رأسه: من، من هو الذي حكم عليه؟ لا بد وأنهم ليسوا أولئك الناس الذين استجوبوه بادئ الأمر، ما من أحد منهم كان يريد ذلك أو يقدر عليه، كذلك لم يكن دافو الذي نظر إليه بحقد. لو أن دقيقة أخرى انقضت لفهم دافو أنهم مخطئون باتهامه، فكان المساعد العسكري بدخوله حينذاك هو الذي منع وقوع ذلك، لكن هذا المساعد العسكري نفسه لم يكن هو الآخر يريد به شرًّا، لكنه كان يستطيع أن يمتنع عن الدخول. وإذن، من، من هو الذي أراد له أن يموت، أراد أن يحرمه الحياة والآمال والأفكار؟ من كان يريد ذلك؟ أحس بيير بأن ما من أحد كان يريده.

لقد كان ذلك هو النظام القائم وتضافر الظروف.

لقد حكم عليه النظام القائم بالموت، هو، بيير، إنه ينتزع منه الحياة، إنه يسلبه كل شيء، إنه يبيده.

الفصل الحادي عشر

الإعدام

اقتِيد السجناء من بيت الأمير ستشيرباتوف إلى أسفل ساحة العذارى على يسار الدير، ومن هناك إلى بستان خضار غُرِس فيه عمود، ووراء العمود حُفِرت حفرة كبيرة وقد تناثر التراب الندى وتراكم حولها، وبالقرب من الحفرة والعمود اجتمع جمهور غفير على شكل نصف دائرة، وكان ذلك الجمهور الذي ظهر فيه بعض الروسيين يتألف في غالبيته من جنود عاطلين تابعين لجيش نابليون، فكان بينهم ألمانيون وإيطاليون وفرنسيون في أزياء مختلفة. وإلى يسار الوتد وعلى يمينه وقفت فرقة فرنسية مسلحة يلبس أفرادها المعاطف الزرقاء ذات الشارات الحمراء على الكتفين والرانات والعمرات.

صفُّوا المحكومين تبعًا لترتيبهم على القائمة، وبيير السادس، ثم ساقوهم نحو العمود. وفجأة انبعث قرع طبول من كل جهة، فأحس بيير حيال هذا الدوي بفؤاده يتمزق، فقد ميزه التفكير والتذكر فلم يعد مستبقيًا في خدمته إلا عينيه وأذنيه. لم تبقَ لديه إلا رغبة واحدة، الخلاص بأسرع ما يمكن من ذلك الشيء المريع الذي يوشك أن يقع، مع ذلك فقد جال بطرفه في وجوه رفاقه وراح يتأملهم.

كان للاثنين الأولين رأسان حليقان يشبهان رءوس المحكومين بالأشغال الشاقة؛ الأول طويل نحيل، والآخر أسمر شعراني عاضل ذو أنف أفطس، وكان الثالث خادمًا تجاوز الأربعين، بدأ الشيب يخالط شعره، تدل هيئته على حسن التغذية، والرابع قرويًّا جميلًا ذا لحية مَغْرَاء منبسطة مستديرة وعينين سوداوين، بينما كان الخامس عاملًا في شرخ الشباب، فتى لم يتخطَّ الثامنة عشرة بلون صفراوي وجسم ضعيف، يتدثر برداء فضفاض طويل.

سمع بيير الفرنسيين يتساءلون عن الطريقة التي سينفذون بواسطتها الحكم بالمحكومين؛ واحدًا فواحدًا أم اثنين اثنين؟ أجاب الضابط ببرود حازم: «اثنين اثنين»،

فقامت حركة بين صفوف الجنود: كان واضحًا أنهم متعجلون. لكن عجلتهم لم تكن تشبه عجلة الأشخاص الماضين لأداء مهمة معروفة منهم جميعًا، بل كانت عجلة من يريد إنجاز عمل ضروري، ولكنه مع ذلك منفِّر ومكروه.

وقف موظف فرنسي يحيط ذراعه بشارة إلى يمين رتل المحكومين، وقرأ الحكم بالروسي والفرنسي.

ثم بناءً على إشارة من الضابط جاء أربعة جنود أحاط كل اثنين منهما بواحد من المحكومين اللذين كانا على رأس الصف، أُسْكِنت حركة المحكومين بشدهما إلى العمود، فراحا ينظران حولهما خلال الوقت الذي استغرقه وصول من ذهبوا للمجيء بالأكياس نظرة الحيوان المشوش الذي يرى الصياد يقترب منه، يكف أحدهما عن رسم شارة الصليب، بينما انصرف الآخر يحك ظهره وقد عجا وجهه بما يشبه الابتسامة. عصب الجنود عيونهما وألبسوهما كيسين، ثم ربطوهما إلى العمود بحركات سريعة.

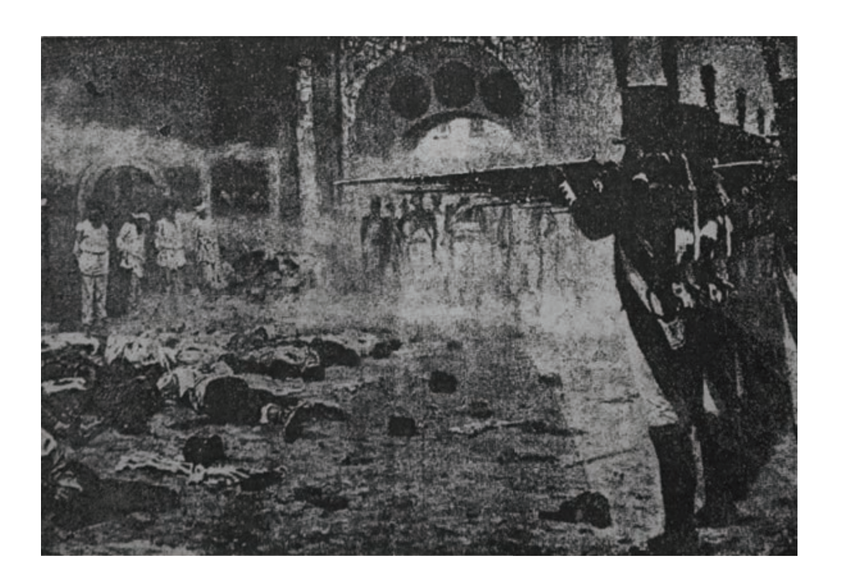
خرجت من الصفوف مفرزة من الجنود تعدادها اثنا عشر جنديًّا، وسارت بخطى موزونة ووقف الرجال على بعد ثماني خطوات من العمود، فأدار بيير رأسه كيلا يرى ما سيحدث. وفجأة دوَّى انفجار خُيِّل إلى بيير أنه أقوى من أشد الرعود هولًا فعاد ينظر من جديد، رأى دخانًا وفرنسيين شاحبي الوجوه ترتعد أيديهم وهم منصرفون إلى عمل ما على حافة الحفرة. قدموا الاثنين التاليين فنظرا حولهما بمثل عيون المحكومين الأولين دون أن يصدقا ما سوف يقع لهما أو يفهماه، ما كانا يستطيعان تصديقه لأنهما وحدهما يعرفان قيمة الحياة بالنسبة إليهما، فما كانا يقدران أن يفهما ولا أن يصدقا أنهم سينتزعون الحياة منهما.

أشاح بيير بوجهه من جديد كيلا يرى، ومن جديد دوَّى انفجار مريع مزق الأذان، ومن جديد شاهد بيير وقت الانفجار بالذات دخانًا ودماء ووجوه الفرنسيين المتقعة وهم منصرفون إلى العمل قرب الحفرة يتدافعون بالمناكب حول العمود بأيديهم المرتعدة. نظر بيير حوله لاهث الأنفاس وكأنه يسأل: «ولكن، ما معنى كل هذا أخيرًا؟» فكان السؤال نفسه يُقرَأ في كل النظرات التي تلاقت مع نظراته.

فعلى وجوه الحاضرين جميعًا من روسيين وجنود فرنسيين وضباط، على كل الوجوه دون استثناء، قرأ الهول نفسه والذعر نفسه والصراع نفسه الذي يعتلج في أعماق قلبه، «ولكن، أخيرًا من المسئول؟ إنهم جميعًا يتألمون بقدر ما أتألم، فمن هو إذن؟ من؟» ولقد اجتازت هذه الفكرة رأسه كومض البرق.

صاح أحدهم: رماة السرية السادسة والثمانين، إلى الأمام!

وقدموا الخامس وحده الذي كان واقفًا إلى جانب بيير، فلم يدرك بيير أنه قد نجا وأنه وكل الباقين معه لم يُسَاقوا إلى هناك إلا لحضور تنفيذ الحكم فحسب، ظل ينظر إلى ما يقع بهول آخذ بالازدياد دون أن يحس بفرح أو براحة. كان المحكوم الخامس هو العامل ذو الرداء الفضفاض، لم يكادوا يلمسونه حتى قفز من موضعه وتشبث ببيير، فانتفض بيير وحاول أن يزيحه عنه، كان العامل يزمجر ويرفض التقدم فأمسكوا به من تحت إبطيه وجرُّوه جرًّا، فلما قيدوه إلى العمود صمت فجأة، بدا عليه أنه فهم أخيرًا، فهل فهم أن صرخاته كانت غير مجدية أم أنه يستحيل أن يُورَد مورد الهلاك؟ على أية حال، لقد وقف منتظرًا أن يُشَدَّ وثاقه مع آخر وراح ينظر حوله بعينَي الحيوان الجريح البراقتين.



إعدام الخونة.

لم يستطع بيير هذه المرة أن يأخذ على نفسه الإشاحة بوجهه وإغماض عينيه، لقد بلغ الفضول والتأثر اللذين أخذ يشاطر ذلك الجمهور الإحساس بهما الذروة أمام هذه الجريمة الخامسة. بدا المحكوم الخامس ككل الذين سبقوه هادئًا، فكان متدثرًا بردائه يفرك قدميه الحافيتين إحداهما بالأخرى.

وعندما عصبوا عينيه سوَّى بنفسه العقدة التي بدا كأنها تؤلم قَذَاله، ثم عندما أسندوه إلى العمود الملوث بالدم مال إلى الوراء، ولما كانت تلك الوضعية غير ملائمة بالنسبة إليه فقد انتصب وجعل قدميه الحافيتين في وضع مستقيم واستند بهدوء، ولم تفت بيير حركة واحدة من حركاته وهو الذي لم يغادره بعينيه.

لا ريب وأنهم سمعوا أمرًا، وبعد ذلك الأمر انطلقت ثماني بنادق معًا، لكن بيير لم يسمع أي انفجار رغم ما بذله فيما بعد بقصد التذكر، رأى العامل ينهار في وثاقه ثم ظهر الدم من موضعين، وتمدد الحبل بفعل ثقل الجسد. أما الرجل فقد حنى رأسه انحناءً شديدًا، وانطوت ساقاه تحته وسقط. جرى بيير إلى العمود فلم يستوقفه أحد، تكأكأ حول العامل أشخاص ممتقعو الوجوه يبدو الذعر على قسماتهم، وكان فك الجندي الفرنسي العجوز الأسفل يرتعد وهو يفك الحبل، وانهار الجسد فبادر الجنود بخِرَق يجرونه وراء العمود ويقذفون به إلى الحفرة.

كانوا جميعًا يشعرون بشكل واضح بأنهم مجرمون، تستبد بهم حاجة إخفاء آثار جريمتهم بأسرع ما يمكن.

نظر بيير إلى الحفرة فرأى العامل مسجًّى وركبتاه على مستوى رأسه تقريبًا، وإحدى كتفيه أكثر ارتفاعا من الأخرى، ورأى تلك الكتف ترتفع وتنخفض بحركات تشنجية، لكن المجارف راحت تهيل التراب ملء راحتها فوق الجسد. وصاح أحد الجنود ببيير يطلب إليه التراجع بصوت محنق ساخط أليم، لكنه لم يفهم بل ظل واقفًا قرب العمود فلم يطرده من هناك أحد.

وعندما رُدِمت الحفرة تعالى أمر فأعادوا بيير إلى صفه، وراح الجنود القائمون على جانبي العمود يسيرون بخطى موزونة بعد أن استداروا نصف دائرة. أما الرماة الأربعة والعشرون الذين كانوا وسط الدائرة والذين أفرغوا بنادقهم، فقد هُرِعوا جميعًا راكضين لاستعادة أماكنهم في الصفوف عندما تمر سريتهم بالقرب منهم.

راح بيير الآن يحدق بعينيه دون أي تفكير في الجنود الذين راحوا يغادرون عمود الإعدام مثنى مثنى وهم يجرون، لقد لحقوا جميعهم بسريتهم باستثناء واحد، كان هذا جنديًّا فتيًّا على صفرة قاتلة وقد انزلقت عمرته على قَذَاله، بينما كانت بندقيته بحذاء قدمه، ظل هذا جامدًا في المكان الذي أطلق منه النار قبالة الحفرة، كان يترنح كالرجل الثمل وهو يقدم خطوة إلى الأمام وأخرى إلى الوراء كي يحافظ على توازنه، فخرج صف ضابط مسن من الصف أمسك بكتفيه وأعاده إلى سريته. وأخذ جمع الروسيين

والفرنسيين يتبدد، لقد ذهبوا جميعًا وقد أطرق كل منهم برأسه، وهتف أحد الفرنسيين: إن هذا يعلمهم كيف يشعلون الحرائق.

نظر بيير إلى ذلك الذي تكلم فوجد أنه جندي راح يبحث عن عذر لما وقع منذ حين بغية تهدئة خاطره دون أن يوفَّق في إيجاد العذر، على أية حال لم يُضِفْ قولًا آخر إلى ما قال، بل ندَّت عنه حركة تدل على اللامبالاة وانصرف.

الفصل الثاني عشر

في السجن

بعد تنفيذ حكم الإعدام فُصِل بيير عن الموقوفين الآخرين، وحُبِس وحيدًا في معبد متهدِّم مليء بالقذر.

وحوالي المساء دخل صف ضابط من الحرس يصحبه جنديان، وأعلن لبيير نبأ العفو عنه، وأنه يجب أن ينتقل إلى مبنى أُعِدَّ لأسرى الحرب، فنهض بيير دون أن يفهم ما يُقَال له وتبع حرسه. قادوه إلى واحد من أبنية المدن من ألواح الخشب والأعمدة المنتزعة من أنقاض الحريق أُقِيمَت في أعلى حصن، أحاط به في الظلام ما يقرب من عشرين شخصًا، فنظر إليهم بيير دون أن يفقه من هم وماذا يفعلون هناك وماذا يريدون منه. سمع الكلمات التي يتفوهون بها، لكنه ظل عاجزًا عن استخلاص شيء منها إذ ما كان يفهم معناها، مع ذلك فقد أجاب على الأسئلة التي وُجِّهت إليه دون أن ينتبه إلى أنهم مصغون إليه، وأن أجوبته ستُحمَل على مختلف المعاني، كان ينظر إلى وجوه وأجساد فكان كل شيء يبدو له مسلوبًا من المعنى.

منذ أن حضر بيير ذلك القتل المريع الذي ارتكبه رجال لم تكن بهم أية رغبة في ارتكابه، بدا المحور الذي ترتكز حوله حياته وتقوم كأنه استسلم فجأة، وكأن كل شيء قد انهار ركمًا من الشظايا لا شكل له، لقد فني إيمانه بالانسجام العام والإنسانية وبروحه نفسها وبالله دون أن ينتبه إلى ذلك، لقد شعر من قبل بمثل هذا الإحساس لكنه لم يكن قط بمثل هذا العنف. كان فيما مضى يلوم نفسه كلما اعتلجت في نفسه مثل هذه الريب، ويشعر في أعماق نفسه أنه سينتهي به الأمر إلى إيجاد سبيل الخلاص خلال يأسه وشكوكه، أما الآن فإن العالم هو الذي ينهار دون أن يكون له دخل فيه، العالم الذي أصبح أمام عينيه ركامًا من الخرائب عديمة المعنى، لذلك أحس بأنه ليس في طوقه استعادة إيمانه بالحياة.

أحاط به أناس في الظلام، لا ريب أنهم شديدو الاهتمام بوجوده بينهم، إنهم يروون له شيئًا ما ويسألونه، ثم اقتاده بعضهم وأجلسوه في ركن بين رجال أخذوا يتنادون من كل الأركان وهم يضحكون.

قال صوت من الجانب المضاد وهو يضغط على كلمة الذي: «ها هو ذا أيها الإخوان … ها هو ذا الأمير الذي …»

جلس بيير صامتًا لا حراك على القش مستندًا إلى حاجز المبنى، وأخذ يفتح عينيه ويغلقهما، كان لا يكاد يغلقهما حتى يرى وجه العامل المخيف بصورة خاصة في بساطته ووجوه قتلته غير الإراديين أشد هولًا، كذلك في القلق المستولي عليها، ثم كان يفتح عينيه ويلقي حوله نظرات تائهة.

جلس إلى جانب بيير رجل قصير القامة لاحظ بيير وجوده فورًا إلى جانبه، بسبب رائحة العرق الشديدة التي كانت تفوح منه لدى كل حركة من حركاته، وكان ذلك الرجل يعمل شيئًا ما بقدميه في الظل فلم يكن بيير يرى وجهه، لكنه كان يشعر بأنظاره شاخصة إليه، أخيرًا أدرك بيير أنه إنما يخلع جوربه، فأثارته الطريقة التي سلكها في هذا السبيل.

لف بحذق عصابته الكتان التي تحيط بإحدى قدميه بعد أن فك الخيط الذي يربطها، ثم اهتم بقدمه الثانية دون أن يكف عن تأمل بيير، وبينما راح يعلق الخيط بمسمار بإحدى يديه أخذ باليد الأخرى يحل عصابة القدم الأخرى، وهكذا خلع جوربين بحذاقة وبحركات دقيقة ناجحة منسَّقة لا بطء فيها، وعلَّق حذاءيه إلى وتد مغروس فوق رأسه، ثم أخذ سكينه فقطع به شيئًا ما ثم أغلقه ووضعه تحت فراشه من جهة الرأس، وأخيرًا جلس بوضع أكثر إراحة وأحاط ركبتيه المرقوعتين بذراعيه وراح يتأمل بيير محدقًا في وجهه. شعر بيير بشيء مؤنس مطمئن متآلف في حركات هذا الرجل المنظم، الذي يرتب شئونه المنزلية في ركنه الصغير ذاك، بل إن رائحته النفَّاذة نفسها لم تنفِّره، فراح هو الآخر ينظر إليه محدقًا.

قال القصير فجأة: لا ريب أنك شاهدت بعضها، أليس كذلك يا سيدي؟

كان لصوته الغنائي انعطافًا مهدِهدًا وبساطة قصوى، حتى إن بيير أراد أن يجيبه لكن فكه راح يرتعد واغرورقت عيناه بالدموع. لم يترك له الرجل الصغير وقتًا لإظهار خزيه، إذ قال على طريقة الفلاحات الروسيات العجائز الحانية الرخيمة: إيه! لا تغتم يا قلبي الصغير، لا تغتم يا عزيزي، إنه لا شيء، فترة رديئة يجب قضاؤها، ليس أكثر من

هذا يا صديقي الطيب، نحمد الله على أننا ما زلنا أحياء ليس فينا شيء محطم، وإذا كان هناك أناس لا يساوون شيئًا فهناك أناس طيبون …

وركع وهو في سياق الكلام بحركة مرنة، ثم نهض وابتعد وهو يسعل، ثم سمع بيير صوته الرخيم صادرًا من طرف القاعة الآخر: آه! أنتذا أيها السافل؟! ها أنتذا أيها السافل، لقد عدت، كفى، هيا، إلى الأسفل!

وراح الجندي وهو يدفع عنه كلبًا صغيرًا ملفوفًا بخرقة، قال وهو يستعيد لهجته المحترمة: خذ، كُلْ يا سيدي.

وأخرج من الخرقة بطاطا مشوية في الفرن قدمها إلى بيير، وأضاف: لقد قدموا لنا حساء وقت العشاء، ولكنه ليس هناك ما يشبه البطاطا! لم يكن بيير قد تناول شيئًا من الطعام طيلة يومه، فبدت له رائحة البطاطا لطيفة بشكل خارق، شكر الجندي وشرع يأكل، فقال هذا وهو يبتسم: هه، ماذا؟! أتأكل البطاطا هكذا؟!

وأخذ واحدة، وأضاف: هكذا يأكلون.

استعاد سكينه ففتحه وقطع البطاطا فوق راحة يده، ثم ذرَّ عليهما ملحًا أخرجه من الخرقة وقدمهما لبيير وهو يكرر: لا شيء مثل البطاطا، جرب لي هذه.

هتف بيير: إن كل شيء سِيَّان عندي، ولكن لماذا أعدموا أولئك التعساء؟! …

إن الأخير لم يكن قد بلغ العشرين بعد!

قال الرجل القصير بقوة وكأن الكلمات تتوارد على لسانه من تلقاء نفسها وتفلت من فمه برغمه: صه! … صه! … لا يجب أن تقول هذا، لا يجب …

ثم استرسل: إذن يا سيدي، لقد بقيت هكذا في موسكو؟

قال بيير: ما كنت أظن أنهم سيصلون بهذه السرعة فلبثت في موسكو بمحض الصدفة.

– إذن يا عزيزي لقد أوقفوك في بيتك؟

– كلا، لقد ذهبت أرى الحريق وهناك أوقفوني وحاكموني بوصفي مشعلًا للحريق.

فرد الرجل القصير: حيث يكون القضاة تكون المظالم!

سأل بيير بعد أن ابتلع آخر قطعة البطاطا: وأنت، أنت هنا منذ أمد طويل؟

– أنا! لقد أخذوني يوم الأحد من مستشفى موسكو.

– وأنت جندي؟

نعم، من فوج أبشيرون. كنت أموت من الحمى، لم يقولوا لنا شيئًا، كنا عشرين رجلًا تقريبًا وما كنا نفكر في الأمر ولا نصدقه …

سأله بيير: وهل تشعر بالسأم هنا؟

كيف لا يسأم المرء يا عزيزي؟ إن اسمي بلاتون — أفلاطون — واسم أسرتي كاراتاييف.

وأضاف تسهيلًا لعلاقته مع بيير: ولقد لقبوني في الفوج بالصقر الصغير، آه! كيف لا أسأم، إن موسكو أم مدننا؟! كيف لا نسأم برؤية هذا؟ نعم، لكن الدودة التي تنخر القرنبيط تموت أولًا.

وأردف بحميًّا: نعم، كذلك يقول أسلافنا.

سأل بيير: ماذا؟! كيف قلت؟!

فأجاب كاراتاييف الذي ظن أنه يردد المثل نفسه: أنا؟ أقول: ليس لنا نحن أن نحكم، إنه عمل الله.

ثم استرسل دفعة واحدة: إذن يا سيدي أنت ذو أملاك؟ بيت؟ كل شيء برخاء؟ وربة بيت؟ وأبواك، أما زالا على قيد الحياة؟

ما كان بيير يراه في الظلام، لكنه كان يحس بأن شفتَي الجندي تنطويان في ابتسامة ودودة بينما هو يطرح أسئلته، ولقد اغتم بوضوح عندما علم أن بيير فقد أبويه وخصوصًا أمه، فقال: إن الزوجة للنصيحة الطيبة، والحماة للاستقبال الحسن، ولكن ما من شيء يوازي أمًّا حانية!

ثم سأل أيضًا: وهل لك أطفال؟

اضطرب من جديد لجواب بيير السلبي السريع، لأنه بادر إلى القول: ليس في ذلك ما يسيء، لأنك ما زلت شابًّا يمكنك والحمد لله أن تنجب أطفالًا، المهم هو حسن التفاهم …

هتف بيير بالرغم منه: إن كل شيء الآن سِيَّان عندي!

فرد بلاتون: إيه يا رجلي الباسل! إن الحرية والخروج من السجن شيئان لا يُرفضان.

جلس في جلسة مريحة وسعل، فبان عليه أنه يستعد لحديث طويل، شرع يقول: نعم يا صديقي العزيز، إننا نقطن جميعنا معًا، إن ملكنا واسع ولدينا أراضٍ كثيرة، والفلاحون يعيشون عيشة راضية ونحن كذلك، والحمد لله! لقد كنا ستة حصَّادين حول أبينا، نعم، كنا نعيش عيشة طيبة وكنا مسيحيين طيبين، وهذا ما حصل لنا …

روى بلاتون مطولًا كيف ذهب يقطع الخشب في غابة جاره فأمسك به حارس، وهناك ضربوه بالعصي ثم حاكموه وأرسلوه جنديًّا عقابًا له.

واسترسل بصوت يبدل ابتسامته: إيه! ماذا يا عزيزي؟ إنك تعتبر هذا شقاءً وهو سعادة! كان على أخي أن يذهب جنديًّا لو لم أرتكب خطيئتي، ولأخي أربعة أطفال

أما أنا فلم أترك إلا زوجتي، صحيح أنني رُزِقْت بطفلة، لكن الله استردها مني قبل أن أذهب إلى الجندية. يجب أن أقول إنني عدت ذات مرة مأذونًا، فماذا رأيت؟ إنهم لا زالوا يعيشون أفضل من ذي قبل؛ إن الفناء مليء بالحيوانات، والنساء يقمن بشئون البيت، واثنان من إخوتي يعملان خارج القرية، وليس هناك إلا ميكائيل الأصغر سنًّا، ولقد قال لي أبي: «إن أولادي كلهم متساوون في نظري، إذ إن المرء يشعر بالألم أيًّا كان الأصبع الذي يُعَضُّ، ولو أنهم لم يأخذوا بلاتون لكان على ميكائيل أن يذهب جنديًّا.» هل تصدقه؟ لقد استقدمَنا جميعًا أمام الصور المقدسة وقال: «ميكائيل، تقدَّم، انحنِ أمامه، وكذلك زوجك وأولادك أيضًا، هل فهمتم؟» هذا هو المعنى يا عزيزي، إن القدر ينتقي ما يعجبه، بينما نحن هنا بسبيل إصدار الأحكام دائمًا؛ هذا جيد وهذا سيئ ... إن سعادتنا يا عزيزي أشبه بالماء في الشبكة؛ يجرها المرء فتنتفخ فإذا ما أخرجها بدت فارغة، هو كذلك!

وصمت بلاتون وقد غاص في قشه.

وبعد لحظة صمت نهض وقال: حسنًا، أظن أن الرغبة في النوم تستبد بي.

وشرع يرسم شارة الصليب مسرعًا وهو يدمدم: أيها المولى يسوع المسيح، يا قديس نيكولا، يا قديس فلور، يا قديس لوران، أيها المولى يسوع المسيح ارأف بنا وأنقذنا!

ولما فرغ من صلاته عاد يجلس على القش، ونطق قبل أن يستلقي ويتدثر بمعطفه: وهكذا! أيها الرب، اجعلني أنام كقطعة من الحجر، واجعلني أستيقظ كالرغيف الجيد!

سأله بيير: أية صلاة هي هذه التي تلوتها؟!

فقال بلاتون وقد بدأ ينام فعلًا: ماذا؟ ماذا تلوت؟ لقد صليت إلى الله، وأنت ألا تصلي؟

فقال بيير: ولكن بلى، إنني أصلي أنا الآخر، ولكن لماذا قلت: يا قديس فلور، يا قديس لوران؟

رد بلاتون بحميًّا: لماذا؟ لأنهم حفظة الجياد، ويجب أن يفكر المرء بالحيوانات ... انظر إلى هذه، يا للسافلة! لقد تكورت كالكرة.

وأضاف وهو يلمس الكلب النائم على ساقيه: يا لها من دافئة هذه القذرة!

ثم استدار على جنبه الآخر ولم يلبث أن نام.

وفي الخارج، في مكان ما بعيد، كان بعضهم يبكي ويصرخ، بينما كانت النار تُرى خلال خَصَاص الجدران الخشبية، ولكن كل شيء كان ساكنًا في الداخل ومظلمًا. ظل بيير

فترة طويلة مستلقيًا دون حراك وعيناه مفتوحتان في الظلام، كان يصغي إلى بلاتون الذي كان يشخر بإيقاع وهو مستلقٍ بجانبه، ويشعر بأن العالم الروحي الذي انهار منذ حين في سريرته أخذ يقوم من جديد على قواعد أخرى، قواعد جديدة كل الجدة، لا تتزعزع في جمالها.

الفصل الثالث عشر

بلاتون كاراتاييف

كان في المبنى الخشبي الذي اقتيد إليه بيير والذي أمضى فيه أربعة أسابيع، ثلاثة وعشرون جنديًّا أسيرًا وثلاثة ضباط وموظفان.

لم يترك هؤلاء كلهم في ذهنه إلا أثرًا غامضًا باستثناء بلاتون كاراتاييف، الذي انطبع في ذاكرته إلى الأبد بوصفه أقوى ذكرى وأثمنها، وبوصفه المثال الحي لكل ما هو روسي، لكل ما هو جيد ومنسجم. وعندما شاهد بيير أخيرًا جاره فجر اليوم التالي، تأكد في نفسه إحساسه الأول بالتناسق والانسجام، فكل شخصية بلاتون في معطفه الفرنسي المخصور بقطعة حبل وقبعته ذات الحافة وحذائيه المصنوعين من قشر القنب؛ كانت منسجمة، لقد كان رأسه كرة حقيقية، وظهره وصدره وكتفاه بل وذراعاه أيضًا اللذان لم يكن يكف عن أرجحتهما وكأنه دائمًا يستعد لتلقف شيء ما مستديرة كلها، وكذلك ابتسامته الأنيسة وعيناه الكبيرتان الداكنتان الهادئتان كانت مستديرة.

لا ريب أن بلاتون كاراتاييف جاوز الخمسين من عمره، إذا رُوعِي في ذلك ما يرويه عن المعارك التي ساهم فيها، إنه نفسه لا يعرف سنه ولا يستطيع ذكره بتأكيد. لكن أسنانه الجميلة ناصعة البياض التي يكشف عن صفين منها كلما ضحك — وهو كثيرًا ما يضحك — كانت متينة وسليمة، ولم تكن هناك شعرة بيضاء واحدة في لحيته أو في رأسه، وكان جسمه ينطق بالمرونة بل وبأكثر من ذلك: بالقوة والجلد.

وعلى الرغم من بعض الغضون المحيطة بعينيه، فإن وجهه كان يعكس البراءة والشباب، وصوته ظل لطيفًا عذبًا. لكن الشيء الأكثر استلفاتًا فيه كان نسق كلامه البديهي النشيط، فيبدو كأنه لا يفكر قط فيما سيقوله، لذلك كانت سرعته في الكلام ودقة ألفاظه ونطقه تعطيانه ميزة إقناع على جانب كبير من التأثير.

بلغت مقاومته البدنية واندفاعه حدًّا لم تبدُ عليه معه خلال أيام أسره الأولى أية بادرة من بوادر التعب أو المرض، كان يردد في كل صباح وكل مساء عند النوم: «أيها المولى، اجعلني أنام كقطعة من الحجر، واجعلني أستيقظ كالرغيف الجيد»، وفي الصباح عندما ينهض كان يقول وهو يمارس حركة لا تتبدل من كتفيه: «عندما يستلقي المرء ينطوي على نفسه كالكرة، وعندما ينهض ينفض نفسه.» والحقيقة أنه لا يكاد يستلقي حتى ينام كقطعة من الحجر، ثم لا يكاد ينتفض حتى يزاول عملًا ما دون أن يتوانى ثانية واحدة، أشبه بالأطفال الذين لا يكادون يستيقظون حتى يعودوا إلى ألعابهم. وكان يحسن كل شيء، وإذا لم يكن ذلك بشكل كامل فعلى الأقل بطريقة لا بأس بها، كان يطهو ويخيط وينجر ويَرتُق الأحذية، وكان دائم الانشغال لا يسمح لنفسه بالثرثرة والغناء اللذين يميل إليهما كثيرًا إلا عندما يهبط الظلام، ثم إنه لا يغني على طريقة المحترفين الذين يعرفون أن الناس يصغون إليهم، بل على طريقة الطيور، فكان بث الأنغام بالنسبة إليه شيئًا لا مندوحة منه كالتمطِّي أو السير، وحينئذ يتخذ وجهه أمارات رزينة، وأيًّا كان الصوت الذي يخرج من حنجرته فإنه لم يكن يخلو من شيء حنون رخيم نسوي وحزين.

وعندما أصبح أسيرًا ونبتت لحيته من جديد، بدا أنه تخلص بشكل واضح من كل مظهر غريب وعسكري مفروض، ليعود رغمًا عنه ذلك القروي السابق ابن الشعب.

كان يقول: «إن الجندي المأذون يحتفظ بقميصه غير اللائق.»

ما كان يحب التحدث عن أيام خدمته رغم أنه لم يكن يشكو منها، وأنه ردد غالبًا أنهم لم يضربوه مرة واحدة، فإذا شرع يروي شيئًا تحدث غالبًا عن ذكرياته القديمة، العزيزة على نفسه كما يبدو بوضوح، ذكريات الوقت الذي كان فيه «مسيحيًّا»، وهذا هو الاسم الذي يطلقه على القروي.[١] لم يكن للأمثال التي تزين أحاديثه أية رابطة مع العبارات البذيئة غالبًا والخلاعية التي يألفها الجنود، بل كانت دائمًا أحكامًا شعبية، إذا أُخِذت معزولة عن الحديث فقدت كل معناها، فلا تحوي معنى شديد العمق إلا إذا أُورِدت في مناسباتها.

---

[١] جاء في ذيل النص الفرنسي: إن كلمة قروي تُلْفَظ بالروسية كريستيانين من كلمة كريست أي الصليب، لأن القرويين الروسيين كانوا يحملون صليبًا على صدورهم. أما كاراتاييف فكان يلفظ الكلمة كريستيانين — لاحظ الفرق بين الكلمتين بالفرنسية — ومعناها مسيحي.

غالبًا ما كان يحدث له أن يناقض نفسه، مع ذلك فإن ما يقوله كان دائمًا صحيحًا، كان يحب الكلام ويحسن التعبير، يزين أحاديثه بأسماء تصغير مُمَالِقة وبأمثال ينسجها حسب الاقتضاء، كما خُيِّل إلى بيير. لكن الفتنة في أحاديثه كانت تنبعث عن الحوادث الأكثر بساطة، الحوادث التي يراها بيير دون أن يعيرها أي التفات، والتي تأخذ في فمه طابعًا من العظمة الحقيقية. وكان يحب الإصغاء إلى الأُحْدُوثات (وهي لم تكن لتتبدل قط) التي يرويها أحد الجنود مساء، ويفضلها على كل أقاصيص الحياة الواقعة، فإذا ما أصغى إلى تلك الأحدوثات ارتسمت على وجهه ابتسامة بهيجة، وعلق عليها بكلمة أو طرَح سؤالًا، دلالة على أن عقله ميال إلى البحث عن الجانب الخلقي فيما يُروَى على مسامعه. ما كان يعرف التعلق ولا الصداقة ولا الحب على الطريقة التي يفهمها بيير بها، لكنه كان يحب كل إنسان ويعيش عيشة ودية مع كل الذين تقحمهم الحياة في سبيله، ليس مع هذا وذاك من الرجال بصورة خاصة، بل مع كل الرجال الذين تقع أبصاره عليهم، وكان يحب كُلَيْبه وزملاءه والفرنسيين، ويحب بيير الذي هو جاره. لكن بيير كان يشعر بأن كاراتاييف — رغم كل الكلمات المالقة التي يوجهها إليه والتي كانت تكريمًا غير إرادي لصفات زميله الخلقية — لا يمكن أن يَغْتَمَّ دقيقة واحدة بسبب ذهابه. وعلى ذلك فقد راح بيير يشعر حيال كاراتاييف بأحاسيس مماثلة.

كان بلاتون كاراتاييف جنديًّا عاديًّا تمامًا بالنسبة إلى السجناء الآخرين، فكانوا ينادونه تارة الصقر الصغير، وطورًا بلاتون، ويمازحونه في غير خبث ويوفدونه في سُخْرات. أما بالنسبة إلى بيير، فقد ظل ووجب أن يظل، كما رآه في الليلة الأولى، مثالًا مُفْعَمًا منيعًا خالدًا للبساطة والصراحة.

ما كان بلاتون كاراتاييف يحفظ شيئًا عن ظهر قلب باستثناء صلاته، فإذا ما شرع في رواية قصة بدا كأنه لا يدري كيف سينهيها.

وأحيانًا عندما كان بيير يدهش لعمق غور أقواله فيطلب إليه أن يعيدها، كان بلاتون لا يقدر على تذكر ما قاله منذ حين كما لا يستطيع بالمثل أن يقول لبيير كلمات أغنيته المفضلة، كانت تلك الأغنية تبحث عن «ألسندر أخي الصغير» وعن «القلب الذي يؤلمني»، لكنها تفقد معناها إذا قيلت كلامًا. ولم يكن بلاتون يفهم كما لم يكن يستطيع أن يفهم قيمة كلمة مأخوذة وحدها، فكل كلمة من كلماته وكل بادرة كانت ظاهرة خارجية لذلك النشاط اللاشعوري الذي هو حياته، وحياته كما كان يحس بها كانت تبدو عارية من كل

معنى إذا أُخِذت على اعتبارها حياة شخصية، وتأخذ معنى إذا باتت جزءًا من كلٍّ لا يني يشعر به. كانت كلماته وتصرفاته تصدر عنه بمثل الانتظام والامتثال للضرورة والبديهية التي يخضع لها أريج زهرة، لكن بلاتون لم يكن يقدر أن يفهم قيمة فعل أو كلمة أو معناهما إذا أُخِذا مستقلَّيْن.

الفصل الرابع عشر

رحلة ماري

عندما علمت الأميرة ماري من نيكولا أن أخاها موجود لدى آل روستوف في أياروسلافل، شرعت تعد العدة للرحيل رغم اعتراضات خالتها، وأرادت كذلك أن تصحب ابن أخيها معها، لم تكن تتساءل بل لم تكن تريد أن تعرف ما إذا كان عزمها ميسورًا أو حتى ممكن التنفيذ، لم يكن واجبها الذهاب إلى قرب أخيها الذي قد يكون على وشك الموت فحسب، بل أن تعمل على إيصال ولده إليه، لذلك فقد قررت أن تذهب. وإذ لم يكتب لها الأمير آندريه، فقد راحت تفسر ذلك بأنه شديد الضعف لا يستطيع الكتابة، أو أنه يرى السفر الذي ستقوم به مع ابنه طويلًا جدًّا وشاقًّا جدًّا وخطيرًا جدًّا.

باتت في غضون بضعة أيام مستعدة للرحيل، فكانت عدتها للسفر عربة الأمير «ألبرلين» الفسيحة التي استعملتها في السفر إلى فورونيج وبعض عربات النقل وعربات الخيزران الخفيفة، وكانت تعتزم اصطحاب الآنسة بوريين ونيكولا الفتى ومربيه والمرضعة العجوز وثلاث خادمات وتيخون ووصيف شاب وحارس قدمته خالتها لمواكبتها.

ما كان يجب التفكير في اتباع الطريق العادي الذي يمر بموسكو، أما الطريق غير المطروق الذي يمر بليبيتسك وريازان وفلاديمير وشوايا، فكان يطيل المسافة ويزيد في المصاعب بسبب فقدان خيول البرد، ولأنه في ضواحي ريازان كان الفرنسيون يظهرون أحيانًا — كما يزعم الناس — فيتعرض المسافر للخطر كذلك.

دُهِشت الآنسة بوريين وديسال والخدم المرافقون للأميرة خلال الرحلة الشاقة من جَلَد ماري ونشاطها، كانت آخر من ينام وأول من ينهض، لا تُوقِفُها صعوبة. وبفضل هذه الهمة الفعالة دون توانٍ التي أبقت على معنويات رفاقها بالسفر، استطاعوا أن يبلغوا إياروسلافل في نهاية الأسبوع التالي.

عادت الأيام الأخيرة التي قضتها الأميرة ماري في فورونيج عليها بأكبر سعادة ذاقتها في حياتها، لم يعد حبها لروستوف يسبب لها عذابًا أو قلقًا، لم تعد تناضل ضده إذ بات يملأ روحها ويتحد معها في جسد واحد. لقد كانت الأميرة ماري واثقة دون أن تعلن ثقتها أبدًا من أنها محبوبة وأنها تحب، ولقد أتتها تلك الثقة المكينة إبان لقائها الأخير مع نيكولا عندما جاء ينبئها بأن أخاها موجود لدى آل روستوف. لم يلمح نيكولا قط عن عودة الأمور إلى سابق عهدها في حال شفاء الأمير آندريه بين الأمير آندريه وناتاشا، لكنها رأت على قسمات وجهه أن تلك المصالحة باتت تشغله. أما طريقته حيالها فقد ظلت متحفظة حانية ودودة، لكنه بدا وكأنه مبتهجًا إذ باتت القرابة الآن تتيح له أن يعبر بأكثر حرية للأميرة ماري عن صداقة غرامية تبلغ حد ما كانت تحلم بمثله أحيانًا، كانت تعرف أنها تحب للمرة الأولى في حياتها وللمرة الأخيرة، وتشعر بأنها محبوبة فكانت سعيدة بذلك وهانئة.

وتلك السعادة التي كانت خلال ذلك الوقت تملأ كل روحها، لم تمنعها من أن تشعر بغمٍّ شديد بسبب أخيها، على العكس فالسلام الذي ربحته من جانب واحد راح يسمح لها الاستسلام كليًّا وبأكثر كمالًا من الجانب الأول إلى عاطفتها الأخوية، بل إن قلقها كان من العنف في أُوَيْقات السفر الأولى حتى إن رفاقها بالسفر خافوا عليها من المرض خلال الطريق، لكن الصعوبات والمشاغل المتعلقة بالسفر التي اضطلعت بها بنشاط كبير أنقذتها لوقت ما من حزنها وأعادت إليها قواها.

وكما يحدث دائمًا نسيت الأميرة ماري التي احتكر السفر نفسه كل عنايتها الغاية من السفر. ولكن عندما باتوا قريبين من أياروسلافل، عندما فكرت فيما يمكن أن ينتظرها ليس في غضون بضعة أيام بل ذلك المساء بالذات؛ تجاوز تأثرها كل الحدود.

وعندما عاد الحارس الذي أرسلوه للاستطلاع عن مسكن آل روستوف في إياروسلافل وعن حالة الأمير آندريه، والتقى بعربة «ألبرلين» التي تقل الأميرة ماري عند مدخل المدينة؛ رُوِّع روعًا شديدًا لشدة ما كان الوجه الذي أطلت عليه به من نافذة العربة شاحبًا ومنقلبًا.

قال الحارس: لديَّ كل المعلومات يا صاحبة السعادة، إن آل روستوف يقطنون على الساحة، في مسكن البائع برونيكوف، على ضفة الفولجا تمامًا.

حدَّقت الأميرة ماري في وجهه بعينين مذعورتين متوسلتين، دون أن تفقه السبب الذي من أجله تغاضى عن الإجابة على السؤال الرئيسي المتعلق بأخيها، ولقد طرحت الآنسة بوريين ذلك السؤال بدلًا من الأميرة، سألت: والأمير؟

– إن سعادته معهم في المسكن ذاته.

فكرت الأميرة: «إن معنى هذا أنه على قيد الحياة»، وأضافت بلهجة هادئة: «كيف حاله؟»

– يقول الخدم إنه ما زال على حاله.

لم تسأل الأميرة عما يُفهَم من هذا القول، بل اختلست نظرة إلى نيكولا الصغير، وهو طفل في السابعة من عمره جلس قبالتها وبدا شديد السعادة بالوصول إلى مدينة، ثم أطرقت برأسها فلم ترفعه إلا عندما توقفت عربتها ألبرلين الثقيلة التي كانت تقفز وتهتز وتصر، واصطفت المرقاة عندما أنزلوها.

فتحوا الأبواب، إلى اليسار ظهر أديم ماء النهر المتسع وإلى اليمين مرقاة، وعلى هذه المرقاة كان عدد من الخدم ينتظرون وبينهم فتاة شابة يانعة ذات ضفيرة سوداء كبيرة وابتسامة مغتصبة ضعيفة البشاشة — أو هكذا خُيِّل للأميرة ماري — هي سونيا، اندفعت الأميرة تريد ارتقاء الدرجات، لكن الفتاة ذات الابتسامة المغتصبة قالت: «من هنا، من هنا!» ووجدت ماري نفسها في بهو في حضرة سيدة ذات طابع شرقي هُرِعت للقائها وهي بادية التأثر الشديد، تلك كانت الكونتيس العجوز، أحاطت الأميرة ماري بذراعيها وراحت تقبلها وتقول: يا طفلتي! إنني أحبك وأعرفك منذ أمد طويل.

فهمت الأميرة ماري رغم شدة انفعالها أنها في حضرة الكونتيس، وأن عليها أن تجيب بشيء، فنطقت بكلمات مجاملة بالفرنسية على مثل الأسلوب الذي استُعمِل لاستقبالها دون أن تدرك كيف تم ذلك، ثم سألت: «كيف حاله؟»

فأكدت الكونتيس: إن الطبيب يقول إن الخطر قد زال.

لكنها ناقضت بنفس الوقت أقوالها بأن رفعت عينيها إلى السماء وأشفعت ذلك بزفرة.

سألت الأميرة: أين هو؟ هل يمكن رؤيته؟ هل يمكن؟

– فورًا يا أميرة، فورًا يا صديقتي.

ثم سألت الأميرة وهي تلتفت نحو نيكولا الذي دخل حينذاك مع ديسال: وهذا هو ابنه؟ لدينا أمكنة كافية لإيوائكم، فالبيت كبير، أوه! يا له من طفل فتان!

أدخلت الكونتيس ماري إلى البهو، وكانت سونيا تتحدث مع الآنسة بوريين. راحت الكونتيس تمطر الطفل بالمَلَق، ودخل الكونت العجوز ليحيي الأميرة، لقد تغير كثيرًا منذ أن رأته آخر مرة، لم يعد الكهل الصغير النشيط المليء بالاندفاع والثقة إلا رجلًا مسكينًا

مشوَّشًا يثير الإشفاق، ما كان يكف وهو يتحدث مع الأميرة عن إلقاء نظرات قلقة حوله وكأنه يتأكد من أنه يعمل تمامًا ما وجب عليه عمله، لقد فقد بشكل واضح الاهتمام بكرامته الشخصية وأصبح يرى نفسه عالة في الحياة بعد أن فقد ثقته بنفسه إثر نكبة موسكو ودماره الشخصي.

لم يكن للأميرة إلا رغبة واحدة، هي رؤية أخيها بأسرع ما يمكن، وترى في غضب أنهم يضيعون عليها وقتًا ثمينًا بكل هذه المجاملات والتهاني المبالغ فيها التي أغدقوها على ابن أخيها، مع ذلك فإنها لم تتوانَ عن التطلع إلى ما حولها، وشعرت بضرورة الخضوع لهذه الأساليب الجديدة بالتصرف، كانت تعرف أن كل هذا لا ريب فيه وأنه يجب احتماله مهما بلغت مشقته.

قالت الكونتيس وهي تقدم سونيا: هذه ابنة أختي سونيا، إنك لا تعرفينها بعد يا أميرة.

فالتفتت الأميرة نحو سونيا وقبلتها، وهي تحاول جاهدة كبت شعور العداء الذي استبد بها نحو الفتاة، لكن الأكثر إيلامًا بالنسبة إليها حينذاك كان اطلاعها على مدى بُعد الاستعداد الفكري لدى كل من حولها عن اتجاهها الشخصي.

سألت من جديد موجهة حديثها إليهم بدون استثناء: أين هو؟

فأجابت سونيا ووجهها يتضرج: إنه في الأسفل، وناتاشا تسهر عليه، لقد ذهبوا يعلنون قدومك، أظن أنك شديدة التعب يا أميرة!

انبثقت دموع الغضب من عينَي ماري، فاستدارت وكادت أن تطلب إلى الكونتيس الطريق إلى حيث أخيها عندما ارتفعت عند الباب خطى خفيفة حازمة تبدو كأنها تنبئ بالفرح، فنظرت الأميرة وراءها لترى ناتاشا داخلة في ما يشبه الجري، ناتاشا تلك نفسها التي لم ترُقْ لعينيها قط إبان لقائهما الأخير في موسكو.

لكنها ما كادت تطالع وجهها حتى أدركت من فورها أن ناتاشا هذه هي رفيقة أحزانها المخلصة وبالتالي صديقتها، اندفعت للقائها وطوَّقتها بذراعيها ثم راحت تبكي على كتفها.

لم تكد ناتاشا الجالسة قرب سرير الأمير آندريه تعلم بوصول الأميرة ماري، حتى خرجت بهدوء من غرفة المريض وجرت إليها بتلك الخطى التي بدت مرحة بادئ الأمر في نظر الأميرة ماري.

ولما دخلت البهو وهي في شبه جري، لم يكن وجهها المنفعل يَنُمُّ إلا بعاطفة واحدة الحب، الحب الذي لا تحده حدود نحوه، نحوها ونحو كل ما يتصل بالرجل الذي تحب،

عاطفة إشفاق وحنان ورغبة جامحة في أن تنذر نفسها للترفيه عن الآخرين، كان يُرى في تلك الدقيقة أن ناتاشا لا تفكر في نفسها ولا في علاقاتها مع الأمير آندريه.

ولقد لمست الأميرة ماري كل هذا ببديهتها من النظرة الأولى التي ألقتها على وجه ناتاشا، لذلك فقد انصرفت تبكي على كتفها بفرحة مرة. قالت ناتاشا وهي تأخذها إلى حجرة أخرى: هيا بنا، هيا بنا إليه يا ماري.

رفعت الأميرة ماري رأسها وجفَّفت دموعها وأرادت أن تسألها، كانت تحس بأنها تستطيع معرفة كل شيء عن طريقها، شرعت تقول: إذن؟

لكنها توقفت، شعرت بأنه يتعذر السؤال والجواب باستعمال الكلمات، فوجه ناتاشا وعيناها كانت تنطق بلغة أشد وضوحًا وأبعد عمقًا.

كانت ناتاشا تنظر إليها ولكنها تبدو كأنها طافحة بالقلق والتردد، تُرَى هل يجب عليها أن تقول ما تعرفه أم تخفيه؟ كانت تحس بأنه يستحيل إخفاء الحقيقة كما تعرفها هاتين العينين اللامعتين اللتين تتغلغلان إلى أعماق قلبها، وفجأة ارتعدت شفتا ناتاشا وطافت بفمها حركة فغيرته، ثم انخرطت تبكي وقد أخفت وجهها بين يديها. أدركت ماري كل شيء، مع ذلك لقد جنحت إلى الأمل رغم كل شيء، وسألت دون أن تصدق الكلمات التي تنطق بها: وكيف حال جرحه؟ في أية حال هو؟!

فلم تستطع سونيا إلا أن تقول: سوف، سوف ... ترين.

ظلتا بضع لحظات في الأسفل في غرفة مجاورة لحجرة الأمير كي تخفيا دموعهما وتصلا بالقرب منه بوجهين هادئين. سألت الأميرة ماري: كيف كان سير مرضه؟ هل هو أسوأ حالًا منذ زمن طويل؟ متى وقع «ذلك»؟

روت ناتاشا أنه خلال الأيام الأولى هدد الألم والحمى حياته بالخطر، ولكنه في ترونيتسا طرأ تحسن على حالته فلم يعد الطبيب يخشى إلا الأكلة، ثم استبعد هذا الخطر كذلك ... أما في إياروسلافل فقد حصل إصْدَاد — ولقد أصبحت ناتاشا خبيرة في هذه الأمور — فأكد الطبيب أن هذا الإصداد سوف ينقطع ثانية، ثم عادت الحمى لكنه أكد ثانية أنها لن تكون خطيرة.

وشرعت ناتاشا تقول: مع ذلك فإن «ذلك» وقع فجأة أول أمس — وابتلعت شهقة لست أدري لماذا — لكنك ستتأكدين بنفسك كيف حاله.

سألت الأميرة: هل هو أشد ضعفًا؟ هل هُزِل؟

– كلا، ليس الأمر متعلقًا بهذا، إنه شيء أَسوأ كثيرًا، سوف ترين، آه! يا ماري، إنه شديد الطيبة، لن يستطيع، كلا، لن يستطيع أن يعيش لأنه ...

الفصل الخامس عشر

الدلائل الأولى

عندما فتحت ناتاشا الباب بحركتها المألوفة، وقدمتها عن نفسها في الدخول، شعرت الأميرة بالعبرات تخنقها، لقد عملت ما بوسعها لتستعد وحاولت جهدها أن تظهر هادئة، لكنها كانت تعرف أنها ستكون عاجزة عن رؤية أخيها دون أن تبكي.

لقد فهمت الأميرة ماري ما أرادت ناتاشا أن تقوله بهذه الكلمات؛ لقد وقع «ذلك» فجأة أول أمس، فهمت أن معنى ذلك أنه أفرط فجأة في التحنان، وأن ذلك الحنو الفجائي من آيات الموت السابقة، عادت ترى في خيالها وهي تقترب من الباب وجه آندريه طفولتَها الصغيرة، ذلك الوجه اللطيف المليح الحاني المحتشم، الذي قلَّما عادت تراه فيما بعد، والذي كان كل مرة يزيد في انفعالها بأكثر قوة من المرة السابقة، كانت تعرف أنه سيقول لها تلك الكلمات الهادئة الحانية نفسها التي قالها أبوها لها قبل وفاته، وأنها لن تحتمل سماعها فتذوب في دموعها، ولكن طالما وجب ذلك آجلا أم عاجلًا، فقد حزمت أمرها ودخلت إلى الغرفة، وكلما تبينت عيناها الكليلتان بوضوح شكل أخيها أكثر وتقاطيعه، تدافعت الغصات إلى حلقها، وأخيرًا شاهدت وجهه وقابلت نظرته.

كان ممددًا فوق أريكة متكئًا على وسائد، متدثرًا بمعطف منزلي مبطن بفراء السنجاب، وكان شديد النحول شاحبًا، وإحدى يديه نحيلة لدرجة الشَّفَف تحمل منديلًا، بينما راحت الأخرى تفتل شاربه الرفيع المسترسل بحركة خفيفة من أصابعها، أما عيناه فكانت شاخصتان إليهما.

عندما شاهدت وجه أخيها ولاقت عينيه، أبطأت الأميرة ماري خطاها، شعرت فجأة بدموعها تخف ونحيبها يهدأ، أحست فجأة وكأنها مذنب أمام هذا الوجه وأمام تلك النظرة.

تساءلت: «ولكن أي ذنب جنيت؟!»

وأجابت نظرة الأمير آندريه الباردة الصارمة: «ذنب الحياة والتفكير في العيش بينما أنا ...» لقد أصبحت تلك النظرة العميقة التي لا ترى ما في الخارج فحسب بل كذلك ما في داخل نفسه، شبه عدائية عندما استدار ببطء نحو الأميرة ماري ونحو ناتاشا.

تعانق الأخ والأخت قلبيًّا حسب عادتهما، وقال بصوت جامد ضعيف وغريب مماثل في هذه الصفات لنظرته: مرحبًا يا ماري، كيف عملت لتصلي إلى هنا؟

ولو أنه أطلق صرخة ثاقبة، لَمَا أذهلت تلك الصرخة الأميرة ماري وروَّعتها كلهجة ذلك الصوت.

قال بذلك الصوت الهادئ البسيط وهو يبذل جهدًا ظاهرًا للتذكر: هل جئت بصغيري نيكولا معك؟

سألت الأميرة ماري وهي دهشة لسؤاله: كيف حالكَ الآن؟

فأجاب: هذا يا عزيزتي يجب سؤال الطبيب عنه.

ولكي يبدو أنيسًا قال باستخفاف، وكان واضحًا أنه لا يفكر قط في ما يقول: شكرًا يا صديقتي العزيزة لمجيئك.

ضغطت الأميرة ماري على يده، فقطب حاجبيه عند ذلك تقطيبًا خفيفًا، كان ملتزمًا الصمت بينما لم تكن هي تعرف ماذا تقول، فهمت ماذا جرى له منذ يومين. إن كلماته ورنة صوته وبصورة خاصة نظرته الباردة شبه العدائية، كانت تنطق بذلك التخلي عن كل ما هو دنيوي، ذلك التخلي الذي يروع الإنسان صحيح الجسم. كان الأمير آندريه يبدو كأنه يفهم العالم الحي بصعوبة، وكان يرى أن ذلك غير ناجم عن انعدام ميزة الفهم لديه، بل عن أنه يفهم شيئًا آخر لا يستطيع الأحياء فهمه ولا يفهمونه، شيئًا يغمره كله.

هتف فجأة وهو يقطع الصمت ويشير إلى ناتاشا: نعم، لقد جمعنا القدر بطريقة غريبة! إنها هي التي تُعنَى بي الآن.

كانت الأميرة ماري تسمع جيدًا، ولكن دون أن تفهم ما كان يقوله أخوها، هو شديد اللطف، شديد الحنان كيف أمكنه أن يتكلم هكذا أمام تلك التي يحبها والتي تحبه؟! لو أنه كان يعتقد بشفائه لما تحدث بمثل هذه اللهجة المتحررة المهينة، ولو علم أنه مائت فكيف لم يشفق عليها؟! كيف يمكنه أن يتكلم في حضورها على هذا النحو؟! لا يمكن إعطاء كلماته إلا تفسيرًا واحدًا أن كل شيء متساوٍ لديه، وذلك بكل دقة، لأن شيئًا ما آخر أكثر أهمية قد كُشف له.

وكانت المحادثة الباردة المتواترة تتوقف في كل لحظة.

قالت ناتاشا: لقد جاءت ماري عن طريق ريازان.

لم يلاحظ الأمير آندريه أنها تنادي أخته باسمها الصغير، لكن ناتاشا انتبهت لأول مرة في حضرته، سأل: حسنًا؟

– رَوَوْا لها أن موسكو أصبحت رمادًا كلها وأن …

وتوقفت ناتاشا، الأفضل أن تصمت، لقد كان يبذل جهدًا ظاهرًا للإصغاء دون أن يصل إلى بغيته.

نعم، يقولون إن موسكو قد احترقت، وهذا محزن للغاية.

خلال ذلك كانت نظرته شاخصة أمامه وأصابعه تجذب شاربه بحركة آلية.

قال الأمير آندريه فجأة وهو يرغب في الظهور بمظهر المؤنس: وهل قابلت الكونت نيكولا؟

ثم أردف ببساطة وهدوء وكأنه لا يملك القوة على تصور مدى أهمية كلماته بالنسبة إلى أحياء: لقد كتب إليَّ هنا يقول إنك تروقين له كثيرًا!

وأنهى حديثه قائلًا بسرعة وكأنه سعيد إذ وجد أخيرًا الكلمة التي طال بحثه عنها: فإذا كان يروق لك بالمثل، فإن ذلك يكون لخيركما … سوف تقترنين به. لم تكن لتلك الكلمات أكثر من معنى واحد عند الأميرة ماري، إنها تشير إلى أن أخاها بعيد الآن بشكل مريع عن عالم الأحياء.

هتف بلهجة هادئة وهي تنظر إلى ناتاشا: لمَ التحدث عني؟!

وأحست ناتاشا بتلك النظرة تنحط عليها لكنها لم ترفع رأسها. ومن جديد ران الصمت.

– آندريه، هل تريد … هل تريد رؤية صغيرك نيكولا؟

طرحت الأميرة ماري هذا السؤال فجأة بصوت مرتعد، وأضافت: إنه لا يني يتحدث عنك!

طافت على شفتَي الأمير آندريه لأول مرة ابتسامة خفيفة، لكن الأميرة التي كانت تعرف وجهه تمامًا أدركت بهَوْل أنها لم تكن ابتسامة سرور أو حنان لفكرة وجود ولده، بل ابتسامة سخرية رقيقة لبقة موجهة إليها، لأنها استعملت الوسيلة الأخيرة التي — حسب رأيها — كانت قمينة بإيقاظ العاطفة فيه.

– نعم، سأكون مسرورًا برؤية صغيري نيكولا، هل صحته جيدة؟ وعندما جيء بنيكولا الصغير للأمير آندريه نظر الطفل إلى أبيه بذعر وروع، ولكن دون أن يبكي لأنه لم يرَ أحدًا يبكي، فقبَّله الأمير آندريه دون أن يعرف ماذا يقول له.

ثم صرفوا الصغير واقتربت الأميرة ماري من أخيها من جديد فقبَّلته وانفجرت منتحبة وقد عجزت عن امتلاك أعصابها أكثر مما فعلت.

تأملها بنظرة محدقة، ثم سأل: أتبكين بسبب نيكولا؟

فأشارت الأميرة ماري خلال دموعها بحركة إيجابية من رأسها.

– ماري، هل تعرفين الانجـ ...

وصمت فجأة.

– ماذا تريد أن تقول؟

فقال وهو يحدق فيها بنظرته عديمة الإحساس: لا شيء هنا، لا يجب البكاء.

عندما رأى أخته تنفجر باكية أدرك الأمير آندريه أن أخته تبكي، لأن نيكولا الصغير سيصبح بعد حين يتيمًا، فبذل جهدًا كبيرًا على نفسه ليعود إلى الوراء قليلًا في الحياة وليستعيد وجهة نظر الأحياء.

فكر: «نعم، إن ذلك لا بد يؤلمهم كثيرًا! مع ذلك كم هو بسيط!» حدث نفسه وهو راغب في أن يشرك أخته في تفكيره ذاك: «إن عصافير الأجواء لا تزرع ولا تحصد، مع ذلك فإن أبانا السماوي يطعمها، ولكن لا، إنهما ستفهمان ذلك على طريقتهما أم لعلهما لن تفهما ذلك؟! إنهما لا تستطيعان فهم هذا، إن كل هذه العواطف التي تعلقان عليها كل هذه الأهمية وكل ما هو شخصي بحت في نظرنا وكل هذه الأفكار التي تبدو لنا بالغة الأهمية؛ إن كل هذا عديم الفائدة! كلا، ما عدنا نستطيع أن نتفاهم!» ثم صمت.

كان ابن الأمير آندريه الصغير على وشك بلوغ السنة السابعة من عمره، فكان بالكاد يعرف القراءة ولم يكن بعد قد تعلم شيئًا، ولقد كان عليه منذ ذلك اليوم أن يكتسب خبرة ومعلومات وميزة الملاحظة. مع ذلك لو أنه استطاع أن يستعمل حينذاك كل الكفاءات التي وزعها فيما بعد، لما استطاع أن يفهم معنى المشهد الذي رآه يُمَثَّل بين أبيه والأميرة ماري وناتاشا أفضل مما فهمه، لقد فهم كل شيء وخرج من الحجرة دون أن يبكي واقترب بسكون من ناتاشا التي تبعته، ونظر إليها بوجل بعينيه الجميلتين الحالمتين وقد طافت رعدة خفيفة بشفتيه القرمزية الشامخة قليلًا، ثم أخفى رأسه في هيكل الفتاة وراح يبكي.

ومنذ ذلك الحين أخذ يتحاشى ديسال وملاطفات الكونتيس، فكان يلبث العليا وحيدًا تارة، وتارة يقترب من الأميرة ماري وناتاشا التي بدا أنه يفضِّلها على عمته نفسها، ويستخلص بخجل ووجل ممالقاتهما.

وعندما خرجت الأميرة ماري من مقابلتها مع أخيها وفهمت كل ما حدثها به وجه ناتاشا، لم تعد تتحدث إلى الفتاة عن أمل بالشفاء. حلت محلها قرب الأريكة حيث كان الأمير آندريه مسجًّى، وراحت دون أن تبكي أكثر مما بكيت ترفع إلى الأزلي الخالد صلوات من كل روحها، إلى الممتنع الذي جلت معرفته والذي كان حضوره عند رأس المُحْتَضَر يكاد يكون ملموسًا.

الفصل السادس عشر

موت آندريه

لم يكن الأمير آندريه يعرف أنه سيموت فحسب، بل كان يشعر كذلك أنه يموت، بل إنه أصبح نصف ميت، كان شاعرًا تمامًا بانفكاكه عن الأشياء الدنيوية، يحس بخفة مرحة غريبة، وكان ينتظر الذي لا بد منه دون تعجل ولا قلق. إن ذلك الوجود المنذر الخالد المجهول الذي لم يكف طيلة حياته عن الإحساس به بات الآن قريبًا جدًّا، ولم تكن هذه الخفة الغريبة إلا الدليل الملموس الحساس.

لقد خاف الموت فيما مضى وأحس مرتين بالقلق المريع إذ رأى نفسه قريبًا من نهايته، أما الآن فإنه لم يعد يشعر بهذا القلق.

شعر به أول مرة حينما كانت القنبلة تدور أمامه وهو ينظر إلى الحصد والأدغال والسماء وهو عارف بدنوِّ الموت، فلما استعاد حواسه بعد جرحه خُيِّل إليه أنه قد تخلص بصورة ما من ثقل الحياة الذي كان يمسك به، ولم تلبث بعد ذلك أن تفتحت في نفسه زهرة الحب الأبدي الحر وقد تحرر من كل رباط مع هذه الحياة، ومنذ ذلك الحين لم يعد يفكر في الموت قط بدلًا من أن يخاف منه.

فكَّر مليًّا خلال ساعات الوحدة الأليمة ونصف الهذيان التي أعقبت جرحه في ذلك الحب الأزلي الذي اكتشفه حديثًا، حتى إنه راح ينفصل أكثر فأكثر عن الحياة الدنيوية دون أن يكون لديه شك في ذلك، حب كل شيء وكل الناس، والتضحية بالذات دائمًا في سبيل الحب يعني عدم محبة أحد بالذات، وبالتالي عدم العيش حياة دنيوية. وعلى هذا فإنه كلما ازداد تعمقًا في ذلك الحب الجديد، ازداد اعتكافًا لأشياء هذا العالم، وأزال تمامًا الحاجز الرهيب الذي لولا الحب يقع بين الموت والحياة، وعندما شعر في الآونة الأولى بأنه على وشك الموت، قال لنفسه: «حسنًا، هذا أفضل!»

لكنه بعد تلك الليلة في ميتيشتشي حيث رأى وهو في حالة أقرب إلى الهذيان تلك التي يرغب فيها تظهر أمامه، وحيث سفح دموع فرح حلوة وهو يضغط يدها على شفتيه؛ عاد الحب الذي تسلل خلسة إلى قلبه فأعطاه طعم الحياة، وعادت إليه أفكار مشرقة مقلقة. كان يشعر حينذاك بعجزه عن استعادة ذلك الشعور الذي أحس به عندما رأى كوراجين في مستشفى الميدان وأخذ يتعذب لمعرفة ما إذا كان سيعيش، ولكنه ما كان يجرؤ على طرح ذلك السؤال.

خلال ذلك تبع المرض طريقه الطبيعي، حيث «ذلك» الذي تحدثت عنه ناتاشا قبل وصول الأميرة ماري بيومين. لقد كان النضال الرفيع بين الموت والحياة ذلك النضال الذي تفوق فيه الموت، كان التأكيد غير المنتظر بأنه لا يزال يتعلق بالحياة لأنها تمثل له حب ناتاشا، وكان التمرد النهائي من جانب كيانه كله ضد المجهول الماثل.

كان المساء قد هبط، وكان كعادته بعد أن تناول الطعام مرتفع الحرارة قليلًا، ولكن أفكاره كانت من أكثر الأفكار إشراقًا، وكانت سونيا جالسة قرب الطاولة وهو يحلم، وفجأة استولى عليه شعور بالسعادة.

فكَّر: «آه! ها هي ذي!»

والواقع أن ناتاشا دخلت حينذاك وحلت محل سونيا دون أية ضجة.

لقد ظل يشعر منذ أن بدأت تُعْنَى به بذلك الشعور المادي في حضرتها، كانت جالسة على مقعد وثير يظهر منها جانب وجهها، تحجب ضوء الشمعة وتسرد جوربًا (لقد تعلمت السرد لأن الأمير آندريه قال لها ذات يوم إنه ما من أحد يحسن العناية بالمرضى أفضل من عجائز المربيات اللواتي يسردن الجوارب، وإن في السرد شيئًا مهدِّئًا)، تزلق أصابعها الدقيقة الصنانير بنشاط وهي تشتبك من حين إلى آخر، وكان يرى جانب وجهها الساهم المنحني مرتسمًا بوضوح على صفحة العتمة، أتت بحركة فتدحرجت كتبها على ركبتيها فانتفضت، وألقت نظرة على الأمير آندريه ثم حجبت ضوء الشمعة بيدها، وبحركة حريصة مرنة وسريعة انحنت فلمَّت كتبها واستعادت وضعيتها الأولى.

كان ينظر إليها دون أن يتحرك فلاحظ أنها بعد حركتها تلك في حاجة إلى نَفَس عميق بعد أن انحنت على ذلك النحو، لكنها لا تسمح لنفسها به وتسعى أن تتنفس بهدوء وحذر.

لقد تحدثا عن الماضي في دير الثالوث، فقال له إنه إذا عاش فسينذر إلى الله عرفانًا أبديًّا لذلك الجرح الذي ساقه إليها، لكنهما منذ ذلك الحين لم يتحدثا عن المستقبل أبدًا.

فكر الآن وهو ينظر إليها ويصغي إلى قرع الصنانير الفولاذية الخفيف: «هل يمكن؟ نعم هل يمكن؟ هل يمكن أن تكون القدرة قد جمعتني بها على هذا النحو المدهش لكي أموت فقط؟ ... هل يُعْقَل أن تكون حقيقة الحياة لم تُكْشَف لي إلَّا لتكذبني؟ إنني أحبها أكثر من كل الناس، وإذا كنت أحبها هكذا فماذا عليَّ أن أفعل؟» وفجأة أفلت واحدة من أنَّاته العميقة التي تنتابه في أُوَيْقات الألم.

وضعت ناتاشا سردها عند سماعها تلك الأنَّة وانحنت عليه، فلما لاحظت فجأة عينيه اللامعتين جاءت إليه بخطًى خفيفة: ألستَ نائمًا؟

– كلا، لقد مضى عليَّ وقت طويل وأنا أنظر إليك، لقد شعرت بك تدخلين، ما من أحد يهبني مثلك تلك الراحة الحلوة ... ذلك الإشراق، وددت، وددت لو بكيت من الفرح.

ازدادت ناتاشا انحناءً عليه ووجهها يضيء بفرحة لا تُوصَف.

– ناتاشا، أحبك حبًّا مفرطًا، أكثر من كل الناس.

– وأنا!

ثم أدارت رأسها فترة، وقالت: ولكن لماذا حبًّا مفرطًا؟

– لماذا مفرطًا؟ هه، ماذا تفكرين وجدانيًّا، من كل وجدانك، هل سأعيش؟ هل تصدقين هذا؟

فقالت ناتاشا في شبه صرخة وهي تمسك بيديه بحركة كَلِفَة: بل إنني واثقة، واثقة!

فصمت، ثم قال وهو يأخذ يدها ويقبِّلها: كم سيكون ذلك رائعًا!

كانت ناتاشا سعيدة وقلقة، لكنها تذكرت فجأة أن المريض يجب أن يبتعد عن التأثر وأنه في حاجة إلى الهدوء، فقالت وهي تخنق فرحتها: وأنت الذي لم تنم حاول أن تنام ... أرجوك.

وازداد ضغطًا على يدها ثم تركها تذهب، فعادت ناتاشا تجلس قرب الشمعة في وضعيتها السالفة، ولقد اختلست إليه النظر مرتين ولاقت في كل مرة عينيه اللامعتين، وحينئذ رتبت على نفسها واجبًا في حياكة جوربها، ووعدت نفسها بأن لا تنظر إليه طالما لم تفرغ من عملها.

وفي الواقع أنه لم يلبث بعدئذ أن أغمض عينيه ونام، لكنه نام نومًا قصيرًا إذ سرعان ما استفاق فجأة وقد نضح جسمه بعرق بارد.

لم يفتأ في نومه يفكر في ما ظل يشغله طيلة هذه الحقبة؛ في الموت وفي الحياة، وبصورة خاصة في الموت الذي كان يشعر به أكثر قربًا.

حدث نفسه: «الحب! ما هو الحب؟»

«إن الحب يعارض الحياة، الحب هو الحياة. إن كل، كل ما أفهمه، لا أفهمه إلا لأنني أحب. إن كل شيء قائم، كل شيء موجود لأنني أحب فقط. إن كل شيء يتعلق بالحب، إن الحب هو الله، والموت في نظري يعني ذرة من هذا الحب، العودة إلى الكل الكبير، إلى المنهل الأزلي.» بدت له هذه الأفكار مواسية ولكنها لم تكن إلا مجرد أفكار، لقد كان شيء ما يسفهها، ففيها شيء ملزم من جانب واحد، شيء شخصي، شيء قياسي بحت، وهي مفتقرة إلى البيان، وهذا يجلب الكآبة والشك. أخيرًا، أغفى.

حلم بأنه مستلقٍ في تلك الحجرة بالذات التي هو فيها الآن، لكنه بدلًا من أن يكون جريحًا كان في عافية جيدة، ومر أمامه أناس كثيرون تافهون وغير مبالين، فكان يحدثهم ويناقشهم حول موضوع عديم الأهمية، وكانوا يستعدون إلى الذهاب إلى جهة ما والأمير آندريه يرى بإبهام أن كل ذلك عقيم، وأن في رأسه عددًا من المشاغل الأكثر خطورة، مع ذلك فقد ظل يدهشهم ويحدثهم ببديهة متَّقدة عن أشياء تافهة. وبالتدريج، ودون أن يشعر بهم، بدأ هؤلاء الناس كلهم يتفرقون ويختفون، ولم يبقَ إلا مشكلة واحدة مشكلة إغلاق الباب، فنهض واقترب من الباب ليغلقه وليدفع المزلاج، تُرى هل سيجد الوقت لإغلاق الباب أم لا؟ هذا ما كان «كل شيء» يتوقف عليه. مضى مستعجلًا ولم تعد قدماه تحملانه، إنه يعرف أن الوقت لن يتاح له، خلال ذلك شدد من قواه بشكل مؤلم فاعتصره قلق شديد، وهذا القلق الشديد هو قلق الموت، «إنه» كامن في الجانب الآخر من الباب. وبينما هو منهمك بخرق وعجز في إغلاقه، كان شيء ما مخيف من الجانب الآخر يميل بثقله عليه ويقتحمه شيء ما لا يمت إلى الإنسانية بصلة، الموت يقتحم الباب وهو على وشك الدخول. منع الباب بكل ما تبقى له من قوى، فطالما أنه لا يستطيع إغلاق الباب فلا أقل من أن يمنع الموت من الدخول، لكنه بالغ الخرق شديد الضعف، وفُتِح الباب تحت الضغط الخارجي الرهيب ثم أُغْلِق.

جاءت دفعة أخيرة من الخارج، ثم مجهود أخير فوق طاقة البشر عقيم، واستسلم المصراعان معًا دون جلبة: «هو ذا دخل»، إنه الموت. وأخذ الأمير آندريه يموت.

لكنه وهو في سياق الموت تذكر أنه نائم، فبذل وهو يموت مجهودًا عنيفًا أيقظه.

«نعم، ذاك كان الموت، لقد كنت ميتًا واستيقظت، نعم، إن الموت يقظة»، وفجأة أضاءت روحه وارتفع الستر الذي ظل حتى ذلك الحين يُحْجَب عن نظره الداخلي، شعر كأنه تحرر من القوة التي ظلت تَفُلُّه حتى ذلك الحين، ولم يعد ذلك التخفيف الذي شعر به يفارقه حتى النهاية.

عندما استيقظ سابحًا في العرق البارد، تحرك فوق الأريكة فجاءت إليه ناتاشا وسألته عما يريد، فلم يجبها وراح ينظر إليها بنظرة فريدة دون أن يفهم ما تسأله.

ذاك كان ما حصل له قبل وصول الأميرة ماري بيومين، ومنذ ذلك الحين — كما لاحظ الطبيب — أخذت الحمى البطيئة تأخذ طورًا مؤذيًا. ولكن لم تكن مزاعم الطبيب هي التي تثير الحنو في قلب ناتاشا، لقد شاهدت الأعراض الروحية التي كانت أشد هولًا وامتناعًا عن الجدل بالنسبة إليها.

وفي الواقع إن الأمير آندريه شرع منذ ذلك اليوم يخرج من الحياة بنفس وقت خروجه من حلمه، ولقد بدا له أن مبارحة الحياة أشد بطئًا من الإفاقة من مرئيات حلم.

لم يميز يقظته البطيئة لحياة أخرى شيء مريع أو مثير.

لقد انقضت أيامه الأخيرة وساعاته الأخيرة على نحو أبسط من المعتاد، ولقد شعرت بذلك الأميرة ماري وناتاشا اللتان ما كانتا تفارقانه، لم تبكِ هذه ولا تلك وكفَّتا كلتاهما عن تعذيب نفسهما، وباتتا تشعران خلال اللحظات الأخيرة أنه لم يعد هو الذي تُعْنَيَان به، وهو الذي لم يعد له وجود إذ كان قد فارقهما، بل ذكراه القريبة وجسده المُحْتَضَر. ولقد كان هذا الإحساس من القوة لدى كلتيهما حتى لم يعد الجانب الرهيب الجانب الأبدي من الموت يؤثر فيهما، ولم تعودا تجدان فائدة من إذكاء نار آلامهما، لم تبكيا بالقرب منه ولا بعيدتين عنه ولم تتحدثا عنه فيما بينهما أبدًا، كانتا تشعران بأنهما لن تستطيعا التعبير عما فهمتاه بواسطة الكلام.

كانتا كلتاهما تريانه يفلت من أيديهما أكثر فأكثر، ببطء وهدوء، ليمضي بعيدًا، وكانتا كلتاهما تعرفان أن ذلك لا بد واقع وأنه حسن.

جعلوه يعترف ويتناول، وجاءوا جميعهم يودِّعونه. ولما جاءوه بابنه ضغط بشفتيه على وجنته واستدار، ليس لأن ذلك كان أليم الوقع عليه جَمَّ الحزن له — وقد فهمت الأميرة ماري وناتاشا ذلك — بل لأنه كان يفترض أن هذا كل ما يتوقعونه منه، مع ذلك فإنه عندما طُلِب إليه أن يبارك ابنه قام بما طُلِب إليه، وألقى نظرة محيطة وكأنه يتساءل عما إذا بقي عليه أن يفعل شيئًا ما. حضرت الأميرة ماري وناتاشا تنشجان الجسد الأخير الذي فارقه الذهن، وقالت الأميرة ماري عندما بات جسد أخيها لا حراك به أمامهما منذ أكثر من دقائق وأخذ البرد يدب إليه: لقد انتهى!

فاقتربت ناتاشا ونظرت إلى العينين الميتتين وسارعت تغمضهما، أطبقتهما ولم تقبِّلهما بل وضعت شفتيها بخشوع على ما أصبح الآن الذكرى الأقرب إلى الذهن للأمير آندريه.

«إلى أين ذهب؟ أين هو الآن؟ ...»

وعندما أُسجِي الجسد بعد غسله وإلباسه الثياب في نعشه فوق المائدة، اقتربوا جميعهم منه يودعونه.

أخذ نيكولا الصغير ينشج وهو في تلك الوحشة الأليمة التي كانت تمزق نياط قلبه، وراحت الكونتيس وسونيا تتوجعان على ناتاشا وعلى ذلك الذي لم يعد له وجود. أما الكونت العجوز فكان يذرف الدموع وهو يفكر في أنه هو الآخر سيجتاز قريبًا هذه الخطوة الرهيبة نفسها.

الآن أخذت الأميرة وناتاشا تبكيان، لم تكن دموعهما منبعثةً عن ألمهما الشخصي، بل من التأثر الخاشع الذي امتلأت به نفسهما أمام هذا السر البسيط الجليل سر الموت الذي وقع وأُنْجِز تحت بصرهما.

الجزء الثاني

الفصل الأول

سير الجناح

إن مجموعة أسباب الظاهرات شيء لا يبلغه العقل البشري، غير أن الرغبة في اكتشاف الأسباب مغروسة فطريًّا في قلب الإنسان، وعلى هذا فإن الفكر يتعلق بأول حدث وافد سهل المنال، ويقول: هذا هو السبب، لأنه عاجز عن التعمق في شروط الظاهرات المعقَّدة ومداها اللانهائي. وفي الظاهرات التاريخية حيث الدراسة تقتصر على أفعال الأشخاص، تبدو إرادة الإله أقدم الأحداث المصاحبة، ثم تأتي بعدها إرادة الرجال الذين يشغلون المراكز الأكثر رفعة في التاريخ، أي الأبطال. مع ذلك يكفي أن يتعمق المرء في جوهر كل حدث تاريخي، أي في نشاط الجمهور البشري الذي ساهم فيه، ليتأكد من أن إرادة بطل لا توجه ذلك النشاط الجماهيري، بل إنها نفسها موجهة باستمرار، وفهم حدث تاريخي على هذا اللون أو على نهج آخر يمكن أن يبدو معدوم الفرق. مع ذلك فإن بين من يقول: إن شعوب الغرب اتجهت نحو الشرق لأن نابليون كان يريد ذلك، وبين الذي يقول: إن الأمر قد وقع لأنه لم يكن هناك بد من وقوعه؛ مثل انعدام الفرق بين الأشخاص الذين يؤكدون أن الأرض جامدة والكواكب تدور حولها، وبين الذين يقولون بجهلهم على أي شيء ترتكز الأرض؟ ولكن يؤيدون مع ذلك أن هناك قوانين تنظم حركتها وحركة الكواكب الأخرى. ولا يوجد كما لا يمكن أن يوجد سبب آخر للحدث التاريخي غير سبب الأسباب. لكن هناك القوانين التي تدير الأحداث، وهذه القوانين التي غالبًا ما تكون مجهولة تبدو لنا أحيانًا محسوسة، واكتشافها غير ممكن إلا عندما نتنكب نهائيًّا البحث عن أسباب الأحداث في إرادة شخص واحد، كما لم يصبح اكتشاف قوانين حركة الكواكب ممكنًا إلا بعد أن أُغفِلت نظرية انعدام حركة الأرض.

بعد معركة بورودينو واحتلال موسكو واحتراقها باتت أهم مرحلة في حرب عام ١٨١٢ في نظر المؤرخين هي سير الجيش الروسي من طريق ريازان نحو طريق كالوجا

باتجاه معسكر تاروتينو — وهي قرية واقعة على نهر نارا — أي ما أطلقوا عليه اسم سير الجناح، وراء كراسنابيا باخرا وهي قرية وراء باخرا، رافد موسكفا الأيمن. إن المؤرخين يعزون شرف هذه المأثرة إلى مختلفين لم يتفقوا فيما بينهم عليهم، والغرباء أنفسهم والمؤرخون الفرنسيون أنفسهم يعترفون بعبقرية الجنرالات الروسيين عندما يتحدثون عن سير الجناح هذا (راجع تيير الجزء ١٤، ص٤٠٥). ولكن لماذا يرى المؤرخون العسكريون والناس كلهم في أعقابهم في سير الجناح ذاك نفاذ بصيرة أو نفاذ بصيرة شخص واحد، ذلك التبصر الذي أنقذ روسيا وقضى على نابليون؟ هذا هو ما صعب على الإدراك.

ففي المرحلة الأولى: لا يمكن لمس ما في هذه الحركة من عمق وعبقرية؛ لأنه لا يقتضي الحال مجهودًا فكريًّا كبيرًا لمعرفة أن أفضل موقع لجيش عندما لا يكون مهاجمًا هو المكان الذي يجد أكثر الموارد بالنسبة إليه، إن تلميذًا في الثالثة عشرة من عمره حتى ولو كان محدود الفكر يستطيع دون عناء أن يدرك أن أفضل موقع للجيش عام ١٨١٢ بعد هجر موسكو هو طريق كالوجا، لذلك لا يمكن الفهم للوهلة الأولى بنتيجة أية استنتاجات توصل بعض المؤرخين إلى اكتشاف شيء ما عميق في تلك الحركة.

وفي المرحلة الثانية: إنه أكثر صعوبة على الفهم معرفة السبب الذي يرى بعض المؤرخين في تلك الحركة خلاص الروسيين وضياع الفرنسيين، لأن سير الجناح ذاك في مناسبات تختلف عن تلك التي سبقته وصاحبته وتبعته لأولى إلى ضياع الجيش الروسي وخلاص الجيش الفرنسي. وإذا كان وضع الجيش الروسي قد تحسن منذ أن أُنْجِزت هذه الحركة، فإنه لا يمكن قط الاستنتاج أن هذه الحركة هي التي كانت السبب.

إن سير الجناح ذاك لم يكن يستطيع إضفاء أي تحسن أو ميزة فحسب، بل كان كذلك يمكن أن يسبب ضياع الجيش الروسي لو لم تتدخل لمساعدته ظروف أخرى، فماذا كان يحدث يا تُرى لو أن موسكو لم تحترق؟ ولو أن مورا لم يفقد اتصاله مع الروسيين؟ ولو أن نابليون لم يجد نفسه محمولًا على العجز؟ ولو أن الجيش الروسي خاض المعركة في كراسنابيا باخرا كما كان يريد بيينجسِّن وباركلي؟ ماذا كان يقع يا تُرى لو أن الفرنسيين هاجموا الروسيين أثناء سيرهم إلى وراء باخرا؟ ثم ماذا كان يحدث لو أن نابليون فيما بعد كان هاجم الروسيين عند مشارف تاروتينو بعُشر الحماس الذي بذله أمام سمولنسك؟ وماذا كان يحدث لو أن الفرنسيين مشوا إلى بيترسبورج؟! … إن حسنات سير الجناح ذاك في كل هذه الافتراضات كان يمكن أن ينقلب إلى دمار تام.

وفي المرحلة الثالثة: إن أشد ما هو ممتنع عن الإدراك يقوم في رؤية الناس، يدرسون التاريخ ويرفضون بتعمد أن يفهموا أن سير الجناح ذاك لا يمكن أن يُعزَى قط إلى مشيئة رجل واحد، وأن ما من أحد دبره في أية لحظة، وأن هذه «المناورة» وكذلك الانسحاب في فيلي لم يكن في مجموعها معدة من جانب أحد، بل تكونت خطوة فخطوة، وانتقلت من حدث إلى حدث دقيقة فدقيقة، نتيجة لعدد لا يُحصَى من المناسبات، وأن سير الجناح ذاك بالاختصار لم يظهر في مجموعه إلا بعد أن تم وأضحى جزءًا من الماضي.



قنصل الحرب في فيلي.

في المجلس الحربي المعقود في فيلي كانت الفكرة المسيطرة في القيادة الروسية العامة هي الانسحاب المفروض فرضًا بخط مستقيم، أي عن طريق نيجني-نوفجورود. ولقد

تأيد هذا بواقعة انحياز أكثر الأصوات في ذلك المؤتمر إلى هذه الفكرة، وخصوصًا بالمحادثة الخاصة التي جرت بعد ذلك بين القائد العام ولانسكوي الممون العام؛ عرض لانسكوي للقائد العام أن تموين الجيش قد رُكِّز بصورة خاصة على ضفاف نهر أوكا في حكومات تولا وكالوجا، وأنه في حالة التراجع باتجاه نيجني-نوفجورود فإن التموين سينقطع عن الجيش بسبب عرض مجرى نهر أوكا، الذي يستحيل الشروع في نقل على الزوارق عبره في بدء الشتاء. وكانت هذه الإشارة الأولى الدالة على ضرورة إغفال التقهقر على خط مستقيم باتجاه نيجني-نوفجورود، ذلك التقهقر الذي قُدِّر بادئ الأمر بأنه طبيعي جدًّا. اضطُرَّ الجيش أن يتجه متوغلًا نحو الجنوب على طريق ريازان ليقترب من مراكز تموينه، وبالتالي اضطُرَّ الجيش أن يسير في انحناء أكثر نحو الجنوب على طريق تولا بسبب جمود الفرنسيين الذي بلغ درجة إغفالهم الجيش الروسي والانشغال في الدفاع عن مصنع تولا، وبصورة خاصة بسبب ميزة الاقتراب من مراكز التموين. وبعد سير غير مأمون بغية الوصول إلى طريق تولا عبر ضفة باخرا الثانية، فكرت القيادة الروسية العليا في التوقف عند بولولسك دون أن تتصور قط حصن تاروتينو، لكن عددًا لا يُحصَى من الظروف ثم ظهور الفرنسيين الجديد الذين أضاعوا أثر الروسيين قبل ذلك ونوايا خوض المعركة، وبصورة رئيسية غزارة المؤن في كالوجا؛ كل ذلك دفع جيشنا إلى الانحناء أكثر نحو الجنوب والوصول إلى مركز تموينه، منتقلًا من طريق تولا إلى طريق كالوجا باتجاه تاروتينو، ولم يخطر ببال أحد أن يصدِّق أن الشيء قد أُرِيد وأُعِد منذ أمد طويل إلا عندما عسكر الجيش في تاروتينو وبعد أن تدخلت قوى تفاضلية لا تُحصَى.

الفصل الثاني

رسالة نابليون

قام سير الجناح العتيد فقط على أساس أن الجيش الروسي الذي كان يتراجع بخط مستقيم إلى الوراء على عكس الهجوم، انحرف عن طريقه السابق منذ أن توقف الهجوم، ورأى نفسه أنه غير متبوع واستدار بحركة طبيعية نحو الجهة التي تجتذبه إليها وفرة المؤن.

فلو فرضنا أن الجيش الروسي حينذاك كان محرومًا من الرؤساء العباقرة أو أنه كان دون رؤساء إطلاقًا، فإنه ما كان يستطيع أن يعمل غير حركة عودة نحو موسكو راسمًا قوس دائرة من الجهة التي تكون فيها الأرزاق أكثر وفرة والأرض أغزر إنتاجًا.

فانتقاله من طريق نيجني-نوفجورود إلى طريق ريازان وتولا وكالوجا كان طبيعيًّا جدًّا، مثل ما كان اتجاه سلَّابي الجيش الروسي في ذلك الاتجاه وفرض خط المسير ذاك على كوتوزوف من بيترسبورج طبيعيَّيْن تمامًا. ففي تاروتينو تلقَّى كوتوزوف ما يشبه التعنيف من الإمبراطور لأنه سلك طريق ريازان، وفرض عليه أن يتمركز قبالة كالوجا في الموقع نفسه الذي كان يحتله عندما وصلت إليه رسالة عاهله.

بعد أن تدحرجت الكتلة التي تشكل الجيش الروسي في الاتجاه الذي فرضته عليها الحملة كلها ثم معركة بورودينو، وبعد أن نجحت من تلقي أية صدمة جديدة بعد توقفها إثر الصدمة الأولى؛ استعادت تلك الكتلة الوضعية التي كانت طبيعة بالنسبة إليها.

فموهبة كوتوزوف إذن ليست فيما يسمونه «مناورة استراتيجية» عبقرية، ولكن في أنه وحده كان يفهم معنى الوقائع الدائرة، كان وحده حينذاك الذي يفهم أهمية جمود الجيش الفرنسي، وحده الذي كان يؤكد أن معركة بورودينو نصر، وحده الذي رغم ما كان يمكن لمركزه كجنرال قائد أعلى أن يحمله على التحيز نحو فكرة الهجوم، ظل يستعمل نشاطه كله ليجنب الجيش الروسي المعارك التي لا طائل تحتها.

كان الحيوان الجريح في بورودينو مسجًّى الآن حيث تركه الصياد الفار، فهل ما زال حيًّا؟ هل يحتفظ ببعض القوى أم تراه يتظاهر بانعدام تلك القوى؟ لم يكن الصياد يعرف شيئًا عن ذلك، لكن الحيوان الجريح أطلق فجأة زمجرة.

كانت زمجرة الحيوان الجريح الكاشفة عن نهايته الوشيكة تتلخص في عرض الصلح الذي حمله لوريستون[1] إلى معسكر كوتوزوف.

كتب نابليون إلى كوتوزوف متأثرًا بقناعته بأن الخير ليس ما هو خير بل ما يخطر له على بال، الكلمات الأولى التي طافت بذهنه، فكانت تلك الكلمات عارية من كل معنى:

> سيدي الأمير كوتوزوف، أوفد إليك أحد مساعديَّ العسكريين الجنرالات ليتحدث معك حول عديد من الأشياء المهمة، إنني أرغب أن تثق سعادتك في كل ما يقوله، خصوصًا عندما يعرب عن عواطف التقدير والاعتبار الخاص التي أكنُّها لشخصكم منذ أمد طويل. ولما كانت هذه الرسالة لا تهدف إلى غرض آخر، فإني أرجو الله يا سيدي الأمير كوتوزوف أن يكلأك بحمايته القديرة المقدسة!
>
> موسكو في ٣٠ تشرين الأول ١٨١٢
> التوقيع: نابليون

أجاب كوتوزوف الذي ظل يعمل كل ما في وسعه ليمنع الجيش عن الجنوح إلى الهجوم: ستلعنني الأعقاب إذا نُظِر إليَّ بوصفي أول محرك لتدبير ما، إن عقلية أمتي الحاليَّة هي على هذا النحو.

خلال الشهر الذي انقضى على الجيش الفرنسي في نهب موسكو والجيش الروسي في استجمامه في تاروتينو، طرأ تبدل على نسبة قوى الجيش في عددهما وفي الفكرة التي تحركهما لدرجة مال معها الميزان إلى الجانب الروسي، فبدت ضرورة الهجوم تكشف عن نفسها بألف دلالة رغم أن الوضع الحقيقي للجيش الفرنسي والرقم الحقيقي لتعداده كانا مجهولَيْن من الروسيين، وتلك الدلالات كانت التالية: سلوك لوريستون، وفرة الأرزاق في تاروتينو، التقارير الواردة من مختلف الجهات حول تعطل الفرنسيين وفوضى صفوفهم،

---

[1] جاك لاو Law، مركيز دو لوريستون، ابن ابن أخ المالي الكبير لاو، وُلِد في بونديشيري عام ١٧٦٨ وتُوفِّي عام ١٨٢٨، وكان ماريشال فرنسا على عهد الإصلاح وأمير فرنسا.

الأفواج المستكمَلة بوصول الاحتياطي، الطقس البديع، الراحة الطويلة التي نعمت بها القِطَعات، نفاد الصبر ذاك الإنجاز مهمته الذي يبدو عادة في الجيوش المستريحة، الفضول الدافع إلى الاستعلام عن حركات وأعمال الجيش الفرنسي الذي انقطع كل احتكاك به منذ وقت طويل، الجرأة التي أصبحت تظهرها طلائعنا الآن في التسلل بين الفرنسيين المقيمين في منطقة تاروتينو، أنباء الانتصارات الصغيرة التي حققها القرويون والأنصار ضد الفرنسيين، التنافس الذي كانت تلك الأنباء تحدثه، الرغبة في الانتقام المغروسة في قلب كل جندي منذ أن احتل الفرنسيون موسكو، وزيادة على ذلك الإيمان الغامض الذي توغل في روح كل جندي بأن نسبة القوات لم تعد ذاتها وأن الغلبة في جانبنا. ولما كانت نسبة القوى قد تبدلت فإن الهجوم لا مناص منه، وبمثل السرعة والدقة التي تدق فيها الساعة عندما يطوف العقرب الكبير متممًا دورة الميناء، كذلك أحدث ذلك التبدل في الأوساط العليا نشاطًا مضاعفًا مثل انطلاق النوابض وحركة اهتزاز جرس الساعة وقرع الأجراس.

الفصل الثالث

القوقازي شابوفالوف

كان الجيش الروسي بقيادة كوتوزوف وأركان حربه، ومن بيترسبورج يوجهه الإمبراطور، ففي بيترسبورج أعدوا مخططًا مفصلًا لكل الحرب حتى قبل أن يتلقوا نبأ تسليم موسكو، وأرسلوه إلى كوتوزوف ليتبع سنته. وعلى الرغم من أن ذلك المخطط كان مبنيًّا على افتراض وجود موسكو بين أيدينا، فإنه تُبُنِّي من قبل أركان حرب الجيش ووُضِع موضع التنفيذ، غير أن كوتوزوف أبدى فقط ملاحظة تقول إن الحركات العسكرية البعيدة الرامية إلى صرف نظر العدو عن نقطة ما تكون عادة صعبة التنفيذ، لذلك ولحسم الصعوبات المعترضة أخذوا يرسلون إليه من بيترسبورج تباعًا تعليمات جديدة وأشخاصًا جددًا مهمتهم مراقبة عملياته ورفع تقارير عنها.

أضف إلى ذلك أن أركان حرب الجيش تعرض الآن لتبديل عميق، إذ وجب تعيين شخص ما مكان باجراسيون الذي قُتِل وباركلي الذي تنحَّى بعد أن أُهِين في كرامته. ولقد فحصت أفضل السبل الواجب اتخاذها بخطورة متناهية: وضع «أ» مكان «ب»، و«ب» مكان «د»، أو «د» مكان «أ»، وكأن كل هذه التسميات كان يمكن أن تهدف إلى أكثر من إرضاء «أ» و«ب».

وبسبب الألفة القائمة بين كوتوزوف ورئيس أركان حربه بيينجسِّن، وكذلك بسبب التنقلات الواجب إجراؤها، ووجود شخصيات حائزة ثقة الإمبراطور في المعسكر؛ أخذت الأحزاب تلعب دورًا أكثر رزانة من المألوف، فكان «أ» يدسُّ على «ب» و«د» على «س» في كل التبديلات والترتيبات. وكانت تلك الدسائس تهدف في الغالب إلى الاستيلاء على إدارة العمليات من جانب مثيريها، لكن الحرب كانت تسير سيرها المعتاد في غنًى عنهم، لأنها كانت ناجمة عن ردود الفعل عند الجماهير دون أن تنطبق قط مع الترتيبات المقررة،

وكل هذه الترتيبات التي تتلاقى وتشتبك لم تكن تمثل في الأوساط العليا إلا الانعكاس الصحيح لما كان يجب أن يتم.

في رسالة كتبها الإمبراطور يوم الثاني من تشرين الأول وتلقاها كوتوزوف بعد معركة تاروتينو، كتب الإمبراطور:

الأمير ميخائيل إيلاريونوفيتش

منذ الثاني من أيلول وموسكو في يد الأعداء، إن تقاريرك الأخيرة مؤرخة في ٢٠، وطيلة هذا الوقت لم تُتَّخذ أية إجراءات ضد العدو لإنقاذ عاصمتنا الأولى فحسب، بل كذلك تبعًا لتقاريرك الأخيرة لبثت تتراجع؛ إن سيربوخوف محتلة من قِبَل فوج عدو، وتولا بمصنعها الشهير شديد الأهمية بالنسبة إلى الجيش باتت في خطر، وأرى من تقارير الجنرال ونتزبخيرود أن فوجًا معاديًا تعداده عشرة آلاف رجل يقترب على طريق بيترسبورج، وأن آخر تعداده بضعة آلاف من الرجال يتجه نحو دميتروف، وثالثًا يسير على طريق فلاديمير، ورابعًا على جانب من ضخامة العدد يعسكر بين روزا وموجائيسك، ولقد كان بالذات لا يزال في موسكو حتى في يوم ٢٥. فإذا كان العدو قد جزَّأ قواه كما يُستنتَج من هذه المعلومات إلى فرق كبيرة، في حين أن نابليون نفسه ما زال في موسكو مع كل حرسه؛ فهل لا يزال ممكنًا أن تكون إزاء جيش عرم لا تستطيع لوفرة عدده أن تنقلب إلى الهجوم عليه؟ إن الظاهر يوحي بعكس ذلك، ويفرض احتمال مطاردة العدو لك بفيالق إذا قورنت بالحوادث الموضوعة تحت إمرتك كانت أقل عددًا وضئيلة جدًّا، وكان يبدو أنك تبعًا لهذه الظروف المواتية كنت تستطيع محاولة القيام بهجوم ضد عدو أضعف منك وأن تبيده أو أن ترغمه على الأقل على التراجع، فتحفظ في أيدينا الجزء الأكبر من الأقاليم المحتلة اليوم، وبذلك تدفع الخطر عن تولا وعن مدن أخرى في الداخل. وإذا كان العدو قادرًا على إرسال جانب كبير من القوات إلى بيترسبورج وأن يهدد هذه العاصمة شبه العزلاء تمامًا، فإنك ستحتمل المسئولية لأن لديك كل الإمكانيات للحيلولة بالجيش الذي تحت إمرتك دون وقوع هذه المصيبة الجديدة إذا عملت بحزم وثبات. تذكر أن عليك حتى الآن مسئولية الرد على سبب ضياع موسكو أمام الوطن الساخط، وأنك تعرف بالتجربة مدى استعدادي لمكافأتك. إن حسن الالتفاتة هذه لم تتبدل، لكن روسيا وأنا من حقنا أن ننتظر منك كل الغيرة

والحزم والنجاح، التي يسمح لنا ذكاؤك وميزاتك العسكرية وبسالة الجنود الموضوعين تحت إمرتك أن نتوقعها منك.

ولكن في الوقت نفسه الذي كانت تلك الرسالة الدالة على أن نسبة القوى الصحيحة معروفة كذلك في بيترسبورج، في طريقها فيه نحو كوتوزوف؛ كان هذا في وضع لم يعد يسمح له أن يمنع الجيش الذي بأمره عن اتخاذ الهجوم، وكانت المعركة دائرة فعلًا.

في الثاني من تشرين الأول قتل القوقازي شابوفالوف الذي كان في دورية أرنبًا بريَّة وجرح أخرى، فاستسلم لرغبة مطاردة صيده الجريح، وتوغل بعيدًا في الغابة حتى عثر على الجناح الأيسر لجيش مورا الذي لم يكن قد اتخذ أية حيطة في تلك الجهات، وروى القوقازي لزملائه وهو يضحك أنه كاد يقع بين الفرنسيين، فرفع حامل العلم الذي سمع هذه الرواية تقريرًا إلى رئيسه.

استُدعِي القوقازي واستُجوِب، وواتت رؤساؤه فكرة انتهاز الفرصة للقيام بغزوة يفوزون فيها ببعض الجياد، لكن أحد أولئك الرؤساء وكان يعرف أرفع ضباط الجيش أبلغ الخبر إلى جنرال من أركان حرب الجيش، وكان الموقف شديد التوتر في الأركان منذ بعض الوقت، ولقد جاء إيرمولوف قبل بضعة أيام يتوسل إلى بيينجسن أن يستعمل نفوذه لدى الجنرال القائد الأعلى ليحمله على القيام بالهجوم.

فأجاب بيينجسن: لو أنني ما كنت أعرفك لظننت أنك تريد العكس تمامًا، عكس ما تطلب، ليس عليَّ إلا أن أشير بشيء ما حتى يعمد الجنرال القائد الأعلى إلى عمل عكسه تمامًا.

أيدت الاستطلاعات النبأ الذي حمله القوقازي، وأكدت بشكل نهائي أن الحدث قد نضج، وتمددت نوابض الساعة وصرَّت ثم قُرِع الجرس. واضطُرَّ كوتوزوف رغم كل سلطانه العظيم وذكائه وخبرته ومعرفته بالرجال أن يأخذ بعين الاعتبار طلب بيينجسن، الذي أرسل من قبل تقريره الشخصي حول هذا الموضوع إلى الإمبراطور، ورغبة كل جنرالاته الموحَّدة وكذلك الرغبة المفروض أنها تجيش في نفس الإمبراطور نفسه والمعلومات التي قدمها القوقازيون، فلم يعد يستطيع إيقاف حركة أصبحت لا بد منها فأعطى تبعًا لذلك أمرًا كان يُقدر أنه خطير وعقيم: لقد أيد الواقعة الواقعة.

الفصل الرابع

أوامر إلى إيرمولوف

كان تقرير بيينجسن ومعلومات القوقازيين المؤكدة أن جناح الفرنسيين الأيسر مكشوف آخر الدلالات على الضرورة التي تستبد بهم الداعية إلى إعداد الهجوم، وحُدِّد هذا الهجوم لليوم الخامس من تشرين الأول.

ففي اليوم الرابع صباحًا وقَّع كوتوزوف على الأوامر، وقد قرأ تول الأوامر على إيرمولوف وأوعز إليه أن يتخذ آخر التدابير، فقال إيرمولوف: حسنًا، حسنًا، ولكن ليس لديَّ الوقت الآن.

وخرج من كوخه الخشبي.

كانت الخطة التي وضعها تول ممتازة، فكان يقرأ فيها، تمامًا كما في خطة أوسترليتز، كل ما لم يكن مكتوبًا بالألمانية.

الطابور الأول يمشي نحو هذه البقعة أو تلك، والطابور الثاني يمشي نحو هذا أو ذاك المكان الآخر وهلمَّ جرًّا، وكل هذه الطوابير التي تصل على الورق في الساعة المحددة إلى أمكنتها ستسحق العدو. كانت خطة منظمة تمامًا كما في كل الخطط، وكما في كل الخطط لم يصل طابور واحد إلى مكانه في الوقت المحدد.

وعندما أصبحت كل نسخ الخطة المطلوبة جاهزة، استُدعِي ضابط وأُرسِل إلى إيرمولوف كي يسلمه الأوراق للتنفيذ، وراح الضابط وهو فارس شاب في الحرس ومساعد عسكري لكوتوزوف إلى مسكن إيرمولوف، وهو فخور بالمهمة الموكولة إليه.

أجابه تابع إيرمولوف: لقد خرج.

فمضى الضابط الفارس إلى مسكن الجنرال الذي درج إيرمولوف على زيارته: كلا، ليس الجنرال هنا.

فامتطى الضابط صهوة جواده من جديد ومضى إلى مسكن آخر: كلا، لقد ذهب.

فكر الضابط: «المهم أن لا يعتبروني مسئولًا عن التأخير! يا لسوء الطالع!» وحثَّ جواده فطاف به المعسكر كله، روى له البعض أنهم شاهدوا إيرمولوف يبتعد مع بعض الجنرالات، بينما أكد البعض الآخر أنه عاد إلى مسكنه حتمًا. وظل الضابط يبحث عن إيرمولوف حتى السادسة مساء دون أن يتناول طعامًا، ولكن ليس من إيرمولوف في أي مكان، وما من أحد يستطيع أن يدله على مكان وجوده! فتناول الضابط لُقَيْمات على عجل لدى أحد زملائه وعاد على الأثر إلى الطليعة عند ميلورادوفيتش، لكن ميلورادوفيتش هو الآخر لم يكن في مركزه، لكنهم قالوا لضابط الحرس إنه في الحفلة الراقصة المقامة في مسكن الجنرال كيكين، وإن إيرمولوف لا بد بالتالي وأن يكون هناك.

– ولكن أين هذا المكان؟

فقال ضابط قوقازي وهو يشير إلى بيت أحد السادة في البعد: هناك، في إيتشكينو.

– كيف هناك؟! إن هذا وراء خطوطنا!

– لقد أرسلوا فوجين على الخط، إنهم الآن يقصفون قصفًا مريعًا! إن لديهم فرقتَي موسيقى الفوج وثلاث فرق من المغنين.

مضى الفارس الضابط إلى ما وراء الخط إلى إيتشكينو، وقبل أن يصل إلى بيت السيد تناهى إلى سمعه إيقاع مرح لأغنية راقصة شائعة بين الجنود.

– «في الحقول ... في الحقول!» وكان الغناء يبلغ سماعه مصحوبًا بأنغام المزامير وقرع الصنوج، تطغى عليه الأصوات الصاخبة من حين إلى آخر. ولقد نشط الضابط لهذه الأصوات البهيجة وبنفس الوقت ذُعِر لذنبه، إذ كان يشعر بأنه مذنب لتأخره كل هذا الوقت في نقل الأمر الهام الموكول إليه. وكانت الساعة قد شارفت على التاسعة، ترجل عن جواده وصعد مرقاة بيت أحد السادة ظل سليمًا لوقوعه بين خطوط الفرنسيين والروسيين تمامًا، فرأى عددًا من الخدم يحملون النبيذ ويعملون في الردهة وفي المقلاد وبعض المغنين مجتمعين تحت النوافذ. أدخلوا الضابط الذي رأى فجأة معظم جنرالات الجيش مجتمعين وفي عدادهم إيرمولوف ذو الوجه المرتفع الوقور، وكلهم متقدة وجوههم تجيش بالحمية، التفوا في نصف دائرة وراحوا يقهقهون ملء حناجرهم، وقد حلوا أزرار ستراتهم الرسمية. وفي وسط البهو أخذ جنرال جميل معتدل القامة مضرج الوجه يرقص بنشاط وحذق رقصة شعبية يتخللها قرع بالكعبين وثني مفاجئ من الركبتين.

– ها! ها! ها! انشط! نيكولا إيفانوفيتش! ها! ها! ها!

شعر الضابط الفارس أنه بدخوله الآن حاملًا تلك الأوامر المهمة سيكون مذنبًا مرتين، فأراد الانسحاب لكن أحد الجنرالات لمحه، فلما عرف سبب وجوده أشار إلى إيرمولوف

عليه، فجاء إيرمولوف نحوه مقطب الحاجبين، وبعد أن أصغى إليه أخذ أوراقه دون أن ينبس بكلمة.

قال أحد رفاق الضابط الفارس ذلك المساء في حديث عن إيرمولوف، وكان ذلك الضابط ملحقًا بالأركان العامة: هل تعتقد أنه لم يتعمد الاختفاء؟ إنها مؤامرة، إنه تدبير مقصود، إنه يريد أن يخدع كونوفنيتش، انتظر، سترى مدى الفوضى غدًا!

الفصل الخامس

حركة فاشلة

في اليوم التالي أُوقِظ كوتوزوف الهرم في ساعة مبكرة، فتلا صلواته وارتدى ثيابه واستقل عربة خفيفة وهو يحمل بين جنبيه الشعور الكريه باضطراره إلى إدارة دفة معركة لا يقرها، ومضى من ليتاشوفكا على بعد خمسة فراسخ وراء تاروتينو ليلحق بالبقعة التي كان على طوابير الهجوم أن تجتمع فيها، مضى وهو يغفو ويستيقظ ويصيخ السمع ليعرف ما إذا كانوا يطلقون النار على اليمين، وما إذا كانت المسألة لم تبدأ بعد. لكن كل شيء لبث حتى ذلك الحين ساكنًا، وكان فجر يوم خريفي رطب ومكفهر، منبثق بالكاد. ولما بلغ تاروتينو لاحظ كوتوزوف فرسانًا يأخذون خيولهم إلى الورد وهم يجتازون الطريق التي تسلكها عربته، تأملهم واستوقفهم وسألهم عن الفيلق الذي ينتمون إليه، كان أولئك الفرسان تابعين لطابور كان عليه أن يكون منذ وقت طويل بعيدًا إلى الأمام في كمين، فحدَّث الجنرال القائد الأعلى العجوز نفسه قائلًا: «إنه خطأ ولا ريب»، ولكنه بعد ذلك شاهد فيالق مشاة وقد ركزوا بنادقهم باقات متباعدة، يهيئون طعامهم ويجمعون الحطب وهم في سراويلهم الداخلية. استدعى ضابطًا فأخبره الضابط أي أمر بالهجوم لم يصدر إليهم.

شرع كوتوزوف يقول: كيف؟! هل هذا مما ...

لكنه صمت وأرسل يستدعي القائد، نزل من عربته مطرق الرأس ضيق الأنفاس وراح ينتظر بصمت وهو يذرع الأرض جيئة وذهابًا، وعندما جاء ضابط الأركان إيخن الذي أرسل يستدعيه، تدفقت الدماء إلى وجه كوتوزوف لا لأن هذا الضابط المسئول عن الخطأ المرتكب، بل لأنه شخص يمكنه أن يصب جام غضبه عليه. وبلغ الرجل العجوز أقصى درجات الغضب التي كانت فيما مضى تجعله يتدحرج على الأرض، واندفع نحو إيخن يرتعد لاهث الأنفاس مزمجرًا يهدده بقبضتيه وأمطره بأقذع السباب وأحطه. وجاء

ضابط آخر، الرئيس بروزين، في تلك اللحظة فلقي مثل مصير زميله رغم أنه لم يكن مذنبًا في شيء. راح كوتوزوف يزمجر في صوت أجش وهو يلوح بيديه ويترنح: «ما هذه السفالة؟! ليعدموهم بالرصاص! حقيرون!»

كان يشعر بألم مادي، هو، الجنرال الأول، القائد الأعلى الذي كان الناس كلهم يؤكدون له أنهم لم يروا قط في روسيا نفوذًا يضاهي نفوذه، هو الآن في موقف قمين بإثارة سخرية الجيش كله! حدَّث نفسه: «ما فائدتي من كثرة الصلوات التي تلوتها لهذا اليوم؟! ما فائدة عدم الإغفاء طيلة الليل كي أحسب لكل شيء أفضل الحساب؟! عندما كنت ضابطًا صغيرًا لم يكن أحد يجرؤ على أن يسخر مني!» كان يشعر بألم مادي، فلم يكن قادرًا على الامتناع عن إطلاق صرخات الغضب والألم وكأنه يتلقى جزاءً بدنيًّا. لكن قواه لم تلبث أن فارقته، نظر حوله وشعر بأنه تمادى كثيرًا في سبابه، فعاد يصعد إلى عربته وارتد في سيره إلى الوراء صامتًا.

ولما انقشعت سحابة الغضب تلك لم تتلبد بعد ذلك، بل أخذ كوتوزوف يصغي وهو يطرف بعينيه إلى المبررات والدفاع ومرافعات بيينجسن وكونوفنيتش وتول حول ضرورة إرجاء العملية الفاشلة إلى الغد، فاضطُرَّ كوتوزوف من جديد إلى إبداء موافقته. أما إيرمولوف فإنه لم يمثل أمامه إلا في اليوم التالي.

الفصل السادس

مقتل باجوفو

في اليوم التالي منذ المساء اجتمعت القوات في الأمكنة المعينة وبدأ الهجوم خلال الليل، كانت ليلة من ليالي الخريف حيث الغيوم تكون بلون أسود مشوب بالبنفسجي ولكن دون مطر، والأرض رغم رطوبتها لم تكن موحلة، فكانت القطعات تسير دون جلبة ولا يُسْمَع من حين إلى آخر إلا قرقعة المدفعية المكتومة، وكان قد مُنِع الحديث بصوت مرتفع والتدخين وقدح الصوان، وكانوا يَحُولُون دون صهيل الخيل، فكانت سرية العملية تزيد في فتنتها. أخذ الرجال يتقدمون بانشراح، وتوقفت بعض الطوابير وأقام جنودها بنادقهم باقات متقاربة وناموا على الأرض الباردة، ظنًّا منهم أنهم بلغوا المكان المحدد لهم. أما البعض الآخر، وهي معظم الطوابير، فقد استمرت في المسير طيلة الليل فبلغت دون ريب المكان الذي لم يكن عليها أن تصل إليه.

إلا أن الكونت أورلوف دينيسوف وحده مع جنوده القوقازيين، وهم أصغر الأفواج عددًا، وصلوا إلى أمكنتهم في الوقت المناسب، توقف هذا الفوج عند أقصى حدود الغابة على درب يؤدي من قرية ستروميلوفو إلى قرية دميتروفسكوي.

أيقظوا الكونت أورلوف، الذي كان نائمًا، قبل الفجر وجاءوا إليه بأحد الجنود الفارين من المعسكر الفرنسي، كان هذا صف ضابط بولوني من فوج بونياتووسكي، شرح لهم أن سبب فراره يرجع إلى هضم حقوقه، لأنه كان يجب أن يُرقَّى إلى رتبة ضابط منذ أمد طويل لأنه أكثر بسالة من كل الآخرين، ولهذا السبب فقد تنكر للفرنسيين وبات لا يفكر إلا في الانتقام، ثم أكد أن مورا يقضي الليل على بعد فرسخ واحد من مكان وجودهم، وأنهم اذا زودوه بمائة رجل استطاع أن يأتي به حيًّا. تشاور الكونت أورلوف دينيسوف مع زملائه، لقد كانت الفكرة شديدة الإغراء يمتنع طرحها، تطوعوا جميعهم

للذهاب وأشاروا جميعهم بالمحاولة. وبعد مناقشات ومحادثات كثيرة قرر الجنرال ماجور جريكوف أن يتبع البولوني مع سريتين من القوقازيين.

قال الكونت أورلوف دينيسوف لصف الضابط وهو يصرفه: ولكن تذكر جيدًا أنك إذا كنت كاذبًا فسأشنقك كالكلب، أما إذا كنت صادقًا فسأمنحك مائة دوكا (عملة ذهبية قديمة).

امتطى صف الضابط جواده دون أن يجيب، ومضى بادي العزم مع جريكوف الذي استعد بسرعة ونشاط فاختفوا في الغابة. تبع الكونت أورلوف الذي كان يرتعد بتأثير برودة النهار البازغ، ويحس بالقلق للمسئولية التي اضطلع بها؛ جريكوف بأبصاره، ثم تقدم خارج ستر الغابة وراح يراقب معسكر الأعداء الذي كان يرتسم كالسراب تحت الضوء الآخذ بالانتشار، ويتأمل نيران مخيماته الآخذة بالخمود. وكانت وحداتنا ستخرج على يمين الكونت أورلوف دينيسوف عند سفح هضبة مكشوفة فنظر في ذلك الاتجاه، ولكنه رغم تيسر الرؤية على البعد لم يرَ أحدًا. وخُيِّل للكونت أورلوف دينيسوف وخصوصًا مساعده العسكري الذي كان يمتاز ببصر حاد؛ أن انتعاشًا ما يقع في معسكر الفرنسيين.

قال الكونت أورلوف بعد أن تأمل المعسكر: آه! لا ريب أنه فات الوقت!

وكما يحدث غالبًا عندما يكون الشخص الذي وضعت الثقة فيه بعيدًا عن الأنظار، أدرك أورلوف فجأة بوضوح بيِّن أن البولوني غشاش ماكر كذب عليه، وأنه سوف يبلبل الهجوم بدون تينك السريتين اللتين الله يعلم إلى أين يقودهما ذلك الماكر، هل كان ممكنًا أسر جنرال أعلى في مثل هذه الكثافة من القطعات؟

أضاف: نعم، هذا أكيد، لقد كذب ذلك النذل.

قال أحد ضباط الحاشية الذي طافت بذهنه كالكونت أورلوف دينيسوف شكوك حول نجاح المشروع، منذ أن راح يتأمل معسكر الأعداء: نستطيع استدعاءه.

– هه؟ حقًّا؟ ما قولكم؟ هل يعمل أم لا؟

– هل يصدر الأمر بإعادته؟

فقرر الكونت أورلوف فجأة وهو ينظر إلى ساعته: نعم، نعم، ليعد! لقد فات الوقت وانبلج الصبح تمامًا.

مضى المساعد العسكري «هدبا» على جواده عبر الغابة ليلحق بجريكوف فلما عاد هذا، قرر أورلوف دينيسوف الهجوم وقد استبد به قلق لهذه المحاولة الفاشلة، وكذلك

لانتظاره دون جدوى وصول وحدات المشاة ودنوه من الأعداء، (وهو الشعور الذي شاركه فيه كل رجال وحدته).

أمر بصوت خافت: «إلى الجياد»، فاتخذ كل مكانه ورسم شارة الصليب «في حراسة الله!»

دوَّت صيحات «هورا» في الغابة، وراح القوقازيون في فصائل مؤلَّفة من مائة فارس يتبعثرون بمرح مائة بعد مائة أشبه بحبات القمح المنطرحة من كيس، وهجموا على معسكر العدو وقد أرخَوْا لجيادهم الأعنة واجتازوا نهيرًا ...!

انطلقت صرخة رهيبة من حناجر الفرنسيين الأُول الذين شاهدوا القوقازيين، وجرى كل من في المعسكر نصف عراة، تاركين المدافع والبنادق والجياد ينفرون فرارًا في كل الأنحاء.

ولو أن القوقازيين استمروا يطاردون الفرنسيين دون أن يأبهوا لما وراءهم وحولهم، لأسروا مورا وكل من كان معه، وكان هذا هو ما يريده الرؤساء، ولكن لم يعد في الإمكان زحزحة القوقازيين الذي اقتصر تفكيرهم على الأسلاب والسجناء، لم يعد أحد يصغي إلى الأوامر. ولقد غنموا هناك ألفا وخمسمائة أسير وثمانية وثلاثين مدفعًا وأعلامًا، وما يثير اهتمام القوقازيين أكثر من سواه خيولًا وسروجًا وأغطية وألف حاجة أخرى مختلفة، وكان يجب إعداد كل هذه الأشياء: وضع اليد على الأسرى والمدافع، توزيع الأسلاب، التماحك بل والوصول إلى الأيدي، ولم يكن القوقازيون عاجزين عن كل هذا.

استعاد الفرنسيون الذين لم يعد أحد يطاردهم حواسهم، فنظموا صفوفهم وشرعوا يطلقون النار، وكان أورلوف دينيسوف ينتظر دائمًا سراياه ولا يوغل في هجومه إلى أبعد من ذلك.

في تلك الأثناء تبعًا للخطة العسكرية: «الطابور الأول يمشي إلخ ...» تحرك المشاة المتأخرون بقيادة بيينجسن وتوجيه تول في الوقت المناسب وبما يشبه الحقيقة، واتجهوا إلى جهة ما ولكن ليس إلى المكان المعين لهم. وبما يشبه الحقيقة انتهى الأمر بالرجال الذين ذهبوا والبهجة تملأ نفوسهم إلى التوقف، وقد ظهر عليهم الاستياء والشعور بالخجل فعادوا على أعقابهم. وكان المساعدون العسكريون والجنرالات يجرون صهوات خيولهم ويصرخون ويسخطون ويتخاصمون، ويزعمون أنهم ليسوا أبدًا في المكان الذي يجب أن يكونوا فيه وأنهم تأخروا ويلقي كل منهم تبعة الخطأ على الآخر، حتى إنهم أخيرًا أقلعوا عن ذلك وراحوا يمشون لمجرد المشي، «سوف نصل حتمًا إلى مكان ما!»

والواقع أنهم وصلوا متأخرين جدًّا، ولكن ليس إلى حيث كان عليهم أن يصلوا، بل ليكونوا بالنتيجة هدفًا صالحًا للعدو. وكان تول الذي لعب في هذه المعركة دور ويروذر في معركة أوسترليتز يجري على جواده متعجلًا من جانب إلى آخر، ليجد في كل جانب أن الأمور سارت على عكس اتجاهها المفروض. وعلى هذا النحو، وقع على فيلق باجوفو في صميم الغابة وقد طلع النهار، في حين كان على هذا الفوج أن يكون منذ وقت طويل مع أورلوف دينيسوف، ولقد غضب تول وشعر بجرح في كرامته لإخفاقه، وافترض أنه لا بد من وجود مذنب مسئول، فجرى على جواده إلى قائد الفوج وأمطره وابلًا من اللوم الجارح، قائلًا إنه يستحق الإعدام رميًا بالرصاص. فخرج باجوفو الذي لم يكن جنرالًا للمظاهر بل باسلًا عجوزًا ابن القتال مجرِّبًا في المعارك، خرج للدهشة العامة عن هدوئه الطبيعي، وقد أحنقته كل هذه التوقفات والبلبلة والأوامر المتناقضة مثلما أحنقت تول، واستبدت به ثورة مفاجئة، فأجاب تول بقحة قائلًا: لست أريد أن أتلقى درسًا من أحد، وأعرف كيف أموت أنا وجنودي كأي آخر تمامًا.

واندفع إلى الأمام يتبعه فوجه وحده.

ولما أصبح على ساحة المعركة تحت وابل نيران الفرنسيين، لم يتساءل باجوفو الباسل في سورة غضبه ما إذا كان نافعًا أو عقيمًا خوض المعركة في تلك الأثناء بفوجه وحده، بل قاد جنوده مباشرة إلى النار، لقد كان الخطر والقذائف والرصاص كل ما ينبغي له في اندفاعه المحنق، فقتلته إحدى الرصاصات الأولى لفوره، وأردت الرصاصات التالية كثيرًا من الجنود، وظل فوجه وقتًا ما تحت مرمى النار عبثًا دون جدوى.

الفصل السابع

معركة تاروتينو

في تلك الأثناء، إلى الأمام، قُدِّر لطابور آخر أن يقع على الفرنسيين، لكنه كان الطابور الذي أقام كوتوزوف قريبًا منه. كان يعرف تمامًا أن هذه المعركة التي شُرِع فيها رغم إرادته لن تؤدي إلا إلى الخزي، فكان يستوقف القطعات على قدر طاقته.

كان ساكن الحركة صامتًا، ممتطيًا صهوة جواده الأشهب الصغير، يجيب دون تلهف على العروض التي يقدمونها إليه حول الهجوم.

قال لميلورادوفيتش الذي كان يسأله أن يتقدم إلى الأمام: ليس على لسانك إلا الهجوم، ولا ترى أننا لا نحسن القيام بحركات معقدة.

وأجاب على آخر: إنك لم تعرف كيف تأخذ مورا حيًّا هذا الصباح، ولا أن تصل إلى مكانك المحدد في الوقت المعين، والآن فات الوقت.

ولما جاءوا ينبئونه أن في أعقاب الفرنسيين الذين كانوا مكشوفين بادئ الأمر حسب معلومات القوقازيين يقوم الآن لواءان من البولونيين؛ نظر من جانب عينه إلى إيرمولوف الذي لم يوجه إليه كلمة ما منذ أمس، وقال: أرأيت؟ إنهم يطالبون بهجوم ويقدمون رزمة من المشاريع وعندما ينتقلون إلى العمل لا يكون شيء جاهزًا، في حين أن العدو الذي أنذر قد اتخذ حيطته.

– أغمض إيرمولوف عينيه نصف إغماضة، وطافت على شفتيه ابتسامة خفيفة لذلك الكلام، أدرك أن العاصفة بالنسبة إليه قد تبددت، وأن كوتوزوف سيكتفي بهذا التلميح فحسب.

قال إيرمولوف بصوت خافت وهو يلكز بركبته راييفسكي الذي كان إلى جانبه: إنه يسخر مني.

ولم يلبث بعد أن اقترب إيرمولوف، وقال لكوتوزوف باحترام: لم نخسر شيئًا يا صاحب السمو، فالعدو ما زال هنا إذا أردتم إصدار الأمر بالهجوم، وبغير ذلك فإن الحرس لن يشموا حتى رائحة البارود.

لم يجب كوتوزوف بشيء، وعندما أعلنوا له أن قطعات مورا قد انسحبت أصدر الأمر المنتظر، لكنه بعد كل مائة خطوة كان يأمر بتوقف ثلاثة أرباع الساعة.

إذن، لقد اقتصرت المعركة على هجمة القوقازيين التابعين لأورلوف دينيسوف، أما بقية القطعات فقد فقدت دون أي نفع بضع مئات من الجنود.

وكانت النتيجة بالنسبة إلى كوتوزوف وسامًا من الماس وماسات إلى بيينجسن ومائة ألف روبل، أما الضباط الآخرون فقد أُنْعِم عليهم بحسب رتبهم بهبات ثمينة، أضف إلى ذلك أن تنقلات جديدة وقعت في أركان حرب الجيش.

قال الجنرالات والضباط الروسيون بعد مسألة تاروتينو: «هذا هو النمط الذي تسير عليه الأمور عندنا، كل شيء على عكسه!» كذلك كانوا دائمًا يتحدثون كلما أرادوا أن ينوهوا بأنه إذا أخطأ أحمق ما في التصرف فإن الأمور كانت ستدور على نحو مختلف، لكن الذين كانوا يتحدثون على هذا النحو ما كانوا يعرفون شيئًا عن المسألة التي ينتقدونها أو كانوا يسخرون عارفين، لأن كل معركة، سواء أكانت معركة تاروتينو أم بورودينو أم أوسترليتز، تقع خلافًا لما يتوقعها واضعو خططها، وهذا أمر جوهري.

إن عددًا لا يُحْصَى من القوى المستقلة يؤثر في سياق معركة ما، لأن المرء لا يكون قط أكثر حرية منه في غمار معركة حيث الأمر يتعلق بالحياة أو الموت، لذلك فإنه يستحيل إذن معرفة سياق المعركة سلفًا، ولا يمكن أن تتبع أبدًا اتجاهًا تفرضه قوة واحدة أيًّا كانت هذه القوة.

وإذا عملت قوى عديدة في آن واحد وفي اتجاهات مختلفة عن جسم ما، فإن اتجاه الحركة المفروضة على هذا الجسم لن يكون اتجاه أية واحدة من هذه القوى، بل يكون دائمًا الاتجاه المتوسط الأقرب، ذلك الاتجاه لم يُعَبَّر عنه في علم «الميكانيك» بخط الزاوية المسطح متوازي أضلاع القدرة.

وإذا قرأنا في حكايات المؤرخين، وبصورة خاصة الفرنسيين منهم، أن حروبهم ومعاركهم اتسعت وجرت وفقًا لخطة مسبقة، فإن المغزى الوحيد الذي نستنتجه من ذلك هو أن حكاياتهم غير صحيحة.

من الواضح أن معركة تاروتينو لم تبلغ الهدف الذي رسمه تول، أي إن توجه المعركة تبعًا لنظام خطته، ولا الهدف الذي كان يتوخاه الكونت أورلوف بأسر مورا، ولا

غاية بيينجسن أو آخرين بإبادة كل هذا الجانب من جيش العدو دفعة واحدة، ولا بغية الضباط الراغبين في الاشتراك في عملية ما لإبراز ميزاتهم، ولا رغبة القوقازي الذي كان يطمع في الاستيلاء على جانب من الأسلاب أكبر مما وجد ... إلخ؛ ولكن إذا كانت الغاية التي بُلِغ إليها بالفعل والتي كان الروسيون كلهم يطمعون فيها، أي طرد الفرنسيين من روسيا وإبادة جيشهم؛ فإننا نرى إذن بوضوح كالنهار أن معركة تاروتينو انتهت بسبب الأخطاء التي ارتُكِبَت إلى النهاية المتوجبة خلال فترة الحملة كلها، وأنه يصعب بل يستحيل تخيل نهاية أفضل من التي انتهت إليها تلك المعركة، لقد حصلنا على أعظم نتائج الحملة كلها بأقصى درجات الفوضى وبأقل مجهود وبخسائر تكاد تكون تافهة، لقد انقلبنا من التقهقر إلى الهجوم، وكُشِف الستر عن ضعف الفرنسيين، وأُنْزِلت الضربة بجيش نابليون لتحمله على الشروع بالفرار.

الفصل الثامن

عبقرية نابليون

دخل نابليون إلى موسكو بعد النصر اللامع في موسكوفا، وإنه لنصر لا ريب فيه لأن الفرنسيين ظلوا سادة ساحة المعركة وتراجع الروسيون وسلموا عاصمتهم، وموسكو الطافحة بالأرزاق والأسلحة والذخائر وبالثروات التي لا تُحصَى باتت بين يدي نابليون، والجيش الروسي الأضعف مرتين من الجيش الفرنسي لا يظهر طيلة شهر كامل أية رغبة في الهجوم، وموقع نابليون من أفضل المواقع وأبرزها يستطيع بجيشه المتفوق مرتين على القوات الروسية أن ينقض على فلول هذه ويبيدها، ويستطيع عقد صلح لمصلحته أو على الأقل في حالة الرفض أن يحاول القيام بحركة تهدد بيترسبورج، بل إنه يستطيع كذلك في حالة عدم النجاح أن يعود باتجاه سمولنسك أو فيلنا أو أن يمكث في موسكو. وبالاختصار، لكي يحافظ نابليون على مركزه اللامع الذي كان الجيش الفرنسي يحتله حينذاك لم يكن في حاجة على ما يبدو إلى أن يكون عبقريًّا خارقًا، كان يكفيه من أجل ذلك أن يعمل أبسط الأشياء وأسهلها، أي ألَّا يترك جيشه يستسلم للسلب، وأن يعد ألبسة الشتاء التي تستطيع موسكو أن تقدمها للجيش كله، وأن ينظم بحكمة توزيع الأرزاق التي كانت في المدينة، كافية لأكثر من عشرة أشهر تبعًا لأقوال المؤرخين الفرنسيين. غير أن نابليون عبقري العباقرة الذي كانت له السلطة — على قول المؤرخين — لم يعمل شيئًا من هذا.

إنه لم يغفل هذه التدابير كلها فحسب، بل استعمل سلطانه لينتخب من التدابير الواجب اتخاذها أسوأها وأنحسها، لم يتخذ نابليون بين كل ما يستطيع اتخاذه: قضاء الشتاء في موسكو، الذهاب إلى بيترسبورج، الذهاب إلى نيجني-نوفجورود، التقهقر سواء نحو الشمال أو أبعد إلى الجنوب عن الطريق الذي سلكه كوتوزوف فيما بعد؛ أسوأ وأكثر شؤمًا مما اتخذ: لقد ظل حتى تشرين الأول في موسكو، وأعطى الإذن لجنوده بنهب المدينة، ثم بعد أن تردد في ترك حامية في موسكو خرج منها واقترب من كوتوزوف دون



نابليون قبل موسكو.

الالتحام معه وتوجه نحو اليمين فبلغ مالو-إياروسلافيتز، وبدلًا من اتخاذ الطريق الذي سلكه كوتوزوف عاد إلى موجائيسك دون أن يحاول فتح أية ثغرة عبر طريق سمولنسك المعبد وسط أقاليم مخربة. وبذلك لم يكن هناك أكثر حمقًا وشؤمًا من هذا التصرف كما دلت النتائج على ذلك، فإذا افترضنا أن غاية نابليون كانت تهدف إلى قيادة جيشه إلى نهايته، فإن أبرع الخطط العسكرية ما كانت تستطيع تنظيم مخطط للعمليات قادر على إلحاق الدمار الكامل المحتوم بالجيش الفرنسي مثل هذه الخطة، بصرف النظر عن كل ما كان يمكن للجيش الروسي أن يقوم به!

لقد عمل نابليون العبقري كل ذلك. لكن القول بأن نابليون أضاع جيشه لأنه أراد ذلك أو لأنه لم يكن إلا مجرد أحمق، قول خاطئ أيضًا يتساوى بالخطأ مع القول بأنه قاد قطعاته إلى موسكو لأنه أراد ذلك ولأنه كان على ذكاء وعبقرية استثنائيَيْن.

ففي كلتا الحالتين لم يكن لتصرفه الشخصي الذي ما كان أكثر أهمية من تصرف أي من جنوده، إلا متفقًا مع القوانين التي كانت تسيطر على الأحداث.

وإنه لكذب فاضح الزعم بأن قواته ضعفت في موسكو كما يقول المؤرخون، لمجرد أن الأحداث لم تكن في صالح تصرفات نابليون، ففي تلك الفترة كما من قبلها وكذلك بعدها في عام ١٨١٣ بذل ذكاءه وقواه ليتصرف بمصالحه ومصالح جيشه على أفضل وجه. ونشاط نابليون خلال هذه الحقبة ليس أقل إثارة للدهشة منه في مصر وإيطاليا والنمسا وفي بروسيا، ولسنا ندري إلى أي حد كانت عبقرية نابليون في مصر، حيث تأملت القرون الأربعون عظمته، حقيقية، لأن مآثره الرائعة لم تُنْقَل إلينا إلا عن طريق الفرنسيين. وكذلك الحكم على عبقريته في النمسا وفي بروسيا، لأن الشهادات المؤيدة لحركاته لا يمكن أن تُنْهَل إلا من مصادر المؤرخين الفرنسيين والألمانيين، فاستسلام جيوش بكاملها دون قتال والقلاع دون حصار بذلك الشكل الذي لا يُصَدَّق، لا بد وأن يدفع الألمانيين إلى الاعتراف بعبقرية نابليون بوصفها المبرر الوحيد للحرب التي وقعت في ألمانيا. أما نحن فليست بنا والحمد لله أية حاجة إلى الاعتراف به كعبقري لنستر عارنا، ولقد دفعنا الثمن ليصبح من حقنا النظر في أعماله ببساطة ودون مواربة، ولن نتخلى عن هذا الحق.

إن نشاطه في موسكو مدهش وعبقري مثله في كل مكان آخر، فالأوامر تلو الأوامر والخطط تلو الخطط كانت تصدر عنه منذ ساعة دخوله موسكو وحتى لحظة خروجه منها، فغياب السكان وممثلي الأشراف بل حتى حريق موسكو لم يقلقه، إنه لم يغفل مصلحة جيشه، ولا حركات العدو، ولا رفاهية الشعوب الروسية، ولا إدارة الأعمال في باريس، ولا الترتيبات الدبلوماسية سعيًا وراء الصلح.

الفصل التاسع

التنظيمات الإدارية

أعطى نابليون منذ دخوله موسكو تعليمات مشددة من الوجهة العسكرية إلى الجنرال سيباستياني، الذي عليه أن يتبع حركات الجيش الروسي وأن يرسل وحدات من الجيش إلى مختلف الجهات، وأشار على مورا أن يجد كوتوزوف، ثم اتخذ التدابير الجدية ليحصن الكريملن، ثم رسم على خريطة روسيا الخطة العبقرية المتعلقة بحملته المقبلة.

ومن الناحية الدبلوماسية استدعى نابليون إليه إياكوفليف وهو رئيس مسلوب من كل شيء، لم يكن حينذاك أكثر من صعلوك لا يدري كيف يغادر موسكو، وشرح أمامه سياسته وأظهر له عظمة نفسه. وبعد أن كتب رسالة إلى الإمبراطور ألكسندر أظهر فيها اعتقاده بأن من واجبه إخطار صديقه وأخيه أن روستوبتشين أساء التصرف في موسكو؛ أرسل إياكوفليف يحملها إلى بيترسبورج، كذلك أفاض في إظهار عظمة روحه وشرح وجهات نظره أمام توتولمين، وأرسل هذا الكهل كذلك إلى بيترسبورج ليشرع في محادثات هناك.

أما من الناحية القضائية، فقد أمر فور شبوب الحريق بالبحث عن الفاعلين وإعدامهم، ولقد أُوخِذ الوحش روستوبتشين لحريق بيته الشخصي.

بينما جُزِيَت موسكو من الناحية الإدارية بدستور، أُقِيمَت بلدية وعُلِّق النداء التالي:

إلى سكان موسكو

إن محنكم قاسية، لكن جلالته، إمبراطور وملك، يريد أن يضع حدًّا لها. لقد علَّمَتكم أمثلة رهيبة كيف يُعاقَب العصيان والجريمة، لقد اتُّخِذت إجراءات صارمة لوضع حد للفوضى وإنعاش الأمن العام. سوف تقوم إدارة أبوية، تُنتخَب من بينكم، على تشكيل بلديتكم أي حكومة مدينتكم، سوف تهتم تلك البلدية بكم وباحتياجاتكم ومصالحكم، وسيُعرَف أعضاؤها من الوشاح الأحمر



روستوبتشين.

الذي سيضعونه متقاطعًا، أما رئيس البلدية فسيتمنطق فوقه بنطاق أبيض، بيد أن الأعضاء البلديين لن يحملوا خارج عملهم إلا إشارة حمراء حول الذراع اليسرى.

إن الشرطة البلدية قد أُقِيمَت على النظام القديم تمامًا، وبفضل نشاط رجالها استتب حتى الآن نظام أفضل. لقد عينت الحكومة «قوميسيرَيْن» عامَّيْن أو صاحبَي شرطة وعشرين قوميسيرًا أو «تشاستني بريستافس»، وُزِّعوا على كل حي من أحياء المدينة، ستعرفونهم من الشارة البيضاء التي يلفونها حول ذراع كل منهم اليسرى. ثم إن عديدًا من الكنائس تُقَام فيها الطقوس الدينية لمختلف الملل، قد فُتِحت وأصبحت الصلوات الدينية تُقَام فيها دون عارض. إن

مواطنيكم يعيدون كل يوم تأثيث مساكنهم، ولقد أُعْطِيت الأوامر اللازمة ليجدوا كل عون وحماية عند المحنة. تلك هي الوسائل التي استعملتها الحكومة لإعادة النظام وتسوية وضعكم. ولكن لبلوغ هذه الغاية من الضروري أن تضيفوا مجهوداتكم إلى مجهوداتهم، وأن تنسوا — إذا أمكن — الآلام التي عانيتموها، وأن تملئوا نفوسكم بأمل الوصول إلى نهاية أقل قسوة. كونوا متأكدين من أن الموت المحتوم المرذول ينتظر كل الذين يحاولون الاعتداء على أشخاصكم أو على ما تبقَّى من مقتنياتكم، وإذن لا يجب أن يتطرق الشك إلى نفوسكم بأن هذه المقتنيات ستُحفَظ لكم، لأن هذه هي إرادة أكبر سلطان وأعدل ملك. أيها الجنود والسكان من أية ملة كنتم، أعيدوا الثقة العامة هذا المصدر لسعادة الدولة، وعيشوا كإخوان، تبادلوا المساعدة والحماية، واتحدوا لمقاتلة المشاريع الإجرامية، أطيعوا السلطات العسكرية والبلدية، فلن تلبث دموعكم أن تكف عن الانحدار.

ومن ناحية القوت، أوعز نابليون إلى كل قواته أن تهبط موسكو دوريًّا وبشكل غير ملحوظ، لتجمع الأرزاق سلبًا لتأمين مئونة الجيش المقبلة.

وأمر نابليون من الناحية الدينية أن يُعاد القساوسة ليقيموا في الكنائس كسابق عهدهم طقوسهم الدينية.

وأعلن في كل مكان تأمينًا لناحيتَي التجارة وتأمين الأرزاق للجيش ما يلي:

إعلان

إليكم يا سكان موسكو الوادعين، ورجال العمل والعمال الذين أبعدتكم المحن عن المدينة، وأنتم يا عمال الأرض الذين لا يزال خوفٌ وهميٌّ يجعلكم مبعثرين في الأرياف: لقد عاد الهدوء إلى العاصمة واستتب فيها النظام، إن مواطنيكم يخرجون دون خوف من مآويهم وهم واثقون من أنهم سيُحْتَرَمون، إن كل شدة مستعملة ضدهم أو ضد ممتلكاتهم تُقْمَع من فورها. إن جلالته، إمبراطور وملك، يغطيهم بحمايته، ولا يُعتبَر أعداء من بينكم إلا أولئك الذين يعصون أوامره، إنه يريد أن يضع حدًّا لآلامكم وأن يعيدكم إلى بيوتكم وعائلاتكم. تقبلوا إذن تدابيره الرفيقة، وتعالَوْا إلينا بكل طمأنينة. أيها السكان، نظِّموا مساكنكم بهدوء، وستجدون فور ذلك إمكانية القيام بأودكم. أيها الصناع والعمال المجدون، عودوا إلى أعمالكم دون مماطلة، إن البيوت والحوانيت ودوريات

المراقبة تنتظركم، وستتلقون على عملكم الأجر الذي يتفق معكم. وأنتم أخيرًا أيها الفلاحون، اخرجوا من الغابات حيث جعلكم الخوف تختبئون، وعودوا دون خوف إلى أكواخكم، ولتكونوا على تمام الثقة بأنكم ستجدون فينا حُماتكم. لقد أُقيمَت في المدينة مستودعات كبيرة يستطيع الفلاحون أن يحملوا إليها الفائض من حاصلاتهم، ولقد اتخذت الحكومة التدابير التالية لتأمين الرواج الحر: (١) اعتبارًا من اليوم يستطيع الفلاحون والمزارعون وسكان ضاحية موسكو الآخرون أن يحملوا دون أي خوف إلى المدينة حاصلاتهم من أي نوع كانت إلى المستودعَيْن المقامين لهذا الغرض في شارع موخوفاييا وفي الأخوتنيرياد. (٢) إن هذه الحاصلات ستُبتاع منهم بأسعار تقوم على أساس اتفاق بين البائع والمشتري، فإذا لم يحصل البائع على السعر الذي يطالب به بحق فإنه حر في إعادة بضاعته إلى بيته، الأمر الذي لا يستطيع أحد أن يمنعه تحت أي اعتبار. (٣) إن يومَي الأحد والأربعاء من كل أسبوع خُصِّصا لإقامة السوق الأسبوعية العامة، ولهذا الغرض ستُقَام فصائل من الجند بعدد كافٍ على الطرق العامة أيام الثلاثاء والسبت من كل أسبوع لحماية القوافل. وقد اتُّخِذت هذه التدابير نفسها لعودة القرويين في عرباتهم مع جيادهم دون أية صعوبة. (٤) ستُتَّخذ تدابير مستمرة لإعادة التجارة الطبيعية.

يا سكان المدينة والقرى، وأنتم يا رجال الصناعة والعمال من أية ملة كنتم، إن الإمبراطور والملك يدعوكم إلى التقيد بتدابير الأبوية، وأن تتعاونوا معه لإعادة الرفاهية العامة، احملوا إلى قدميه احترامكم وثقتكم، ولا تترددوا في الاتحاد معنا!

وكانوا يقيمون استعراضات مستمرة ويوزعون المكافآت كي يرفعوا من معنويات الجيش والشعب، وكان الإمبراطور يجتاز الشوارع على جواده ويطمئن السكان، ورغم كل مشاغله بصدد مشاكل الدولة فإنه كان يرتاد المسارح المقامة بناءً على أمره.

وكان نابليون كذلك يعمل كل ما يتعلق به في سبيل الإحسان الذي هو أجمل زخرف في تاج الأمراء، لقد أصدر الأمر أن تُنْقَش على واجهات المؤسسات العلاجية: «بيت أمي»، كي يجمع بهذا التصرف بره الأبوي الحاني إلى رفعته ومروءته كعاهل. لقد زار الميتم، وبعد أن أعطى يده البيضاء للأيتام الذين أنقذهم ليقبلوها تحادث ببشاشة مع توتولمين.

وأخيرًا، حسب رواية تيير البليغة، أمر أن تُدْفَع رواتب جنوده بالعملة الروسية المزورة التي ضُرِبت بناءً على أوامره:

> لقد أمر بتوزيع المساعدات على منكوبي الحريق، فشجع على استعمال هذه الوسائل ببادرة جديرة به وبالجيش الفرنسي. أما الأرزاق، وهي أثمن من أن تُعطَى إلى غرباء جُلُّهم أعداء، فإن نابليون فضَّل أن يقدم لهم نقودًا لكي يتداركوا المؤن بها عن طريقهم، لذلك فقد أمر أن تُوزَّع عليهم روبلات من النقد الورقي.

أما فيما يتعلق بنظام الجيش والطاعة فيه، فإن أقسى التدابير ما فتئت تُتَّخذ لمعاقبة مخالفات فروض الخدمة العسكرية، ولوضع حد لأعمال السلب.

الفصل العاشر

... ونتائجها

مع ذلك فإن كل هذه الاستعدادات وهذه العناية والخطط، التي لم تكن أسوأ من غيرها في مناسبات مماثلة؛ لم تبلغ، لغريب الأمور، غور الأشياء، لكنها كعقارب ساعة على ميناء فُصِلت عن الجهاز الداخلي أخذت تدور اتفاقًا ودون هدف، دون أن تدير معها مجموعة القطع المكملة.

فمن وجهة النظر العسكرية فإن خطة الحملة العبقرية التي قال عنها تيير: «إن عبقريته لم يعد قط أكثر عمقًا منها وأكثر براعة وروعة»، والتي دلل بصددها في مجادلته الكتابية مع السيد فَنْ[1] أن تدبيجها يجب أن يُرجَع به إلى الخامس عشر من تشرين الأول وليس إلى الرابع منه؛ إن هذه الخطة لم تُنَفَّذ قط ولم يكن تنفيذها مستطاعًا لأنها كانت بعيدة عن الواقع، فأعمال تحصين الكريملن التي وجب هدم الجامع في سبيلها (والجامع هو اللقب الذي كان نابليون يطلقه على كنيسة بازيل السعيد) أظهرت أنها عقيمة تمامًا. ووضع الألغام تحت الكريملن لم يعد إلا في إرضاء رغبة الإمبراطور، الذي كان يريد نسفه عند خروجه من موسكو، والذي يعني إنزال عقوبة الضرب بأرض لأنها السبب في سقوط طفل صغير. ثم إن ملاحقة الجيش الروسي التي كانت شاغل نابليون الأكبر تقدم ظاهرة خارقة، لقد أضاع قادة الجيش الفرنسي هذا الجيش الروسي المؤلَّف من ستين ألف رجل، وبحسب تيير يعود الفضل إلى الفن وحده وإلى عبقرية مورا ولا شك في العثور على هذه الآلاف الستين من الجيش الروسي على رأس دبوس.

[1] البارون فرانسوا فَنْ، مؤرخ فرنسي وُلِد في باريز عام ١٧٧٨ وتُوفِّي عام ١٨٣٧، وكان سكرتير نابليون الأول.

ومن وجهة النظر الدبلوماسية فإن كل دلائل عظمة النفس والإنصاف التي أظهرها نابليون أمام توتولمين وإياكوفليف — وكان همُّ هذا الأخير أن يتدبر لنفسه قبل كل شيء معطفًا وعربة — لم تُجْدِ فتيلًا لأن ألكسندر لم يستقبل هذين السفيرين، ولم يجب على العروض التي كانا مكلَّفَيْن بحملها.

ومن وجهة النظر القضائية، احترق النصف الآخر من موسكو الذي ظل سليمًا بعد إعدام مشعلي الحرائق المزعومين.

ومن وجهة النظر الإدارية، لم يوقف إقامة بلدية أعمال السلب ولم تكن نافعة إلا للقبضة من الأشخاص الذين شكلوها، والذين لم يترفعوا أنفسهم عن السلب بحجة صيانة النظام أو عن حماية أملاكهم الشخصية من السلب.

ومن وجهة النظر الدينية فإن ما كان غاية في سهولة إقامته في مصر بفضل زيارة جامع واحد، لم يعطِ أية نتيجة في موسكو، لقد حاول الكاهنان أو الكهنة الثلاثة الذين وجدوهم أن يخضعوا لرغبة نابليون، ولكن واحدًا منهم تعرض للصفع طيلة القداس من قبل جندي فرنسي، وكتب موظف فرنسي التقرير التالي عن آخر:

> إن القس الذي وجدته ودعوته لإقامة القداس الديني مرة أخرى نظف الكنيسة وأغلق بابها، ولقد جاءوا هذه الليلة من جديد فاغتصبوا الباب وحطموا الأقفال ومزقوا الكتب، وارتكبوا أعمالًا فوضوية أخرى.

ومن وجهة النظر التجارية فإن الدعوة الموجهة إلى الصناع المجدين وإلى القرويين لم تبلغ أية نتيجة، لم يتقدم أي صانع مجد، أما القرويون فإنهم كانوا يطبقون على القوميسيرين الذين يغامرون بالابتعاد قليلًا حاملين إعلاناتهم ويقتلونهم.

كذلك لم تسر الأمور على نمط أفضل من حيث المتع والمسرحيات المعدة للجيش وللسكان، إذ لم تلبث المسارح التي أقيمت في الكريملن وفي بيت بوزنياكوف أن أغلقت أبوابها مرغمة فور ما سلبوا الممثلين والممثلات فيها.

والإحسان هو الآخر لم يعد بواحدة من النتائج المرجوة، لقد أُغرقت موسكو بأوراق النقد الحقيقية أو الزائفة التي فقدت كل قيمة، ولم يكن الفرنسيون جامعو الأسلاب في حاجة إلا إلى الذهب، ولم تكن العملة الزائفة التي أمر نابليون بتوزيعها بكل كرم على المنكوبين هي وحدها التي فقدت قيمتها، بل إن النقود الفضية نفسها المقايضة بالذهب كانت تروج بقيمة أقل كثيرًا من قيمتها الحقيقية.

وأظهر مثال على عدم جدوى التدابير المتخذة في المراجع العليا في ذلك الحين، كان العجز الذي وقع فيه نابليون عن إيقاف السلب وإعادة النظام.

وفيما يلي تقارير السلطات العسكرية:

إن أعمال السلب مستمرة في المدينة رغم الأمر بوضع حد لها، والنظام غير مؤمَّن بعد، وليس هناك بائع واحد يتَّجر بشكل مشروع. إن بائعي المؤن وحدهم يغامرون بالبيع لكنهم يبيعون أشياء مسروقة.

إن جانب قطاعي لا يزال عرضة لأعمال السلب من جانب الفوج الثالث، الذين لم يكتفوا بانتزاع ما تبقى لدى التعساء اللاجئين إلى الأقبية، بل بلغ من وحشيتهم أنهم يجرحونهم بضربات من سيوفهم كما شاهدت بنفسي أمثلة كثيرة.

لا شيء جديد أكثر من أن الجنود يسمحون لأنفسهم بأن يسرقوا وينهبوا في التاسع من تشرين الأول.

السرقة والسلب مستمران، إن في قطاعنا عصابة من اللصوص يجب إيقافها بواسطة حراس عديدين أقوياء. في ١٤ تشرين الأول.

إن الإمبراطور مستاء جدًّا، إذ يرى رغم التدابير الزجرية المتخذة لإيقاف أعمال النهب فصائل من السلَّابين من جنود الحرس تدخل الكريملن، إن الفوضى والسلب قد تجددا بشدة تفوق كل حد سابق بين أفراد الحرس القديم أمس والليلة الفائتة واليوم. إن الإمبراطور يرى بألم عميق أن جنودًا ممتازين أُقيموا لحماية شخصه ووجب عليهم أن يقدموا من أنفسهم مثالًا عن الطاعة للآخرين؛ يشتطون في التمرد لدرجة اجتياح الأقبية والمخازن المعدة للجيش، بل إن بعضهم بلغوا من الانحطاط إلى درك عدم احترام الحراس وضباط الحرس وإهانتهم وضربهم.

وقد كتب الحاكم:

إن ماريشال القصر الأكبر يشكو بشدة من أنه رغم الخطر المكرر لا يزال الجنود يقضون حاجاتهم الجسدية في كل الأفنية، بل حتى تحت نوافذ الإمبراطور.

لقد كان هذا الجيش أشبه بالقطيع المسرَّح الذي يطأ بالأقدام للغذاء الذي يمكن أن ينقذه من المجاعة، سوف ينهار وكل يوم من إقامته غير المجدية في موسكو كان يدفعه أكثر إلى نهايته، مع ذلك لم يكن يتحرك من مكانه.

وفجأة قرر الجيش أن يتحرك عندما دب الذعر في صفوفه إثر نبأ القوافل المأسورة على طريق سمولنسك ونبأ معركة تاروتينو. وهذا النبأ نفسه الذي تلقاه نابليون أثناء عرض عسكري، هو الذي أيقظ في نفسه الرغبة في معاقبة الروسيين كما يقول تيير، فأصدر الأمر بالسير وهو الأمر الذي كان جيشه كله يطالب به.

حمل رجال هذا الجيش في فرارهم من موسكو كل أسلابهم المتراكمة، بل إن نابليون نفسه حمل معه «كنزه» الشخصي. ولقد خاف نابليون — كما قال تيير — عندما رأى القوافل التي تعيق حركة الجيش، لكنه لم يأمر بفضل خبرته في الحرب بأن تُحرَق العربات الفائضة كما فعل بصدد عربات واحد من ماريشالاته قبل دخوله إلى موسكو، لقد تأمل تلك العربات الخفيفة وعربات «البرلين» الضخمة الغاصة بجنوده، ثم أعلن أن كل شيء على ما يُرام، وأنهم سوف يحتاجون إلى كل هذه العربات من أجل الأرزاق والمرضى والجرحى.

لقد كان موقف الجيش كله يشبه موقف حيوان جريح يشعر بدنوِّ أجله ولا يعي ماذا يفعل. ودراسة حركات نابليون وخططه الحكيمة وحركات جيشه منذ دخوله موسكو حتى اللحظة التي دُمِّر فيها هذا الجيش، يعني دراسة القفزات والتشنجات الصادرة عن حيوان جريح جرحًا مميتًا، إنه غالبًا ما يرتمي الحيوان الجريح تحت نار الصياد لأدنى حركة، ويفر بخط مستقيم ثم يعود إلى الوراء وبذلك يعجِّل بنهايته. وهذا ما عمله نابليون تحت ضغط جيشه كله، لقد دب الذعر في فؤاد الحيوان الجريح لضجة معركة تاروتينو، فاندفع يستقبل الطلقة النارية وبلغ مكان الصياد ثم نكص على أعقابه، وأخيرًا اندفع إلى الوراء ككل الحيوانات الجريحة، سالكًا أسوأ الطرق وأكثرها خطورة ولكن على آثار قديمة ومعروفة منه.

إن نابليون الذي يبدو لنا أنه يدير كل هذه الحركة، أشبه بالصورة المنقوشة على مقدمة سفينة يعتبرها المتوحشون القوة المحركة لتلك السفينة، في حين أنه في الحقيقة أشبه بطفل صغير في اضطرابه، طفل متشبث بالسيور الجلدية المثبتة داخل عربة ما، يتصور نفسه وهو في مكانه ذلك أنه يقود تلك العربة.

الفصل الحادي عشر

بيير في السجن

خرج بيير في السادس من تشرين الأول من مبناه الخشبي صباحًا باكرًا جدًّا وتوقف، بعد أن نكص على أعقابه، على العتبة يداعب كُلَيْبًا ذا شعر بنفسجي وجسد ممدد فوق قوائم قصيرة عوجاء، كان هذا الكلب الصغير يعيش في المبنى وينام مع كاراتاييف، يفلت أحيانًا ولكنه بعد جولة في المدينة يعود دائمًا، وكان يبدو عليه أنه لم يكن قط لأحد ما لأنه في تلك اللحظة كان دون صاحب ودون اسم، كان الفرنسيون يسمونه آزور، ولقد عمَّده جندي مولع جدًّا بالقصص باسم فمجالكا، أما كاراتاييف والآخرون فقد أطلقوا عليه اسم الأشهب أو فيسلي أي ذي الأذنين المتدليتين. لم يكن ذاك الكليب ذو الشعر البنفسجي منزعجًا قط لأنه لا عرق له ولا لون ولا سيد ولا اسم محددة، كان ذَنَبه ينتصب على شكل حزمة دائرية متينة من الريش، وقوائمه الملتوية تؤدي له خدمات جليلة، حتى إنه غالبًا ما كان يغفل استعمال قوائمه الأربع فيرفع إحدى خلفيتيه بظرافة، ويروح يقفز على الثلاث الأخريات برشاقة ملحوظة. لقد كان كل شيء بالنسبة إليه مبعث رضا، فتارة ينبح مسرورًا ويتدحرج على ظهره، وتارة يتدفَّأ تحت الشمس تبدو على وجهه سيماء العظمة والتفكير، وتارة يمرح مداعبًا قطعة من الخشب أو ساقًا من القش.

كان لباس بيير يتألف الآن من قميص قذر ممزق هو آخر أثر من آثار ثيابه القديمة، ومن سراويل عسكرية ربط أطرافها بخيوط عند كعبيه ليستمد منه قسطًا أكبر من الدفء تبعًا لنصيحة كاراتاييف، وقلنسوة يضعها الفلاحون. ولقد تبدل بيير من الناحية الجسدية تبدلًا كبيرًا خلال هذه الفترة، لم يعد بادنًا كسابق عهده رغم احتفاظه بمظهره المتين الضخم الذي كان طبيعيًّا في تكوينه، وأصبحت لحيته وشاربه يغطيان الجزء الأسفل من وجهه، بينما راح شعره الذي نبت واستطال مشعَّثًا مليئًا بالقمل يغطي رأسه أشبه بقلنسوة، ولقد اتخذت نظرته طابعًا حازمًا هادئًا شديد الثبات لم يسبق له أن وُهِب

مثلها من قبل، وحل محل استسلامه الذي كانت عيناه تنطقان به عزم مكين نشيط وكان يمشي حافي القدمين.

كان بيير ينظر تارة إلى الحقل في الأسفل حيث اجتازه ذلك الصباح أشخاص على جياد وعربات، وتارة إلى الأبعاد إلى ما وراء النهر، وطورًا إلى الكليب الذي بدا كأنه يريد أن يعضه جديًّا، ثم إلى قدميه الحافيتين اللتين كان يتسلى بإعطائهما وضعيات مختلقة وهو يحرك أصابعهما القذرة، وكلما وقعت عيناه على قدميه الحافيتين كانت ابتسامة رضا قوي تطوف على وجهه، كانت رؤيتهما تذكره بما قاساه وتعلمه خلال هذه الحقبة، وكانت هذه الذكرى محببة إلى نفسه.

منذ بضعة أيام كان الطقس هادئًا مشرقًا مع شيء قليل من الجمد الأبيض عند الصباح، وهو ما يطلقون عليه اسم صيف النساء.

كان الطقس حارًّا في الخارج تحت الشمس والحرارة بعد برودة الجمد الصباحية المثيرة التي ما زالت تشوب الهواء، كانت لذيذة بشكل خاص.

كان ذلك الضياء السحري ينتشر فوق كل الأشياء القريبة والبعيدة وهي على حالتها المبلَّرة التي لا تُرَى إلا في مثل ذلك الوقت من الخريف، وجبل العصافير مع القرية والكنيسة والبيت الأبيض الكبير ترتسم على البعد، والأشجار العارية والرمال والأحجار والسقوف وسهم الكنيسة الأزرق وزوايا البيت الأبيض كلها تنفصل في زوايا ناتئة دقيقة بجلاء غير مألوف في الهواء الشفوف، وعلى مسافة أقرب ترتسم كذلك خرائب بيت أحد السادة المألوفة الذي احتله الفرنسيون، بأزدرختها الأخضر الداكن الذي نما على طول الحاجز. إن هذا المسكن نفسه المتهدم المدنس الذي كان يصبح في الأوقات الكالحة منفِّرًا لبشاعته، بات الآن في ذلك الإشعاع الضوئي الثابت على جمال يهدِّئ النفس.

وخرج عريف فرنسي بثوب مهمل وقلنسوة رجال الشرطة من وراء زاوية المبنى وبين أسنانه غليون قصير، فبادر بيير بغمزة عين ودية وقال: أي شمس، هه يا سيد كيريل (وهكذا كان الفرنسيون كلهم يسمون بيير) ليقال إننا في الربيع؟!

واستند العريف إلى الباب، وعرض على بيير تدخين غليون رغم أنه كان دائمًا يلاقي الرفض من جانب هذا كلما تقدم إليه بذلك العرض.

شرع العريف يقول: لو أننا مشينا في مثل هذا الجو ...

سأله بيير عما يعرفه عن الرحيل المقبل، فقال العريف إن الجيش كان تقريبًا سوف يتحرك قريبًا، وإن أمرًا يوميًّا ينبغي أن يصدر ذلك اليوم بالذات بصدد السجناء.

كان في المبنى الذي فيه بيير أحد الجنود واسمه سوكولوف يُحتضَر، فأخطر بيير العريف لتُتَّخذ الإجراءات بصدده، فقال له العريف إنه يستطيع أن يقر عينا لأن لديهم مستشفيات منظمة للغاية اللازمة بالمرضى، وإن كل ما يمكن أن يحصل قد قُدِّر من قبل من جانب القيادة العليا. ثم يا سيد كيريل، ليس عليك إلا أن تقول كلمة واحدة للرئيس وأنت تعرف ذلك، أوه! إنه واحد … لا ينسى شيئًا أبدًا، قل للرئيس عندما يقوم بجولته وسوف يعمل كل شيء من أجلك.

وكان الرئيس الذي تحدث عنه العريف قد سبق له أن تحدث مع بيير مطولًا مرات عديدة، وغمره دائمًا بحسن التفاته.

– انظر، وحق القديس توماس إنه قال لي ذلك اليوم إن كيريل رجل مثقف يتعلم الفرنسية، إنه سيد روسي أُصِيب بمحنة لكنه رجل، ثم إنه يمكن التفاهم معه، الـ … فإذا سأل شيئًا ليقله لي، لن يُرفَض له طلب، عندما يكون المرء مثقفًا يحب العلم كما ترى، والرجال الأخيار. إنني أقول هذا لك يا سيدي كيريل، فلولا فضلك في مشكلة ذلك اليوم لسارت الأمور على شكل سيئ.

وبعد لحظات ثرثرة مضى العريف. وكانت المسألة التي تحدث عنها العريف هي شجار وقع بين سجناء وفرنسيين استطاع بيير فيه أن يهدئ رفاقه. ولقد سمع بعض السجناء ببيير يتحدث إلى العريف فجاءوا يسألونه عما قاله، وبينما كان بيير يروي لهم أن الأمر يتعلق برحيل وشيك، وصل جندي فرنسي نحيل أصفر رث الثياب إلى الباب، حيًّا بحركة رشيقة ووجلة معًا وهو يرفع أصابعه إلى جبينه، وخاطب بيير ليسأله عما إذا كان الجندي تلاتوس الذي أعطاه قميصًا لخياطته في المبنى أم لا.

لقد تلقى الفرنسيون في الأسبوع المنصرم جراية من الجلد والكتان، فأعطوا أحذيتهم وقمصانهم إلى السجناء الروسيين يصنعونها.

قال كاراتاييف وهو يقترب حاملًا قميصًا مطويًّا بعناية: إنه جاهز، إنه جاهز يا صقري الصغير.

كان كاراتاييف لا يرتدي إلا السراويل وقميصًا ممزَّقًا بسبب الحرارة وتيسير العملة، ولقد كان القميص الممزق بلون السخام، وكان شعره ملفوفًا على عادة العمال بشريط من الكتان، ووجهه المستدير يبدو أكثر استدارة وبشاشة من المعتاد.

هتف بلاتون وهو يبسط القميص الجاهز مبتسمًا: إن الوعد كان مسئولًا، لقد قلت إنه سينتهي يوم الجمعة وأنهيته يوم الجمعة.

ألقى الفرنسي حولة نظرة قلقة، ثم نزع سترته الخارجية بسرعة وكأنه حزم أمره على شيء ولبس القميص، ولقد بدت تحت سترة الفرنسي مكان القميص المفقود صدرة طويلة ذات أزهار من الحرير متسخة جدًّا، تغطي جذعه العاري الأصفر الهزيل، وكان واضحًا أن الفرنسي يخاف أن يأخذ السجناء لدى رؤيته على ذلك النحو بالضحك، لذلك فإنه سارع إلى القميص الجديد يدخل رأسه في فتحته، لكن ما من أحد من السجناء نبس بكلمة.

قال بلاتون وهو يجذب أطراف القميص: إنك ترى كم هو حسن الحياكة!

أدخل الفرنسي بادئ الأمر رأسه ثم ذراعيه، ثم راح دون أن يرفع عينيه يتأمل القميص على نفسه ويفحص خياطته.

قال بلاتون مفسرًا وقد استدار وجهه بابتسامة عريضة، وبان عليه الرضى العميق على عجلة: ذلك أنني لا أملك مشغلي هنا يا صقري الصغير، ولا أدوات مناسبة جيدة، ولقد قال المثل إنه دون عدة لا يمكن قتل قملة.

قال الفرنسي: هذا حسن، هذا حسن، شكرًا. ولكن لا بد وأن لديك قماشًا مما بقي منه.

فاسترسل كاراتاييف وهو أكثر اغتباطًا بعمله: سوف يسير كل شيء على ما يرام حتى ولو لبسته على جلدك مباشرة، سترى كم ستكون مرتاحًا فيه ...

فكرر الفرنسي باسمًا وهو يخرج ورقة نقدية قدمها إلى كاراتاييف: شكرًا، شكرًا يا شيخ، الباقي ... ولكن الباقي ...

ولاحظ بيير أن بلاتون ما كان يريد أن يفهم ما يقوله الفرنسي، فراح يراقبهما دون أن يتدخل. وظل كاراتاييف يشكر الفرنسي على الأجر ويطري عمله، غير أن الفرنسي الذي كان متمسكًا بما تبقى من الكتان لجأ إلى بيير أخيرًا ليترجم له أقواله.

رد كاراتاييف: آرابه؟ ماذا سيعمل بها؟ إنها ستفيدنا نحن فنعمل منها عصابات ممتازة للأقدام، لكنه إذا كان يصر ...

واكفهرَّ وجه كاراتاييف فجأة، فأخرج من قميصه رزمة صغيرة من القصاصة مد يده بها إلى الفرنسي دون أن ينظر، وقال وهو يبتعد: «يا حيف»، واستشار الفرنسي بيير بنظرة ثم احمرَّ وجهه وكأن نظرة بيير علَّمته شيئًا، ونادى فجأة بصوت نياح: بلاتوش، اسمع يا بلاتوش، احتفظ بها لنفسك.

وبعد أن أعطاها له استدار إلى الوراء وانصرف، فقال كاراتاييف وهو يهز رأسه: انظر إلى هذا! يقولون إنهم ليسوا مسيحيين مع أن لهم نفسًا طيبة، إنهم كما يقول

آباؤنا: «إن اليد التي يبللها العرق كريمة، واليد الجافة ليست وهَّابة»، إنه لا يملك شيئًا ومع ذلك يعطي.

ظل كاراتاييف فترة صامتًا وعيناه شاخصتان إلى آراب القماش وعلى شفتيه ابتسامة حالمة، ثم قال وهو يعود إلى المبنى: ولا ريب يا شيخ أنني سأعمل من هذه عصابات رائعة.

الفصل الثاني عشر

نفسية بيير

كان بيير سجينًا منذ أربعة أسابيع، وعلى الرغم من أن الفرنسيين أظهروا نيتهم في نقله من مبنى الجنود إلى مبنى الضباط، فإنه لبث في المبنى الذي قادوه إليه في اليوم الأول.

وكان بيير يتحمل في موسكو المحترقة الممتلئة بالخرائب أقصى ما يمكن لرجل أن يحتمله من الحرمان، لكنه بفضل تكوينه الممتاز وصحته القوية اللذين لم يفكر فيهما حتى ذلك اليوم، وبفضل وقوع ذلك الشظف على درجات لا يكاد يشعر بها حتى ليتعذر تحديد الوقت الذي بدأ فيه، فقد احتمل حالة العري التي وصل إليها ليس دون ألم فحسب بل وفي فرح. والواقع أنه في تلك اللحظة بدأ يشعر بذلك الهدوء وذلك الرضى الداخليين اللذين تمناهما بكثير من اللهفة من قبل، لقد بحث طويلًا خلال حياته هنا وهناك عن ذلك الهدوء وذلك التفاهم مع الذات، الذي أدهشه أيما دهشة وجودهما لدى الجنود في معركة بورودينو، لقد بحث عن ذلك في محبة الناس وفي الماسونية وفي مباهج الحياة العامة، في الخمر، في بطولة التضحية، في غرامه الرومانطيقي بناتاشا، لقد بحث عن ذلك في دروب الفكر فخيبته أبحاثه كلها ومحاولاته كلها، وها هو ذا دون أن يعرف كيف يحصل على الهدوء وعلى الرضى الداخليين من خلال أهوال الموت والعري، وخصوصًا من خلال ما كان يشعر به في كاراتاييف.

ولقد بدت الدقائق الرهيبة التي قضاها أثناء إعدام مشعلي الحرائق كأنها كنست من ذهنه وذاكرته إلى الأبد الأفكار والمشاعر التي كانت تعذبه، والتي كانت تبدو له من قبل على جانب كبير من الأهمية. لم يعد يفكر في روسيا ولا في الحرب ولا في السياسة ولا في نابليون، بات يرى بوضوح أن كل هذا لا يعنيه في شيء، وأنه لم يُدْعَ للحكم على كل هذه الأمور، وأنه عاجز عن الحكم. كان يردد على طريقة كاراتاييف: «روسيا والصيف لا يتماشيان»، وكانت لهذه الكلمات ميزة تهدئة بشكل غريب. بات يرى الآن قراره قتل

نابليون غير مفهوم بل ومضحك، وكذلك حساباته حول الرقم السحري ووحش رؤيا القديس يوحنا، وقد بدا الآن أن غضبه على زوجته وخوفه من أن تحط من شرف اسمه يستحقان الهزء اللاذع، بل إنهما صورة مشوهة غريبة، ماذا كان يهمه لو أن تلك المرأة عاشت هناك الحياة التي تروق لها؟ ومن كان يهتم، بل أية أهمية بالنسبة إليه نفسه بصورة خاصة لو أن الفرنسيين عرفوا أن اسم سجينهم هو الكونت بيزوخوف أو لم يعرفوه؟

أخذ الآن يتذكر غالبًا حديثه مع الأمير آندريه، وأصبح متفقًا معه بالرأي تمامًا وإن كان فهمه لفكرته على بعض الاختلاف؛ كان الأمير آندريه يزعم ويقول إن السعادة سلبية فقط، لكنه كان يقول ذلك بطابع من السخرية والمرارة، وكان يبدو وهو يتكلم على هذا النحو أنه يريد التعبير عن رأي آخر، ذلك الرأي القائل: إن ميولنا نحو السعادة الإيجابية ليست مغروسة في نفوسنا إلا لتبقى غير مشبعة وبالتالي لتعذبنا. وكان بيير يعترف بحقيقة ذلك دون أية فكرة ضمنية، فغياب كل عامل الأمل وإرضاء كل الاحتياجات، والذي هو بالتالي حرية انتقاء المشاغل الشخصية، أي لون حياة الشخص الخاصة؛ باتت تبدو الآن لبيير السعادة الحقيقية القصوى للإنسان. فهنا، وللمرة الأولى، بات يقدر في سره بهجة تناول الطعام عندما يجوع المرء، والشرب عندما يعطش، والنوم عندما ينعس، والتدفئة عندما يشعر بالبرد، والتحدث عندما يرغب المرء في الحديث وفي سماع صوت إنساني، ولقد بدا إرضاء الحاجات والغذاء الجيد والنظافة والحرية التي كان محرومًا منها الآن، بدت لبيير السعادة الكاملة، وانتقاء مشاغله وأعني حياته، الآن وقد بات ذلك الانتقاء بالنسبة إليه محدودًا جدًّا بدا له من السهولة حتى إنه كان ينسى أن فرط التسهيلات في الحياة يدمر كل المتعة التي يشعر بها المرء في إرضاء احتياجاته، وأن الحرية المفرطة في انتقاء المشاغل — هذه الحرية التي أغدقتها على حياته ثقافته وثراؤه ومركزه في الحياة — تجعل من جهة ذلك الانتقاء بسيطًا لدرجة لا تُضاهَى، وتهدم من جهة أخرى الحاجة نفسها إلى الحياة بل وإمكانيتها.

باتت أحلام بيير كلها تتجه الآن نحو اللحظة التي سيصبح حرًّا فيها. وفي تلك الأثناء، بالتالي وخلال كل حياة، تذكر بيير وتحدث بحماس عن شهر الأسر ذاك، وعن تلك الإحساسات القوية المرحة التي لن يجدها مرة أخرى، وخصوصًا عن طمأنينة الروح الكلية وتلك الحرية الداخلية الكاملة، اللتين لم يحس بهما إلا في تلك الحقبة فقط.

في اليوم الأول، نهض مبكرًا جدًّا وخرج من المبنى عند الفجر، وعندما شاهد بادئ الأمر القباب المعتمة وصلبان دير نوفوديفيتشي، ثم الجمد الأبيض على الحشائش المغبرة،

ثم سفوح جبل العصافير والمنحدر المشجَّر المتعرج فوق النهر الذي يمتد ليغيب في الأبعاد البنفسجية الزاهية، عندما أحس بالهواء المنعش يدخل إلى أعماق رئتيه، وسمع نعيب غربان الزرع وهي تطير من موسكو عبر السهل، عندما رأى فجأة الضوء ينبعث من المشرق، وطرف قرص الشمس يطلع بجلال من وراء الغيوم، والقباب والصلبان والندى والأبعاد والنهر تتألق ببهجة الضوء؛ شعر بيير شعورًا جديدًا كل الجدة بالفرح وبعظمة الحياة شعورًا لم يسبق له أن أحس به قط.

ولم يغادره ذلك الشعور أبدًا طيلة فترة أسره، بل على العكس نما باطراد كلما ازدادت مصاعب موقفه.

ولقد ازداد ذلك الشعور بالتأهب لكل شيء والخضوع فكريًّا لكل شيء تأصلًا في نفس بيير بفضل الفكرة الرفيعة التي كونها عنه رفاقه في المبنى حال دخوله إليه. وبمعرفة لغات عديدة، وبالتقدير الذي أبداه الفرنسي نحوه، وبطريقته البسيطة كل البساطة في إعطاء ما يُسْأَل وهو الذي كان يتلقَّى أسبوعيًّا ثلاثة روبلات بوصفه ضابطًا، وبالقوة التي برهن عليها أمام الجنود بغرسه المسامير في حاجز المبنى الخشبي بيده، وبالدماثة التي أظهرها في معاملته مع رفاقه، وقدرته غير المفهومة في نظرهم على البقاء جالسًا دون حراك ودون أن يعمل شيئًا مفكرًا؛ بكل ذلك معًا اعتُبِر بيير شخصًا رفيعًا على بعض من الغموض. وهذه الصفات نفسها التي كانت في العالم الذي عاش فيه من قبل معيقة إن لم تكن مضرة، هذه الصفات: قوته، احتقاره لرفاهيات الحياة، مظهره الحالم، بساطته، كانت تجعل منه هنا بين هؤلاء الناس بطلًا تقريبًا، فكان بيير يحس بأن مثل هذا التقدير يخلق له واجبات عليه أداؤها.

الفصل الثالث عشر

يوم الرحيل

شرع الجيش الفرنسي يتحرك طيلة ليلة السادس إلى السابع من تشرين الأول: دمروا المطابخ والمباني، وحملوا عربات النقل، ثم بدأ الجنود والأحمال في السير.

في الساعة السابعة صباحًا اصطفت فصيلة من الفرنسيين في لباس الحرب، قبعاتٍ وأسلحة وأجربة وحزم كبيرة، أمام المبنى. وثارت محادثة حامية بالفرنسية تخللتها السباب من طرف الصف إلى طرفه الآخر.

كانوا جميعًا في المبنى على استعداد وقد ارتدوا ثيابهم وحزموا أمتعتهم وانتعلوا أحذيتهم لا ينتظرون إلا صدور الأمر إليهم بالرحيل، باستثناء الجندي المريض سوكولوف الشاحب النحيل لدرجة بدت معها عيناه المحاطتان بدوائر زرقاء وكأنها خارجتان من محجريهما، فقد ظل جالسًا في مكانه لم يلبس ثيابه ولم ينتعل حذاءه، بل راح ينظر إلى رفاقه الذين ما كانوا يأبهون له ويطلق بانتظام أنَّات خفيفة. ولا ريب أن الخوف والقلق من بقائه وحيدًا وهو المصاب بالزحار هما اللذان كانا يجعلانه يئن على ذلك النحو، وليس الألم وحده.

اقترب بيير من المريض وقد تمنطق بحبل وانتعل زوجًا من الأحذية صنعه كاراتاييف من جلد صندوق للشاي جاء به فرنسي ليجدد به نعليه، وجلس القرفصاء أمامه.

قال بيير: حسنًا يا سوكولوف، لا تخفْ، إنهم لا يرحلون نهائيًّا، إن لديهم مستشفى هنا، لعلك ستكون فيه أفضل منا جميعًا.

فأنَّ الجندي بصوت أقوى: أوه! سأموت! أوه يا ربي!

استأنف بيير يقول وهو ينهض ويتجه نحو باب المبنى: إنني ذاهب توًّا أعيد مطالبتهم بذلك.

وفي اللحظة التي كاد أن يجتاز عتبة الباب فيها، ظهر العريف الفرنسي الذي قدم إليه أمس تدخين غليون يرافقه جنديان، وكان العريف والجنديان في ثياب الميدان فأجربة

وعمرات رباطها مثبتة عند الذقن، الأمر الذي جعل وجوههم الأليفة تبدو مختلفة كل الاختلاف.

اقترب العريف من الباب ليغلقه تبعًا لأمر السلطات، إذ كان يجب تفقد السجناء قبل الرحيل.

شرع بيير يقول: أيها العريف، ماذا سيعملون بالمريض؟

لكنه وهو يقول ذلك تساءل مع من يتحدث، وهل يتحدث مع العريف الذي يعرفه أو مع مجهول لشدة ما طرأ على وجه هذا الرجل من تبدل. وبنفس الوقت، دوَّى قرع طبول من الجانبين معًا، فقطَّب العريف حاجبيه لدى سماعه أقوال بيير وصفق باب المبنى وهو ينطق بسُبَّة غير مفهومة، فغرق كل شيء في الداخل في نصف ظلام، وراح قرع الطبول المنبعث من اليمين واليسار يخنق أنات المريض.

حدَّث بيير نفسه وقد مرت في فقرات ظهره رعشة غير إرادية: «ها هو ذا، إنه يبدأ من جديد!» ففي وجه العريف غير المعروف وفي رنة صوته وقرع الطبول المحفِّز المُصِمِّ للآذان، لمس بيير تلك القوة الخفية التي لا تُقهر التي تدفع الإنسان إلى قتل أمثاله من بني الإنسان، تلك القوة التي رآها ناشطة يوم إعدام مشعلي الحرائق، وكان الخوف من تلك القوة أو محاولة الفرار منها أو التوجه بابتهالات أو بنصح إلى الذين يستعملونها أدوات لهم لا يجدي فتيلًا، لقد كان بيير يعرف هذا الآن. كان يجب الانتظار والصبر، فلم يعد بيير إلى حيث كان المريض ولم يعد ينظر إليه، وقف قرب باب المبنى صامتًا مقطب الحاجبين.

وعندما فتح الباب وراح السجناء يتدافعون بعضًا في أثر بعض كقطع من الخراف، شق بيير لنفسه طريقًا بينهم واقترب من ذلك الرئيس بالذات الذي كان مستعدًّا — على حد قول العريف — أن يعمل كل شيء من أجله، لقد كان ذلك الرئيس أيضًا وهو في ثياب الميدان متخذًا سيماء الجمود، وقد بدا عليه «ذاك» الذي لمسه بيير في أقوال العريف وفي جلبة قرع الطبول.

أخذ الرئيس يكرر وهو مقطب الحاجبين بصرامة، ينظر إلى جمهور السجناء يمر أمامه: اجروا، اجروا.

وكان بيير يعرف أن تصرفه سيكون عقيمًا، مع ذلك فقد تقدم، فقال له الضباط وفي عينيه نظرة باردة وكأنه لا يعرفه: حسنًا، ماذا هناك؟

فشرح بيير حالة المريض.

هتف الرئيس: سوف يستطيع السير، يا للشيطان!

ثم أردف دون أن يلقي بالًا إلى بيير: اجروا، اجروا.

رد بيير: ولكن لا، إنه في النزع …

فزمجر الرئيس وقد ازداد حاجباه تقطيبًا كما لم يحدث قط من قبل: هل تريد أن …

ودوت الطبول بلان، بلان، راتابلان، ففهم بيير أن القوة الخفية قد سيطرت على كل هؤلاء الرجال، وأنه لا جدوى الآن من التحدث في أي شيء كان.

فُرِز الضباط السجناء عن الجنود البسيطين وصدر إليهم الأمر بالسير في المقدمة، كانوا قرابة ثلاثين ضابطًا بما فيهم بيير، والجنود حوالي الثلاثمائة.

كان الضباط الأسرى القادمون من أبنية أخرى غرباء كلهم عن بيير، ولما كانوا جميعًا أفضل منه لباسًا، فقد راحوا يقيسونه بأنظارهم ويحدقون إلى حذائه بتحفظ عدائي. وعلى مقربة منه كان «ماجور» ضخم يسير وقد بدا عليه أنه ينعم بالتقدير العام، كان يرتدي معطفًا منزليًّا من صنع قازان ويتمنطق بمنشفة ووجهه منتفخ صفراوي حقود، وكان يمسك بإحدى يديه إبطه بجراب التبغ، وبالأخرى يتوكأ على غليونه التركي الطويل. وكان ذلك الماجور الذي ينفخ كالثور لا يفتأ يزمجر ويثور ضد كل الناس بحجة أنهم يدفعون وأنهم يمشون بسرعة كبيرة في حين ليس هناك داعٍ للسرعة، أو أنهم يدهشون عندما لا يدعو شيء إلى الدهشة. وكان ضابط آخر قصير نحيل يناشد كل واحد ليعلم الجهة التي يمكن أن يتجهوا إليها، والمكان الذي سيكون نهاية مرحلة اليوم. وكان موظف ينتعل أحذية عالية من اللبد ويرتدي زي الإعاشة يهرج من جانب إلى آخر ليتأمل أضرار حريق موسكو، وهو يدلي بملاحظاته بصوت مرتفع عما احترق وعما تبقى من هذا أو ذاك من الأحياء. وضابط ثالث، من أصل بولوني تبعًا للكنته، كان يتنافس مع ذلك الموظف ليبرهن له على أنه يخطئ في التعرف على الأحياء.

غمغم الماجور بلهجة جافة: ما فائدة النقاش؟ سان نيكولا أو سان بليز، هذا سيان وأنتم تعرفون ذلك لأن كل شيء قد احترق وانتهى الأمر … ماذا بكم تندفعون بهذا الشكل، أليس عرض الطريق كافيًا؟!

ولقد هتف بهذه الملاحظة عاليًا وهو يلتفت غاضبًا نحو الذي كان يمشي وراءه والذي لم يدفعه قط.

ومن جانب تارة ومن آخر تارة أخرى كان السجناء يهتفون لدى رؤية الانقاض: أوه! أوه! أوه! أوه! ماذا عملوا؟! زاموسكفورييتشييه، وزوبوفو، وفي الكريملن … انظروا، لم يبقَ منها النصف. نعم، لقد قلت لك من قبل إن كل زاموسكفورييتشييه ستلقى هذا المصير، وها هي ذي لقد احترقت!

غمغم الماجور: حسنًا، طالما تعرفون أن كل شيء قد احترق، فأية فائدة من استمرار الحديث عنه؟

ولما اجتازوا خاموفنيكي (وهو أحد الأحياء النادرة التي ظلت سالمة)، أمام الكنيسة، تكتلت جمهرة السجناء كلها في جانب واحد، وانطلقت الهتافات المشبعة بالهول والاشمئزاز من أفواههم.

آه! يا للحقيرين! إنهم ليسوا مسيحيين، نعم، هذا ميت، إن هذا ميت هنا ... لقد لطخوا وجهه بشيء ما.

حمل بيير نفسه هو الآخر نحو الكنيسة حيث كان يوجد ذلك الذي أحدث كل هذه الهتافات، فشاهد بغموض شكلًا مسندًا إلى الحاجز، ولقد علم من زملائه الذين كانوا يرون أفضل منه أن ذلك الشكل هو جثة رجل، نُصِبت واقفة على الحاجز وقد طُلِي الوجه كله بالسخام.

أخذ الحراس المواكبون يزمجرون وقد استبدت بهم غضبة جديدة فراحوا يطردون جمهور السجناء الذين كانوا يتأملون الجثة، مستعملين عرض سيوفهم: سيروا، اللعنة ... اجروا ... يا لثلاثين ألف شيطان ...!

الفصل الرابع عشر

المرحلة الأولى

اجتاز السجناء أزقة خاموفنيكي مع حراسهم والعربات والعجال التي تتبعهم دون أن يصادفوا أحدًا، لكنهم عندما بلغوا على مقربة من مخازن المؤن وقعوا وسط رتل كبير من المدفعية كان يتقدم بصعوبة، وقد تخللت صفوفه عربات خاصة.

ولما بلغوا الجسر اضطُرُّوا أن ينتظروا ريثما يجتازه أولئك الذين كانوا في المقدمة، ومن على ذلك الجسر استطاع السجناء أن يروا أمامهم ووراءهم أرتالًا لا تنتهي من القوافل الأخرى السائرة. وعلى اليمين، قرب نيسكوتشني حيث طريق كالوجا ينحرف ويضيع في الأبعاد، امتدت القطعات والقوافل إلى ما لا نهاية، كان ذلك هو «جمهرة» جيش بوهارنيه[1] الذي كان أول من خرج من موسكو. وإلى الوراء، على طول الرصيف وعبر جسر بيير، أخذت جمهرة جيش الماريشال ني وعرباته تتقدم.

مرت جمهرة جيش دافو التي يتبعها السجناء من مخاضة القرم، وولج قسم منها شارع كالوجا، بيد أنه كان هناك عدد كبير من العربات حتى إن عجال بوهارنيه التي مرت عن طريق شارع كالوجا، لم تكن قد خرجت من موسكو بعد، عندما وصلت مقدمة قطعات ني أوردنكا الكبرى.

وبعد أن عبر السجناء مخاضة القرم، ساروا بضع خطوات ثم توقفوا ثم عادوا إلى السير، بينما أصبحت العربات من كل صوب متراصة والرجال باتوا يتزاحمون، ولقد استمروا قرابة ساعة في قطع ما يقرب من المائة خطوة التي تفصل الجسر عن شارع

---

[1] أوجين دوبوهارنيه، ابن الفيكونت ألكسندر دوبوهارنيه وجوزيفين، ابن زوجة نابليون الأول ونائب ملك إيطاليا، وُلِد في باريز عام ١٧٨١ وتُوفِّي عام ١٨٢٤.

كالوجا. وعندما وصلوا الساحة التي يتحد فيها طريقا زاموسكفورييتشييه وكالوجا، اضطُرَّ السجناء أن يتوقفوا من جديد وأن يُحشَروا حشرًا وينتظروا ساعات طويلة في تلك المفارق. ومن كل مكان، كانت تنبعث جلبة متواصلة شبيهة بهدير البحر، بين صرير عربات وضربات أقدام وصرخات غضب وسباب، ولقد راح بيتر يصغي إلى هذه الجلبة التي كانت تختلط في خياله بقرع الطبول، وهو واقف ملتصق بجدار منزل محترق.

ولقد تسوَّر بعض الضباط الأسرى جدران البيت المحترق الذي استند بيير إليه لتُتَاح لهم فرصة إمعان النظر، أخذوا يتحدثون: يا للجمع الغفير! يا للجمع الغفير! ... ولكم كُدِّسوا حتى فوق مدافعهم! انظروا إلى هذا الفرو، آه! يا للسفلة، كم سرقوا من أشياء! ... انظروا إلى هذا، إلى الوراء، في عربته! ... وهذا! ... إن هذه الأشياء ولا ريب مسلوبة من أيقونة مقدسة! إنهم ألمانيون بلا ريب! ... وقروينا، أين مضى؟ آه! يا للقذرين! وهذا، إن لديه حملًا ثقيلًا جدًّا حتى إنه لا يستطيع أن يتقدم ... مع عرباتهم ...! وهؤلاء الذين يعتلون الصناديق! آه! مولانا الرب! ... لكن هذا جد، إنهم يتضاربون! إيه، هيا إذن، اضرب وجهه! على الوجه، أقول لك ... أما نحن فإننا سنمكث هنا حتى حلول المساء، خذ، خذ! ... وهذا، هذا لا ريب لنابليون، هن، يا للجياد! بشعار وتاج! ... وهذه، إنها ضحية قابلة للانطواء، وهذا الذي يدع الرزم تسقط دون أن يلاحظها! ... وأيضًا أشخاص يتضاربون. وهذه المرأة مع طفلها، إنها ليست دميمة لعمري! نعم يا صغيرتي، سيدعونك تمرين على الفور! ... انظروا، إن هذا لن ينتهي أبدًا ... فتيات روسيات، لعمري! فتيات، يجلسن مستريحات في عربة خفيفة! «كمان!»

ألقت موجة جديدة من الفضول العام بالسجناء إلى جانب الطريق كما حدث لهم قرب الكنيسة في خاموفنيكي، فاستطاع بيير بفضل قامته المديدة التي تسمح له بالرؤية من فوق رءوس رفاقه أن يرى ما كان يجذب انتباههم، كانت نساء متبرجات في ثياب زاهية الألوان يطلقن صرخات ثاقبة، يخطرن مكوَّمات بعضهن فوق بعض في ثلاث عربات ركوب بين صناديق المدفعية.

منذ اللحظة التي شاهد بيير تلك القوة الغامضة تظهر، لم يعد هناك شيء يبدو له أكثر غرابة، لا الجثة الملطخة بالسخام استهزاء، ولا هؤلاء النسوة اللاتي يسرعن إلى حيث لا يعلم أحد، ولا خرائب موسكو، لم يعد شيء مما يراه الآن يحدث في نفسه أثرًا حتى ليُقال إن روحه كانت تستعد لمعركة رهيبة وترفض أي انفعال قادر على إضعافها.

مرت قافلة النساء، ثم عاد رتل العربات والجنود والعجلات، ثم جنود من جديد وصناديق وجنود، وهنا وهناك بعض النساء.

أما بيير فإنه بدلًا من الأشخاص أنفسهم، كان يرى مجموع حركتهم فحسب، كل هؤلاء الناس والجياد بدوا كأن قوة غير مرئية تطردهم، كانوا جميعًا خلال تلك الساعة التي رآهم بيير فيها يفدون من كل صوب، تحركهم رغبة واحدة بعينها: المرور بأسرع ما يمكن، فكانوا جميعًا يتساوون بالتدافع بالمناكب والاحتداد والاشتباك بالأيدي. لقد كانت الأسنان البيضاء على أهبة العض، والحواجب تقطب، والسباب بعينها دائمًا تدوي، وكل وجه يحمل التعبير إياه بالحزم المكين والبرودة الشرسة، اللذين أدهشا بيير ذلك الصباح أيما دهشة على وجه العريف عند وقوع الطبول.



العودة إلى القصر.

ساروا بسرعة فائقة دون توقف أبدًا، ولم يتوقفوا إلا عند مغيب الشمس، وحينئذ صُفَّت العربات الواحدة وراء الأخرى، واستعد الرجال لليل. كانوا جميعًا على حالة من الكآبة معتكري المزاج، ولقد تناهت من كل جانب السباب والهتافات الساخطة والمشاجرات وقتًا طويلًا. لقد ارتطمت عربة كبيرة كانت تتبع القافلة بعجلة نقل فحطمتها بمَجَرِّها، وهُرِع بعض الجنود فراح بعضهم يضرب رأس الخيول المقطورة إلى العربة ليجعلها تتراجع، وأخذ البعض الآخر بتلابيب بعض، فشاهد بيير جنديًّا ألمانيًّا يُصَاب بجرح خطير في رأسه بضربة سيف.

الآن وقد توقفوا وسط السهل، في رخاء غسق خريفي، بدا هؤلاء الناس كلهم كأنهم يتحسسون بشعور اليقظة الأليم نفسه بعد تلك اللهفة التي أظهروها في الرحيل والتدافع بالمناكب الذي نجم عنه، لقد بدوا جميعًا عندما أخلدوا إلى الراحة يدركون أنهم يجهلون الجهة التي يسيرون إليها، وأنهم في تلك الحركة سيتعرضون ولا ريب لمحن ومصاعب.

عامل الحراس السجناء خلال المرحلة معاملة أسوأ من التي سبقت ساعة الرحيل، ولقد وزعوا عليهم للمرة الأولى لحم خيل.

واعتبارًا من الضباط وحتى آخر جندي من جنود الحراسة، بدا كل منهم وكأنه يحس بعداء شخصي نحو السجناء، عداء حل فجأة محل روابط الصداقة السالفة.

ولقد تعاظم ذلك العداء في فترة التفقد عندما تبينوا أن جنديًّا روسيًّا فرَّ في غمار المَهْرَج الذي عم عند الرحيل، محتجًّا بألم في بطنه. ولقد شاهد بيير فرنسيًّا يضرب جنديًّا روسيًّا حاد على الطريق، وسمع صديقه الرئيس يعنِّف صف ضابط بصدد الجندي الروسي الفار ويهدده بالمجلس الحربي. ولما رد صف الضابط أن الجندي كان مريضًا لم يستطع مواصلة السير، أجاب الضابط بأن الأمر كان قد صدر بإطلاق الرصاص على المتأخرين؛ شعر بيير بأن تلك القوة المشئومة التي اجتاحته إبان إعدام مشعلي الحرائق، والتي لم تطهر نفسها طيلة فترة أسره، قد عادت إلى الاستيلاء على شخصه. لكنه شعر كذلك بأنه بقدر ما كانت تلك القوة المشئومة تنوء عليه بشدة بغية سحقه، كانت قوة أخرى حيوية مستقلة عن الأخرى تنمو في روحه.

أكل بيير من حساء طحين الشيلم مع قطعة من لحم الحصان، ثم راح يتحدث مع رفاقه.

لم يتحدث هو ولا واحد من الآخرين بكلمة واحدة عما رأوا في موسكو، لم يتحدث أحد عن غلظة الفرنسيين، ولا عن الأمر بإطلاق النار على المتخلفين والفارين الذي بلغوه إلى السجناء، لقد تظاهروا جميعهم بالنشاط والفرح وكأنهم يحتجون على تفاقم حالتهم، تحدثوا عن ذكرياتهم الشخصية، وعن المشاهد المضحكة التي وقعت أبصارهم عليها خلال المسير، وتحاشوا التلميح إلى موقفهم الحاضر.

كانت الشمس قد غربت منذ وقت طويل، والنجوم اللامعة قد أخذت تضيء هنا وهناك في قبة السماء، وضوء القمر البدر الذي كان يشرق أحمر كلهب حريق ينسفح على حافة الأفق، فكانت رؤية الكرة الحمراء الضخمة تأخذ بمجامع القلوب. وكان الوقت لا يزال مضيئًا، لقد بلغ المساء نهايته لكن الليل لم يكن قد أسدل ستره بعدُ تمامًا. نهض بيير وغادر رفاقه الجدد، ثم حاول المسير خلال نيران المعسكر إلى الجانب الآخر من

الطريق حيث قيل له إن الجنود الأسرى يقيمون، كان يريد أن يتحدث معهم فاستوقفه حارس فرنسي على الطريق وجعله ينكص على أعقابه.

عاد بيير على آثاره ولكن ليس باتجاه نيران زملائه، لقد ذهب نحو عربة فُصِلت جيادها، كان إلى جانبها شخص ما، وهناك أقعى وأطرق برأسه واستند إلى العجلات مستريحًا على الأرض الباردة، وظل فترة طويلة ساكنًا يفكر. ومُدَّت عليه أكثر من ساعة على ذلك النحو فلم يزعجه أحد، وفجأة انفجر مقهقهًا بضحكته المدوية بجلبة شديدة، حتى إن الرجال التفتوا نحوه من كل الجهات ليروا سبب انبثاق ذلك المرح الغريب المنفرد.

أخذ بيير يضحك ويقول بصوت مرتفع: ها! ها! ها! لم يدعني الجندي أمرُّ، لقد قبضوا عليَّ وسجنوني، وما زالوا يبقونني في الأسر، ولكن من أنا؟ أنا؟ روحي الخالدة؟ ها! ها! ها!

ولقد كان يضحك بقوة حتى إن الدموع ملأت عينيه.

نهض أحدهم واتجه نحوه ليرى من أي شيء يضحك هذا العملاق المتين الغريب، لكن بيير هدأ ونهض ثم ابتعد عن الفضولي وهو يلتفت حوله.

كان المعسكر الكبير الذي يمتد على مرمى البصر، والذي كان يعج بادئ الأمر باحتدام النيران والأحاديث قد هدأ والنيران الحمراء تنطفئ وتشحب، وبات البدر الآن مرتفعًا في كبد السماء المنيرة. ولقد كشفت الغابات والمروج التي ظلت حتى ذلك الحين غير مرئية خارج حدود المعسكر الستر عن نفسها، ومن وراء تلك الغابات والحقول أخذ البعد اللامتناهي المضيء يخفق ويدعو المرء إليه. رفع بيير عينيه نحو السماء، نحو الأعماق التي تلمع فيها النجوم السائرة وفكَّر: «كل هذا لي، كل هذا فيَّ، كل هذا هو أنا، وكل هذا هو ما أخذوه وحبسوه في مبنى تحيط به ألواح الخشب!» ابتسم ومضى يتمدد قرب رفاقه.

الفصل الخامس عشر

دوختوروف المغمور

خلال الأيام الأولى من شهر تشرين الأول حمل وسيط مرة أخرى إلى كوتوزوف رسالة من نابليون تحمل شروط الصلح، مؤرخة خطأً من موسكو طالما أن نابليون كان حينذاك على طريق كالوجا القديمة، قريبًا جدًّا من الجيش الروسي وأمامه، فأجاب كوتوزوف على هذه الرسالة أيضًا الجواب نفسه الذي رد به على الرسول لوريستون: أُعلن أنه لا يمكن أن يكون المجال مجال صلح.

وبعد وقت قصير أخبرت كتيبة الأنصار العاملة تحت إمرة دوروخوف إلى يسار تاروتينو، أنهم شاهدوا قطعات عدوة في فومينسكوييه، وأنها مؤلفة من فوج بروسييه، وأنها منفصلة عن بقية الجيش يسهل إفناؤها. فراح الجنود والضباط يطالبون بالهجوم من جديد، وألح جنرالات أركان حرب الذين شجعتهم ذكرى نصر تاروتينو السهل على كوتوزوف ليحملوه على إقرار فكرة دوروخوف. ولم يكن كوتوزوف يرى من الضروري الهجوم، لذلك اتخذوا الحل الوسط، الحل الذي يجب أن يتحقق، فأرسلوا كتيبة صغيرة إلى فومينسكوييه مزودة بأمر مهاجمة بروسييه.

وبصدفة غريبة أُنيطت هذه المهمة، وهي من أكثر المهام صعوبة وخطورة كما ثبت فيما بعد، بدوختوروف، دوختوروف القصير المتواضع ذاك نفسه، الذي لم يصفه لنا أحد قط بأنه واضع خطط حربية، مندفعًا على رأس أفواجه، موزعًا الأوسمة ملء راحتيه في «بطاريات» المدفعية، إلى آخر ما هنالك. دوختوروف ذاك نفسه الذي كان يبدو مترددًا محرومًا من الفطنة، والذي نجده مع ذلك خلال كل الحروب مع الفرنسيين، ابتداءً من أوسترليتز وحتى عام ١٨١٣، في المكان الأول حيثما الموقف خطير. ففي أوسترليتز ظل آخر من صمد عند سد أوجر، يجمع الفيالق وينقذ ما يمكن إنقاذه، في حين كان الجميع بين فارٍّ وقتيلٍ، ولم يبقَ جنرال واحد في المؤخرة. وهو الذي في سمولنسك، رغم نوبات

الحمى العنيفة التي انتابته، جرى مع عشرين ألف رجل ليدافع عن المدينة ضد جيوش نابليون، لقد أيقظه المدفع في سمولنسك عندما لم يكن قد أغفى بعدُ قرب باب مالاخوس، تائهًا في هذيان الحمى، وبفضله صمدت سمولنسك يومًا كاملًا. وفي بورودينو، عندما قُتِل باجراسيون، وفقد جناحنا الأيسر تسعة جنود على كل عشرة، وكانت مدفعية العدو الجبارة كلها مسددة إليه؛ أرسلوا على وجه الدقة دوختوروف هذا المتردد المحروم من الفطنة، وبادر كوتوزوف إلى إصلاح الخطأ الذي كاد يقترفه بتعيين ضابط آخر لذلك المركز، وبفضل القصير المتواضع دوختوروف أصبحت بورودينو أحد أمجاد الجيش الروسي. مع ذلك لقد وصفوا لنا نثرًا وشعرًا عددًا كبيرًا من الأبطال، لكنهم لم يتحدثوا إلينا قط عن دوختوروف.

وإذن، لقد أُرسِل دوختوروف أيضًا إلى فومينسكوييه، ومن هنا إلى مالوايايروسلافيتز حيث دارت آخر معركة مع الفرنسيين، وهو المكان الذي بدأت فيه نهايتهم منذ ذلك الحين وبشكل لا ريب فيه. مع ذلك فإنهم يصفون لنا من جديد أبطالًا كثيرين وعباقرة خلال هذه الحقبة من الحملة دون أن يُشار إلى دوختوروف، الأمر ببضع كلمات مبهمة جدًّا، بيد أن الصمت الذى يظهرون به حيال هذا الرجل يبرهن لنا على مؤهلاته بإفاضة. إن من الطبيعي أن يتصور رجل لا يعرف شيئًا عن حركة آلة ما وهو يراها تقف عن الدوران أن الجزء الأكثر أهمية فيها هو العُصافَة، التي سقطت صدفة بداخلها فجعلتها تصر وتقف، ولا يستطيع أن يدرك دون أن يحيط علمًا بتكوين الآلة أن الأداة الجوهرية ليست العُصافَة التي تعيق حركتها، بل المسنن الصغير للموصل الذي يدور دون جلبة.

في العاشر من تشرين الأول، وهو اليوم نفسه الذي قطع فيه دوختوروف نصف الطريق إلى فومينسكوييه، وأمر باستراحة في قرية أريستوفو وهو على استعداد للقيام بالمهمة التي أُوكلت إليه بكل دقة؛ بلغ الجيش الفرنسي كله في حركته التشنجية مواقع مورا تحت احتمال الاشتباك في معركة هناك. ثم دون أي سبب ظاهر رسم فجأة نصف دائرة إلى اليمين وسار على طريق كالوجا الجديد ودخل قرية فومينسكوييه، حيث لم يكن فيها أول الأمر إلا فيلق بروسييه وحده، ولم يكن تحت إمرة دوختوروف في ذلك الحين باستثناء دوروخوف إلا كتيبتي فينجر وسيسلافين الصغيرين.

وفي مساء ١١ تشرين الأول قاد سيسلافين إلى أريستوفو، مركز القيادة، جنديًّا فرنسيًّا من الحرس سقط أسيرًا بين يديه. أكد ذلك الرجل أن القطعات التي وصلت ذلك اليوم إلى فومينسكوييه تشكل مقدمة الجيش الكبير، وأن نابليون موجود معها، وأن ذلك

الجيش قد غادر موسكو منذ خمسة أيام. وفي الأمسية ذاتها أعلن خادم مملوك وصل من بوروفسك أنه شاهد جيشًا عرمرمًا يدخل تلك المدينة، وحمل قوقازيو دوروخوف من جانبهم أن الحرس الفرنسي يسير على بروفسك. فكان واضحًا تبعًا لهذه المعلومات الأخيرة أنه حيث كانوا يقدِّرون وجود فيلق واحد أصبح الجيش الفرنسي الخارج من موسكو كله موجودًا فيه، متجهًا اتجاهًا غير منتظر طريق كالوجا القديم، ولم يكن دوختوروف توَّاقًا إلى الدخول في الحركة لأن واجبه الحاليَّ لم يعد واضحًا جليًّا أمام عينيه، لقد أُصدِر إليه الأمر بالهجوم في فومينسكوييه، لكنه لم يكن في فومينسكوييه من قبل إلا بروسييه بينما أصبح الجيش الفرنسي كله فيها الآن. وكان إيرمولوف يريد أن يتصرف على هواه، لكن دوختوروف أصر على ضرورة حصوله على أمر من القائد الأعلى، فقرروا إرسال تقرير إلى الأركان.

انتخبوا لذلك ضابطًا ذكيًّا، بولخوفيتينوف، الذي كان عليه أن يقدم علاوة على التقرير الخطي تفصيلات شفهية عن المسألة، وعند منتصف الليل ذهب بولخوفيتينوف مزودًا بتقريره المختوم وبأوامره الشفهية، يحث جواده بأقصى سرعته يصحبه قوقازي يقود جياد البدل.

الفصل السادس عشر

الرسول وكونوفنيتسين

كانت الليلة الخريفية حالكة، والمطر الخفيف يهطل منذ أربعة أيام. بلغ بولخوفيتينوف ليتاشوفكا حوالي الساعة الثانية صباحًا، بعد أن أبدل جواده مرتين وقطع ثلاثين فرسخًا في ساعة ونصف الساعة عبر طريق لزج من الوحل. ترجل عن جواده أمام كوخ خشبي يحمل لافته «أركان حرب»، ودخل الدهليز المعتم.

قال لأحدهم وقد انتصب مرتجفًا أمامه في عتمة الدهليز: بسرعة، الجنرال المنوب، عاجل جدًّا!

دمدم صوت الحاجب وهو يحمي راحة سيده: إنه منحرف المزاج كثيرًا منذ أمس مساء، وهذه هي الليلة الثالثة التي لم يغمض له فيها جفن، من الأفضل أن أوقظ الرئيس أولًا.

فألح بولخوفيتينوف وهو يعبر بابًا مفتوحًا متحسسًا: إنها مسألة مستعجلة جدًّا من جانب الجنرال دوختوروف.

دخل الحاجب أولًا، وراح يعمل على إيقاظ أحدهم: نبالتكم، نبالتكم، رسول.

هتف صوت يثقله النوم: ماذا؟ ماذا؟ من جانب من؟

قال بولخوفيتينوف وهو عاجز عن تمييز الشخص الذي يستجوبه في الظلام، ولكنه عرف من صوته أنه ليس كونوفنيتسين: من جانب دوختوروف وألكسي بيتروفيتش. إن نابليون في فومينسكوييه.

أخذ الرجل الذي استيقظ يتثاءب ويتمطى، قال وهو يحرك شيئًا ما: ليست بي رغبة إلى مناداته، إنه مريض جدًّا، ولعل هذه إشاعات خاطئة!

فرد بولخوفيتينوف: هذا هو التقرير، لديَّ الأمر بتسليمه فورًا إلى الجنرال المنوب.

– انتظر حتي أوقد شمعة.

ثم صرخ الرجل الذي كان يتمطى وهو يخاطب التابع: أين تحشرها دائمًا أيها الأثيم؟! (وكان هذا هو شتشيربينين، المساعد العسكري كونوفنيتسين) آه! ها هي ذي، ها هي ذي.

قدح التابع الزناد بينما راح الضابط يبحث تحسسًا عن الشمعدان، قال باحتقار: آه! يا للقذرين!

لمح بولخوفيتينوف على ضوء الشرر المتطاير وجه شتشيربينين الفتي الذي وجد الشمعدان، وشاهد أمامه في زاوية الحجرة رجلًا نائمًا كان هو كونوفنيتسين.

وعندما انقلب اللهب على أطراف الأعواد المطلية بالكبريت من الأزرق إلى الأحمر عند ملامسته الصوفان، أضاء شتشيربينين قنديلًا، الأمر الذي جعل الدويبات التي كانت تقضم الشحم تتراجع هاربة، ثم أخذ يفحص الرسول، كان بولخوفيتينوف مغطًّى كله بالوحل ولما أراد أن يمسح وجهه بكمه لطخه كله.

سأل شتشيربينين وهو يأخذ الغلاف: من الذي أعطى هذه المعلومات؟

فأجاب بولخوفيتينوف: إن المعلومات صحيحة، فالأسرى والقوقازيون والجواسيس متفقون جميعهم على صحتها.

قال شتشيربينين وهو ينهض ويقترب من الرجل المتقلنس بقلنسوة من القطن المتدثر بمعطفه: إذن لا مناص، يجب إيقاظه.

هتف: بيوتر بيتروفيتش. فلم يتحرك كونوفنيتسين، فأضاف الضابط وهو يبتسم وكأنه واثق من قدرة ما يقوله على إيقاظه: إلى الأركان العامة.

وفي الواقع أن الرأس ذا القلنسوة القطنية لم يلبث أن ارتفع، وظل وجه كونوفنيتسين الجميل النشط ذو الوجنتين اللتين تلهبهما الحمى محتفظًا حينًا بانعكاس الأحلام المبعدة جدًّا حول الموقف الحاضر، لكنه بانتفاضة مفاجئة سرعان ما استعاد سماته المألوفة الهادئة الحازمة.

لم يلبث أن سأل وهو يطرف عينيه للضوء، دون أن يكون في لهجته شيء من التلهف: ما الخبر؟ من جانب من؟

فض كونوفينتسين الرسالة، وأخذ يقرؤها وهو يصغي إلى تقرير الضابط، ولم يكد يفرغ من القراءة حتى وضع على الأرض المسوَّاة قدميه المحجوبتين في جوارب من الصوف وشرع ينتعل حذاءيه العاليين، ثم تخلص من قلنسوته القطنية وسوَّى شعره علي صدغيه ثم وضع عمرته: هل جئت سريعًا؟ هيا بنا الي القائد العام.

أدرك كونوفنيتسين على الفور أن المعلومات المحمولة إليه ذات أهمية كلية وأنه لا يجب إضاعة الوقت، هل كان ذلك خيرًا أم كان شرًّا؟ لم يفكر في ذلك، بل ولم يطرح السؤال على نفسه. كانت أمور الحرب تبدو له غير تابعة للذكاء ولا للعقل بل لشيء آخر، وكان يؤمن في أعماق نفسه إيمانًا خفيًّا بأن كل شيء سيسير على ما يُرَام، لكنه لا يجب تصديقه كما يجب — أقل من ذلك — عدم التحدث عنه، وأن الواجب يقتضي بكل بساطة إنجاز ما يعرض من الأمور، فكان يعمل ما يجب عليه عمله صارفًا فيه كل قواه.

يبدو أن بيوتر بيتروفيتش كونوفنيتسين مثل دوختوروف، لم يأتِ إلا اتفاقًا على قائمة أسماء من يدعونهم أبطال ١٨١٢، أمثال باركلي ورايفسكي وإيرمولوف وبلاتوف وميلوداروفيتش. إنه مثل دوختوروف اشتُهِر بأنه رجل محدود الإمكانيات والمعلومات، وأنه مثل دوختوروف لم يضع قط خطة معركة رغم وجوده دائمًا في الأمكنة الأكثر خطورة، أخذ منذ اللحظة التي رُقِّي فيها إلى رتبة جنرال في الاحتياط ينام دائمًا وبابه مفتوح، يأمر بإيقاظه عند وصول كل بريد، ولقد كان دائمًا تحت النار طيلة المعركة، فكان كوتوزوف يلومه على ذلك ويخشى أن يرسله في مهمة. كان مثل دوختوروف إحدى العجلات المسننة التي لا يلحظها المرء، والتي تتألف منها الأجزاء الرئيسية للآلة دون ضجة ولا صرير.

ولما خرج من الكوخ إلى الليل الحالك الرطيب، قطب كونوفنيتسين حاجبيه بسبب ألم رأسه الذي كان في ازدياد، كما بسبب الفكرة المُنْغِرة التي طرأت على رأسه من أن كتلة الأشخاص ذوي النفوذ في الأركان ستصبح في غليان لدى اطلاعها على الأنباء فكان يخشى بيينجسن بصورة خاصة، الذي كان منذ معركة تاروتينو على عداوة مع كوتوزوف؛ سوف يقدمون العروض ويناقشون ويصدرون الأوامر ويلقون قرارات! فكان ما يراه يزعجه سلفًا رغم علمه بأنه لا بد وأن يكون كذلك.

والواقع أن تول الذي دخل إليه يعلن النبأ أخذ يعرض آراءه على الجنرال الذى يقطن معه، فاضطُرَّ كونوفنيتسين الذي كان يصغي إليه دون أن ينبس ببنت شفة أن يذكره بوجوب الذهاب عند عظيم الرفعة.

الفصل السابع عشر

في حضرة كوتوزوف

كان كوتوزوف ككل الأشخاص المسنين قليل النوم ليلًا يغفو غالبًا في النهار، لكنه يقضي الليل ممدَّدًا في سريره دون أن ينزع ثيابه، وهو في أغلب الأحيان مشغول في التفكير بدلًا من النوم.

كان على تلك الصورة في تلك اللحظة مستلقيًا فوق سريره، ورأسه الضخم الثقيل الذي يحمل آثار جرح كبير مرتكز على يده المنتفخة، مستغرقًا في خواطره وعينه الوحيدة محدقة في الظلام.

أصبح كوتوزوف أكثر هدوءًا منذ أخذ بيينجسن، الذي كان يتصل مباشرة مع الإمبراطور ويتمتع بأكبر نفوذ في الأركان العامة، يتجنبه. هدوءًا بمعنى أن ما من أحد بات يدفعه إلى إلقاء جيوشه في معركة هجوم عقيمة، فكَّر بأن درس معركة تاروتينو وأحداث الأمس التي كانت ذكراها أليمة الوقع على نفسه تنفعهم على كل حال.

راح كوتوزوف يحدث نفسه: «يجب أن يدركوا تمامًا أننا سنخسر كل شيء إذا تحولنا إلى الهجوم، إن الصبر والوقت هذان هما الشجاعان اللذان سيحاربان من أجلي!» كان يعرف تمامًا أنه لا يجب قطف تفاحة عندما تكون لا تزال فجة، إنها ستسقط من نفسها عندما تنضج، أما بانتزاع التفاحة الفجة فإننا نشوه الشجرة ولا تصلح الثمرة إلا لأضراس الأسنان، وبوصفه صيادًا خبيرًا كان يعرف أن الحيوان جريح جرحًا لا يقدر على مثله إلا مجموعة القوات الروسية، وهل الإصابة قاتلة أم لا، ذلك هو السؤال الذي ظل واجب الإيضاح. لقد كان كوتوزوف الآن، بعد تصرفات لوريستون وبترتيبه وتقارير الأنصار، واثقًا من أن الجرح مميت، ولكن كان لا يزال في حاجة إلى البراهين وكان عليه أن ينتظر.

حدث نفسه قائلًا: «ليس بهم إلا تلهف واحد، أن يجروا لرؤية كيف قُتِل الحيوان، انتظروا، وسترون تمامًا! أبدًا «مناورات» وأبدًا هجمات! ولماذا؟ بقصد إظهار الذات دائمًا. وكأن في القتال شيئًا يحمل على البهجة! إنه أشبه بالأطفال الذين لا يمكن أن يُطلق شيء على شيء لكثرة ما يستبد بهم الشوق إلى إظهار معرفتهم في القتال، في حين أن الأمر الآن لا علاقة له بكل هذا.»

«ويا لها من «مناورات» بارعة، تلك التي يعرض هؤلاء الأشخاص عن تطبيقها، إنهم يظنون أنهم بمجرد التبصر في طارئين أو ثلاث حوادث عرضية، تبصروا في كل شيء، كل شيء، (وتذكر مخطط الحملة العام، الذي أُرسِل من بيترسبورج)، لكن الحوادث العرضية أكثر من أن تُحْصَى!»

منذ أكثر من شهر ظل هذا السؤال معلَّقًا فوق رأس كوتوزوف: هل الجرح الذي أُصِيبوا به في بورودينو قاتل أم لا؟ إن الفرنسيين يحتلون موسكو وهذه واقعة ملموسة، مع ذلك فإن كوتوزوف كان على ثقة مبعثها كل جارحة من جوارحه بأن الضربة التي وجهها بمجموع القوات الروسية يجب أن تكون قاتلة. ولما كان في حاجة ماسة إلى البراهين، وكان ينتظر منذ شهر طويل، فقد أخذ ينفد صبره أكثر فأكثر كلما مر وقت أطول. وطيلة لياليه البيضاء أخذ يعمل وهو متمدد فوق سريره، مثل ما يعمله جنرالاته الشبان، الشيء بعينه الذي يأخذه عليهم، كان مثلهم يتصور كل العرضيات الممكنة مع هذا الفارق: أنه لم يكن يبني شيئًا على تلك الافتراضات، وأنه بدلًا من أن يرى افتراضين أو ثلاثة افتراضات يرى الألوف، وكلما ازداد تفكيرًا ازداد عدد الافتراضات في خاطره. كان يتصور كل إمكانيات حركة جيش نابليون، سواء كان مركَّزًا أو مقسَّمًا إلى جمهرات موجهة ضد بيترسبورج وضده هو للإحاطة به، ويستعرض الافتراض الذي كان يخشاه أكثر وهو عودة نابليون بكل قواته إلى موسكو والبقاء فيها بانتظاره، بل كان كذلك يفكر في حركة تقهقر من جانب جيش نابليون على ميدين وإيوخنوف،[١] لكن الشيء الوحيد الذي لم يخمنه سلفًا كان ما وقع، ذلك التنقل المخالف للصواب التشنجيُّ لجيش نابليون طيلة الأحد عشر يومًا التي تلت إخلاءه لموسكو، ذلك التنقل الذي جعل ممكنًا ما لم يكن كوتوزوف يجرؤ قط أن يتصوره حتى ذلك الحين: التدمير الكامل للجيش

[١] جاء في النص الفرنسي أن ميدين في حكومة كالوجا وإيوخنوف في حكومة سمولنسك، وهما على طريق كالوجا.

الفرنسي. فتقارير دوختوروف حول فوج بروسييه، والأنباء الجديدة التي حملها الأنصار حول ضيقة الجيش الفرنسي، والتفاصيل حول تجمع القطعات الخارجية من موسكو؛ كل ذلك يؤيد نظريته أن الجيش الفرنسي قد تشتت، وأنه يعد العدة لتقهقره. لكن هذه الأشياء كلها لم تكن إلا فرضيات يمكن أن تبدو مهمة في عيون أشخاص أغرار وليس لكوتوزوف، كان يعرف بسنواته الستين التي قضاها في الخبرة أي وزن يجب إقطاعه للشائعات، ويعرف مبلغ استعداد الأشخاص الراغبين في شيء ما لترتيب الحوادث حتى تؤيد رغباتهم، ويعرف في مثل هذه الحالة كيف يدفعون الأشياء التي تنافي تلك الرغبات. وعليه، فإن كوتوزوف كلما ازدادت رغبته في رؤية فرضية تتحقق أمسك بالسماح لنفسه بالإيمان بها، مع ذلك فإن المسألة كانت تحتكر كل مواهبه الفكرية، إذ كان كل ما تبقى في نظره مجرد استرسال للحياة العادية. وعلى هذا النحو كان يرى مناقشاته مع أركان حربه، ورسائله إلى السيدة دوستال[٢] التي كتبها من تاروتينو، وقراءة رواية ما، وتوزيع المكافآت، واتصاله ببيترسبورج ... إلخ، لكن هزيمة الفرنسيين التي حدسها وحده كانت سره ورغبته الوحيدين.

وإذن، لقد كان ليلة ١١ تشرين الأول ممدَّدًا، ورأسه مستند إلى يده يفكر في ذلك.

ندَّت حركة في الحجرة المجاورة، علت خطوات، كان القادمون هم تول وكوفونيتسين وبولخوفيتينوف. صاح بهم: هيه! من هناك؟ ادخلوا، ادخلوا! ماذا من جديد؟

وبينما كان وصيف يضيء شمعة، قدَّم تول جوهر الأنباء.

سأل كوتوزوف بوجه أحدث تأثيرًا كبيرًا على تول، عندما شاهد ما ارتسم عليه من صرامة باردة على ضوء الشمعة: من الذي حمل هذه الأنباء؟

– لا يمكن أن يحوم حولها الشك يا صاحب السعادة.

– ائتني به، ائتني به.

جلس كوتوزوف على سريره، وقد تدلَّت ساقه وثنى الأخرى تحت بطنه الضخم المتهدل، رفَّ بعينه السليمة ليتسنى له تأمل الرسول على نحو أفضل، وكأنه يريد أن يقرأ على قسماته ما كان يشغله.

[٢] مدام دوستال، ابنة نيكر، وُلِدت في باريز عام ١٧٦٦، وتُوفِّيت عام ١٨١٧. اشتُهِرت بكتاباتها، مؤلفة دلفين وكورين وكتاب ألمانيا. نحَّاها نابليون الأول بسبب آرائها.

قال لبولخوفيتينوف بصوت الكهل الهادئ وهو يزر قميصه الذي انفتح على صدره: تكلم، تكلم يا صديقي، اقترب، ادن مني أكثر، أي نبأ تحمله إليَّ؟ هه؟ لقد خرج نابليون من موسكو؟ هذا صحيح هذا؟ هزه!

شرح بولخوفيتينوف كل شيء بالتفصيل حسب تعليماته، فقاطعه كوتوزوف: تكلم، ادخل في لب الموضوع بسرعة أكثر، لا تدعني في لهفتي.

وبعد أن روى بولخوفيتينوف كل ما لديه صمت وانتظر الأوامر.

وحاول تول أن يتكلم لكن كوتوزوف قاطعه، همَّ بأن يقول شيئًا لكن وجهه تقلَّص فجأة وتصعَّر، فأزاح تول بحركة من يده وأشاح إلى الجهة المعاكسة نحو الركن الأفضل من الكوخ، الأكثر حُلْكة من الأركان الأخرى بسبب الصور المقدسة التي فيه. قال بصوت مرتعد وهو يضم يديه: مولانا، ربي يا خالقي، لقد سمعت صلاتنا ... لقد أنقذت روسيا، أشكرك يا ربي!

وانخرط في البكاء.

الفصل الثامن عشر

محاولتان

منذ اللحظة التي تلقَّى فيها هذه الأنباء وحتى آخر الحملة، انصرفت حيوية كوتوزوف كلها إلى كبح جماح قطعاته، سواء أكان ذلك بالسلطة أم بالخدعة أم بالرجاء، ومنعهم عن القيام بهجمات و«مناورات» واصطدامات غير مجدية مع عدو هالك لا محالة. لقد اتجه دوختوروف نحو مالواياروسلافيتز، لكن كوتوزوف لم يزد من سرعته مع جيشه بل أصدر الأمر بإخلاء كالوجا، لأن تراجعًا إلى ما وراء المدينة بدا له ممكنًا كل الإمكان.

ظل كوتوزوف يتابع تقهقره في كل الجهات، بينما العدو الذي لا يتوقع ذلك يتراجع في اتجاه معاكس.

إن مؤرخي نابليون يصفون لنا «مناوراته» البارعة في تاروتينو ومالواياروسلافيتز، ويستخلصون النتائج مما كان يمكن وقوعه لو أن نابليون وجد من الوقت ما مكَّنه من دخول أقاليم الجنوب الغنية.

لكن ما من شيء كان يمنع نابليون من الدخول إلى تلك الأقاليم الغنية طالما أن الجيش الروسي فتح له الطريق إليها، والمؤرخون ينسون أن جيش نابليون ما كان يمكن أن يُنْقَذ بعد ذلك، لأنه بات يحمل في نفسه بذور الموت الذي لا رادَّ له. كيف كان يمكن لذلك الجيش الذي وجد في موسكو موارد تموين غزيرة وَطِئَها بالأقدام بدلًا من أن يحافظ عليها، والذي عرَّض الأرزاق في سمولنسك للنهب والسلب بدلًا من توزيعها؛ كيف يمكن لهذا الجيش أن يعيد قواه بعد دخوله ولاية كالوجا حيث الشعب مؤلف من أولئك الروسيين أنفسهم الذين في موسكو، تثيرهم مثل مشاعرهم فيقدرون على إحراق كل ما يمكن حرقه؟

إن هذا الجيش ما كان يستطيع أن يعيد بناء نفسه بعد بوروديـنو وسلب موسكو، الشروط الكيميائية — إذا صح هذا القول — لتحلله.

كان رجال هذا الجيش العظيم يفرون مع رؤسائهم دون أن يعرفوا إلى أين، وليست بهم من رغبة (من نابليون وحتى آخر جندي) إلا في شيء واحد: أن يعجل كلٌّ لحساب نفسه بأقصى ما يمكن في الخروج من هذا المأزق الذي لا سبيل إلى الخلاص منه، والذي كانوا جميعهم يشعرون به بشيء من الإبهام.

ولهذا السبب وحده بينما كان الجنرالات يزعمون الاجتماع في مجلس حربي في مالوياروسلافيتز ويقدمون الآراء المختلفة، فاز الرأي الأخير الذي عبر عنه أكثر الجنود غباءً، موتون[1] الضخم، إذ قال ما كانوا جميعًا يفكرون فيه؛ ذلك أنه كان يجب المضي بأسرع ما يمكن. ولقد أغلق هذا القول الأفواه كلها حتى إن ما من أحد، ولا نابليون نفسه، وجد ما يرد به على تلك الحقيقة المعترف بها من قِبَل الجميع.

لكن الجميع كانوا رغم معرفتهم الأكيدة بضرورة المضي يخجلون من الاعتراف بأنهم مرغمون على الفرار، ولم يكن يستطيع التغلب على ذلك الخجل إلا الصدمة الخارجية، ووقعت تلك الصدمة في الوقت المناسب، فكان ما أسماه الفرنسيون: «هورا الإمبراطور».

في اليوم التالي لذلك المجلس الحربي خرج نابليون صباحًا باكرًا، بحجة تفقد القطعات وساحة معركة أمس ومعركة الغد، وتقدم مع ماريشالاته وحاشيته بين صفوف القتال، وصدف التقاؤه بقوقازيين سلَّابين هاجموا الإمبراطور وكادوا أن يأسروه، ولقد أُنقِذ نابليون بذلك الشيء بالذات الذي سبَّب ضياع الفرنسيين الرغبة في الأسلاب، التي دفعت القوقازيين هنا كما في تاروتينو إلى الإلقاء بأنفسهم على الغنائم وإغفال الرجال، فراحوا ينهبون دون أن يُلْقوا بالًا إلى نابليون واستطاع نابليون الإفلات.

ثم كاد «أبناء الدون» أن يأسروا الإمبراطور وسط جيشه نفسه، إذ كان واضحًا بالنسبة إلى الفرنسيين أنه ليس عليهم من شيء آخر إلا الفرار بأسرع ما يمكن وعلى أفضل الطرق المعروفة وأقصرها، ولم يكن نابليون بكرشه الكبير ذو الأربعين عامًا يشعر بمرونة العهد السابق وجرأته فاستوعب الإنذار وفهمه، لذلك فإنه سرعان ما انحاز إلى

---

[1] جورج موتون، كونت دولوبو، جنرال فرنسي، وُلِد في فالسبورج عام ١٧٧٠، وتُوفِّي عام ١٨٣٨. امتاز في معركتَي أوسترليتز وإيينا، وخصوصًا في أيسلنج. رقَّاه لويس فيليب رتبة ماريشال فرنسا.

رأي موتون، تحت تأثير الخوف الذي أحدثه القوقازيون في نفسه، فأعطى الأمر — كما يقول المؤرخون — بالتقهقر عن طريق سمولنسك.

أن يكون نابليون من رأي موتون وأن يكون جيشه قد أخذ يتراجع، لا يدلان على أنه أمر بالتقهقر، بل يدل على أن القوى المتسلطة على ذلك الجيش لتدفعه على طريق موجائيسك تسلَّطت عليه هو الآخر بالمثل.

الفصل التاسع عشر

نحو النهاية

عندما يشرع رجل ما في الحركة يتصور دائمًا أنه إنما يجري نحو هدف ما، ولكي يقطع المرء حوالي ألف فرسخ يجب إلزامًا أن يفكر في أرض موعودة ليكون له القوة على التقدم.

كانت الأرض الموعودة عند الإفرنسيين لدى غزوهم روسيا هي موسكو، لكن الوطن كان بعيدًا جدًّا، والرجل الذي أمامه ألف فرسخ يقطعها يجب بلا ريب أن يحدث نفسه تاركًا جانبًا الغاية النهائية، إنه سيجتاز اليوم أربعين فرسخًا ثم يستريح وينام، فما إن يقطع المرحلة الأولى حتى يسلبه مكان الاستراحة الغاية النهائية، ويركز كل رغباته وكل أمانيه. وهذه النزعات التي تعتلج في نفس شخص مفرد تتضاعف في أنفس جمهور محتشد.

بالنسبة إلى الفرنسيين المتقهقرين على طريق سمولنسك القديم كان الوطن بعيدًا جدًّا، والغاية القريبة التي يهدف إليها هؤلاء الرجال المتجمهرون في كتل هائلة ويتوقون إليها من كل نفوسهم وكل أملهم هي سمولنسك. لم يكن ذلك لأنهم كانوا يظنون أن سمولنسك مليئة بالمؤن والقطعات المستريحة، إذ لم يحدثهم أحد قط بمثل ذلك، بل على العكس كان أركان حرب نابليون نفسه لا يجهل أن المؤن قد باتت قليلة، بل لأن ذلك يعطيهم الطاقة على التقدم فقط واحتمال ضروب الحرمان الحاليَّة. فكانوا جميعًا، الذين يعرفون كالذين لا يعرفون، كلهم يخادعون أنفسهم بالإجماع، ويندفعون نحو سمولنسك كما يندفعون نحو أرض موعودة.

ما إن بلغوا الطريق الكبير حتى هُرِع الفرنسيون إلى الهدف المنشود بنشاط خارق وسرعة قصوى. وإلى جانب ذلك الاندفاع الجماعي الذي يربط بين هذه الجماعة الكبيرة من الفرنسيين في كلٍّ كثيف ويضاعف حاصل نشاطهم، كان سبب آخر يبقيهم معًا مرتبطين، ذلك هو عددهم نفسه، إن هذه الحشود الكبيرة من الرجال كانت تجذب إليها

الأشخاص كما يعمل في الفيزياء قانون الجاذبية الذرات، لقد كان أولئك الألوف الستمائة من الرجال يتقدمون كتلة واحدة أشبه بدولة كاملة.

لم يكن كل واحد منهم يرغب غير شيء واحد: أن يُؤْسَر ويفلت من هذه الأهوال وكل هذه الآلام، ولكن من جهة كانت القوة الجماعية التي تجذبهم نحو سمولنسك تفرض عليهم جميعًا اتجاهًا واحدًا، ومن جهة أخرى كانت جمهرة كاملة من الجند لا تستطيع أن تتحول إلى سرية. وعلى الرغم من كل المناسبات الممكنة التي انتهزها الفرنسيون للانحراف والوقوع في الأسر، فإن الذرائع ما كانت دائمًا تلتقي بمصادفات سعيدة، لقد كان عددهم الكبير نفسه وسيرهم الحثيث بصفوف متراصة يحرمانهم من هذا الأمل. وبالنسبة إلى الروسيين لم يكن إيقاف تلك الحركة الجماعية التي يبذل فيها الفرنسيون كل حيويتهم صعبًا فحسب بل ومستحيلًا، وتوقف هذا الجسم ميكانيكيًّا لا يمكن أن يزيد أبعد من حد معين تطور الانحلال الذي يكاد أن يتم.

لم يكن أحد آخر غير كوتوزوف، بين كل رؤساء الجيش الروسي، يدرك هذه الناحية، فما إن تأكدوا من الاتجاه الذي سار فيه الجيش الفرنسي المنهزم على طريق سمولنسك حتى بدأ يتحقق ما خمَّنه كونوفنيتسين سلفًا ليلة ١١ تشرين الأول، أخذ كل كبار الضباط في الجيش رغبةً منهم في لفت الأنظار إليهم يطالبون بقطع خط الرجعة على الجيش الفرنسي وتطويقه وأسره وقلبه، وباتوا جميعًا يطالبون بالهجوم.

وكوتوزوف وحده راح يستعمل قواه كلها، وليست كبيرة جدًّا لدى قائد أعلى، للحيلولة دون الهجوم.

ما كان يستطيع أن يقول لهم ما نقوله الآن: ما فائدة المعركة؟ ما فائدة قطع الطريق، وخسران الجنود، وتذبيح التعساء بتجرد عن الإنسانية؟ ما فائدة كل هذا إذا كان ثلث ذلك الجيش قد اضمحل من تلقاء نفسه من موسكو إلى فيازما دون قتال؟ لم يكن يقول لهم في حكمته كشيخ هرم إلا ما كانوا قادرين على فهمه، كان يحدثهم عن الجسر الذهبي فكانوا يسخرون منه ويهجونه ويضطربون ويثورون كثيرًا بل وأكثر، ويتصلَّفون على الحيوان المصاب بضربة قاتلة.

لم يستطع إيرمولوف وميلورادوفيتش وبلاتوف والآخرون في فيازما الذين كانوا إلى جوار الفرنسيين، أن يسيطروا على رغبتهم في تمزيق جمهرتين من الجيش الفرنسي إربًا وقلبهما، ولكي يخطروا كوتوزوف بعزمهم أرسلوا إليه على سبيل التقرير غلافًا يحوي ورقة بيضاء.

ورغم كل جهود كوتوزوف لضبط الجيش فقد هاجم جنودنا كذلك بغية قطع الطريق على الفارين، وقد رُوِي لنا أن ألوية كاملة تتقدمها الموسيقى الصادحة كانت تمشي إلى النار فتقتل ألوفًا من الرجال، وتخسر هي الأخرى الألوف …

أما من حيث قطع الطريق فإنهم لم يقطعوا شيئًا ولم يقلبوا شيئًا، لقد أعطى الخطر الجيش الفرنسي مزيدًا من التلاحم، فظل يتابع سيره وهو يتلاشى تدريجيًّا على الطريق الذي قاده إلى نهايته، نحو سمولنسك.

الجزء الثالث

الفصل الأول

هراوة الشعب

إن معركة بورودينو ونتائجها: الاستيلاء على موسكو، وتراجع الفرنسيين دون معارك جديدة، تشكل واحدًا من أكثر الأحداث التعليمية للتاريخ.

فكل المؤرخين متفقون في تأييدهم أن النشاط الخارجي للحكومات والشعوب يظهر بواسطة الحروب، وأن النتيجة المباشرة لنجاحهم الكبير أو الصغير هو زيادة نشاطهم السياسي أو خموده.

ومهما كانت الروايات التاريخية عن هذا أو ذاك من الملوك أو الأباطرة الذي تخاصم مع هذا أو ذلك من الملوك أو الأباطرة الآخرين فجمع جيشه وتقارن مع العدد، ثم فاز بالنصر وقتل ثلاثة أو خمسة أو عشرة آلاف رجل، وبعدئذ غزا الدولة هذه والشعب ذاك الذي تعداده بضعة ملايين من الأنفس، ومهما كان غامضًا واقع أن هزيمة جيش ما يمثل جزءًا من مجموع القوى العامة لشعب ما يجر معه خضوع ذلك الشعب كله؛ فإن الوقائع التاريخية كلها في النطاق الذي نعرفها فيه تؤيد هذه الحقيقة، من أن زيادة تفوق أسلحة شعب ما أو نقصانه عن أسلحة شعب آخر هي السبب، أو على الأقل الدليل على ازدياد قدرة ذلك الشعب أو هبوطها. يربح جيش ما معركة ما فلا تلبث حقوق الغالب حتى تُفْرَض على حساب المغلوب، ولا يمر جيش بهزيمة حتى يفقد شعب ذلك الجيش حقوقه بنسبة الهزيمة، فإذا ما كان الإخفاق كاملًا كان كذلك كاملًا.

ولقد كان الأمر كذلك — بحسب التاريخ — منذ أقدم العصور وحتى أيامنا هذه، وحروب نابليون كلها ليست إلا تأييدًا لهذه القاعدة، فبقدر ما انهزمت جيوش النمسا سُلِبَت النمسا من حقوقها، في حين زادت فرنسا من حقوقها وقوتها. ولقد وضع الانتصاران في إيينا وفي أوئير ستادت نهاية للطاقة البروسية المستقلة.

ولكن بعد حين، عام ١٨١٢، انتصر الفرنسيون قرب موسكو واحتلوا هذه المدينة، ولكن بدا أنه دون معارك جديدة ليست روسيا هي التي كفَّت عن البقاء، بل ذلك الجيش المؤلف من ستمائة ألف مقاتل ومن ورائه فرنسا، «فرانسة» نابليون. أما أن نتجنى على الحوادث لنثنيها امتثالًا لقوانين التاريخ فنقول مثلًا: إن ساحة القتال في بورودينو قد ظلت بين أيدي الروسيين، وإنه بعد موسكو أبادت المعارك التي نشبت الجيش الفرنسي؛ فإن ذلك مستحيل قطعًا.

فبعد نصر بورودينو لم تقع معركة واحدة، لا معركة شاملة فحسب بل ولا حتى على جانب من الأهمية، مع ذلك فقد آب الجيش الفرنسي إلى نهايته. فما معنى هذا؟ لو أن ذلك كان مثلًا أُخِذ من تاريخ الصين، لأمكننا أن نزعم أن هذه الظاهرة ليست تاريخية (وهذا مجال إفلات المؤرخين حالما يعرض شيء لا يتأطر مع نظرياتهم). ولو أن المسألة كانت تتعلق بمناوشات قصيرة الأمد لم تساهم فيها إلا قوات ضئيلة، لأمكننا أن نأخذ هذا الحدث على الاستثناء، لكن الواقعة وقعت تحت أعين آبائنا الذين كان موت الوطن وحياته في يد عفريت بالنسبة إليهم، وكانت هذه الحرب من أكبر كل الحروب المعروفة.

إن فترة حملة ١٨١٢ التي تبدأ من بورودينو حتى طرد الفرنسيين، تبرهن على أن معركة رابحة ليست دائمًا سبب اجتياح بلاد ما، بل وليست حتى دلالة على ذلك الاجتياح، إنها تبرهن على أن القوة التي تقرر مصير شعب ما لم تعد لها علاقة بالغزاة ولا بجيوشهم وبمعاركهم، بل تتعلق بشيء ما آخر.

إن المؤرخين الفرنسيين الذين يصفون موقع الجيش الفرنسي عشية يوم رحيله من موسكو، يؤكدون أن كل شيء في ذلك الجيش العظيم كان على أحسن حال باستثناء الفرسان والمدفعية وسير العربات، وأنه كان يعوزهم العلف للجياد ولذوات القرون من الحيوان، وعليه فإن ما من شيء كان يستطيع معالجة هذا الحرمان طالما أن القرويين كانوا يحرقون العلف، مفضلين ذلك على إعطائه إلى الفرنسيين.

وإذا كانت المعركة المكتسبة لم تؤدِّ إلى أي من النتائج المألوفة، فما ذلك إلا لأن الفلاحَيْن «الموجيك» كارب وفلاس اللذين لم يظهرا بصورة عامة أية بطولة شخصية، واللذين بعد رحيل الفرنسيين جاءا إلى موسكو لنهب المدينة فعملا مقتدِيَيْن بالسواد الكبير من مواطنيهم، وبدلًا من أن ينقلا العلف إلى موسكو رغم السعر المغري الذي دُفِع لهما أشعلا النار في ذلك العلف.

لنتصور رجلين عازمين على التبارز بالسيف وفقًا لكل قواعد لعب السيف، فتطول المبارزة وقتًا طويلًا وفجأة يدرك أحد الخصمين بعد أن يحس بالجرح الذي أصابه أن

المسألة بدلًا من أن تكون دعاية تعرض حياته للخطر، فيلقي بسيفه ويمسك بأول هراوة تقع عليها يده ويشرع في إدارتها حول رأسه. والآن لنفرض أن هذا المبارز الذي يستعمل أفضل وسيلة لبلوغ غايته بحكمة فائقة تعتلج نفسه بأعنف العواطف الأبية، وأنه يريد إخفاء ما وقع تمامًا ويحاول أن يزعم أنه هزم عدوه بالسيف طبقًا لكل قواعد الفن؛ نستطيع أن نتصور مقدار ما يؤدي وصف هذه المبارزة من إبهام وغموض.

فالمبارز الذي يتطلب أن تدور المعركة وفقًا لقواعد الفن هو الفرنسي، وخصمه الذي طرح سيفه ليمسك بالهراوة هو الروسي، والأشخاص الذين يشحذون هممهم لشرح الموضوع وفقًا لقواعد فن المبارزة هم المؤرخون.

بدأت حرب لا سابق لها في التقليد العسكري منذ حريق سمولنسك، فحريق المدن والقرى، والتقهقر بعد المعارك، وصدمة بورودينو التي تبعها تراجع جديد، وحريق موسكو، ومطاردة السلَّابين، والاستيلاء على القوافل، وحرب الأنصار؛ كل هذه الأشياء خارجة عن قواعد الفن العسكري.

لقد شعر نابليون بذلك منذ اللحظة — الذي وقف في موسكو في وضعية المبارز الصحيحة، فرأى بدلًا من السيف الموجَّه إليه هراوة مشرعة فوق رأسه — ومنذ تلك اللحظة لم يكف عن الشكوى إلى كوتوزوف وإلى ألكسندر بأن الحرب قد سارت ضد كل القواعد، وكأن هناك قواعدَ لقتل الأشخاص. مع ذلك رغم شكاوى الفرنسيين ضد خرق القواعد، ورغم الخجل الذي شعر به بعض الرجالات البارزين الروسيين، الذين رأوا أن من العار القتال بالهراوة وأرادوا التبارز رباعًا أو ثلاثًا حسب القواعد، وتوخية ضربة مفاجئة للخصم ... إلخ؛ فإن هراوة الشعب المحارب ارتفعت بكل قوته المتوعدة الجليلة، ارتفعت مزدرية كل ذوق سليم وكل علم ببساطة غليظة حقًّا، ولكن باتجاه مباشر نحو الهدف دون أي تمييز، ارتفعت وهوت فقرعت الفرنسيين حتى أفنت الغزوة كلها.

والنجاح لا يليق بأولئك الذين كالفرنسيين عام ١٨١٣؛ يحيُّون عدوهم حسب كل قواعد الفن، ويقدمون له سيفهم من المقبض، ثم يسلمونه بكياسة وأدب إلى المنتصر شريف النفس، بل إن النجاح يليق بالشعب الذي لا يتساءل ساعة المحنة عما فعل الآخرون وفقًا للقواعد الفنية في ظروف مماثلة، ولكن يشرع ببساطة ودون جهد أول هراوة يلقاها، ويضرب بها حتى اللحظة التي يحل محل الحقد في نفسه على الإهانة الحاصلة له الاحتقار والإشفاق.

الفصل الثاني

س:ق = ٤:١٥

إن أكثر الاستثناءات وضوحًا وأعظمها خصبًا لما يسمونه قواعد الحرب، هو نشاط بعض الأشخاص المستقلين ضد كتلة كثيفة من الرجال، وهذا النوع من العمليات يحدث دائمًا في الحرب التي تتخذ صفة قومية. إنها تقوم على أساس أنه بدلًا من مقارعة العدد بالعدد ينقسم الرجال إلى فصائل صغيرة، ويهاجمون منفردين ويفرون إذا كانوا أمام قوات متفوقة ليعودوا إلى الهجوم حالما تسنح بذلك، كذلك كان المحاربون في إسبانيا ودفاع الجبليين في القوقاز، وكذلك كان حال الروسيين عام ١٨١٢.

ولقد دُعِيت هذه الطريقة في القتال ب «حرب الأنصار»، وأعتقد أنهم حددوا معناها بهذه التسمية. بيد أن هذا الشكل من الحرب يتنكَّب كل القواعد، بل إنه يتعارض مع قوانين «التكتيك» الأكثر شيوعًا الشهيرة بأنها لا تخيب، وتبعًا لهذه القوانين يجب على الذي يهاجم أن يركز قواته بشكل يصبح معه أقوى من خصمه عندما تبدأ المعركة، وحرب الأنصار — وهي دائمًا حرب رابحة كما يبرهن التاريخ — تتجه دائمًا بعكس هذا القانون.

وهذا التناقض ينجم عن أن العلم العسكري يحدد قوة جيش ما بعدد ذلك الجيش، والعلم العسكري يقول إنه كلما كان جيش ما كبير العدد كان كذلك أكثر قوة، «إن الألوية الضخمة هي المحقة دائمًا.»

والعلم العسكري بتأكيده هذا القول يشبه حركة لا تتأثر في دراسة القوى إلا بالعلاقة بين كُتَلِها، وتُسْتنتَج على سبيل تساوي القوى واقعة تساوي الكتل فحسب.

في حين أن القوة (كمية الحركة) هي حاصل ضرب الكتلة بالسرعة.

وفي كل حدث حربي تكون قوة جيش ما حاصل ضرب الكتلة بمجهول «س» كذلك.

والعلم العسكري الذي يرى في التاريخ أمثلة لا تُحصَى كانت قوة القطعات فيها لا تتناسب مع كتلتها، بل كانت فصائل صغيرة تتغلب على أخرى أكبر عددًا؛ يتقبل بإبهام وجود ذلك العدد المضروب فيه المجهول ويسعى جاهدًا لكشفه، سواء في هندسة خطة ما أو في التسلح أو — وهذه من أكثر الحالات طبيعية — في عبقرية الرؤساء. لكن استعمال كل قيم المضروب فيه المجهول هذا لا تعطي النتائج المطابقة للأحداث التاريخية.

مع ذلك يكفي التنكر للكذبة التي تعزو — دعمًا لأكبر مصالح الأبطال — الفعَّالية لاستعدادات القيادة العليا، حتى نكتشف ذلك المجهول «س».

فهذا الـ «س» هو معنوية الجنود، أي زيادة الرغبة في القتال وفي التعرض للخطر أو نقصانها، التي يمكن أن تجيش في صدور كل الجنود الذين يشكلون جيشًا، وذلك على نحو مستقل كل الاستقلال عن مسألة معرفة ما إذا كانوا يقاتلون تحت إمرة عباقرة، على ثلاثة خطوط أو على خطين، وبالهراوات أو البنادق التي تطلق ثلاثين طلقة في الدقيقة. إن الرجال الذين فيهم رغبة كبرى في القتال يقيمون أنفسهم دائمًا من تلقاء أنفسهم في المراكز الأكثر قابلية للقتال.

إن معنوية الجنود هي المضروب فيه بالكتلة الذي يكون حاصل ضربه قوة الجيش. وتحديد وتعريف قيمة معنوية جيش ما هذا المضروب فيه المجهول هما المسألة واجبة الحل.

إن هذه المسألة لا يمكن أن تُحَلَّ إلا على الطريقة التالية: لنكف عن الإدخال الفرضي في المعادلة؛ مكان س، قيمة المجهول كله، شروط ظهور القوة كترتيبات الرئيس والتسلح ... إلخ واعتبارها قيم المضروب فيه، ولنأخذ على العكس هذا المجهول كاملًا، أي بوضعه الرغبة القصوى أو الدنيا في القتال والتعرض للموت، وحينئذ فقط بعد أن نضع الأحداث التاريخية المعروفة في المعادلة ونقارن بين كل حالة قيمة ذلك المجهول، نستطيع أن نأمل في تحديد طبيعته.

عشرة رجال أو ألوية أو أفواج في قتال مع خمسة عشر رجلًا أو لواءً أو فوجًا انتصروا، أي قتلوا وأسروا كل خصومهم دون استثناء ولم يخسروا إلا أربعة منهم، وإذن لقد وقع من جانب خسارة أربعة رجال ومن الجانب الآخر خمسة عشر رجلًا، وبالتالي تساوى أربعة مع خمسة عشر. ومنها ينجم أن ٤س = ١٥ق وأن س:ق = ١٥:٤، وهذه المعادلة لا تعطي قيمة س المجهول بل النسبة بين المجهولَيْن. وبإخضاع مختلف الوحدات التاريخية المأخوذة إفراديًّا لمثل هذه المعادلة؛ معارك، حملات، أزمنة الحرب، نحصل على سلسلة من الأرقام يجب أن تحتوي على قوانين وأن تكشف قوانين فيها.

والقاعدة «التكتيكية» التي توعز بالتصرف خلال الهجوم الجماعي وبنظام مبعثر خلال التقهقر، تؤكد — دون أن تتعمده — هذه الحقيقة من أن قوة جيش ما تتوقف على المعنويات التي تحضه. ولكي نقود رجالًا تحت القنابل يقتضي ذلك نظامًا أكثر من قيادتهم لصد هجوم، وهذا النظام يتطلب حركة جماعية، لكن هذه القاعدة التي تغفل معنوية الجيش لا تني تبرهن على خطئها، وعلى أنها على وجه الدقة معارضة تمامًا للوقائع حيثما تظهر حمية قوية أو هبوط في معنويات الجنود، وذلك في كل الحروب القومية عامة.

خلال تقهقرهم عام ١٨١٢ أخذ الفرنسيون الذين كان عليهم تبعًا لقواعد «التكتيك» أن يدافعوا عن أنفسهم مبعثرين، يتكتلون على العكس في جمهرات كبيرة، لأن معنويات الجنود كانت شديدة التدني حتى إن كتلة واحدة تستطيع إيقاف مجموع الجيش. أما الروسيون فعلى العكس كانوا تبعًا لنظام «التكتيك» مدعوين إلى الهجوم عليهم كتلة واحدة، في حين أنهم تبعثروا لأن معنوية جنودهم كانت على درجة من الارتفاع حتى إن الأشخاص المستقلين ما كانوا في حاجة إلى صدور الأمر إليهم ليضربوا الفرنسي، وليتعرضوا للمتاعب والأخطار.

الفصل الثالث

حرب الأنصار

بدأت الحرب المسماة ب «حرب الأنصار» منذ أن دخل العدو إلى سمولنسك.

وقبل وقت طويل من اعتراف حكومتنا رسميًّا بهذه الحرب، استُؤْصِل الألوف من جنود الأعداء، بين متخلف وسلَّاب ورائد من قبل القوقازيين و«الموجيك» بشكل لا إرادي مثلما يعض الكلاب كلبًا مسعورًا. وكان دينيس دافيدوف بحاسته الوطنية أول من أدرك القيمة الرهيبة للهراوة، التي كانت تبيد الفرنسيين بصرف النظر عن قواعد الفن العسكري، وإليه يرجع الفخر بأنه قام بالخطوة الأولى لتنظيم هذا النوع من القتال.

في الرابع والعشرين من آب نُظِّمت الفصيلة الأولى من أنصار دافيدوف وتبعه آخرون نهجوا نهجه، وكلما تقدمت الحملة ازداد عدد هذه الفصائل.

أخذ الأنصار يدمرون الجيش الكبير تفصيلًا، فكانوا يكنسون الأوراق الميتة التي تتخلف من تلقاء نفسها عن شجرة في طريقها إلى الجفاف — الجيش الفرنسي — بل ويزعزعون الشجرة نفسها أحيانًا. وفي تشرين الأول، عندما كان الفرنسيون يفرون باتجاه سمولنسك، كانت هذه الفصائل ذات الأهمية والسمات المختلفة تُعَدُّ بالمئات، وكان لبعضها كل مظاهر الجيش المنظم بمشاتها ومدفعيتها وأركان حربها وكل وسائل الرفاهية في الحياة، بينما كانت فصائل أخرى تضم فرسانًا وقوقازيين فحسب، وفصائل أخرى أصغر منها مؤلفة من خليط من المشاة والفرسان، بل إن بعضها كان مؤلفًا من قرويين ومالكين ومدنيين غير معروفين من أحد، إنهم يروون أن شماسًا على رأس بعض الأنصار أسر في شهر واحد مئات من الجنود، وكذلك أن زوجة إقطاعي بولوني فاسيليسا قتلت مئات من الفرنسيين.[١]

---

[١] تاريخ روسيا، لمؤلفه آ. رامبو، ص٨٥٦.

خلال أيام تشرين الأول الأخيرة بلغت حرب الأنصار الأوج، لقد انقضى ذلك الوقت الذي كان الأنصار أنفسهم في دهشة لجرأتهم، يخشون في كل لحظة أن يطوقهم الفرنسيون ويأسروهم، والذي كانوا خلاله لا يترجَّلون عن جيادهم أو يريحون مطاياهم، ويختبئون في الغابة بانتظار أن يطاردهم العدو. لقد اتخذت هذه الحرب الآن شكلًا معينًا، وأصبح كل واحد يعرف بوضوح ما يمكن القيام به ضد الفرنسيين وما يتعذر الشروع به، ومنذ ذلك الحين ظل بعض رؤساء الفصائل وحدهم، الذين كانوا يسيرون بعيدًا عن الفرنسيين مع أركان حربهم المنظم، على اعتقادهم بأن كثيرًا من المشاريع ما زالت مستحيلة التطبيق. أما رؤساء الفصائل الصغيرة الذين بدءوا عملهم منذ وقت طويل ورأوا الفرنسيين عن قرب، فكانوا على العكس يجدون ممكنًا ما لم يكن قواد الفصائل الكبرى يجرءون على مجرد التفكير فيه. أما القوقازيون والقرويون الذين كانوا من جانبهم يتسللون إلى صفوف الفرنسيين، فكانوا يقدرون أنهم منذ ذلك الحين يستطيعون عمل أي شيء وبكل قحة.

وفي الثاني والعشرين من تشرين الأول وجد دينيسوف نفسه — وكان على رأس فصيلة في عداد الأنصار — يتحرق بحمى اللهفة، لقد كان ورجاله منذ الصباح يمشون، لقد راقبوا طيلة النهار خلال أغصان الغابة المحاذية للطريق العام قافلة فرنسية تحمل العتاد ولوازم الفرسان ولوازم الأسرى، انفصلت عن مجموع جمهرات الجيش في طريقها إلى سمولنسك تواكبها قوة كبيرة من الحرس، بحسب معلومات الجواسيس والأسرى الهاربين. ولم يكن دينيسوف وحده الذي يعرف خبر مرور هذه القافلة إذ نمى خبرها إلى دولوخوف الذي كان هو الآخر على رأس فصيلة صغيرة من الأنصار ينشط في القطاع نفسه، وإلى رؤساء كتائب أخرى أكبر عددًا متمتعة بهيئات أركان حرب خاصة بها، كان الخبر متفشيًا في كل مكان إذن، فكان العارفون به على قول دينيسوف نفسه يشحذون أسنانهم سلفًا. ولقد أرسل رئيسا كتيبتين كبيرتين، الأول بولوني والثاني ألماني، إلى دينيسوف بأن واحدًا تقريبًا يسأله كل منهما عما إذا كان يريد أن يتحد معه للهجوم على القافلة.

هتف دينيسوف وهو يقرأ رسالتيهما: كلا يا إخوان، إن لي شعرًا نابتًا حول ذقني.

وأجاب الألماني بأنه رغم رغبته المخلصة في العمل تحت إمرة جنرال لامع وشهير مثله، فإنه مضطَرٌّ إلى حرمان نفسه من هذا الشرف لأنه قد انضم قبل ذلك تحت لواء الجنرال البولوني، وكتب إلى البولوني هذه العبارات بالضبط مؤكدًا له أنه انضم قبل ذلك تحت لواء الألماني.



الأنصار.

وبعد أن اتخذ هذه الإجراءات قرر دينيسوف أن يهاجم القافلة مع دولوخوف — دون أن يخطر هذين الجنرالين بالأمر — وأن يستوليا عليها بقواتهما الشخصية، وكانت هذه القافلة يوم ٢٢ تشرين الأول تتبع الطريق الذاهب من ميكولينو إلى قرية شامشيفو، وعلى جانب الطريق الأيسر بين هاتين القريتين امتدت أحراش كثيفة كانت في بعض الأماكن تبلغ الطريق وفي جهات أخرى تبتعد عنه مسافة ميل أو أكثر. وفي هذه الأحراش كان دينيسوف يتوغل فيها تارة حتى يبلغ قلب الغابة، ويعود إلى تخومها تارة أخرى، ويمشي طيلة ذلك النهار دون أن تغيب القافلة عن عينيه. وفي الصباح، غير بعيد عن ميكولينو، حيث الغابة تلمس الطريق، أسر قوقازيو دينيسوف عربتَي نقل غائصتين في الوحل كانت محمَّلتين بسروج للجياد، واقتادوهما إلى الغابة. ومنذ ذلك الحين وحتى المساء، ظلت الفصيلة تتبع حركة الفرنسيين دون أن تهاجم، كان يجب عدم بث الذعر في نفس العدد وتركه في سلام حتى يبلغ شامشيفو، وحينئذ يتم الاتصال مع دولوخوف، الذي يجب أن يكون متمركزًا مساءً في مكان ما من الغابة على بعد فرسخ عن القرية، لاتخاذ الاستعدادات الأخيرة، ثم للوقوع فجر اليوم التالي من الجانبين معًا على القافلة كالبَرَد، وقتل كل الجنود ونهب الأشياء كلها دفعة واحدة.

وعلى بعد فرسخين وراء ميكولينو، في المكان الذي تتقدم فيه الغابة حتى تبلغ الطريق، تركوا ستة من القوقازيين مهمتهم إخطار رؤسائهم حالما تظهر لأعينهم على الطريق فرقة فرنسية جديدة.

أمام شامشيفو كان على دولوخوف أن يفحص الطريق، ليعرف المسافة التي تفصل القوات العدوة الأخرى عن مكان القافلة، ولقد قدروا الجنود المواكبين للقافلة بألف وخمسمائة رجل، وكان مع دينيسوف مائتا نصير ومع دولوخوف مثل هذا العدد تقريبًا، لكن تفوق العدد ما كان ليعيق دينيسوف، بيد أنه كان في حاجة إلى معرفة شيء واحد: ما هي على الضبط القوات التي تواكب القافلة؟ فكان على دينيسوف والحالة هذه أن يستولي على «لسان»، أي إن يأسر رجلًا من القوة العدوة. ولقد كان هجوم الصباح على العربات المحملة سريعًا جدًّا، حتى إن الفرنسيين الذين كانوا قرب العربات قُتِلوا جميعًا ولم يُؤخَذ حيًّا إلا قارع طبل صغير، وكان قارع الطبل هذا متخلفًا لم يعرف أن يقول شيئًا دقيقًا عن تشكيلات الحامية.

رأى دينيسوف أن الهجوم مرة ثانية خطير، خشية أن يستنفر الحامية كلها، لذلك فقد أرسل إلى الأمام قرويًّا من جماعته اسمه تيخون ستشيرباتون، كان عليه إذا أمكن أن يأسر على الأقل رائدًا فرنسيًّا من جنود الطليعة المخيمين هناك في ذلك الحين.

الفصل الرابع

دينيسوف ... وبيتيا

كان اليوم ساكنًا مطيرًا من أيام الخريف والسماء والأفق مصطبغان بلون موحد لون الماء الكدر، والمطر يهطل تارة رذاذًا وتارة قطرات كبيرة تجلد الهواء بخطوط منحنية.

وكان دينيسوف متشحًا بردائه الصوفي المبطن على رأسه قلنسوة من الفراء يقطر منهما المطر، ممتطيًا صهوة جواد أصيل هزيل ونحيل وكأن حصانه يحني رأسه إلى جانب، متيقظ الأذن، متقلِّص الأسارير تحت ذلك المطر المنهمر يسبر المساحة التي أمامه بقلق، ووجهه المهزول الذي غطته لحية قصيرة سوداء كثيفة يبدو غاضبًا.

وإلى جانب دينيسون، مثله في ردائه الصوفي المبطن باللبد والقلنسوة من الفراء، كان رئيس الفرق القوقازيين مساعده يخيل على صهوة واحد من جياد الدون حسن التغذية ضخم.

وكان الرئيس القوقازي لوفائيسكي الذي يرافقهما في مثل ثيابهما ثالث الثلاثة، إنه فتى عملاق شاحب، رقيق كلوح من الخشب، أشقر ذو عينين صافيتين، يعرب وجهه وكل كيانه عن رجل واثق من نفسه. وعلى الرغم من استحالة قول ما في ذلك الفرس والفارس من شيء خاص لدى النظرة الأولى التي تُلقَى على الرئيس ودينيسوف، فإنه كان واضحًا أن دينيسوف المبلل بالمطر المنزعج في وضعه ليس إلا فارسًا اتفاقًا، بينما الرئيس المستوي على السرج بهدوء طبيعي وراحة لم يكن مع راحلته إلا قطعة وقوتاهما متوافقتان.

كان القروي الذي يقوم بدور الدليل يسير أمامها متقدمًا قليلًا، وقد تبلل حتى العظام وهو في معطفه الرمادي وقلنسوته البيضاء.

وإلى الوراء قليلًا، على صهوة حصان كرجي أصيل نحيل ذي ذيل وعرف كَثَّيْن وفم أدماه اللجام، كان ضابط شاب يخيل وهو متدثر بمعطف أزرق فرنسي.

وإلى جانبه فارس شاب كان يردف وراءه فتى صغيرًا مرتديًا زيًّا فرنسيًّا ممزَّقًا وعلى رأسه قلنسوة زرقاء، كان يتشبث بالفارس بيديه الحمراوين من البرد ويحرك قدميه العاريتين محاولًا بعث الدفء فيهما، وينظر حوله بدهشة مرفوع الحاجبين، إنه قارع الطبل الصغير الذي أُسِر صباح ذلك اليوم.

وفي أعقابهم، في طريق الغابة الضيق المعزوق الذي تناثرت عليه الأوراق الميتة، أخذ الفرسان يتقدمون في الطليعة ثلاثة أو أربعة في كل صف، ومن ورائهم القوقازيون بعضهم في أردية وبعضهم في معاطف فرنسية والبعض الآخر يضعون على رءوسهم أَجْلال الجياد. وكانت الجياد الشقراء أو الكُمْت تبدو سوداء بسبب المطر الذي كان يسيل عليها، وكانت رقابها تبدو ضيقة بشكل غريب لكثرة ما أصاب أعرافها من بلل، ومجموع شعرها يتصاعد منه البخار. وكل شيء، الألبسة والسروج والأعنَّة، كلها كانت مبللة، لزجة، تلتمع من الماء، مثل الأرض والأوراق الميتة على الطريق. وكان الفرسان منهم يعملون جاهدين على ألَّا يتحركوا بغية تدفئة الماء الذي تسلل إلى أجسادهم، والحيلولة دون دخول قطرات أخرى أكثر برودة فوق السرج وعلى أنوفهم وفوق ركبهم. وفي وسط الفرقة، في إطار من القوقازيين، كانت عربتا نقل مقطورتان إلى جياد فرنسية وجياد قوقازية — وهذه مسرجة — ترتعدان فوق أرومات الأشجار والأخشاب الميتة أو تخوضان في الحفر المليئة بالماء.

انتحى حصان دينيسوف جانبًا ليتحاشى بركة ماء فاصطدمت ركبة الفارس بشجرة، فزمجر دينيسوف ساخطًا: ألف رعد!

وساط الجواد مرتين أو ثلاث مرات، فغطَّى نفسه بالوحل كما لطَّخ به جاره.

لم يكن دينيسوف على ما يُرَام لأن المطر كان ينهمر، ولأنه كان جائعًا إذ لم يتناول طعامًا منذ الصباح، وبصورة خاصة لأن دولوخوف لم يعطِه بعد أية إشارة تدل على وجوده، ولأن الرجل الذي أرسله ليجيء ﺑ «لسان» لم يعد بعد.

أخذ دينيسوف يفكر وهو لا يني يراقب الأبعاد آملًا أن يرى رسول دولوخوف قادمًا: «يصعب إيجاد فرصة مماثلة لمهاجمة قافلة والاستيلاء عليها، لكن أن أهاجم منفردًا أمر شديد التعرض للخطر، وأن أرجئ الأمر إلى الغد معناه أن تفلت الطريدة منا لتستولي عليها كتائب الأنصار الكبيرة تحت أنوفنا.»

ولما بلغ بقعة جرداء تمتد الرؤية فيها نحو اليمين، توقف دينيسوف وقال: إن بعضهم آتٍ.

نظر رئيس القوقازيين في الاتجاه الذي عينه دينيسوف.

قال الرئيس الذي كان يحب الكلمات المجهولة من القوقازيين: إنهما اثنان ضابط وقوقازي، غير أنه غير قابل الحدس ما إذا كان نائب الزعيم.

انحدر الفرسان اللذان راحوا يرقبونهما من على منحدر، واختفيا ليعودا بعد بضع دقائق. بدا الآن في المقدمة الضابط يثخن جواده المنهك بضربات السياط وهو يجري متشعِّثًا، يقطر الماء منه وقد رفع أكمام سراويله حتى الركبتين، ومن وراءه راح قوقازي يجري وهو واقف على ركابيتين. اقترب الضابط، وهو حدث ذو وجه كبير مستدير قرمزي وعينين جذلتين حيتين، ومد لدينيسوف غلافًا مبللًا، وقال: من جانب الجنرال. اعذرني إذا لم يكن جافًّا تمامًا.

أخذ دينيسوف الورقة ففضها مقطب الحاجبين، فقال الضابط يحدث الرئيس القوقازي بينما كان دينيسوف يقرأ الرسالة: لقد قالوا جميعًا إن الأمر خطير، خطير جدًّا، لذلك فإن كوماروف وأنا — وأشار إلى تابعه — اتخذنا كل الاحتياطات، فلدى كلٍّ منا مسدسان.

ثم سأل عندما رأى قارع الطبل الصغير: وهذا، ما هذا؟ سجين؟ هل التحمتم في معركة؟ هل يمكن التحدث إليه؟

وفجأة هتف دينيسوف بعد أن قرأ رسالته: روستوف! بيتيا! لماذا لم تقل إنك أنت؟

والتفت إليه باسمًا ومد يده إلى الضابط الشاب.

والحقيقة أن ذلك الضابط كان بيتيا روستوف.

لقد أعد بيتيا نفسُه خلال الطريق ليلاقي دينيسوف لقاءَ الرجل والضابط دون أن يتظاهر بأنه يذكر علاقاتهما السالفة، ولكن ما إن ابتسم له دينيسوف حتى أضاء وجهه وتضرج من الفرح، فنسي المظهر الرسمي الذي كان يريد الظهور به، وشرع يروي سروره لانتقائه لمثل تلك المهمة، ويقص كيف مر أمام الفرنسيين وشاهد النار في فيازما حيث امتاز واحد من الفرسان ...

قاطعه دينيسوف وقد استعاد مظهره القلق: حسنًا، إنني مسرور برؤيتك.

وقال وهو يلتفت إلى رئيس القوقازيين مساعده: يا ميخائيل فيوكليتيتش، إن الرسالة من الألماني، إنه تحت إمرته.

وشرح دينيسوف أن الورقة التي سُلِّمت إليه كانت تأكيدًا لأمر الجنرال الألماني بالالتحاق به لمهاجمة القافلة، وأعقب: إذا لم نأسر القافلة حتى غد، ستمر تحت أنفنا.

وبينما دينيسوف يتحدث مع الرئيس، تصور بيتيا الذي اضطرب للهجته الباردة أن كُمَّي سراويله المرفوعين هما سبب ذلك، فمد يده متحسسًا من تحت معطفه فأسدلهما بدقة، ثم جاهد ليتخذ أفضل مظهر عسكري ممكن، وقال لدينيسوف وهو يعود إلى وضعه الذي أعده خلال الطريق — وضع مساعد عسكري أمام جنراله — وهو يرفع يده إلى حافة عمرته: ما هي أوامر نبالتكم العلية، أم تُرَى يجب أن أنتظر إلى جانب نبالتكم؟

قال دينيسوف ساهمًا: أوامري؟ هه، هل تستطيع الانتظار هنا حتى الغد؟

هتف بيتيا: آه! بكل طيبة خاطر ... وهل أستطيع ملازمتك؟

سأل دينيسوف: نعم، ولكن ما هي الأوامر التي أعطاها إليك الجنرال على الضبط؟ هل قال لك بالعودة فورًا؟

غدا وجه بيتيا قرمزيًّا، وسأل بقلق: هو؟ إنه لم يصدر إليَّ أي أمر، حسنًا، هل أستطيع؟

فأجاب دينيسوف: حسنًا، اتفقنا.

والتفت إلى مرءوسيه فأصدر إليهم تعليماته، كان على الفرقة كلها أن تذهب قرب منظرة في المكان المعين من الغابة، في حين يمضي الضابط ذو الحصان الكرجي للبحث عن دولوخوف لمعرفة مكان وجوده، وما إذا كان سيأتي خلال السهرة. وكان هو نفسه ينوي الذهاب مع رئيس القوقازيين وبيتيا إلى تخوم الغابة من جهة شامشيفو، ليتعرف على المكان الذي سيوجه إليه هجوم الغد من موقع الفرنسيين.

قال للقروي الذي كان يقوم بعمل الدليل: هيا أيها الملتحي، قدنا إلى شامشيفو.

واتجه دينيسوف وبيتيا والرئيس، يتبعهم بعض القوقازيين والفارس مردف السجين، إلى اليسار عبر الوادي ليبلغوا تخوم الغابة.

الفصل الخامس

تيخون ستشيرباتي

كف المطر عن الهطول، لكنه ظل الرذاذ يتساقط وقطرات الماء تنثال من الأغصان. أخذ دينيسوف والرئيس القوقازي وبيتيا يتقدمون بصمت وراء القروي ذي القلنسوة، الذي كان بأحذيته المصنوعة من القنب يمشي بخفة ودون صوت على الجذور والأوراق المبللة باتجاه تخوم الغابة.

وبعد أن بلغ مرتفعًا توقف القروي وراح يفحص ما حوله، ثم اتجه نحو ستر من الأشجار المتناثرة، وبالقرب من شجرة سنديان لم تكن قد أضاعت أوراقها بعد توقف وأشار بيده بحركة نداء سرية.

تقدم دينيسوف وبيتيا، كان المكان الذي وقف فيه الرجل يسمح برؤية الفرنسيين، فبعد الغابة مباشرة كان حقل من الحنطة ينفتح منحنيًا فوق سفح متعرج مضرس، وعلى اليمين، على الجهة المقابلة لوادٍ شديد الانحدار، كانت قرية صغيرة يُرَى فيها بيت السيد ذو السقوف المتهدمة. وعلى مسافة مائتي «ساجين» من هناك (الساجين ٢,١٣٣٦م) كانت جماعة من الأشخاص تُرَى وسط الضباب المتحرك، كان الأشخاص في القرية وفي بيت السيد وعلى المنحدر وفي حديقة السيد وعلى مقربة من الآبار والمستنقع وعلى طول الطريق الذي يمر على جسر يربط التل بالقرية، وكانت النداءات التي يتبادلونها والصيحات التي يطلقونها بلغة أجنبية ليحثوا الجياد المقطورة إلى العربات على صعود السفح المنحدر تُسمَع بجلاء.

قال دينيسوف بصوت خافت دون أن يبارح الفرنسيين بعينيه: جيئوا بالسجين إلى هنا.

ترجل القوقازي وأخذ الغلام فجاء به إلى دينيسوف، فسأله دينيسوف وهو يشير إلى الفرنسيين أن يسمي مختلف القطعات، فراح الفتى الذي دس يديه المقرورتين في جيوبه

ينظر إلى دينيسوف برعب رافعًا حاجبيه، وعلى الرغم من رغبته الصادقة في أن يقول كل ما يعرف اختلط الأمر عليه في أجوبته فلم يزد على كلمة نعم، يقول في أعقاب كل سؤال يُطرَح عليه، فأشاح دينيسوف برمًا وخاطب رئيس القوقازيين يشاطره شعوره.

وكان بيتيا المنشغل المتطلع ينظر حينًا إلى الطبال الصغير وحينًا إلى دينيسوف، تارة إلى الرئيس وتارة أخرى إلى الفرنسيين المنتشرين في القرية وعلى الطريق، ساعيًا إلى ألَّا يضيع شيئًا مما يرى.

هتف دينيسوف وقد أضاءت عيناه ببريق من الغبطة: سواء أجاء دولوخوف أم لم يأت يجب مهاجمتهم! ... هه؟ فرد الرئيس: نعم، فالمكان مناسب.

استرسل دينيسوف: سنرسل المشاة من جهة المستنقعات، وسيتسللون حتى يبلغوا حديقة البيت. وأضاف وهو يشير إلى الغابة التي تستند إليها القرية: وأنت مع القوقازيين ستتقدمون من هنا، أما أنا مع فرساني فمن هنا، ولدى أول طلقة نارية ...

قال الرئيس: لا يمكن المرور عبر الصدع فهناك ردغة، وستتعرض الجياد للوقوع فيها، لذلك يجب الالتفات نحو اليسار.

وبينما هما يتناقشان بخفوت على هذا النحو، دوَّى في أعماق الجانب الآخر من المستنقع طلق ناري تبعته سحابة صغيرة من الدخان الأبيض، ثم طلق ثانٍ، وبعده أطلق مئات الفرنسيين المرصوفين على المنحدر صرخة فزع. قفز دينيسوف والرئيس التابع له إلى الوراء للوهلة الأولى، لقد كانا قريبين جدًّا من العدو حتى خُيِّل إليهما أنهما كانا مبعث صرخة الفرح وسبب الطلقتين. ولكن لم يكن السبب متعلقًا بهما، ففي الأسفل، في المستنقع، توحَّل رجل مرتديًا ألبسة حمراء، فكانت الطلقات والصرخات موجهة إليه.

قال الرئيس: لكن هذا «تيخوننا»!

– نعم، إنه هو حقًّا!

صاح دينيسوف: يا للسافل!

وهتف الرئيس وهو يرمش بعينيه: أوه! سوف يخلص نفسه!

هُرِع الرجل الذي أسمياه تيخون إلى الساقية فارتمى فيها باعثًا الماء من كل جانب، وبعد أن اختفى لحظة ظهر من جديد على الضفة أسود من الطين، وظل يجري على أربع حتى ابتعد، فتوقف الفرنسيون الذين كانوا يتبعونه.

قال الرئيس: حسنًا، إنه نشيط!

واستأنف دينيسوف الذي عاد القلق إلى محياه: يا للحيوان! أين أمضى وقته حتى الآن؟

سأل بيتيا: من هو هذا؟

– إنه كشافنا، أرسلته بحثًا عن «لسان».

رد بيتيا وهو يهز رأسه لكلمة دينيسوف الأولى وكأنه على علم بالأمر، في حين أنه لم يفهم كلمة واحدة من كل ما سمع: آه! حسنًا جدًّا!

كان تيخون ستشيرباتي واحدًا من أكثر أعضاء الفرقة لزومًا، إنه قروي من بوكروفسكوييه، قرب «جات»، ولقد وصل دينيسوف في بدء عملياته إلى تلك القرية واستقدم صاحبها تبعًا لعادته ليسأله عما يعرفه عن الفرنسيين، فأجابه الإقطاعي ككل أصحاب القرى الذين يكونون حذرين عادة أنه لا يعرف شيئًا. ولكن ما إن أفهمه دينيسوف أن غايته حرب الفرنسيين، وسأله عما إذا كان هناك أمل في مغامرة ما في الجوار، قال صاحب الضيعة إنه شاهد «حوَّامين» فعلًا، لكن تيخون ستشيرباتي هو الوحيد في القرية الذي يهتم بهذه الأمور. وحينئذ استدعى دينيسوف ستشيرباتي هذا، وبعد أن هنأه على عمله قال له بحضور الإقطاعي بضعة كلمات عن الإخلاص للقيصر والوطن وعن الحقد على الفرنسيين الذي يجب أن يعتلج في قلوب الروسيين جميعًا.

قال تيخون وقد بان عليه الخجل لأقوال دينيسوف: إننا لا نسيء إلى الفرنسيين، ولقد تسلينا كما تقول باصطياد «الحوامين»، فتيان القرية وأنا، فقتلنا منهم حوالي دزينتين، وباستثناء ذلك لم نُسئْ إليهم قط.

وفي اليوم التالي كان دينيسوف قد نسي الرجل تمامًا، مع ذلك فإنه في اللحظة التي هم بأن يغادر القرية فيها جاءوا يقولون له إن تيخون انضم إلى الفرقة وهو يطلب الموافقة على العمل فيها، فوافق دينيسوف.

كُلِّف تيخون بادئ الأمر بأعمال وضعية كإيقاد النار وملء الماء وسلخ الجياد النافعة ... إلخ، لكنه لم يلبث أن أظهر استعدادات كبيرة لحرب الأنصار، كان يمضي إلى الصيد طيلة الليل ويعود دائمًا ومعه ثياب وأسلحة سلبها من الفرنسيين، بل ويأتي بأسرى عندما يصدر إليه الأمر بذلك، فلم يتركه دينيسوف يعمل بعد ذلك، بل أصبح يصحبه معه في رحلاته ودمَجه في سلاح القوقازيين.

وكان تيخون الذي لا يحب ركوب الجياد يمضي دائمًا على الأقدام، ولكن دون أن يترك الفرسان يسبقونه، كان مسلحًا ببندقية يحملها لمجرد الشكل وبرمح وفأس كان يستعملها بكثير من المهارة كما يستعمل الذئب أسنانه فيطرد البراغيث عن جلده كما يمضغ بها عظمة كبيرة، وكان لتيخون مثل هذه البراعة في أن يشطر عمودًا إلى جزأين بضربة واحدة، أو أن يمسك بفأسه من رأسها فيجتزئ بها صفائح رقيقة أو ملاعق. لقد

كان تيخون يحتل في فرقة دينيسوف مكانًا على حدة، مكانًا استثنائيًّا، فإذا كان الأمر يتعلق بالشروع في عمل عسير أو منفِّر كأن يرفع بكتفه عربة متوحلة، أو أن يجذب جوادًا من ذنَبه خارج مستنقع ويسلخه، أو أن يتسلل بين الفرنسيين، أو يقطع خمسين فرسخًا في مرحلة واحدة؛ فإنهم جميعًا يشيرون بأصابعهم إلى تيخون ضاحكين.

كانوا يقولون عنه: ماذا يمكن أن يضر هذا الشيطان؟ إن كل شيء صالح للأكل عنده.

مع ذلك فإن واحدًا من الفرنسيين الذين أسرهم تيخون أطلق رصاصة مسدسه على صُلْبه، ولقد أحدث هذا الجرح الذي عالجه تيخون بالعَرَق وحده من الداخل والخارج معًا، سلسلة مداعبات من أكثرها بهجة بين أفرد الفرقة كلهم، فكان تيخون يصغي إليها دون أن يرمش.

كان القوقازيون يقولون له وهم يقهقهون: حسنًا يا أخانا، لن يأخذوك مرة أخرى؟ كدت أن تصبح أحدب.

فيصعِّر تيخون وجهه، ويغضِّن وجهه متظاهرًا بالسخط، ثم يغطي الفرنسيين بأقذع السباب وأغلظها، غير أن تلك المغامرة لم تمر دون أن تترك فيه أثرًا، إذ إنه منذ جرحه ذاك أصبح قليلًا ما يعود بأسرى.

لقد كان تيخون الرجل الأكثر نفعًا والأكثر جرأة في الفرقة كلها، لم يكن أحد يعرف انتقاء فرصة مد الشَّرَك أفضل منه، ولم يأسر أحد ويقتل بقدر ما أسر وقتل من الفرنسيين، الأمر الذي عاد عليه بأن أصبح مهرج القوقازيين والفرسان كلهم، فكان هو نفسه يحشر نفسه بكل طيبة خاطر في هذا المركز المجيد. ولقد أرسله دينيسوف هذه المرة الليلة الفائتة إلى شامشيفو ليأتيه بـ «لسان»، ولكن سواء أنه يكتفي بأخذ فرنسي واحد فحسب أم أنه قضى الليل نائمًا، فإنه تسلل في وضح النهار بين الأدغال وسط مجموعة العدو، فاكتُشِف أمره كما شاهد دينيسوف منذ حين.

الفصل السادس

ما هو السر؟

بعد أن تناقش وقتًا ما آخر مع رئيس القوقازيين حول هجوم الغد، الذي بات الآن مقررًا بسبب دنوِّهم من الفرنسيين، لوى دينيسوف عنان جواده وعاد على آثاره.

قال لبيتيا: هيا يا أخي، يجب الآن أن نجفف ثيابنا.

ولما بلغ مركز الحرس في الغابة جمد دينيسوف في مكان وراح يفحص ما يحيط به، شاهد رجلًا طويل الساقين، مباعد بين الذراعين، يرتدي سترته ويحتذي أحذية من القنب ويتقلنس بقلنسوة من صنع قازان، متقلدًا بندقيته متمنطقًا بفأس، يتقدم بخطوات كبيرة بين الأدغال. فلما شاهد دينيسوف بادر الرجل فألقى شيئًا ما بين الأشواك النامية، ونزع قلنسوته المبللة ذات الخوافي المنسدلة، ثم اقترب من رئيسه. كان ذاك هو تيخون، كان وجهه المجدر ذو العينين الصغيرتين المكبوحتين، ممتلئًا بالغضون، مشرقًا بالرضى، فلما وقف أمام دينيسوف رفع رأسه وشخص بعينيه إليه وكأنه يكتم ضحكة تكاد تنفجر من بين شفتيه.

قال دينيسوف: إذن، من أين جئت؟

أجاب تيخون بحماس وجرأة بصوت أجش منخفض رغم رخامته: من أين جئتُ؟ من مطاردة الفرنسيين.

– ولماذا إذن في رابعة النهار؟ حيوان! ثم ألم تنجح؟ ...

رد تيخون: بلى، بلى، لقد أسرت واحدًا.

– أين هو إذن؟

استرسل تيخون وقد اتخذ له وقفة مريحة أكثر على قدميه الضخمتين المسطحتين في حذاءيهما المصنوعين من ليف القنب: نعم، لقد أطبقت على واحد، وكان ذلك قبل طلوع النهار، نعم، ولقد سقته إلى الغابة، لكنني اكتشفت بعد حين أنه لا ينفع لشيء، وحينئذ فكرت وقلت لنفسي إنه ينبغي لي الحصول على آخر، انتقيته بشكل أفضل.

فقال دينيسوف لرئيس قوقازييه: آه! القذر، هذا هو السبب، ولكن لماذا لم تأتني به إذن؟

قاطعه تيخون برشاقة وهو يهش: وأية فائدة؟ لم يكن ينفع لشيء، ألست أعرف ماذا ينبغي لك؟

– يا للأتان! ... وبعدئذ؟ ...

أعقب تيخون: بحثت عن آخر، وقد زحفت هكذا في الغابة ثم استلقيت (وألقى تيخون بنفسه فجأة على الأرض على بطنه بحركة مرنة ليشرح كيف تصرف)، ثم ها إن واحدًا يقترب، ها إنني أضع له الكُلَّاب هكذا (وقفز برشاقة على قدميه وهو يقول هذه الكلمات)، وقلت له: إلى الأمام، إلى الزعيم، وها هو ذا يزمجر فيأتي أربعة آخرون، ارتمَوْا عليَّ بسيوفهم، وأنا هذا ما عملته بفأس (وصرخ تيخون): إلى الوراء! اذهبوا إلى الشيطان! وراح يحرك ذراعيه حركات دائرية، ثم قطب حاجبيه متخذًا مسحة متوعدة واتخذ وقفة مريحة.

قال رئيس القوقازيين وهو يرمش بعينيه اللامعتين: نعم، نعم، لقد شاهدنا من الأعلى كيف كنت تلعب بأساطين الخشب عبر الردغات.

وعلى الرغم من رغبة بيتيا العنيفة في الضحك، فإنه لاحظ أن كل واحد من زميليه يحتفظ بأمارات الجد على وجهه، فراحت عيناه تنتقلان بين وجه تيخون ووجهَي رئيس القوقازيين ودينيسوف دون أن يفقه ما معنى كل هذا.

هتف دينيسوف وهو يهز رأسه ويسعل سعالًا خفيفًا: لا تتصنع الغباء، لماذا لم تأتني بالأول؟

أخذ تيخون يحك ظهره بإحدى يديه، بينما انتقلت يده الأخرى إلى رأسه لنفس الغرض، وفجأة أشرق وجهه العريض بابتسامة بلهاء كشفت عن جذور أسنانه التي منها حمل اسمه ستشيرباتي، أي فاقد أسنانه الأمامية، انبسطت الغضون عن وجه دينيسوف، وانفجر بيتيا بضحكة شديدة المرح حتى إن تيخون نفسه انطلق مقهقهًا.

أكد تيخون: لكن صحيح، إنه ما كان يصلح لشيء، أية فائدة كانت تُجنَى من الإتيان به وهو في أطماره تلك؟ يا لها من قحة يا صاحب النبالة! أخذ يقول: «أنا، أنا ابن «جناز!» أنا لا أمشي.»

صرخ دينيسوف: أيها الحيوان! وأنا الذي كانت بي حاجة إلى استجوابه! ...

فقال تيخون: أوه! لقد جعلته يتحدث أنا، قال لي: إننا لا نعرف شيئًا كثيرًا. قال إنهم كثرة ولكن لا قيمة لهم، لا لهؤلاء ولا لهؤلاء.

ثم أعقب وهو يركز على دينيسوف نظرته المرحة الحازمة: اشرعوا بضربة طيبة، وستنالونهم جميعًا.

هتف دينيسوف بصرامة: انتظر، سوف آمر بجلدك، ذلك يعلمك كيف تتغابى.

فقال تيخون: ولماذا الغضب؟ ألست أعرفهم، أعرفهم أنا، فرنسييك؟ لينسدل الليل وحينئذ آتيك باثنين، بل وبثلاثة إذا اقتضى الحال.

صاح دينيسوف: هيا، إلى الأمام!

ومشى في طريق مركز الحرس صامتًا مقطب الحاجبين.

تبعهم تيخون، فسمع بيتيا القوقازيين يمازحونه بصدد الحذاء الذي ألقى به بين الأشواك.

ولقد حلَّ محل رغبة الضحك التي كانت تعذب بيتيا بسماع تيخون ولرؤيته يبتسم ويمثل في غمرة أجوبته، شعورٌ بالانزعاج مفاجئ، أدرك بيتيا فجأة أن القروي قد قتل رجلًا منذ حين، فألقى نظرة على الطبال الصغير وشعر بقلبه ينقبض. لكن ذلك الشعور بالانزعاج لم يدم إلا لحظة، وجد أن من الضرورة أن يرفع الرأس وأن يتخذ أمارات أكثر تغطرسًا، فراح يستجوب الرئيس القوقازي بلهجة خطيرة عن مشروع الغد، رغبةً في أن يكون على مثل سوية زميليه.

جاء الضابط الموفد بهمة يلاقي دينيسوف على الطريق ليعلمه بأن دولوخوف سيصل بعد حين، وأن كل شيء على ما يُرَام من هذه الناحية.

وللحال انبسطت أسارير دينيسوف فنادى بيتيا إليه، وقال له: هيا، حدثني عنك.

الفصل السابع

بيتيا والسجين

التحق بيتيا لدى رحيله من موسكو حيث ترك ذويه بغرفته، وهناك لم يلبث أن رأى نفسه يُرقَّى إلى رتبة ضابط ارتباط لدى جنرال قائد كتيبة قوية. ومنذ ترقيته إلى رتبة ضابط، وعلى الأخص منذ أن بات يساهم في الجيش العامل الذي اشترك معه في معركة فيازما؛ راح بيتيا يشعر بمرح مثير يدفعه إلى أن يحس بأنه رجل، فكان يبذل هوسًا محمومًا لانتهاز أية فرصة يستطيع أن يظهر فيها بطولة حقيقية، كان مفتونًا بكل ما رآه وعلمه في الجيش، لكنه كان يُخيَّل إليه دائمًا أن البطولة الأكثر نقاءً تعرض عادة في المكان الذي لا يكون فيه.

ولما أعرب جنراله يوم ٢١ تشرين الأول عن رغبته في إيفاد أحدهم إلى كتيبة دينيسوف، سأله بيتيا هذه المهمة بلهجة شديدة التوسل، حتى إن الجنرال لم يرفض طلبه، ولكن عندما عزم على إرساله تذكر الجنرال سلوك بيتيا المتهور خلال معركة فيازما: لقد اندفع بيتيا مباشرة إلى الخطوط الأولى تحت نيران الفرنسيين حيث أطلق رصاصتين من مسدسَيْه، بدلًا من أن يتوجه إلى حيث أمره أن يذهب، لذلك فقد حرَّم عليه تحريمًا قاطعًا أن يشترك في تلك العملية ما دام مع دينيسوف، ولهذا السبب تضرَّج وجه بيتيا احمرارًا عندما سأله دينيسوف عما إذا كان يستطيع البقاء، ظل بيتيا حتى ساعة أن بلغ تخم الغابة يفكر في أنه سيقوم بمهمته بكل دقة ويعود من فوره. لكنه عندما رأى الفرنسيين، وعندما رأى تيخون، وعندما علم أنهم سيهاجمون بالتأكيد عند هبوط الظلام؛ قرر بذبذبة الشبان الذين ينتقلون من فكرة إلى أخرى أن جنراله رغم كل التقدير الذي ظل يكنه له حتى تلك اللحظة ليس أكثر من ألماني، في حين أن دينيسوف كان بطلًا وكذلك رئيس القوقازيين وتيخون أيضًا، وأنه سيكون مخجلًا من جانبه أن يغادرهم في دقيقة عسيرة مثل تلك الدقيقة.

كان الغسق يهبط عندما وصل دينيسوف وبيتيا والرئيس مركز الحرس، شاهدوا في العتمة الشاحبة الجياد مسروجة والقوقازيين والفرسان يقيمون أكواخًا خشبية في الأرض الخالية، ولقد ركزوا مكان نيرانهم في وادٍ مشجَّر كي لا يفضحهم الدخان.

وعند مدخل كوخ خشبي صغير وقف قوقازي مشمِّرًا عن أكمامه يُقطِّع خروفًا، وفي الكوخ نفسه كان ثلاثة من ضباط كتيبة دينيسوف صنعوا لأنفسهم طاولة من باب، نزع بيتيا ثيابه المبللة ليعطيها لتجفيفها وراح لفوره يساعد الضباط في إعداد مائدة الطعام.

وفي غضون عشر دقائق أُعِدَّت المائدة بعد أن بُسِطت عليها منشفة وضعوا عليها العَرَق وزجاجة من الروم وخبزًا أبيض وشواء الخروف وملحًا.

ولقد جلس بيتيا مع الضباط وراح يجزِّئ بيديه اللتين سال منهما الدهن لحم الخروف الشهي وهو طافح بحنان الطفل المهووس حيال الضباط كلهم، ويلاحظ بالتالي أنهم جميعًا يعاملونه بالمثل.

سأل دينيسوف: ما قولك يا فاسيلي فيدوروفيتش، أستطيع أن أبقى يومًا صغيرًا آخر هنا، أليس كذلك؟

وبدلًا من أن يأتيه الجواب أجاب نفسه بنفسه: طالما أنهم أرسلوني للاستعلام، حسنًا، إنني أستعلم ... بيد أنه يجب أن تضعوني في المكان الأكثر ... الأكثر أهمية ... إنني لا أبحث عن مكافأة ... لست أريد إلا ...

صرف على أسنانه ونظر حوله، ثم رفع رأسه باعتداد وأشار إشارة معبرة.

كرر دينيسوف بابتسامة: في المكان الأكثر أهمية ...

استرسل بيتيا: أرجوك فقط أن تعهد إليَّ بفصيلة صغيرة حتى أستطيع إصدار الأوامر، هيا، ماذا يكلفك هذا؟

وهتف وهو يستدير نحو ضابط كان يستعد لتقطيع شريحته: أوه! هل تريد سكيني؟

وأخرج له سكينه من جيبه، فجزاه الضابط شكرًا.

قال بيتيا ووجهه يتضرج: احتفظ به أرجوك، أبقِه معك، لديَّ الكثير من مثله.

وفجأة هتف: آه! وحق كل القديسين! لقد نسيت تمامًا! لديَّ زبيب رائع، لو تعلمون خالٍ من البزر، لدينا مموِّن جديد لديه أشياء ممتازة، ولقد اشتريت عشر ليبرات لأنني معتاد على الحلويات، هل ترغبون بتذوق الزبيب؟

وعلى الأثر هُرِع بيتيا إلى الباب حيث ينتظر تابعه القوقازي، وعاد يحمل قفة فيها أكثر من خمس ليبرات من الزبيب: كلوا ما تشتهون أيها السادة، كلوا ما تشتهون.

ثم سأل رئيس القوقازيين: وبالمناسبة، ألست بحاجة إلى إبريق للقهوة؟ لقد اشتريت واحدًا ممتازًا من مموِّننا! إن لديه بضاعة جميلة، ثم إنه شريف تمامًا وهذا الأهم، سوف أقدمه لك دون توانٍ ولعل أحجار النار لديك مهترئة، إنها أشياء تحدث غالبًا، لقد حملت معي عددًا منها، إنها هنا — وأشار إلى قُفَّته — لديَّ ما يقرب المائة منها، لقد اشتريتها بمبلغ تافه، خذ منها أرجوك دون حرج، خذها كلها إذا شئت.

وفجأة ذُعِر بيتيا خشية أن يكون قد مضى في حديثه بعيدًا، فصمت وتصعَّدت الحمرة إلى وجهه.

أخذ يحاول أن يتذكر ما إذا قد ارتكب هفوة ما، وبينما هو يستعرض ذكريات النهار عادت ذكرى الطبال الفرنسي الصغير إلى مخيلته، فكَّر: «إننا هنا نتفكَّه ونتلذذ وهو كيف حاله؟ أين وضعوه؟ هل قدموا له طعامًا؟ ألم يسيئوا إليه؟» لكنه خاف بعد تبجحاته حول أحجار النار أن يستعلم عن حاله.

«هل أستطيع سؤالهم؟ سوف يقولون: ها هو ذا طفل يستعلم عن طفل مثله. لكنني سأريهم غدًا ما إذا كنت مجرد طفل، لماذا أخجل من السؤال؟ آه، ليكن!» ولم يلبث أن حدق بالضباط ووجهه يتضرج، وفي نفسه خشية من أن يرى على وجوههم طيف ابتسامة هازئة وسألهم: ألا نستطيع استدعاء ذلك الفتى الذي أسروه، وأن نعطيه ما يأكل ... لعله ...؟

فقال دينيسوف الذي لم يظهر عليه ما يدل على أنه يجد شعور بيتيا مخجلًا: نعم، الصغير المسكين، ليستدعوه، إن اسمه فنسان بوس، ليستدعوه.

قال بيتيا: إنني ذاهب بنفسي.

فكر دينيسوف: اذهب، اذهب، يا للصغير المسكين!

ولقد تسلل بيتيا الذي كان قرب الباب لما نطق دينيسوف بهذه الكلمات بين الضباط حتى وصل إلى جانبه، وقال: اسمح لي أن أقبلك يا صديقي العزيز، آه! كم هذا حسن! كم هو حسن!

وصاح بيتيا عندما أصبح على العتبة: بوس، فنسان.

استعلم صوت في الظلام: من تريد يا سيدي؟

فأجاب بيتيا: إنه يريد الفرنسي الصغير الذي أُسِر خلال النهار، فرد القوقازي: آه، فيسيوني؟

لقد حل اسم فيسيوني محل اسم فنسان عند القوقازيين خلال ذلك الوقت القصير، أما عند الفلاحين الروسيين والجنود فقد أصبح فيسينيا، وفي كلتا الحالتين كان الاسم



دينيسوف.

تنويهًا بالربيع الذي ترادفه بالروسية كلمة فيسنا، وهي تسمية تناسب تمامًا الطبال النضير.

– إنه يتدفأ هناك أمام النار، إيه! فيسينيا، فيسينيا، فيسيوني! راحت الأصوات الضاحكة تصيح في الظلام. وقال فارس كان إلى جانب بيتيا: إنه شاطر، هذا الفتى! لقد أعطوه ما يأكله منذ حين، لا يمكن تصديق الجوع الذي كان به!

سُمِعت خطوات في الظل، وراحت أقدام حافية تخوض في الطين، ثم بدا الطبال الصغير أمام الباب. هتف بيتيا: آه! هذا أنت! هل تريد أن تأكل؟

وأضاف وهو يضع يدًا ودية خجلى على ذراعه: لا تخف، لن نسيء إليك، ادخل، ادخل.

أجاب الطبال بصوت شديد التهدج، طفولي تقريبًا: شكرًا يا سيدي.

وراح يحك قدميه الموحلتين على عتبة الباب.

كان بيتيا يود لو يقول أشياء كثيرة لذلك الطفل لكنه لم يجرؤ، ظل واقفًا إلى جانبه عند المدخل مترددًا، أخيرًا أخذ يده في الظلام وضغط عليها، وقال ولكن في وشوشة حانية: ادخل، ادخل!

ردد بيتيا في سره وهو يفتح الباب ويدع الفتى يمر أمامه: «آه! كم أتوق إلى عمل أي شيء من أجله!»

ولما دخل الطبال إلى الحجرة، ذهب بيتيا يجلس بعيدًا متأثرًا بفكرة جرح كرامته إذا اهتمَّ كثيرًا بشأنه بشكل واضح، لكنه راح يتحسس في جيبه النقود التي كان يتساءل عما إذا لم يكن مخجِلًا تقديمها إليه.

الفصل الثامن

دولوخوف

أمر دينيسوف أن يعطي الطبال الصغير عرقًا وشريحة من لحم الخروف ثم معطفًا روسيًّا، كي لا يُصرَف بين الأسرى الآخرين بل يبقى في الكتيبة. لكن اهتمام بيتيا لم يلبث أن تحول عن الغلام بوصول دولوخوف، لقد سمع بيتيا في الجيش كثيرًا عن بسالة دولوخوف الخارقة وعن قسوته حيال الفرنسيين، لذلك فإنه ما إن دخل إلى الكوخ حتى انحطت نظراته عليه لا تفارقه، وكلما أمعن النظر إليه ازداد رأسه انتصابًا، وسعى أن يظهر أكثر بسالة حتى يكون جديرًا بمثل هذه الصحبة.

ولقد أدهش دولوخوف بيتيا أيما دهشة ببساطة ثيابه.

كان دينيسوف يرتدي التشكمين — معطف قصير يستعملونه في القوقاز — ويحتفظ بلحية كاملة، ويضع على صدره صورة القديس نيكولا صانع المعجزات، يظهر من طريقة كلامه وفي كل حركاته طبيعة مركزه الخاصة. أما دولوخوف، الذي كان من قبل في موسكو يلفت إليه الأنظار بزيه الفارسي، فكان الآن على العكس يظهر في مظهر ضابط حرس شديد التأنق؛ كان حليق اللحية بعناية، يرتدي بزة الحرس الموشَّاة، وقد تدلى من عروته صليب سان جورج، وعلى رأسه عمرة رتبته. نزع معطفه المبلل في أحد الأركان واقترب من دينيسوف دون أن يحيي أحدًا، ثم لم يلبث أن راح يتحدث عن العملية المزمع القيام بها. أبلغه دينيسوف النوايا التي تضمرها الكتائب الكبرى نحو القافلة والعروض التي قُدِّمت عن طريق بيتيا والأجوبة التي وجَّهها إلى الجنرالين، ثم أطلعه على ما كان يعرفه عن مركز القوات الفرنسية.

قال دولوخوف: حسنًا جدًّا، لم يبقَ إلا معرفة نوع الفرق وعددها لذلك يجب الذهاب لرؤيتها، إذ لا يمكن الاندفاع في مثل هذا العمل دون التزود بهذه التفصيلات الدقيقة، إنني أحب أن أعمل عملًا نظيفًا، هيا، ألا يوجد بين هؤلاء السادة واحد يرغب في مرافقتي إلى معسكرهم؟ إن لديَّ بزة رسمية …

هتف بيتيا: أنا، أنا … أنا سأذهب معك!

قال دينيسوف لدولوخوف: لست في حاجة قط إلى الذهاب إلى هناك، أما هو فإنني لن أدعه يذهب لأي سبب في الوجود.

فاعترض بيتيا: ولماذا إذن؟! ولماذا لا يجب أن أذهب؟!

– لأن هذا عديم النفع.

– أرجو أن تتفضل بمعذرتي، لكنني … لكنني … سأذهب رغم ذلك، هذا كل شيء.

ثم سأل دولوخوف: هل ترغب في اصطحابي؟

فأجاب هذا ساهمًا، وهو يمعن النظر في وجه الطبال الصغير: لم لا؟ …

ثم سأل دينيسوف: هل أسرت هذا الغلام منذ وقت طويل؟

– منذ اليوم، لكنه لا يعرف شيئًا، إنني أحتفظ به إلى جانبي.

فسأل دولوخوف: آه! والآخرون أين تضعهم؟

هتف دينيسوف فجأة وقد تضرج وجهه: أين أصونهم؟! إنني أبعث بهم لقاء وصل بالاستلام، وأستطيع أن أقول بجرأة: إن وجداني غير مثقل بمقتل رجل واحد، أقول لك بصراحة: إن من الأفضل إرسال ثلاثين رجلًا بل حتى ثلاثمائة تحت حراسة قوية إلى المدينة على تلويث الشرف العسكري.

رد دولوخوف بابتسامة جامدة: إن مثل هذه الأقوال اللطيفة جديرة بهذا الكونت الشاب ذي الستة عشر عامًا، أما أنت فكان يجب أن تلقي بها جانبًا منذ وقت طويل.

فقال بيتيا في ذعر وخجل: كيف؟! إنني لم أقل شيئًا مطلقًا، أنا أؤكد فقط أنني على استعداد لاتباعك.

واسترسل دولوخوف وكأنه يجد متعة في العودة إلى هذا الحديث الذي كان يسخط دينيسوف: أما نحن، كلانا أيها الأخ، فكفانا سخافات! هيا، لماذا احتفظت بهذا الغلام إلى جانبك — وأخذ يهز رأسه — ألأنه أثار شفقتك؟ على أية حال إن قيمة إيصالات الاستلام معروفة، إنك ترسل ما يقارب مائة فيصل منهم قرابة ثلاثين، إنهم يموتون من الجوع ويُقتَلُون في الطريق، ألا تصبح النتيجة واحدة إذا لم يُؤْسَروا قط؟

أيد قوله الرئيس القوقازي بطرفة عينيه الصافيتين وبإيماءة من رأسه.

– هذا لا يعنيني إذا كانت النتيجة تصبح واحدة، إنني لا أريد تحميل ضميري هذا الوزر. تقول إنهم سيموتون رغم ذلك، لنفرض جدلًا صحة هذا القول لكنه لن يكون موتًا بيدي.

انفجر دولوخوف ضاحكًا: هل تظن أنهم لم يصدروا إليهم الأوامر بإلقاء القبض عليَّ عشرين مرة؟ إنهم إذا وُفِّقوا فسيشنقونك مثلي إلى شجرة حور واحدة رغم عواطفك الفروسية.

وصمت لحظة ثم استأنف: وبالانتظار، يجب أن نعمل ليُرسَل تابعي القوقازي لأخذ أمتعتي، لديَّ بزتان فرنسيتان.

وسأل بيتيا معقبًا: إذن، اتفقنا، ستأتي معي؟

هتف بيتيا وقد تضرَّج وجهه حتى كادت الدموع تتساقط من عينيه: أنا؟ نعم، نعم، دون ريب.

ومن جديد شعر بيتيا بالانزعاج والاضطراب خلال المناقشة التي دارت بين دولوخوف ودينيسوف حول ما يجب صنعه بالأسرى، لكن المعنى الحقيقي لكلماتهم استغلق عليه من جديد، ففكَّر: «إذا كان الرؤساء المشهورون يفكرون على هذا النحو فلا ريب أن الأمر يجب أن يكون كذلك، المهم هو ألَّا يتصور دينيسوف أنني سأطيعه، وأنه يستطيع أن يصدر إليَّ أمرًا ... لقد قررت دون نكول، سأذهب مع دولوخوف إلى المعسكر الفرنسي، إذا كان يستطيع صنع ذلك فإنني كذلك مستطيعه!»

ولقد رد بيتيا على كل ما قاله دينيسوف ليثنيه عن عزمه بأنه هو الآن يفضل تنفيذ عمله بعناية ودقة لا أن يتركه للحظ، وأنه على أية حال لا يفكر من جانبه بالخطر مطلقًا.

– على أية حال محِّص الأمر بنفسك، إذا كنا لا نعرف على الضبط عددهم هناك ... إن حياة المئات من رجالنا قد تكون متوقفة على ذلك، بينما نحن لسنا أكثر من اثنين نعرض أنفسنا للخطر.

وأضاف: ثم إن بي رغبة كبيرة في الذهاب إلى هناك، كبيرة جدًّا، وأريد الذهاب مهما كلف الأمر، فلا تستوقفني أكثر مما فعلت لأنه لن ينجم عن ذلك إلا الأسوأ ...

الفصل التاسع

في معسكر الأعداء

بعد أن تدثرا بالمعاطف الفرنسية ووضعا العمرات على رأسيهما، اجتاز دولوخوف وبيتيا الأرض الخالية التي عاين منها دينيسوف معسكر الأعداء، وخرجا من الغابة في الظلام الحالك ثم هبطا نحو الأعماق، ولما أوغلا في بطن الغور أمر دولوخوف القوقازيين المرافقين أن ينتظروه في ذلك المكان، ثم مضى يخب على جواده على الطريق باتجاه الجسر، وبيتيا يتقدم بمحاذاته تمامًا وقلبه يتفطر من الانفعال.

همس بيتيا: إذا أُخِذْنا فلن ينالوني حيًّا، لديَّ مسدسي.

رد دولوخوف بشدة وبصوت خافت: لا تتكلم بالروسية.

وبنفس الوقت، دوَّت في الظلام صرخة «من هناك؟» وخشخشة زناد، اندفع الدم إلى وجه بيتيا الذي وضع يده على مسدسه.

أجاب دولوخوف دون أن يبطئ من جري جواده أو يضاعفه: رمَّاحة الفرقة السادسة.

انتصب شبح حارس داكن على الجسر: كلمة المرور؟

أوقف دولوخوف جواده وتقدم خطوًا، وسأل: قل لي هل الزعيم جيرار هنا؟

كرر الحارس وهو يسد الطريق دون أن يجيب: كلمة السر؟

صاح دولوخوف وقد استبد به غضب مفاجئ جعله يدفع حصانه على الحارس: عندما يقوم ضابط بجولته لا يسأله الحراس عن كلمة السر ... أسألك عما إذا كان الزعيم هنا.

ودون أن ينتظر الجواب من الحارس الذي تنحَّى جانبًا استمر دولوخوف يرتقي التل في خطًى عادية.

وفي العتمة شاهد رجلًا يجتاز الطريق، فاستوقفه دولوخوف وسأله: أين القائد والضباط؟ فاقترب الرجل الذي كان يحمل كيسًا على كتفه، وكان جنديًّا بسيطًا، من جواد

دولوخوف وربت عليه بيده، وقال ببساطة: ورد أن القائد والضباط في الأعلى، على التل، إلى اليمين، في فناء المزرعة (وهكذا كان يُسمَّى بيت السيد).

وبعد أن تبع الطريق الذي تحفه من الجانبين نيران المعسكرات، والذي تتصاعد على جانبيه أصوات الحديث بالفرنسية، انعطف دولوخوف إلى فناء بيت الإقطاعي، وعندما اجتاز العتبة ترجل واقترب نحو نار مشبوبة جلس حولها عدد من الرجال كانوا يتحدثون فيما بينهم بصوت مرتفع. وإلى جانب الموقد ركع جندي على رأسه قلنسوة الشرطة، يرتدي معطفًا أزرق، تضيء النيران وجهه إضاءة قوية، يشوي شيئًا كان يحركه في قصعة مستعملًا قضيب البندقية.

كان أحد الضباط يقول من الجانب الآخر من النار وهو في الظل: أوه! إنه شديد القسوة.

فرد الآخر ضاحكًا: سيجعلهم طيعين، الأرانب.

وصمت كلاهما، وأخذا ينظران إلى الظلمات حيث ارتفعت خطوات دولوخوف وبيتيا، اللذين كانا يقتربان ممسكَيْن بأعنَّة جواديهما.

قال دولوخوف بصوت قوي وهو يفصل مقاطع الكلام: مرحبًا يا سادة!

اضطرب الضباط في الظلام ودار أحدهم، وهو فتى عملاق ذو عنق طويل، حول الموقد واقترب من دولوخوف وسأل: أهذا أنت، كليمان؟ من أي ...

لكنه لم يكمل مظهرًا بذلك احتقاره، حيًّا دولوخوف وهو مقطب حاجبيه تقطيبة خفيفة كما يحيي مجهولًا، وسأله عما يستطيع أن يكون ذا نفع له فيه.

روى دولوخوف أنه وزميله في طريقهما للحاق بفرقتهما، وسأل دائريًّا ما إذا كان أحد يعرف أين أصبح الفوج السادس للرمَّاحة، لم يظهر على أحد من الضباط أنه عارف شيئًا عن مكان هذا الفوج، ولكن خُيِّل إلى بيتيا أن الضباط كانوا يفحصونهما هو ودولوخوف بحذر عدائي، ولقد صمت الضباط جميعًا طيلة ثوانٍ.

قال أحدهم من الجانب الآخر من النار في ضحكة مكتومة: إذا كنتما تعتمدان على طعام المساء فإنكما متأخران جدًّا.

أجاب دولوخوف بأنهما تناولا طعامهما، وأنهما مضطران لمتابعة سيرهما الليلة بالذات.

سلم زمام حصانه إلى الجندي الذي كان يحرك محتويات القصعة، وجلس القرفصاء أمام النار بالقرب من الضابط ذي العنق الطويل، فراح ذلك الضابط يحدق في دولوخوف

بأبصار شاخصة، وسأله مرة أخرى عن الفرقة التي ينتمي إليها، لكن دولوخوف تظاهر بأنه لم يسمع السؤال، بل سأل بدوره وهو يدخن غليونًا فرنسيًّا أخرجه من جيبه عن الحد الذي يخلو الطريق عنده من القوقازيين.

– إن المجرمين في كل مكان.

فأكد دولوخوف أن القوقازيين لا يشكلون خطرًا إلا على المتسكعين مثله ومثل رفيقه، لكنهم لا يجرءون قط على مهاجمة فرقة كبيرة، فلم يجبه أحد.

كان بيتيا يفكر وهو واقف أمام النار يصغي إلى الحديث: «سوف يذهب الآن.»

لكن دولوخوف استأنف أسئلته المتواصلة، سأل دون مواربة عن عدد الرجال في اللواء وعدد الألوية والأسرى، وقال وهو يستعلم عن الأسرى الروسيين الذين كانوا في تلك الفرقة: يا لها من عملية قذرة أن يجر المرء وراءه تلك الجثث! من الأفضل قتل أولئك السفلة.

ثم انفجر ضاحكًا ضحكة شديدة الغرابة، حتى إن بيتيا ظن أن الفرنسيين سينتبهون فورًا إلى الخدعة، فخطا رغم أنفه خطوة إلى الوراء.

لم يرجع صدى لضحكة دولوخوف، لكن ضابطًا فرنسيًّا لم يكن في نطاق الرؤية — إذ كان متمددًا متدثرًا بمعطفه — نهض وهمس شيئًا في إذن رفيقه. ونهض دولوخوف ونادى الجندي الذي يمسك بمقود الجوادين.

حدث بيتيا نفسه وهو يقترب من دولوخوف لا إراديًّا: «هل سيعيدون الجوادين إلينا أم لا؟»

أعادوا الجوادين إليهما فهتف دولوخوف: أُسعِدتم مساءً يا سادة!

أراد بيتيا أن ينطق بمثل تلك الجملة لكن لسانه عجز عن النطق.

أخذ الضباط يتحدثون فيما بينهم همسًا. ولقد لبث دولوخوف وقتًا طويلًا قبل أن يستطيع امتطاء صهوة الجواد لشدة ما كان جواده ينخف جفلًا، ثم اجتاز البوابة بخطًى وئيدة وتبعه بيتيا وهو لا يجرؤ على الالتفات رغم رغبته الملحة ليرى ما إذا كان الفرنسيون سيتبعونهم أم لا.

ولما بلغا الطريق سار دولوخوف بمحاذاة القرية بدلًا من أن يعود أدراجه عبر الحقول، وفي موقف ما توقف ليصيخ السمع قال: «هل تسمع؟» وسمع بيتيا أصواتًا تتكلم الروسية، وشاهد حول النيران أشباح الأسرى الداكنة. وبعد أن نزلا حتى بلغا الجسر مر بيتيا ودولوخوف بالحارس، الذي كان يذرع الجسر بخطى كئيبة دون أن ينطق بكلمة، ثم بلغا الغور حيث كان القوقازيون ينتظرونهما.

قال دولوخوف لبيتيا وهو على وشك الابتعاد: والآن إلى اللقاء، قل لدينيسوف إننا سنبدأ عند الفجر بعد أول طلقة مسدس.

لكن بيتيا استوقفه من ذراعه وهتف: كلا! إنك بطل لا مثيل لك! آه كم هذا رائع! آه كم هذا بديع! آه كم أحبك!

فقال دولوخوف: مفهوم، مفهوم.

لكن بيتيا لم يدعه، ولقد رآه دولوخوف في العتمة ينحني عليه كان يريد أن يقبله، قبَّله دولوخوف وهو يضحك واستدار على جواده، ثم اختفى في الظلام.

الفصل العاشر

ليلة الهجوم

التقى بيتيا لدى عودته إلى مركز الحرس بدينيسوف عند المدخل، لقد كان دينيسوف مضطربًا قلقًا بَرِمًا من نفسه لأنه سمح له بالذهاب، ينتظره، ردد وهو يصغي إلى رواية بيتيا الحماسية: حمدًا لله! آه! حمدًا لله!

واسترسل دينيسوف: ولكن ليأخذك الشيطان! لم أستطع أن أنام بسببك! آه حمدًا لله! والآن اذهب ونم فلدينا الوقت للإغفاء قليلًا قبل أن ينبلج الصبح.

فرد بيتيا: نعم ... كلا، لست نعسًا بعد، ثم إنني أعرف نفسي إذا نمت انتهى كل شيء على أي حال، ليس من عادتي أن أنام عشية معركة.

ظل بيتيا بعض الوقت جالسًا في الكوخ الخشبي يتذكر بفرحة كافة تفاصيل مغامرته، ويتصور بشدة كل ما سيقع صباح غد، ثم لاحظ أن دينيسوف قد أغفى فنهض وخرج إلى الفناء.

كان الفناء غارقًا في ليل بهيم والمطر قد كف عن الهطول، لكن الأشجار ظلت تسقط القطرات عن أغصانها. وحول مركز الحرس كانت أكواخ القوقازيين وخيولهم المربوطة معًا تُرَى أشبه بكتل داكنة، وإلى الوراء قريبًا كانت عربتا نقل تشكلان بقعة سوداء وقد انتصب الجياد بقربها، وفي الوادي راحت بقايا النيران تحترق ملقية حولها إشعاعًا أحمر. لم يكن القوقازيون والفرسان كلهم نائمين، فمن هنا وهناك بين أصوات قطرات المياه المتساقطة وحركة اجترار الجياد كانت جلبة أصوات خافتة تتناهى إلى الآذان كالهمس.

سبر بيتيا عندما أصبح في العراء الظلام بنظره ثم اتجه نحو العربتين، كان بعضهم يغط في النوم تحت العربات وحولها جياد مسرجة تأكل علفها، وعلى الرغم من الظلام عرف بيتيا جواده الذي أطلق عليه اسم كاراباخ — وهو اسم جواد قوقازي — رغم أنه كان من نوع الروسي الصغير، واقترب منه.

قال له وهو يعانقه ويشم منخريه: حسنًا يا كاراباخ، غدًا سنعمل عملًا طيبًا، كلانا معًا معًا.

هتف قوقازي كان جالسًا تحت إحدى العربتين: كيف، ألا تنام يا سيدي؟

– كلا، ولكن يُخيَّل إليَّ أنك ليخاتشيف، لقد وصلت لتوي إذ كنا في زيارة الفرنسيين.

وقص بيتيا على القوقازي ليس تفصيل رحلته فحسب، بل وكذلك السبب الذي ذهب من أجله، ولماذا وجد أن تعريض حياته للخطر أفضل من تعريض الرجال كلهم.

قال القوقازي: والآن يجدر بك يا سيدي أن تنام قليلًا.

فأجاب بيتيا: كلا، وهذه عادتي. آه! هل حجارة مسدسك غير مهترئة؟ لقد جئت معي بعدد منها، ألست بحاجة إلى بعضها؟ خذ.

وقرب القوقازي رأسه من تحت العربة ليتسنى له رؤية أفضل. استأنف بيتيا: ذلك أن من عادتي أن أعد كل شيء أفضل إعداد، إن الكثيرين يتصرفون تصرفًا ارتجاليًّا، ثم يعضون بنانهم ندمًا، أما أنا فلست أحب ذلك.

قال القوقازي: إنك محق.

– هه، إليك رجاء آخر يا عزيزي، اشحذ حسامي أرجوك! إنه كليل.

وتوقف بيتيا خوفًا من كذبته لأن حسامه لم يُشحَذ قط: هل تستطيع أداء هذه الخدمة لي؟

– لم لا؟ يمكن صنع ذلك.

نهض ليخاتشيف وفتش بين قطع الحديد التي معه، فلم يلبث بيتيا أن سمع صليل الحديد الحربي على حجر الشحذ فتسلق العربة وجلس على حافَّتها، بينما راح القوقازي يشحذ السيف تحت المكان الذي جلس فيه.

سأل بيتيا: قل لي، هل الرجال كلهم نيام؟

– بعضهم نائم والبعض الآخر يقظان.

– والطفل ماذا فعلوا به؟

– فيسيوني؟ إنه هناك نائم عند المدخل، لقد نام لشدة الخوف، ولكن كان مسرورًا!

بعد ذلك ظل بيتيا وقتًا طويلًا صامتًا يصغي إلى كل الأصوات، وتعالت خطوات في الظل ثم بدأ شبح أسود.

سأل رجل وهو يقترب من العربة: ماذا تشحذ؟

– إنني أرهف سيف السيد.

قال الرجل الذي ظنه بيتيا من الفرسان: عمل ممتاز، هل حولك هنا قدح ما؟
– نعم، هناك، قرب العجلة.
أخذ الفارس القدح وقال وهو يتثاءب: أظن أن الفجر ليس ببعيد.
وابتعد.

كان على بيتيا أن يذكر أنه في الغابة بين رجال دينيسوف على بعد فرسخ من الطريق، وأنه جالس على عربة نقل سُلِبت من الفرنسيين كانت الجياد مربوطة حولها، وأن القوقازي ليخاتشيف من تحته يشحذ سيفه، وأن البقعة السوداء الكبيرة إلى اليمين هي مركز الحرس والحمراء في الأسفل هي النار الباهتة على وشك الخمود، وأن الرجل الذي سأل عن القدح فارس استبد به العطش، لكنه لم يعد يعرف ذلك أو يريد معرفته. وجد بيتيا نفسه في عالم مسحور لم يكن فيه شيء يشبه الحقيقة، فالبقعة السوداء الكبيرة يمكن أن تكون مركز الحرس لكنها كذلك يمكن أن تكون مغارة تقود المرء إلى أحشاء الأرض، والبقعة الحمراء قد تكون نارًا خابية لكنها قد تكون كذلك عين وحش هائل، وقد يكون جالسًا فوق عربة كما يمكن أن يكون في أعلى برج دوراي إذا سقط من أعلاه استمر يومًا كاملًا بل شهرًا كاملًا بل دهرًا كاملًا قبل أن يبلغ الأرض. ولعل القوقازي ليخاتشيف كان تحت العربة فحسب، ولكن يمكن كذلك أن يكون تحتها الرجل الأكثر روعة وكمالًا وبسالة، أفضل رجل، ذلك الذي لا يعرفه أحد، ولعل الذي مر باحثًا عن الماء كان فارسًا حقيقيًّا، ولكن لعل ذلك الفارس قد اختفى فعلًا ولم يكن موجودًا إلا في خياله!

لم يعد شيء مما بات بيتيا يراه الآن يدهشه، كان في عالم مسحور كل شيء فيه ممكن الوقوع.

راح يتأمل السماء فبدت له السماء مسحورة كالأرض، كانت السماء تنجلي فوق ذرى الأشجار، والغيوم تهرب وكأنها تريد أن تفضح النجوم، وكان كل شيء أحيانًا يبدو منقشعًا لتظهر مكانه في ذلك الفراغ سماء سوداء نقية، وأحيانًا كان يمكن الظن بأن تلك البقع إن هي إلا غيوم، وأحيانًا تبدو السماء شديدة الارتفاع فوق الرءوس، لتخفض أحيانًا حتى لتكاد اليد أن تلمسها.

شرع بيتيا يغمض عينيه ويتأرجح.

كانت القطرات تسقط وأصوات وشوشة خفيفة تطرق الأسماع، والجياد تصهل وتتدافع وبعضهم يغط في نومه.

«زيك ... زيك، زيك ...» كذلك كان الفولاذ الذي يُشحَذ يصفر، وفجأة خُيِّل إلى بيتيا أنه يسمع فرقة موسيقية رائعة تعزف نشيدًا جليلًا ذا طلاوة غير معروفة. كان بيتيا يحب

الموسيقى مثل ناتاشا وأكثر من أخيه نيكولا، لكنه لم يدرسها قط أو يفكر فيها، لذلك فإن القطع التي صافحت عقله غريزيًّا بدت له جديدة كل الجدة بقدر ما كانت جذابة. وكانت أنغام الموسيقى تزداد وضوحًا، والتوزيع يزداد اتساعًا فينتقل من آلة إلى أخرى، وكان يحدث مما يُدعَى تسللًا رغم أنه لم يكن لدى بيتيا أية فكرة عما يمكن أن يكون تسللًا في الموسيقى. وكل آلة موسيقية تارة شبيهة بالكمان وأخرى بالطبل رغم امتيازها الأكثر ندرة وصوتها الأكثر نقاءً، كل آلة موسيقية كانت تعزف مقطوعتها الخاصة وقبل أن تتمها تختلط بأنغام آلة أخرى كانت تبدأ المقطوعة نفسها تقريبًا، ثم آلة ثالثة فرابعة، ثم تختلط الأنغام كلها في نغم واحد وتنفصل من جديد لتندمج مرة أخرى في غناء كنائسي جليل تارة، وتارة في غناء نصر على وضوح باهر.

حدَّث بيتيا نفسه وهو يكاد يفقد توازنه: «آه! لكأنني أحلم! إن أذنَيَّ ممتلئتان بالنغم، ولعلها موسيقاي نفسها، هه، ها هي ذي من جديد، هيا يا موسيقاي، وبنشاط ...»

أغمض عينيه، ومن كل صوب وكأنها آتية من بعيد أخذت الأنغام ترتفع وتتحد وتتفرق ثم تندمج من جديد في النشيد ذاته الرخيم المهيب، وبيتيا يحدِّث نفسه: «آه! كم هذا بديع! على قدر ما أستطيع وبحسب ما أريد»، ثم أخذ يحاول إدارة مجموعة ضخمة: «هيا، بهدوء، بهدوء، بيانو الآن»، فكانت الأنغام تطيعه، «والآن هيا، أقوى، بأكثر نشاط، أيضًا، أيضًا، بأكثر مرح!» ومن عمق مجهول أخذت الأنغام ترتفع وتنتشر جليلة، «هيا، الأصوات الآن!» ومن بعيد تناهت بادئ الأمر أصوات رجال ثم أصوات نساء، وأخذت هذه الأصوات تدريجيًّا تأخذ سعة منتصرة، فشعر بيتيا بأنه مروَّع ومفتون معًا من جمالها الأخاذ.

ذاب الغناء في «مارش» ظفري، وظلت تتساقط والسيف يستمر في لحنه «زيك، زيك، زيك»، والجياد تتدافع وتضرب بحوافرها الأرض دون أن تعكر صفو المجموعة بل تنسجم معها.

ما كان يعرف بيتيا منذ كم من الوقت دام ذلك، فقد ظل يشعر بفتنة اللحن، وهو مدهوش آسف لأنه لا يستطيع مشاطرة أحد ذلك الطرب. وأيقظه صوت ليخاتشيف الودود: يا صاحب النبالة، لقد انتهى، سوف تستطيع الآن أن تشطر به فرنسيًّا إلى شطرين.

وخرج بيتيا من ذهوله فهتف: ها هو ذا النهار، حقًّا، لقد طلع الضوء!

أصبحت الجياد التي ظلت حتى ذلك الحين غير واضحة للعين تُرَى من الرأس حتى الذيل، وخلال الأغصان العارية كان يُرَى ضوء مبلَّل بالماء. تمطَّى بيتيا وقفز من فوق

العربة، وأخذ من جيبه روبلًا من الفضة أعطاه لليخاتشيف، وأمسك بسيفه فرسم به دائرة حوله، ثم اختبر مَضَاءَه وأعاده إلى غمده. وكان القوقازيون يفكون الجياد ويشدون محازمها من جديد.

قال ليخاتشيف: ها هو ذا القائد.

ولقد استدعى دينيسوف الذي خرج من حينه من مركز الحرس بيتيا، وأمره أن يتخذ أهبته.

الفصل الحادي عشر

الهجوم

أعدوا الخيول بسرعة في نصف العتمة المنتشرة، وأحكموا محازمها من جديد، ثم أخذ كل واحد مكانه في الكوكبة، وكان دينيسوف واقفًا أمام مركز الحرس يعطي تعليماته الأخيرة. أخذ المشاة أمكنتهم في المقدمة، فارتفعت جلبة حوالي مائة قدم تجوس خلال الطين، ولم تلبث أن اختفت بين الأشجار في ضباب الصباح. وعاد رئيس القوقازيين يكرر أمره إلى رجاله، بينما أمسك بيتيا جواده من مقوده وراح ينتظر بصبر نافذ أمر اعتلاء صهوات الجياد، وكان وجهه الذي غمسه في الماء البارد، وخصوصًا عيناه، يتلظى بالحمى، والقشعريرات تسري في ظهره، وجسمه ينتفض برعدة سريعة منتظمة.

هتف دينيسوف: إذن، هل أنتم على استعداد، إلى السرج!

قُدِّمت الجياد فسخط دينيسوف على قوقازي لأن محازم مطيته كانت رخوة، ثم امتطى جواده بعد أن أطلق بضع سباب. ووضع بيتيا قدمه في الركاب فأراد حصانه كعادته أن يعضه في ساقه، لكنه رفع نفسه كريشة واعتلى السرج في لمح البصر، واقترب من دينيسوف ونظرته شاخصة إلى الفرسان الذين بدءوا يتماوجون وراءه في الظلام، قال: فاسيلى فيدروفيتش، سوف تعهد إليَّ بمهمة ما، أليس كذلك؟ ... أرجوك!

وبدا على دينيسوف أنه نسي وجود بيتيا فشمله بنظرة، وقال له بصرامة: لا أطلب منك إلا شيئًا واحدًا أن تصغي إليَّ، وألَّا تحشر أنفك حيث لا يعنيك.

ظل دينيسوف يَخْبِل بصمت خلال الرحلة كلها دون أن يوجه كلمة واحدة أخرى إلى بيتيا ... وعندما بلغوا تخم الغابة كان السهل قد أخذ من الضياء حاجته. قال دينيسوف بضع كلمات في أذن رئيس القوقازيين بصوت خافت، فلم يلبث هؤلاء أن عرضوا أمامه وأمام بيتيا، ولما مروا جميعًا أعاد دينيسوف جواده إلى الحركة فانحدر به على حافة الوادي، فراحت الأفراس الأخرى تنزلق على آثاره حتى بلغوا بطن الغور، وكان بيتيا يخيل

إلى جانب دينيسوف والرعدة التي تنفض جسمه آخذة في العنف، والضياء يزداد انتشارًا فلم يعد الضباب يغطي غير الأشياء البعيدة. وعندما بلغوا الأسفل أدار دينيسوف رأسه إلى القوقازي الآتي وراءه، وقال: الإشارة!

فرفع القوقازي يده ودوَّى طلق ناري، فلم يلبث جري الجياد أن ارتفع وهي تندفع إلى الأمام، وشقَّت الصيحات عنان السماء مختلطة بطلقات نارية.

في اللحظة التي ارتفع فيها جري أول حصان وعلت الصيحات الأولى، ساط بيتيا جواده وأرخى له العنان، ثم اندفع إلى الأمام لا يصغي إلى دينيسوف الذي كان يصيح به شيئًا ما، خُيِّل إليه أن نور النهار الغامر قد حل في الدقيقة نفسها التي أُعْطِيت فيها الإشارة، فجرى بحصانه مباشرة نحو الجسر. وأمامه على طول الطريق كان القوقازيون يركضون على الجياد، وعلى الجسر قلب قوقازيًّا متخلفًا دون أن يخفف من سرعة جواده، وأمامه كان بعض الرجال، فرنسيون ولا ريب، يركضون من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر من الطريق، فسقط أحدهم في الوحل تحت قوائم حصان بيتيا.

كان عدد من القوقازيين مجتمعين أمام كوخ خَشِر مشغولين في عمل ما، ومن مركز جماعتهم دوَّت صرخة مريعة، جرى بيتيا إليهم فكان أول ما وقع بصره عليه وجه فرنسي منقلب الأسارير يرتعد فكه الأسفل، كان يمسك بخشبة رمح موجه إليه.

صرخ بيتيا: هورا! أيها الفتيان ... إنهم رجالنا.

وأرخى لجواده العنان وقد أثاره العدو، فمضى كالسهم على طول الشارع أمامه.

وإلى الأمام انطلقت بعض الرصاصات، وراح الفرسان والقوقازيون والأسرى في أسمالهم يجرون من جانب الشارع إلى جانبه الآخر ويطلقون صيحات صاخبة مكتومة، وأخذ فرنسي شاب عاري الرأس أحمر الوجه متقلِّصُه في معطف أزرق يدافع عن نفسه بحربته ضد الفرسان، فلما وصل بيتيا إلى جانبه كان قد سقط، حدث بيتيا نفسه في مثل لمح البرق: «تأخرت هذه المرة أيضًا»، ثم اندفع نحو المكان الذي انطلقت منه لعلعة الرصاص، كان الرصاص يلعلع في فناء بيت الإقطاعي حيث كان العشية مع دولوخوف. لقد تمركز الفرنسيون هناك وراء حاجز في البستان تغطيه أعشاب كثيفة، وراحوا يطلقون النار على القوقازيين المتجمهرين أمام الباب الكبير، ولما اقترب من الباب شاهد بيتيا خلال الدخان وجه دولوخوف شاحبًا شحوبًا ضاربًا إلى الزرقة يصرخ بكلام إلى رجاله، وفي اللحظة التي بلغ بيتيا مقربة منه سمعه يزمجر: «خذوهم من الخلف! انتظروا المشاة!»

هتف بيتيا الذي اندفع دون أن يتأخر ثانية أخرى نحو المكان الذي يلعلع منه الرصاص في غمار الدخان الكثيف: الانتظار؟ ... هورًّا!



القوزاق تفاجئ جيش مورات.

وانطلقت مجموعة من الرصاص راحت التائهة منها تصفِّر وتفرقع، واندفع القوقازيون ودولوخوف على أعقاب بيتيا خلال البوابة المفتوحة، وفي الدخان الكثيف المتحرك راح بعض الفرنسيين يلقون أسلحتهم ويجرون خارجين من وراء الدغل للقاء القوقازيين، بينما فرَّ البعض الآخر نحو أسفل التل باتجاه المستنقع. استمر بيتيا يجري بجواده في الفناء، ولكن بدلًا من أن يمسك بالأعنة كان يلوِّح بذراعيه بشكل مضحك سريع، ويزداد انحناء على سرج جواده، ولما وَطِئ جواده بقائمته جِذى نار كانت خابية غير مرئية في ضوء الصباح رفس بخلفيتيه، فانهار بيتيا بتثاقل على الأرض الندية، ورأى القوقازيون ذراعيه وساقيه تتحرك دون أن تشمل الحركة رأسه، لقد اخترقت رصاصة رأسه.

وبعد أن تفاوض دولوخوف مع قائد الكتيبة، الذي خرج من البيت وعلى ذؤابة سيفه منديل أبيض يعلن استسلام رجاله، ترجَّل عن جواده واقترب من بيتيا الذي كان مسجًّى على الأرض لا حراك به ممدَّد الذراعين، قال وهو يقطِّب حاجبه: لقد نال نصيبه.

ثم مضى إلى البوابة للقاء دينيسوف الذي كان قادمًا.

صرخ دينيسوف الذي فهم من بعيد معنى الوضع الذي كان عليه بيتيا على الأرض: لقد قُتِل؟

فردد دولوخوف وكأنه يجد متعة في استعمال هذه الكلمات: لقد نال نصيبه.

واندفع نحو الأسرى الذين أحاط بهم القوقازيون الهارعون في تلك الآونة، وصاح يخاطب دينيسوف: لا أسرى!

لم يُجِب دينيسوف، اقترب من بيتيا وترجل من على جواده وأدار نحوه وجه الفتى بيدين مرتعشتين، ذلك الوجه المغطى بالدم والوحل الذي كان على وشك الامتقاع.

وقرعت أذنيه عبارات بيتيا «إنني معتاد على الحلويات، زبيب ممتاز، خذوه كله!» وعادت إلى ذاكرته. وراح القوقازيون ينظرون وراءهم بدهشة، وقد سمعوا ما يشبه العواء يطلقه دينيسوف الذي أخذ يبتعد مسرعًا ليقترب من الحاجز ويتشبث به.

كان في عداد الأسرى الروسيين المحررين من قبل دينيسوف ودولوخوف بيير وبيزوخوف.

الفصل الثاني عشر

حالة الأسير بيير

لم تتخذ القيادة الفرنسية منذ ارتحالها عن موسكو أي تدبير جديد يتعلق بقافلة الأسرى التي كان بيير في عدادها، ومنذ الثاني والعشرين من تشرين الأول لم تعد هذه الكتيبة مع القطعات والقوافل التي كانت معها عندما غادرت موسكو، وقد نُهِبَت نصف العربات التي كانت تتبعها محملة بالمؤن من قبل القوقازيين خلال المرحلة الأولى من الطريق، أما النصف الآخر فقد أُرسل إلى الطليعة. ولم يبقَ واحد من الفرسان الذين فقدوا جيادهم والذين كانوا يسبقونهم، لقد اختفوا جميعًا، والمدفعية التي كانت تُشاهَد طيلة الأيام الأولى في المقدمة استُبْدِلت بالمتاع الكثير التابع للماريشال جونو[1] يواكبه الوستفاليون. وفي أعقاب السجناء سارت قافلة محمَّلة بتجهيزات الفرسان.

وابتدأ من فيازما، لم يعد الجيش الفرنسي الذي كان يمشي على ثلاثة صفوف إلا قطيعًا من السائمة، ولقد بلغت الفوضى التي سجلها بيير منذ المرحلة الأولى بعد موسكو أقصى درجاتها.

تناثر على الطريق الذي يتبعونها جياد نافقة ورجال في أطمار متخلفون تابعون لأسلحة مختلفة، يتبدلون في كل حين فتارة ينضمون إلى الفرقة السائرة وطورًا يدَعونها تتقدمهم.

---

[1] أندوس جونو، دوق دابرانتيس، جنرال فرنسي، وُلِد في بوسني لوجران (شاطئ الذهب) عام ١٧٧١، وكان مساعدًا عسكريًّا لنابليون الأول خلال حملة إيطاليا. ساهم في حملة مصر، واستولى على لشبونة عام ١٨٠٧. انتحر بسبب نوبة جنون أُصِيب بها عام ١٨١٣.

ولقد حدث مرات خلال الطريق أنْ قُرِع نذير الخطر دون أن يكون له ما يبرره، فكان جنود الفرقة يسددون بنادقهم ويطلقون النار ويفرون بأقصى سرعة، يتدافعون ثم يلتئمون من جديد ويتبادلون اللوم على ذعرهم القاتل العقيم.

كانت هذه العوامل الثلاثة تمشي معًا؛ مستودع تجهيزات الفرسان والأسرى ومتاع جونو، وتشكل معًا وحدة، لذلك فقد كانت هذه العوامل تذوب بسرعة متعادلة.

لم يبقَ من مستودع التجهيزات الذي كان يعد بادئ الأمر مائة وعشرين عربة أكثر من ستين عربة، أما القسم الآخر فقد نُهِب أو هُجِر، ولقد لاقت عربات كثيرة تابعة لجونو مثل هذا المصير، ونهب متخلفون من جيش دافو ثلاثًا معها. ولقد علم بيير من إصغائه إلى أحاديث الألمان أن هذه القافلة تلقت فرقة للحراسة أقوى من حراسة الأسرى، وأن واحدًا من مواطنيهم قد أُعدِم رميًا بالرصاص بأمر الماريشال نفسه، لأنهم وجدوا معه ملعقة فضية تخصه.

بيد أن الجزء الذي كان أكثر ذوبانًا من الآخرين هو جزء الأسرى، لم يبقَ من الثلاثمائة أسير الذين غادروا موسكو أكثر من مائة، كانوا يضايقون المواكبين أكثر مما كان يضايقهم متاع جونو ومستودع التجهيزات، فالتجهيزات وملاعق جونو كانت قابلة للاستعمال والاستفادة منها عند الضرورة. ولكن ما فائدة إرغام جنود مجوَّعين يرتعدون بردًا على حراسة روسيين يماثلونهم في الجوع والتأثر من البرد، روسيين كانوا يتجمدون من البرد، وكانت الأوامر تحتم عليهم إطلاق النار على من يبقى منهم في مكانه؟ لم يكن ذلك مستعصيًا على الفهم فحسب بل وكريهًا كذلك، وكأنهم كانوا يخشون أنفسهم في موقفهم الدقيق ذاك أن يأخذهم شعور بالشفقة على الأسرى، فيزيدون بذلك مركزهم الحرج خطورة، لذلك كانوا يجرونهم بقسوة انعدمت فيها الرحمة اطِّرادًا.

وفي دوروجوبوجيه بينما راح الجنود يسلبون مستودعاتهم نفسها، سُجِن الأسرى في إصطبل فحفر بعضهم ثغرة تحت الجدار فروا خلالها، لكنهم أُخِذُوا من جديد وأُعْدِموا.

ولقد أُغْفِل النظام الذي أُقِيم لدى الخروج من موسكو، والذي وجب على الضباط تبعًا له أن يسيروا منفردين عن الجنود، وبات كل من يستطيع التقدم يمشي مع السائرين، وبذلك لم يلبث بيير أن وجد نفسه إلى جانب كاراتاييف والكلب ذي القوائم الملتوية والشعر المائل إلى البنفسجي الذي اعتبر كاراتاييف سيدًا له.

بعد يومين على مغادرة موسكو عادت الحمى إلى كاراتاييف، وكانوا قد أودعوه المستشفى بسببها، وكلما ازداد ضعفه ازداد ابتعاد بيير عنه. لم يدرك بيير السبب الذي

بات يدفعه منذ أن بلغ سوء حالة كاراتاييف مداه إلى بذل مجهود على نفسه للدنو منه، بات بيير الآن كلما سمع أنين كاراتاييف الخافت، الذي اعتاد عليه كلما استراحوا عقب مرحلة، وصافحت خياشيمه الرائحة شديدة النفاذ التي تفوح من جسمه؛ يبتعد عنه حتى كف عن التفكير فيه.

فهم بيير في مبنى السجن، عندما احتك مع الأسرى ليس بعقله بل بكل كيانه، أن الإنسان خُلِق للسعادة وأنه يحمل سعادته في نفسه في إرضاء نزعاته الطبيعية، وأن كل شقاء يصيبه سببه نقص أو زيادة في ذلك الإرضاء. أما الآن بعد هذه الأسابيع الثلاثة من المشي فقد حصل على حقيقة جديدة مُعَزِّيَة: اكتشف أنه لا يوجد في العالم شيء مريع حقًّا، واكتشف بنفس الوقت أنه إذا لم يكن هناك موضع يكون فيه الإنسان سعيدًا وحرًّا سعادة وحرية كاملتين، فإنه كذلك لا يوجد مكان يكون فيه شقيًّا وأسيرًا شقاءً وعبودية كاملَتْين.

فهم أن هناك حدًّا للألم وحدًّا للحرية وأن هذه الحدود تتلاقى، وأن الرجل الذي يتألم وهو على سرير من الورد لأن إحدى البتلات قد انثنت تحته يتألم مثل ما يتألم هو الآن وهو الذي ينام على الأرض الرطبة العارية وجسده متجمد من جانب ودافئ من الجانب الآخر، وأنه يتألم الآن لأنه دون أحذية — إذ استُبْعِدت أحذيته من الاستعمال منذ أمد طويل — على قدمين حافيتين تغطيهما القروح بقدر ما كان يتألم من خُفَّيْه الضيقين، اللذين كان ينتعلهما عند ذهابه إلى الحفلات الراقصة.

فهم أنه عندما تزوج بملء اختياره كما كان يظن لم يكن أكثر حرية مما هو عليه الآن، وهو الذي يحبسونه ليلًا في زريبة، وأنه كل ما بات فيما بعد يعتبره آلاما رغم أنه لم يشغل نفسه بها في حينه، فإن أسوأها مرده قدماه الحافيتان اللتان تغطيهما الجروح والقروح، فلحم الحصان بات في نظره لذيذًا يفتح الشهية، والخلفة التي يتركها ملح البارود المستعمل بدلًا من ملح الطعام في الفم مقبولة طيبة. ولم يكن البرد قارسًا، ففي النهار أثناء السير ينبعث الدفء في الأوصال، وفي الليل تُوقَد النيران، والقمل الذي ينهش الجلود يدفئها. فالشيء الأليم الوحيد الذي كان عسيرًا عليه في البداية كان قدميه.

وفي المرحلة الثانية بينما وهو يتأمل قروحه على وميض النار، فكر بيير أنه لن يستطيع المسير، ولكن عندما شرع الجميع في السير مشى دون ألم رغم أن جروحه باتت مساءً أشد أذى وأبشع للنظر، وحينئذ كف عن تأملها واجتهد في أن يكف عن التفكير فيها.

في تلك الآونة أدرك بيير مدى الاحتمال البشري والقوة المخلصة التي تحول الانتباه، وتعمل في خدمتنا عمل صمامات الأمان التي تطرح الفائض من البخار في المراجل كلما تخطى الضغط الحد الطبيعي.

ما كان يرى أو يسمع إعدام الأسرى المتخلفين رغم أن أكثر من مائة منهم قضَوْا على هذا النحو، وما كان يفكر في كاراتاييف الذي كان ينهار يومًا أكثر من يوم، والذي وجب أن ينتهي يومًا ما على ذلك النحو، بل إنه أصبح أقل تفكيرًا في نفسه، وكلما ازدادت حاله سوءًا ازداد انفصالًا عن كل ما حوله ليجد أكثر عذوبة وعزاء في أفكاره وذكرياته وأحلامه.

الفصل الثالث عشر

حكاية بائع عجوز

في الثاني والعشرين من تشرين الأول كان بيير يرتقي هضبة على طريق موحل زَلِق وهو يتأمل قدميه وخشونة الطريق، ومن حين إلى آخر كان يلقي نظرة حوله على جمهرة رفاقه ثم يحدق في قدميه من جديد. لقد كان كل شيء مطابقًا لنفسه وأليفًا، وكان سيري، الكُلَيْب ذو الشعر البنفسجي، يجري على جانب الطريق ويرفع إحدى خلفيتيه أحيانًا ليظهر براعته، ثم يقفز على الثلاث ثم على أربع ويهجم على الغربان نابحًا وهي على الجيف، لقد كان سيري أكثر مرحًا وأوفر صحة مما كان عليه في موسكو، فاللحم ملقًى في كل مكان — جثث الرجال والجياد — متفاوت التفسخ، ومرور الجنود كان ينفر الذئاب لدرجة تجعل سيري قادرًا على أن يتناول منها مشتهاه.

كان المطر يهطل منذ الصباح، يُخيَّل إلى الناظر في كل لحظة أنه على وشك التوقف وأن السماء ستصفو، لكنه لا يلبث حتى ينهمر أقوى من ذي قبل بعد هدأة قصيرة، ولم يعد الطريق المشبَّع يبتلع أمواهًا جديدة فكانت السواقي تسيل في آثار العجلات.

كان بيير يمشي وهو ينظر حوله، يحصي خطواته ثلاثًا فثلاث وهو يثني أصابعه بعد كل مرة ويقول في سره مخاطبًا المطر: «هيا، هيا، أيضًا، أيضًا.»

كان يظن أنه لا يفكر في شيء، لكن روحه كانت غارقة بعيدًا بتعمق في مكان ما من أفكاره الخطيرة المهدئة، لقد كان ذلك نتيجة فكرية لمحادثة دارت أمس بينه وبين كاراتاييف.

ذلك أن أمس مساء، عند نهاية المرحلة، بينما هو يرتعد بالقرب من نار على وشك الخمود، نهض بيير للاصطلاء قرب النار المجاورة الأكثر شبوبًا، وكان كاراتاييف جالسًا هناك متدثرًا من رأسه إلى قدميه بمعطفه وكأنه في حلة القداس، يروي للجنود بصوته المريض الضعيف ولكن العذب قصة معروفة من بيير. وكان الوقت بعد منتصف الليل

وهي الساعة التي كان من عادة كاراتاييف أن يُصَاب خلالها بنوبة من الحمى، فتنبعث الحيوية في أوصاله ويبلغ حالة من الانفعال خاصة، ولما سمع بيير صوت المسكين وشاهد وجهه المثير للرأفة يضيئه اللهب بشدة، أحس بانقباض في قلبه كريه خشي من شفقته وأراد أن يبتعد، ولكن لم يكن هناك غير هذه النار فأقعى وهو يجتهد ألَّا ينظر إلى بلاتون، سأله: حسنًا، كيف حال صحتك؟

قال كاراتاييف الذي استأنف قصته فور الإجابة: الصحة؟ إن البكاء على المرض يؤدي إلى منع الله من إرسال الموت.

واسترسل وعلى وجهه الهزيل الشاحب ابتسامة، وفي نظرته ومضة فرح خاصة: وها إنه يا عزيزي، ها إنه يا عزيزي …

كان بيير يعرف تلك الحكاية منذ زمن طويل، إذ قصَّها عليه كاراتاييف خمس مرات أو أكثر وبسرور دائم لم يتبدل، لكنه على الرغم من معرفته لها عن ظهر قلب فقد شعر نحوها بجاذبية الأشياء الجديدة، إذ انتقل الحماس القرير الذي بدا جليًّا على كاراتاييف إلى روحه. إنها حكاية بائع عجوز يعيش مع أسرته في النزاهة وخشية الله، مضى ذات يوم مع أحد رفاقه الأغنياء وهو بائع مثله إلى معرض ماكارييه، اسم معرض نيجني-نوفجورود الشعبي.

نزل البائعان في خان وناما، ولكن الغني وُجِد صباح اليوم التالي مقتولًا مسلوبًا واكتُشِف السكين الملوث بالدم تحت وسادة البائع العجوز، فحاكموه وساموه عذاب الضرب وانتزعوا له أنفه كما يقتضيه النظام القائم حينذاك — على حد تعبير كاراتاييف — وأرسلوه إلى سجن الأشغال الشاقة.

وها إنه يا عزيزي (ووصل بيير عند هذا الجزء من الحكاية) يقضي هناك أكثر من عشر سنين، والعجوز لا يزال في سجنه الأليم يخضع كما يجب له أن يخضع دون أن يسيء إلى أحد، لكنه يطلب إلى الله فقط أن يدعه يموت. حسنًا … وذات ليلة، ها إن المحكومين يجتمعون، مثلنا هنا، ومعهم العجوز، ويشرع كل منهم في رواية السبب الذي حُكِم عليه من أجله للآخرين، ولماذا هو مذنب أمام الله. كان كلٌّ يروي قصته، فهذا قتل نفسًا وذاك اثنين وثالث أشعل النار في مكان ورابع مملوك هارب حُكِم عليه دون جريرة، ثم سُئِل: «وأنت يا جداه، لماذا أنت هنا؟» فقال: «آه! يا إخواني الأعزاء، إنني أتألم لخطاياي ولخطايا الآخرين، لأنني لا أحمل وزر نفسي على ضميري ولم آخذ مال الغير، بل إنني تقاسمت ما معي دائمًا مع إخواني التعساء. إنني بائع يا إخواني الأعزاء،



دنيس دافيدوف.

ولقد كنت واسع الغنى.» وإذا به يروي لهم القصة كلها، قال لهم حكايته من طرف إلى طرفها الآخر، وقال: «إنني لا أشكو من أجل نفسي، إنني أنا الذي اختاره الله لأكفِّر عن خطيئات الناس. لكن شيئًا واحدًا يؤلمني، هو زوجتي العجوز وأولادي.» وها هو ذا ينخرط في البكاء، وها إنه في عداد الجماعة الرجل إياه الذي قتل البائع، سأل: «جداه، أين وقع الحادث؟ متى وفي أي شهر؟» سأل كل التفاصيل وآلمه قلبه، اقترب هكذا من العجوز وسقط على قدميه، وقال: «بسببي أنا، أيها العجوز الطيب، تتألم أنت! أيها الرفاق، إنها الحقيقة الحقة، هذا الرجل يتألم دون سبب، إنني أنا مرتكب الحادث، وأنا الذي وضعت تحت رأسه السكين الملوث بالدماء! سامحني يا جداه، سامحني محبة بالمسيح!»

وصمت كاراتاييف وراح يرتب الحطب في النار وهو يحدق في اللهب وعلى وجهه ابتسامة سعيدة.

استأنف كاراتاييف الكلام وقد أشرق وجهه أكثر من ذي قبل بابتسامة ظافرة، وكأن ما بقي عليه أن يرويه من القصة كان الجزء الأكثر أهمية وتعبيرًا فيها:

وقال العجوز: «إنه الله الذي سيغفر لك، أما نحن جميعنا فإننا خاطئون أمامه. وأنا، إنني أتألم من أجل خطاياي»، وها هو ذا يبكي بدموع حارة. وماذا تظن يا صقري الصغير؟ ماذا تظن يا صقري الصغير؟ لقد ذهب القاتل يشيء بنفسه إلى السلطات بنفسه، قال: «لقد قتلت ستة أشخاص — وكان قاتلًا كبيرًا — لكن ما يدخل الأسف إلى قلبي أكثر من سواه هو هذا العجوز المسكين، لا يجب أن يبكي بسببي!» لقد وشى بنفسه إذن، فكتبوا ورقة وأرسلوها كما يقتضي الحال، وكان المكان بعيدًا فاستغرقت وقتًا طويلًا قبل أن يلتئم شمل المحكمة وتصدر الحكم وتكتب الأوراق اللازمة من سلطات إلى سلطات، وبلغ الأمر أعتاب القصر، وأخيرًا وأخيرًا وصل أمر القيصر: ليُطلَق سراح البائع، وليُصرَف له التعويض حسب القرار. وأُرسِلت الورقة فبحثوا عن العجوز: «أين العجوز الذي حُكِم عليه ظلمًا؟ إن ورقة القيصر هنا» بحثوا عنه — وهنا ارتعدت ذقن كاراتاييف — لكن الله كان قد غفر له قبل ذلك إذ كان قد مات. وأعقب كاراتاييف مستنتجًا: وهذا يا صقري العزيز هو ختام القصة.

وراح يحدق طويلًا في الفضاء أمامه وعلى شفتيه ابتسامة صامتة.

ولم تكن القصة نفسها بل معناها الخفي التمجيد المشرق الذي ينير وجه كاراتاييف وهو يرويها، ذلك المعنى الخفي لتلك البهجة هو الذي كان الآن يملأ بيير ارتياحًا غامضًا حلوًا.

الفصل الرابع عشر

مقتل كاراتاييف

وفجأة صاح صوت: «إلى أماكنكم!» وسرت بين الأسرى وجنود الموكب بلبلة بهيجة، وراحوا جميعًا ينتظرون شيئًا ما سعيدًا جليلًا. تناهت الأوامر من كل مكان، وإلى يسار الفصيلة ظهر فرسان على جياد مطهمة مجهزة أفضل تجهيز تَخَطَّوا الأسرى، واتخذت الوجوه كلها ذلك التعبير الملزم الذي يفيض على وجوه الناس لدى دنوِّ شخصيات رفيعة المقام، وجُمِع السجناء ودُفِعُوا بعيدًا عن الطريق، واصطف الحرس المُوَاكِب: الإمبراطور! الإمبراطور! الماريشال! الدوق!

وما إن عُرِض الرجال الذين ينعمون بأفضل تغذية والذين كانوا يشكلون الحاشية، حتى وصلت عربة «تجرها ستة جياد شهباء مثنى مثنى»، محدثة قعقعة مرتفعة. وشاهد بيير في طرفة عين وجهًا ضخمًا شاحبًا منتفخًا لرجل على رأسه قبعة ثلاثية الزوايا، كان واحدًا من الماريشالات، ولقد حطت نظرة ذلك الرجل العظيم على هيكل بيير الضخم، فخُيِّل لهذا أنه رأى في طريقة تغطية حاجبيه وإشاحته برأسه عنه تعبيرًا بالإشفاق عليه أراد إخفاءه.

وكان الجنرال الذي يقود القافلة أحمر الوجه مذعور التقاطيع، يدفع حصانه المهرول خببًا وراء العربة، واجتمع بعض الضباط واحتشد حولهم الجنود ووجوههم جميعًا تنطق بالقلق والتوتر.

سمع بيير: ماذا قال؟ ماذا قال؟

وعند مرور الماريشال جُمِع الأسرى، فشاهد بيير كاراتاييف الذي لم يكن قد رآه بعد ذلك الصباح. كان كاراتاييف جالسًا في معطفه القذر مستندًا إلى شجرة سندر ووجهه الذي ظل محتفظًا بتحنان العيشة العذب، عندما كان يروي قصة آلام البائع البريء، يشع بالهدوء والإشراق أكثر من ذي قبل.



مقتل قائد الفصيل كاراتاييف.

كان كاراتاييف يتأمل بيير بعينيه الطيبتين المستديرتين المخضلَّتين بالدموع، ويحاول بشكل ملموس أن يستقدمه إليه ليقول له شيئًا ما، لكن بيير كان شديد الخوف على نفسه لذلك فقد تصرف وكأنه لم يرَ تلك النظرة، وبادر إلى الابتعاد.

وعندما استأنف الأسرى المسير ألقى بيير نظرة إلى الوراء، كان كاراتاييف جالسًا حيث كان إلى جانب الطريق مستندًا إلى شجرة السندر ذاتها وإلى جانبه فرنسيان يتحدثان وهما يشيران إليه، فلم يستزد بيير من النظر وراح يرتقي المرتفع وهو يعرج في مشيته.

وفي المؤخرة، في المكان الذي كان كاراتاييف جالسًا فيه، دوَّى طلق ناري، ولقد سمع بيير الانفجار بوضوح، لكنه تذكر في اللحظة نفسها أنه لم يفرغ بعد من حساب المراحل إلى سمولنسك، ذلك الحساب الذي بدأ فيه قبل مرور الموكب، فعاد إلى الإحصاء من جديد. ومر جنديان فرنسيان من أمامه وهما يجريان وفي يد أحدهما بندقية ما زال الدخان ينبعث منها، كانا شاحبين كلاهما وفي قسمات وجهيهما — عندما ألقى أحدهما عليه

نظرة مذعورة — وجد بيير لونًا مما شاهده على وجه الجندي الشاب عند إعدام مشعلي الحرائق، نظر بيير إلى ذلك الجندي فعرف فيه ذاك الذي أمس الأول أحرق قميصه وهو يجففه أمام النار، وتذكر أنه سخر منه.

فظل كلب يزمجر في المكان الذي ظل فيه كاراتاييف، ففكر بيير: «يا للغبي! لماذا يعوي هكذا؟!»

أما الجنود والرفاق الذين كانوا يسيرون إلى جانبه، فإنهم لم يلتفتوا هم كذلك إلى المكان الذي دوَّت فيه الطلقة النارية ثم ارتفع منه عواء الكلب، لكن الوجوه كلها اتسمت بميسم صارم.

الفصل الخامس عشر

الخلاص

توقفت قافلة التجهيزات والأسرى وأمتعة الماريشال في قرية شامشيفو، واجتمع الأشخاص كلهم حول المعسكرات. اقترب بيير من إحدى النيران، وأكل قطعة من لحم الحصان، ثم اضطجع وظهره إلى النار ولم يلبث أن أغفى، لقد نام بمثل تلك السِّنة التي استولت عليه في موجائيسك بعد بورودينو.

ومن جديد اختلطت الوقائع الحقيقية بحلمه. ومن جديد أخذ صوت، صوته أو صوت آخر، يشرح له الآراء، تلك الآراء نفسها التي واتته في موجائيسك: إن الحياة هي كل شيء، الحياة هي الله، كل شيء يتحرك ويتحول وهذه الحركة هي الله، وطالما بقيت الحياة تبقى سعادة حمل الشعور بالله في أعماق النفس، وحب الحياة هو حب الله، والأكثر صعوبة الأكثر جزاء وثوابًا هو حب الحياة بآلامها، بألمها الظالم.

وتذكر بيير كاراتاييف.

وفجأة وكأنه ما زال على قيد الحياة عاد يرى الكهل اللطيف الصغير، لم يعد يفكر فيه منذ أمد طويل، والذي كان يعلمه الجغرافيا في سويسرا. قال له الكهل الصغير: «انتظر»، وأراه كرة أرضية، كانت تلك الكرة حية تتذبذب دون أن يكون لها محيط دقيق، لقد تشكلت مساحتها كلها من قطرات من الماء شديدة الالتصاق بعضها ببعض، وهذه القطرات كانت تتحرك وتبدل مكانها، فتارة يختلط عدد منها في قطرة واحدة، وطورًا كانت واحدة تنقسم إلى ملايين أخرى، وكانت كل قطرة تحاول أن تنتشر وأن تشغل أكبر حيز ممكن، لكن القطرات الأخرى كانت تعمل مثل ذلك فتضغطها تارة وتحذفها تارة أخرى وتختلط معها.

قال المدرس العجوز: هذه هي الحياة.

فكر بيير: «كم هي بسيطة وواضحة! كيف لم أدركها من قبل؟» إن الله في الوسط، وكل قطرة تحاول أن تتمدد كي تعكسه على أوسع مدى ممكن، وهي تكبر وتنبسط ثم تنقبض وتختفي عن السطح وتنزل إلى الأعماق ثم تصعد من جديد، إنها مثل كاراتاييف لقد انبسط ثم اختفى. هل فهمت يا ولدي؟ هكذا كان يقول المدرس العجوز.

وصاح صوت أيقظ بيير: هل فهمت يا ...!

نهض وجلس أمام النار، كان جندي فرنسي مشمر عن أكمامه قد دفع لتوه جنديًّا روسيًّا، وجلس القرفصاء ليشوي قطعة من اللحم على طرف قضيب بندقية، وكانت يداه الحمراوان الشعرانيتان بعروقهما المنتفخة وأصابعهما القصيرة المتينة تديران القضيب وتبرمانه بمهارة على النار، ووجهه البرونزي الداكن ذو الحاجبين المزوِيَّيْن كان مُضَاء بشدة أمام الجمر المحترق.

غمغم وهو يخاطب بحماس جنديًّا واقفًا وراءه: ذلك سيان عنده، يا للص! هه!

وراح الجندي الذي يدير القضيب على النار يلقي على بيير نظرة قائمة، فأشاح بيير وحدَّق في الظلام. وكان أحد الأسرى، ذلك الذي دفعه الجندي الفرنسي ليجلس مكانه، جالسًا أمام النار يربت على شيء بيده، فلما أمعن بيير النظر شاهد الكلب ذا الشعر البنفسجي يبصبص بذنبه وهو جالس قرب الجندي.

قال بيير: آه! هل عاد؟

وشرع يقول: وبلا ... لكنه لم يعقب.

وفجأة تمثل في خياله بآن واحد النظرة التي ألقاها بلاتون عليه وهو جالس تحت شجرته، والطلقة النارية التي سمعها تنبعث في ذلك المكان، وعواء الكلب، ووجها الفرنسيَيْن المجرمَيْن اللذان تجاوزاه راكضَيْن، والبندقية ذات الدخان، وغياب كاراتاييف خلال تلك المرحلة؛ فاستعد لاستيعاب الحقيقة، حقيقة أن التَّعِس قد قُتِل. ولكن بنفس الوقت، ومن مكان لا يعرفه إلا الله، انبعثت في نفسه ذكرى السهرة التي قضاها مع بولونية حسناء ذات صيف في شرفة داره في كييف، مع ذلك فقد أغمض بيير عينيه دون أن يربط بين هذه الذكرى وذكريات ذلك النهار ودون أن يستخلص منها شيئًا. ولم تلبث لوحة من الطبيعة الصائفة أن استلهمت في ذهنه متعة الاستحمام والمحيط السائل الرَّجْرَاج، وعندئذٍ انزلق في مكان ما من الماء وانغمر فيه لدرجة أن الماء غمره وأطبق على رأسه.

أُوقِظ قبل انبثاق الفجر بلعلعة الرصاص والأصوات الصاخبة، وكان الفرنسيون يجرون أمام بيير.

صاح أحدهم: القوقازيون!

ولم يلبث بيير أن أُحِيط بعدد من الوجوه الروسية.

ولقد ظل طويلًا قبل أن يدرك ما وقع، كان رفاقه من كل صوب يطلقون صرخات البهجة.

كان جنود كهول يصيحون وهم يبكون ويعانقون بين أذرعهم الفرسان والقوقازيين: إخواني! أصدقائي الأعزاء! الرفاق!

أحاط الفرسان والقوقازيون بالأسرى، وراحوا يمنحونهم الثياب والأحذية والخبز، وكان بيير الجالس بينهم ينتحب عاجزًا عن النطق بكلمة، ضم إليه أول جندي قابله وقبَّله وهو يبكي.

جعل دولوخوف الواقف قرب بوابة الدار المتهدمة يسير أمامه جماعة الفرنسيين الذين انْتُزِعت أسلحتهم، وكان هؤلاء وقد اضطربوا لما وقع لهم فجأة يتحدثون فيما بينهم بصوت عالٍ، لكنهم إذا ما بلغوا مكان دولوخوف الذي كان يسوط ساق حذائه بضربات خفيفة من سوطه، ويتأملهم بنظرة زجاجية باردة لا تمنِّي بشيء طيب؛ كانت أصواتهم تخبو. وكان قوقازي دولوخوف واقفًا إلى الجانب الآخر من البوابة يحصي الأسرى، ويشير إلى المئات بخط بالحكك يرسمه على ضلفتي الباب، سأله دولوخوف: كم؟

أجاب القوقازي: إننا في المائة الثانية.

ردد دولوخوف وقد تعلم هذه العبارة من الفرنسيين: سيروا، سيروا!

وكانت نظرته إذا ما صافحت الأسرى المارين أمامه تلتمع بوميض وحشي، أما دينيسوف فكان يمشي عاري الرأس وراء القوقازيين، الذين يحملون جثمان بيتيا روستوف ليوروه حفرة نبشوها في حديقة البيت، ووجهه كئيب.

الفصل السادس عشر

تقرير برتييه

اعتبارًا من الثامن والعشرين من تشرين الأول اتخذ تقهقر الفرنسيين في موسم الرياح والطقس البارد طابعًا أكثر إفجاعًا، فبعضهم أخذ يتجمد أو يصطلي النار حتى يموت حول النيران، والبعض الآخر يتابع الطريق في معاطف الفراء وفي العربات الخفيفة حاملًا أسلاب الإمبراطور والملوك والدوقات، لكن انحلال الجيش الفرنسي وانهزامه ظلا يتبعان سيرهما الطبيعي دون أن يتغير طابعهما.

بين موسكو-فيازما لم يبقَ من هذه الألوف الثلاثة والسبعين من رجال الجيش باستثناء رجال فرق الحرس، وهؤلاء لم يعملوا شيئًا طيلة الحرب غير النهب، لم يبقَ من هذه الألوف من الجنود أكثر من ستة وثلاثين ألفًا، ومن هؤلاء المفقودين لم يزد عدد الذين سقطوا في المعارك على الخمسة آلاف رجل بحال، هذه هي المعادلة الأولى من المسألة الطَّرْدية، ولقد حُدِّد حسابيًّا المعادلات التالية. لقد ذاب الجيش الفرنسي وباد بمثل تلك النسبة من موسكو إلى فيازما ومن فيازما إلى سمولنسك ومن سمولنسك إلى بيريزينا ومن بيريزينا إلى فيلنا، كل ذلك دون أن يكون للبرد الشديد القارس أو الخفيف أو لمطاردة الروسيين أو للعقبات في الطريق وكل الظروف الطارئة الخاصة أي دخل في الأمر. لم يعد الجيش الفرنسي بعد فيازما والصفوف الثلاثة المنظمة يشكل غير قطيع، ولقد ظل كذلك حتى النهاية. ولقد كتب برتييه إلى مولاه ما يلي (وإننا نعرف مبلغ ما يسمح به لأنفسهم الرؤساء الذين يكتبون عن حالة جيش من تحوير للحقائق):

> أظن أن من واجبي إطلاع جلالتكم على حالة قطعاتكم في مختلف وحدات الجيش، تلك الحالة التي اطلعت عليها بنفسي منذ يومين أو ثلاثة أيام في مختلف المراحل، إنها تكاد أن تكون مشتتة، وعدد الجنود الذين يتبعون العلم في القطعات لا يكاد يبلغ ربع مرتبات القطعة، أما الباقون فيسيرون منفصلين

في وجهات مختلفة وبحسب رأيهم، آملين العثور على أرزاق له، ساعين إلى التخلص من الطاعة للنظام، إنهم على العموم يجدون أن سمولنسك هي النقطة التي يجب أن يعيدوا تنظيمهم فيها. ولقد لوحظ خلال الأيام الأخيرة هذه أن كثيرًا من الجنود يلقون بأسلحتهم وذخيرتهم، وفي مثل هذه الحال تتطلب مصلحة خدمة جلالتكم مهما كانت وجهات نظركم الأخرى أن يُعَاد تنظيم الجيش في سمولنسك باستبعاد غير المقاتلين من الرجال بادئ الأمر، كالذين فقدوا أجيادهم وتجهيزاتهم، والاستغناء عن الأمتعة غير المجدية وأعتدة المدفعية التي لم تعد متناسبة مع القوى الحاليَّة، أضف إلى ذلك أن من الضرورة تأمين الأرزاق أيام الاستراحة للجنود الذين أنهكهم الجوع والتعب، إذ إن كثيرًا منهم ماتوا خلال الأيام الأخيرة في الطريق أو في المعسكرات. إن حالة الأمور هذه آخذة بالازدياد، وتجعلنا نخشى في حالة عدم إيجاد دواء سريع حازم ألَّا نسيطر على القطعات بعد الآن في القتال. في التاسع من تشرين الثاني، على بعد ثلاثين ميلًا من سمولنسك.

وبينما الفرنسيون يندفعون في سمولنسك التي كانت بالنسبة إليهم الأرض الموعودة، أخذوا يتذابحون للحصول على الأرزاق، وراحوا ينهبون مستودعاتهم الشخصية، ولما أتلفوا ونهبوا كل شيء انطلقوا فارِّين إلى أبعد منها.

كانوا جميعهم يسيرون دون أن يعرفوا لماذا وإلى أين يذهبون، ونابليون نفسه بكل عبقريته لم يكن يعرف ذلك أفضل منهم طالما أنه لم يكن يتلقى الأوامر من أحد، مع ذلك فإنه والمحيطين به ظلوا مستمرين في إصدار التعليمات والرسائل والتقارير والأوامر اليومية، ويعامل بعضهم بعضًا بقولهم: «مولاي، ابن عمي، الأمير ديكموهل، ملك نابولي» وهلمَّ جرًّا. لكن التعليمات والتقارير لم يكن لها من وجود إلا على الورق، فلم يكن أحد يفكر في تنفيذها لأنها كانت ممتنعة التنفيذ. وعلى الرغم من الألقاب الضخمة التي كانوا يتبادلونها: عظمتكم، سموكم، أخي، كانوا جميعًا يشعرون بأنهم صعاليك يستحقون الشفقة، وأنهم كثيرًا ما أساءوا، وأنهم سيُرغَمون على تقديم حساب عما فعلوا. وبذلك فإن ما من أحد منهم، رغم تظاهره بالاهتمام بشئون الجيش، كان يهتم بغير نفسه وبالوسائل الممكنة لإنقاذ جلده بأسرع ما يمكن.

الفصل السابع عشر

في النَّزْع

كانت تحركات القطعات الروسية والفرنسية خلال التراجع عن موسكو حتى النييمن تشبه لعبة «التغماية»، عندما يكون لاعبان معصوبَي العيون فيحرك أحدهما من حين إلى آخر جرسه لينبه الذي يريد أن يمسك به. ففي بادئ الأمر يخطر اللاعب الذي يجب أن يُمْسِك به دون وجل خصمه، لكنه عندما يشعر بأنه أصبح في مركز حرج يحاول جاهدًا ألَّا يثير أية ضجة كي يتمكن من الإفلات، وهو غالبًا في هذه الحالة يندفع مباشرة بين ذراعي العدو وفي ظنه أنه يتحاشاه.

ففي البداية كانت جيوش نابليون لا تزال تعلن عن وجودها، وكانوا حينذاك في مرحلة التقهقر الأولى على طريق كالوجا، ولكن فيما بعد عندما بلغت الجيوش طريق سمولنسك راحت تجري منهزمة وهي تمسك بيدها مطرقة الجرس كي لا يدق، وتمضي غالبًا إلى الاصطدام بالروسيين وهي تعتقد أنها أفلتت منهم.

وكانت سرعة تقهقر الفرنسيين ومطاردة الروسيين تنهك الجياد، لدرجة أن الوسيلة الرئيسية للاستعلام تقريبًا عن وضعية العدو — دوريات الفرسان الاستكشافية — لم يعد لها وجود. على أية حال كانت المعلومات أيًّا كانت لا تصل في حينها، بسبب التغييرات الكثيرة السريعة في مواقع الجيشين، فإذا عُلِم مثلًا في اليوم الثاني من الشهر أن جيش العدو كان في اليوم الأول منه في مكان كذا، فإن ذلك الجيش في اليوم الثالث من الشهر، في حين يمكن عرفًا القيام بنشاط ما، يكون قد أصبح على بعد مرحلتين وفي موقع آخر مختلف كل الاختلاف.

كان جيش يجري وآخر يتبعه، وابتداء من سمولنسك كان الفرنسيون قادرين على الاختيار بين طرق عديدة، وكان يُظنُّ أنهم بعد أن مكثوا في تلك المدينة أربعة أيام يعرفون مكان العدو، فيعدون خطة لصالحهم ويشرعون في حملة جديدة. ولكن بعد هذه الأيام

الأربعة من التوقف عاد قطيعهم إلى الفرار، ليس إلى اليمين ولا إلى اليسار ولكن دون أي خطة للتحركات، عبر الطريق الذي شقوه من قبل طريق كراسنواييه وأورشا القديم وأسوأ كل الطرق.

ولما كانوا يتوقعون أن يكون العدو وراءهم وليس أمامهم، فإن الفرنسيين كانوا يفرون مسرعين تاركين بين مختلف وحدات جيشهم مسافات تُقطَع في أربع وعشرين ساعة مشي، وعلى رأسهم جميعًا كان الإمبراطور يفر ثم الملوك ثم الدوقات. ولما كان الجيش الروسي يعتقد أن نابليون سيتجه يمينًا ليجتاز الدنيبر، وهو التصرف المعقول الوحيد، فقد اتجه نحو ذلك الاتجاه وبلغ طريق كراسنواييه الكبير. وهناك كما في لعبة «التغماية» جاء الفرنسيون فاصطدموا بطلائعنا، ولما كشفوا العدو بغتة تجزَّأ الفرنسيون وتوقفوا ثم فروا وقد استبد بهم ذعر قاتل، تاركين وراءهم الجيش الذي يتبعهم. وخلال ثلاثة أيام ظلت قطعات الجيش الفرنسي تمر بين وحدات الجيش الروسي كما يمر محكوم بالجلد بين صفوف الجلادين: مرت أولًا جمهرة نائب الملك، ثم جمهرة دافو فجمهرة ني، وكانت جميعها تهجر إحداها الأخرى، تاركة وراءها المدفعية والأمتعة الثقيلة ونصف رجالها، وتحاول في فرارها ليلًا أن تتجنب الروسيين بإجراء أنصاف دوائر إلى اليمنيين.

ولقد كان ني آخر السائرين، «لأنه على الرغم من ذلك الموقف الميئوس منه، أم لعله بسببه، أراد الفرنسيون أن يعاقب تلك الأرض التي سببت لهم كل ذلك الألم، فجاء ني ينسف جدران سمولنسك التي لم تكن تعيق أحدًا.» وإذن كان ني آخر السائرين بجمهرته التي يبلغ عدد رجالها عشرة آلاف مقاتل، ولقد لحق بنابليون في أورشا وليس معه أكثر من ألف رجل بعد أن بعثر قطعاته ومدافعه في مشي ليلي عبر الغابات ليجتاز الدنيبر سرًّا.

ومن أورشا ظلوا يفرون باتجاه فيلنا، وهم يلعبون أبدًا لعبة «التغماية» مع الجيش الذي كان يطاردهم. ومن جديد عاد التشوش في بيريزينا، لقد غرق منهم كثيرون واستسلم كثيرون، ثم استأنف الذين استطاعوا اجتياز النهر عدْوَهم إلى الأمام، ولقد ارتدى رئيسهم الكبير فراءه واستقل الزحَّافة، ثم مضى بأقصى سرعة تاركًا رفاقه، ولقد فر من استطاع الفرار أما الباقون فقد استسلموا أو ماتوا.

الفصل الثامن عشر

آراء المؤرخين

إزاء هذا الجري السريع من جانب الفرنسيين المستعدين للشروع في كل شيء قمين بضياعهم، وفي الوقت الذي لم تكن أية حركة من حركات هذا الحشد ابتداءً من طريق كالوجا وحتى فرار رئيسه، تدل على بادرة من بوادر التعقل؛ كان يُعتقَد أنه يستحيل على المؤرخين الذين يعزون حركة الجماعة إلى مشيئة شخص واحد، في هذه الحقبة من الحملة على الأقل، أن يقيموا الدليل على نظريتهم في مثل هذا الانحدار. ولكن أبدًا، لقد كُتبَت جبال من الكتب عن هذه الحملة، وفي كل منها يصرون على التدابير التي اتخذها نابليون وعلى عمق خططه، و«المناورات» التي كانت تسيِّر حركات قطعاته، واستعدادات ماريشالاته العباقرة وتدابيرهم.

وتقهقر نابليون ابتداءً من مالواياروسلافيتز، حيث كان يستطيع بلوغ بقاع غنية بالأرزاق الوافرة، سالكًا ذلك الطريق الآخر الموازي للذي كان يسهل عليه سلوكه، والذي طارده كوتوزوف فيما بعد فيه، ذلك التقهقر العقيم على طول طريق مخرَّب وإقليم منهوب؛ يُفسَّر لنا بسعة علم مختلفة عميقة. وباسم المعرفة الواسعة المماثلة في العمق أيضًا يصفون لنا تقهقره من سمولنسك إلى أورشا ... وبعد ذلك يصفون لنا كذلك بطولة نابليون في كراسنواييه، حيث كما يزعمون كما هو على أهبة خوض المعركة يروح ويجيء وفي يده عصاه من خشب السندر ويقول: كفاني ما كنت إمبراطورًا، لقد أزف الوقت لأعمل جنرالًا.

الأمر الذي لم يمنعه بعد ذلك بقليل من الفرار، تاركًا حطام جيشه المبعثر الذي ظل في المؤخرة لرحمة المصير.

وهم يصفون لنا كذلك بسالة الماريشالات، وبصورة خاصة بسالة الماريشال ني، وهي البسالة التي تقوم على أساس القيام بحركة دائرية واسعة خلال الليل في الغابة

لاجتياز الدنييبر والفرار نحو أورشا دون أعلامه، دون مدفعيته، خاسرًا تسعة أعشار جنوده.

حتى فرار الإمبراطور العظيم النهائي تاركًا جيشه الباسل، صُوِّر لنا من قبل المؤرخين بوصفه بادرة من بوادر العظمة والعبقرية. حتى تلك البادرة، ذلك الفرار الذي يُسمَّى في كل اللغات البشرية منتهى النذالة، هذه البادرة التي نعلِّم الصغار أن يخجلوا منها، تجد في لغة المؤرخين ما يبررها.

وعندما يستحيل عليهم أن يزيدوا في مد خيط مناقشاتهم المرن، عندما يكون الفعل شديد المناقضة لما تعتبره الإنسانية جيدًا بل وعادلًا؛ يجنح المؤرخون إلى تعبير العظمة الذي ينقذ كل شيء، والعظمة تبدو في نظرهم نافية لإمكانية قياس الخير والشر، والشر لا وجود له بالنسبة إلى من هو عظيم، ولا يمكن قط لأية بشاعة ما أن تُعزَى كجرم إلى ذلك الذي يكون عظيمًا.

يكرر المؤرخون «هذا عظيم!» ومنذ ذلك الحين بدلًا من الخير والشر يقوم ما هو عظيم وما هو غير عظيم، فما هو عظيم جيد وما هو غير عظيم سيئ، وأن يكون عظيمًا في نظرهم هو ما هو خاص بأولئك الأشخاص الاستثنائيين الذين يسمونهم أبطالًا. ونابليون المتدثِّر بفرائه الدافئ يعود إلى بيته تاركًا لمصيرهم المحتوم ليس رفاقه في السلاح فحسب، بل — حسب اعترافه نفسه — أشخاصًا جرهم هو إلى هناك، وهو يشعر أن هذا عظيم وضميره بالتالي مطمئن.

كان يقول: «ليس بين الإعجاز — وكان يرى في نفسه شيئًا من الإعجاز — ومحط السخرية إلا خطوة واحدة»، فردد العالم خلال خمسين عامًا: «إعجاز عظيم! نابليون العظيم! ليس بين الإعجاز ومحط السخرية إلا خطوة واحدة.»

ولم يخطر على بال أحد أن وضع العظمة خارج قواعد الخير والشر إنما هو اعتراف بصغارها الذي لا يُقدَّر، بعدمها ليس إلا.

بالنسبة إلينا نحن الذين تلقينا عن المسيح مقياس الخير والشر لا يوجد مقياس غيره لهما، ليس هناك عظمة حيث لا محل للبساطة والخير والعدالة.

الفصل التاسع عشر

أسئلة وأجوبة

أي روسي قرأ وصف الحقبة الأخيرة من حمله عام ١٨١٢ ولم يشعر بالحزن المصحوب بالغضب وبالتبرم والخزي؟ من الذي لم يطرح هذه الأسئلة: كيف لم يُطبِقوا على هؤلاء الفرنسيين كلهم ولم يبيدوهم، وثلاثة جيوش تفوقهم بالعدد تفوقًا كبيرًا كانت تحيط بهم؟ كيف والفرنسيون المشتتون المجوَّعون النافقون من البرد كانوا يستسلمون كتلًا، وهدف الروسيين — كما يروي لنا التاريخ — كان يقوم على إيقافهم وعزلهم وأسرهم جميعًا؟

كيف جرى وخاض الجيش الروسي عندما كان أضعف عددًا من الجيش الفرنسي معركة بورودينو، في حين أن هذا الجيش بالذات عندما أصبح يطوق الفرنسيين من ثلاث جهات سعيًا وراء قصد واحد لم يبلغ هذا القصد؟ هل يُعقَل أن يكون الفرنسيون حينذاك على تفوق هائل حتى إنهم بعد أن طوقناهم بقوات ساحقة لم نستطع القضاء عليهم؟ كيف أمكن لشيء من هذا القبيل أن يقع؟

التاريخ (أو على الأقل ما يطلقون عليه هذا الاسم) يجيب على هذه الأسئلة قائلًا: إن ذلك وقع لأن كوتوزوف وتورماسوف وتشيتشاجوف وهذا أو ذاك لم يعملوا هذه أو تلك من «المناورات».

ولكن لماذا لم يجروا هذه «المناورات»؟ لماذا لم يحاكموهم ويحكموا عليهم إذا كانوا مذنبين لعدم بلوغهم الهدف المقصود؟ وإذا تقبلنا أن هذا «الإخفاق» من جانب الروسيين معزُوٌّ إلى كوتوزوف وتشيتشاجوف … إلخ، فإننا مع ذلك لا ندرك لماذا لم يُؤْسَر الجيش الفرنسي كله بماريشالاته وملوكه وإمبراطوره في كراسنواييه وببيريزينا والجيش الروسي كان هناك على ما نعرفه من تفوق ساحق في كلتا الحالتين، طالما أن ذاك كان هو الهدف المنشود.

إن تفسير هذه الواقعة الغريبة، كما يقدمه المؤرخون العسكريون الروسيون، هو أن كوتوزوف كان يعارض في الهجوم، لكن هذا التفسير لا تقوم له قائمة طالما أننا نعلم أن إرادة كوتوزوف لم تستطع منع الجيش من الهجوم في فيازما وتاروتينو.

فلماذا إذن هُزِم ذلك الجيش الروسي الذي ربح معركة بورودينو رغم قواته الضعيفة على أعداء في أوج قوتهم، هُزِم في كراسنوايبه وبيريزينا رغم تفوقه العددي الساحق أمام قطيع من الفرنسيين المشردين المشتَّتين؟

إذا كانت غاية الروسيين قطع خط التقهقر على الفرنسيين وأسر نابليون وماريشالاته، يجب أن نتقبل إذن أن هذا الهدف لم يظل ممتنعًا عن المنال فحسب، بل وأن المجهودات التي بُذِلت في كل مرة لبلوغه تحطمت على أكثر ما يدعو إلى الخجل من الصور. وحينئذ يجب القول إن الحقبة الأخيرة من الحملة كانت بالنسبة إلى الفرنسيين سلسلة انتصارات، ويكون المؤرخون الروسيون والحالة هذه مخطئين تمامًا إذا اعتبروها نصرًا لنا.

إن الكتَّاب العسكريين الروسيين في النواحي التي يتقيدون فيها بالمنطق يبلغون رغمًا عنهم إلى هذه النتيجة، فهم رغم كل ما يغدقونه من الإطراء الشاعري على بسالة الروسيين وتفانيهم ... إلخ، لا يمكن إلا وأن يعترفوا بأن تقهقر الفرنسيين اعتبارًا من موسكو ليس إلا سلسلة من الانتصارات لنابليون ومن الهزائم لكوتوزوف.

لكننا إذا وضعنا الكرامة القومية جانبًا نشعر بتناقض رغم ذلك في هذه النتيجة، طالما أن هذه السلسلة من الانتصارات بالنسبة إلى الفرنسيين قادتهم إلى فناء كامل، وأن سلسلة هزائم الروسيين قادتهم على العكس إلى سحق أعدائهم وإنقاذ وطنهم.

ومبعث هذا التناقض ناشئ عن أن المؤرخين الذين يحللون الأحداث في مراسلة الأباطرة والجنرالات وفي العلاقات والتقارير والخطط، يفرضون هدفًا كاذبًا لم يكن قط موجودًا في الحقبة الأخيرة من حرب عام ١٨١٢، وهذا الهدف الكاذب هو التطويق وأسر نابليون وماريشالاته وجيشه.

لم يكن هذا الهدف قط موجودًا وما كان يمكن أن يوجد، لأنه لم يكن ذا معنى ولم يكن ممكنًا بلوغه قط.

لم يكن ذا معنى في الدرجة الأولى، لأن جيش نابليون المنهزم كان يفر من روسيا بكل السرعة الممكنة، أي إنه كان يعمل تمامًا كل ما كان يتمناه كل روسي، فما فائدة القيام بعمليات ما ضد وحدات تنطلق هاربة بأقصى سرعة؟

وفي الدرجة الثانية كان يستحيل قطع الطريق على رجال ركزوا كل حيويتهم في رغبتهم في الفرار.

وفي الدرجة الثالثة كان من المُنافي للعقل كذلك أن يُسَاق الجيش الروسي إلى الخطر لإبادة الجيوش الفرنسية، التي كانت في طريقها إلى الفناء من تلقاء نفسها دون أسباب خارجية وبسرعة عظيمة، حتى إنها دون أي عائق في الطريق ما كانت تستطيع أن تحمل إلى ما وراء الحدود من الوحدات أكثر مما حملت في شهر كانون الأول، أي واحدًا من مائة من المرتب العام.

وفي المرتبة الرابعة كان من المنافي للعقل السعي إلى أسر الإمبراطور والملوك والدوقات، وهم الشخصيات التي كان أسرها سيسبب للسياسة الروسية أقصى المتاعب، كما اعترف بذلك أفضل دبلوماسيي العصر «جوزيف دوميستر»[1] وآخرون. وأكثر تنافيًا للعقل كذلك الرغبة في أسر قطعات فرنسية كاملة، في الوقت الذي ذاب أكثر من نصف جيشنا أمام كراسنواييه، والذي كان يجب فيه أن يُطرَح من النصف الباقي أفواج كاملة لمواكبة الأسرى. هذا إضافة إلى أن جنودنا ما كانوا ينالون دائمًا جرايتهم كاملة، وأن الجنود الذين كانوا في الأسر قبل ذلك كانوا يموتون من الجوع.

إن كل هذه الخطة التي وجب أن تقوم على أساس قطع خط الرجعة على نابليون والاستيلاء على جيشه، تشبه تمامًا خطة بستاني ما رغب في طرد الماشية التي تعيث في بستانه، فهُرِع إلى الباب وراح يضرب الحيوانات على رءوسها، إن التفسير الوحيد لتصرف هذا البستاني هو غضبه، ولكن لا يمكن أن نعزو مثل هذا الفرض إلى واضعي هذه الخطة، لأنهم لم يتألموا من العبث في بستانهم وإتلافه.

ثم إن قطع خط الرجعة على نابليون وجيشه ليس منافيًا للعقل فحسب بل ومستحيلًا.

إنه مستحيل أولًا للسبب التالي: كما أن التجربة تبرهن على أن حركة القطعات على مساحة خمسة فراسخ في معركة ما لا تتفق مع الخطط الموضوعة سلفًا، كذلك احتمال لقاء بين تشيتشاجوف وويتجنستين في مكان واحد كان من الضعف لدرجة قريبة من الاستحالة. إنه تمامًا رأي كوتوزوف الذي أعلن منذ تلقيه الخطة أن إشغالات بقصد تحويل الانتباه على مسافات كبيرة لا يمكن أبدًا أن تؤدي إلى النتائج المرجوة.

---

[1] جوزيف دوميستر، فيلسوف ديني من شيعة روما، وُلِد في شامبيري عام ١٧٥٣، وتُوفِّي عام ١٨٢١، له مؤلفات كثيرة أشهرها: الباب، وليالي بيترسبورج.

وهو مستحيل في المرحلة التالية، لأنه لكي تشل قوة المقاومة السلبية التي كانت تدفع جيش نابليون إلى الوراء كان يجب أن يكون لدى الروسيين قوات لا تُضاهَى بالتي كانت لديهم.

وكان مستحيلًا في الدرجة الثالثة، لأن التعبير العسكري «قطع جيش» ليس له معنى، يمكن أن يقطع المرء قطعة خبز وليس جيشًا. لا يمكن قطع جيش وأعني قطع الطريق عليه، لأنه يوجد دائمًا في الأماكن المجاورة من الفسحة ما يكفي للالتفاف حول العائق، ولأن هناك الليل الذي تتعذر الرؤية خلاله، وهو الأمر الذي كان يمكن للدكاترة في الفن العسكري أن يقنعوا أنفسهم به، ولو اقتصر ذلك على أمثلة كراسنوايية أو بيريزينا. أضف إلى ذلك أنه يستحيل أسر شخص ما دون موافقته، استحالة مسك السنونو رغم أنه يمكن مسكه إذا حط على يدك. يمكن أسر من يستسلمون، كالألمان، وفقًا لقواعد «الاستراتيجية» و«التاكتيك»، لكن الجيش الفرنسي في حقيقته ما كان يجد الاستسلام مفيدًا، لأن موتًا مشابهًا كان ينتظره من الجوع والبرد في حالتَي الأسر والفرار.

وفي المرحلة الرابعة، وهذه الأكثر أهمية، كان ذلك مستحيلًا، لأنه لم يحدث قط منذ أن خُلِق العالم أن نشبت حرب في مثل الظروف المريعة التي كانت في شتاء عام ١٨١٢، ولأن الجيش الروسي كان يستنفد كل قواه لمطاردة الفرنسيين، حتى إنه ما كان يستطيع أن يعمل أفضل مما عمل دون أن يفني نفسه بالمثل.

لقد فقد الجيش الروسي خلال سيره من تاروتينو إلى كراسنوايية خمسين ألف مريض ومتخلف، أي عددًا مماثلًا لسكان مركز إقليم مهم، لقد اختفى نصف العدد دون قتال.

وبخصوص هذه الآونة من الحملة، عندما كان الرجال حفاة لا معاطف لديهم، يعانون نقص الغذاء وينامون على الثلج طيلة أشهر في برودة تبلغ ١٥ درجة في ميزان ريئومور، عندما لم يكن النهار أطول من سبع أو ثماني ساعات بينما يخيم الليل طيلة الوقت الباقي وحيث الانضباط لا أثر له، عندما لا يعود الرجال في جو معركة ويدخلون لبضع ساعات في سلطان الموت، عندما لا يصبح للنظام أثر في حين يناضل الرجال خلال أشهر دقيقة فدقيقة ضد الموت من الجوع أو البرد، وعندما يموت نصف جنود الجيش في شهر واحد؛ بخصوص هذه الآونة من الحملة يحدثنا المؤرخون كيف تصرف ميلورادوفيتش لينقذ «مشية الجناح» تلك نحو مكان كذا، وتورماسوف نحو المكان كذا الآخر، وكيف انتقل تشيتشاجوف وهو يغرز في الثلج إلى أعلى من ركبتيه، وكيف قطع فلان آخر الطريق على العدو ومزقه إربًا ... إلخ، إلخ.

إن القطعات الروسية، التي أنقصها الموت إلى نصف عددها، عملت كل ما كان ممكنًا عمله لبلوغ الغاية الجديرة بشعبنا، وليس الذنب ذنبهم إذا وضع روسيون آخرون ناعمون بالدفء في غرف مريحة خططًا لا يمكن تنفيذها.

إن هذا التناقض الغريب، غير المفهوم اليوم، بين الواقعة والعلاقة التاريخية ناجم فقط عن أن المؤرخين لم يعطونا إلا تاريخ المشاعر الرائعة والخطابات البليغة لمختلف الجنرالات وليس تاريخ الوقائع.

إن ما بدا لهم أكثر أهمية كان كلمات ميلورادوفيتش، والمكافآت التي نالها هذا أو ذاك من الجنرالات والخطط التي اقترحوها، أما مسألة الخمسين ألف تعيس الذين ظلوا سواء أكان في المشافي أم في القبر، فإنها لا تهمهم لأنها خارجة عن حدود أبحاثهم.

في حين أنه يكفي أن يلتفت المرء من دراسة التقارير والخطط الموضوعة من قبل الجنرالات ومعاينة حركات هذه المئات من ألوف الرجال، الذين ساهموا مساهمة مباشرة فورية بكل ما وقع لتتلقى كل المسائل التي كانت تبدو لأول وهلة ممتنعة عن الحل حلًّا لا يقبل الجدل، فجأة وبسهولة وبساطة خارقتين.

إن الخطة التي وجب أن تهدف إلى قطع خط الرجعة على نابليون وجنوده لم تكن موجودة قط إلا في مخيلة حوالي عشرة أشخاص، ما كان يمكن أن تكون موجودة لأنها منافية للعقل ولأنها كانت مستحيلة.

لم يكن للشعب الروسي غير هدف واحد: تطهير أرضه من الغزاة، ولقد بلغ هذا الهدف أولًا بصورة آلية، لأن الفرنسيين كانوا يفرون، فكان يكفي عدم وضع العقبات في طريق فرارهم، وفي المرتبة الثانية بلغ بفضل عمليات الحرب الشعبية التي أبادت الفرنسيين، وفي المرحلة الثالثة لأن جيشًا روسيًّا قويًّا كان يطارد الفرنسيين ويتبع آثارهم، وهو على استعداد لاستعمال قوته إذا هم أوقفوا حركتهم.

ما كان على الجيش الروسي أن يتصرف إلا على طريقة السوط المشرع فوق رأس الحيوان الهارب، وسائق قطيع مجرب يعرف أن أفضل وسيلة هي إبقاء السوط مشرعًا وتهديد الحيوان الهارب به، وليس جلده به على رأسه.

الجزء الرابع

الفصل الأول

ماري وناتاشا

يستولي الروع على الإنسان أمام حيوان نافق، ذلك لأنه هو نفسه — ما يكوِّنه — على وشك الموت والكف عن الحياة تحت عينيه، ولكن عندما يكون المحتَضَر رجلًا، رجلًا محبوبًا، فإن شعورًا بالألم الممزِّق أو جرحًا في الفؤاد يشبه جرح الجسد، يقتل أحيانًا وأحيانًا يلتئم، ولكن يبقى أليمًا يُخشَى دائمًا أن يثيره مسٌّ خارجي يُضاف إلى الروع الذي يشعر به أمام فناء الحياة.

ولقد أحس كلٌّ من ناتاشا والأميرة ماري هذا الإحساس بعد وفاة الأمير آندريه، كانتا منهارتين معنويًّا، تغمضان عيونهما أمام غمامة الموت المعلقة فوق رأسيهما ولا تجرؤان على النظر إلى الحياة نظرة صريحة، ما كانتا تفكران إلا في صيانة جرحهما من مساس مهين أو أليم. كان كل شيء: مرور عربة مسرعة في الشارع، إعلان العشاء، سؤال وصيفة عن ثوب يجب إعداده، بل وأكثر من ذلك كلمة عطف مصطنع أو دون حرارة؛ كل شيء كان ينكأ الجرح المحروق ويسيء إليهما كالإهانة، فيهدم ذلك الصمت الذي لا بد منه، والذي كانتا كلتاهما تتحريانه للإصغاء إلى المجموعة الرهيبة الخطيرة التي لا تني تدوِّي في مخيلتيهما فتمنعهما من النظر إلى الأبعاد الغامضة اللانهائية التي انكشفت لحظة أمامهما.

ما كانتا تشعران بإهانة أو ألم في خلوتهما، وما كانتا تتبادلان شيئًا من الحديث خلالها تقريبًا، وإذا تحدثتا دار الحديث حول أتفه الأشياء لأن كلتيهما كانتا تتحاشيان أي تلميح إلى المستقبل.

كان الاعتراف بأمل في المستقبل يبدو لهما في الواقع سُبَّة لذكرى الأمير آندريه، لذلك كانتا كلتاهما تحاولان وسعهما أن تتحاشيا كل ما له علاقة به، وكان يُخيَّل إليهما أن ما عانتاه لا يمكن أن يُعبَّر عنه بالكلام، فتفكران أن المساس بأتفه تفصيل لحياة الأمير آندريه مهدِّم لعظمة السر الذي نفذ بعد تحت أبصارهما وقدسيته.

وكان تحفظهما المستمر في أحاديثهما وجهدهما الدائم لتحاشي كل ما يمكن أن يؤدي إلى الحديث عنه، هذا الأسلوب في إقامة الحراسة على كل مناحي حدود ما لا يجب قوله بأي ثمن، كان يعرض بوضوح ونقاء أعظم ما كانتا تشعران به أمام مخيلتيهما.

لكن الحزن الكلي يشبه في استحالته الفرح الكلي، ولقد كانت الأميرة ماري التي باتت بحكم مركزها السيدة الوحيدة لمصيرها والوصية المسئولة عن ابن أخيها، أول من استدعتها الحياة خارج الحداد الذي انطوت فيه منذ أسبوعين؛ تلقت من أقربائها مراسلات وجب أن ترد عليها. وكانت الغرفة التي يعيش فيها نيكولا الصغيرة رطبة فراح الطفل يسعل، وجاء الباتيتش إلى إياروسلافل يحمل حساباته ونصح الأميرة أن تعود إلى موسكو لتقطن مسكنها في فوزدفيجليكا الذي ظل سليمًا، والذي كان في حاجة إلى بعض الإصلاحات، فالحياة لم تكن قد توقفت وكان يجب الحياة. ومهما بلغ من إيلام الخروج من عالم الوحدة والتأمل ذاك على نفس الأميرة ماري، التي استسلمت له حتى ذلك الحين، والمتاعب المادية التي كانت تطالب بحضورها؛ فإنها اضطُرَّت إلى الخضوع رغم الإشفاق الذي كانت تحسه نحو ناتاشا والتبكيت النفسي الذي اعتلج في نفسها لفراقها. أخذت تدقق في حسابات الباتيتش وتتناقش مع ديسال حول موضوع ابن أخيها، وتتخذ التدابير اللازمة لعودتها إلى موسكو.

ولبثت ناتاشا وحيدة، فمنذ اللحظة التي شرعت ماري فيها في اتخاذ أهبتها راحت تتحاشاها.

خلال ذلك عرضت الأميرة ماري على الكونتيس أن تسمح لناتاشا بمرافقتها إلى موسكو، فقبلت الأم مثلما قبل الأب هذا العرض بفرح، لأنهما باتا يريان قوى ابنتهما تنهار يومًا بعد يوم، ويعتقدان أن تبديل الهواء مضافة إليه عناية طبيب في موسكو سيكونان ناجعَيْن لحالتها.

ولما قُدِّم هذا العرض لناتاشا أجابت: لن أذهب إلى أي مكان، لا أسألكم أن تدعوني بهدوء.

ونفرت إلى غرفتها وهي لا تكاد تضبط الدموع التي انبعثت من عينيها بدافع السخط والانفعال أكثر من دافع الألم.

منذ أن أخذت ناتاشا تشعر بتخلي الأميرة ماري عنها وبقائها وحدها مع ألمها، راحت تقضي معظم الوقت محتبسة في غرفتها، منطوية على نفسها في ركن من الأريكة، تحل وتعقد عملًا من أعمال الإبرة بأصابعها الدقيقة الرشيقة وأبصارها شاخصة إلى الأمام، وكانت هذه الوحدة تنهكها وتنخر فيها، لكنها كانت في حاجة إليها. فما إن يدخل بعضهم

إلى حجرتها حتى تعتدل بقوة فتبدل من وضعيتها وتعابير وجهها، وتتظاهر بالقراءة أو الحياكة دون أن تخفي نفاد صبرها لرؤية الذي عكَّر صفو وحدتها.

كان يخيَّل إليها باستمرار أنها على وشك إدراك المخيف والتعمق فيه، تلك المعضلة المضنية التي كانت نظرتها الداخلية شاخصة إليها.

وفي نهاية كانون الأول كانت ناتاشا مرتدية ثوبًا أسود من الصوف، وضفيرتها ملفوفة بإهمال على مؤخرة رأسها، شاحبة ومهزولة، تجلس قابعة في ركن من الأريكة منصرفة تمامًا إلى لف طرف نطاقها وحله، شاخصة ببصرها إلى زاوية الباب.

كانت تنظر إلى الموضع الذي ذهب منه إلى الجانب الآخر من الحياة، وذلك الجانب الذي لم تفكر فيه قط من قبل، والذي كان يبدو لها من قبل بعيدًا كل البعد لا يمكن إدراكه؛ بات الآن أكثر قربًا وألفة وأكثر فهمًا من هذا الجانب، حيث كل شيء ليس إلا خواء ودمارًا إن لم يكن ألمًا وإذلالًا.

كانت تنظر هناك حيث تعرف أنه موجود، لكنها ما كانت تستطيع أن تراه على غير الشكل الذي عرفته به في هذا العالم، كانت تراه في ميتيشتشي وترونيتسا وأياروسلافل.

كانت ترى وجهه وتسمع صوته وتردد كلماته والكلمات التي قالتها له، وأحيانًا تتصور موضوعات أخرى كانا يستطيعان تبادلها بينهما.

ها هو ذا ممدَّد على مقعد وثير في معطفه المنزلي المصنوع من الفراء المغطى بالقطيفة، ورأسه مسند إلى يده البيضاء النحيلة، وصدره مقعر بشكل مخيف، وكتفاه مرفوعتان، وشفتاه متقلصتان بقوة، وعيناه تلتمعان، وعلى جبهته الشاحبة يظهر غضن تارة وتارة يَدْرُس، وإحدى ساقيه ترتعش ارتعاشة سريعة لا تكاد تُمَيَّز. إن ناتاشا تعرف أنه يناضل ضد ألم معذِّب، ما هو هذا الألم؟ لماذا جاء؟ ماذا يشعر؟ أين يتألم؟ بذلك كانت ناتاشا تفكر، لكنه يلمس قلقها فيرفع عينيه ويبدأ في الكلام دون ابتسام.

قال: «إن ما يخيف هو أن يرتبط الإنسان مدى الحياة برجل يتألم، إنه عذاب لا نهاية له.» ونظر إليها بعينيه المتفحصتين، فأجابته ناتاشا كعادتها دون أن تترك لنفسها وقتًا للتفكير فيما هي بسبيل النطق به، هتف: «إن هذا لا يمكن أن يدوم على هذا النحو، إنه مستحيل، سوف تستعيد صحتك تمامًا.»

إنها تراه الآن من جديد، وهي تعيش من جديد في كل ما اعتلج في نفسها حينذاك، إنها تتذكر النظرة الطويلة الحزينة المهيبة التي ألقاها عليها بعد هذه الكلمات، وتفهم معنى اللوم واليأس في هذه النظرة الملحة.

فكَّرت: «لقد اعترفت أنه سيكون أمرًا مريعًا لو أنه استمر يتألم، ولقد قلت له ذلك لأنه كان سيكون مريعًا حقًّا بالنسبة إليه لو أنه دام، لكنه فهم الجملة على نحو آخر، لقد فكر أن ذلك سيكون مريعًا بالنسبة إليَّ، لقد كان حينذاك لا يزال متعلقًا بالحياة وكان يخاف الموت. وأنا تكلمت بقسوة وغباء ما كنت أقصد ذلك، كنت أفكر في شيء آخر مختلف كل الاختلاف، لو أنني قلت ما كنت أفكر فيه لقلت له إنه ولو كان محتضَرًا بل ولو ظل محتضَرًا أمام عيني لكنت سعيدة بالقياس إلى ما أنا عليه الآن، لم يعد لي شيء، لم يعد لي أحد، هل كان يعرف ذلك؟ كلا، ما كان يعرفه ولن يعرفه أبدًا، والآن لا أقدر قط، قط، أن أصلح ذلك.»

لكنه من جديد عاد يقول لها الكلمات نفسها، فراحت ناتاشا هذه المرة تجيبه في خيالها جوابًا مختلفًا، استوقفته وقالت: «إنه مخيف بالنسبة إليك وليس بالنسبة إليَّ، إنك تعرف أن الحياة بدونك بالنسبة إليَّ ليست شيئًا مذكورًا، وأن التألم معك أكبر سعادة لي.» فأمسك بيدها وضغط عليها كما ضغط عليها خلال تلك الأمسية الرهيبة قبل موته بأربعة أيام، فراحت تردد على مسمعه بالخيال أيضًا كلمات الحنان والحب التي كانت عليها أن تقولها له حينذاك، والتي لا تنطق بها إلا الآن، هتفت: «أحبك! ... نعم، أحبك، أحبك ...» وضمت يديها بحركة تشنجية، وصرفت على أسنانها بقسوة وحشية.

وحينئذ استولى عليها ألم أكثر عذوبة، وانبعثت الدموع من عينيها، وفجأة تساءلت: لمن تحدثت على هذا النحو؟ أين هو؟ وكيف هو الآن؟ ومن جديد نظرت في كآبة مضنية قاسية وهي مكفهرة الوجه مزوية حاجبيها من جديد نحو ذلك الهناك حيث هو، ومن جديد خيِّل إليها أنها ستكتشف السر الغامض ... ولكن، في الدقيقة التي كاد كل شيء أن ينكشف، في الدقيقة التي كاد كل المجهول أن يصبح معلومًا لديها، صك أذنها صوت رتاج الباب ودخلت دونياشا الوصيفة، مروعة الوجه منقلبة الأسارير، دخلت دون أي احتراس وقالت وعلى وجهها المنفعل تعبير غريب: إذا أمرت، اذهبي بسرعة إلى أبيك، بسرعة، لقد وقعت مصيبة ... بيوتر إيليتش ... رسالة ...

وشهقت منتحبة.

الفصل الثاني

نعي بيتيا

باتت ناتاشا الآن إلى جانب النفور العام الذي كانت تشعر به نحو الأحياء، تشعر في تلك اللحظة بكُره خاصٍّ نحو أسرتها، لقد كان ذووها كلهم: أبوها، أمها، سونيا، قريبين جدًّا منها، مألوفين جدًّا لديها، حتى إن كل كلمة منهم وكل واحد من مشاعرهم كان ينقلب إلى إهانة لذلك العالم الذي تعيش فيه منذ بعض الوقت، لذلك لم تكن تنظر إليهم بلا مبالاة فحسب بل وبعداء، سمعت دونياشا تتكلم عن بيوتر إيليتش وعن المصيبة، لكنها لم تفهم شيئًا.

أخذت ناتاشا تحدث نفسها: «مصيبة لهم؟ كيف يمكن أن تصيبهم المصيبة؟ إن حياتهم تسير دائمًا وتيرية في سلامها المألوف.»

وعندما دخلت إلى البهو شاهدت أباها يخرج بسرعة من غرفة الكونتيس وأمارات وجهه متقلصة ووجهه مبلل بالدموع، كان يرى أنه اندفع خارجًا من تلك الغرفة ليترك للنشيج الذي كان يخنقه حرية الانطلاق، ولما وقع بصره على ناتاشا صدرت عنه حركة يائسة، وأطلق زمجرات تشنجية شوهت وجهه المستدير الطيب: هيه ... بيتيا ... اذهبي بسرعة، إنها ... تدعوك ...

واقترب من كرسي بخطى صغيرة مترنحة وهو يبكي كالطفل، وأسقط نفسه عليه إسقاطًا، وغطى وجهه بيديه.

وفجأة طافت بجسد ناتاشا كله شبه انتفاضة كهربائية، وأحست بضربة فظيعة تصيب قلبها، أحست بألم مريع وخُيِّل إليها أن شيئًا ما يتمزق في فؤادها، وأنها على وشك أن تموت. لكنها لم تلبث أن شعرت بالخلاص من حجر الحياة الذي كان يحوم فوق كيانها، ولما رأت أباها منهارًا وسمعت الصيحات المريعة، الصيحات الوحشية المنطلقة من أمها في الجانب الآخر من الباب، نسيت نفسها ونسيت ألمها الشخصي.

اندفعت نحو أبيها، لكنه أشار إلى حجرة أمها بحركة عاجزة كلية. وظهرت الأميرة ماري شاحبة كل الشحوب، تسري في فكها الأسفل ارتعادة، وجاءت إلى ناتاشا فأخذتها من يدها وهي تقول لها شيئًا، لكن ناتاشا ما كانت تراها ولا تسمعها، اقتربت بخطى سريعة ثم توقفت فترة قصيرة أمام الباب وكأنها تستجمع شتاتها ثم اندفعت نحو أمها.

وكانت الكونتيس ممددة على مقعد تتلوَّى فريسة لحركات عصبية غريبة وتضرب رأسها بالجدار، بينما كانت سونيا وبعض الخادمات يمسكن بذراعيها.

صاحت وهي تدفع المحيطات بها: ناتاشا، ناتاشا! ... هذا غير صحيح، غير صحيح ... إنه يكذب ناتاشا، اذهبن كلكن عني هذا غير صحيح! لقد قتلوه! ... آه! آه! آه! ... هذا غير صحيح!

فوضعت ناتاشا إحدى ركبتيها على المقعد وانحنت على أمها فأحاطتها بذراعيها، وأدارت نحوها وجهها الذي أدنت منه وجهها بقوة غير منتظرة.

... أماه العزيزة! ... إنني هنا يا أماه ...

وراحت تتمتم بكلمات دون أن تصمت لحظة واحدة.

ودون أن تفلت أمها وهي تظهر حيالها مقاومة حانية، أخذت تطلب استحضار وسائد وماء، ثم نزعت عنها ذراعيها ووضعتها بشكل مريح في ثيابها.

استمرت تقول وهي تغمر رأسها بالقبلات ويديها ووجهها وتشعر بدموعها الشخصية التي لم تستطع مسكها تسيل فتدغدغ أنفها ووجنتيها: صديقتي، أمي العزيزة.

ضغطت الكونتيس على يد ابنتها وأغمضت عينيها، ثم هدأت بعض الشيء، وفجأة نهضت بحيوية غير منتظرة وألقت حولها نظرة مجنونة، فلما شاهدت ناتاشا ضمت رأسها بكل قواها بين يديها، ثم أدارت نحوها وجه ابنتها المتقلص بفعل الألم وتأملته طويلًا.

قالت بصوت خافت وبلهجة مستسلمة: ناتاشا، إنك تحبينني، ناتاشا، إنك لا تخدعينني؟ ستقولين لي الحقيقة كلها؟

نظرت إليها ناتاشا بعينيها الطافحتين بالدموع فلم يعد وجهها إلا توسلًا وحبًّا. كررت وهي توتر كل قوى مودتها وكأنها تريد أن تحمل نفسها هذه الموجة من الألم التي كانت تسحق أمها: أمي الصغيرة!

وفي صراعها الكليل ضد الحقيقة، وبرفضها الاعتقاد بأنها يمكن أن تعيش بينما قُتِل منذ حين ولدها العزيز في زهرة شبابه؛ أنقذت هذه الأم نفسها بدخولها عالم الهذيان.

لم تستطع ناتاشا أن تتذكر كيف انقضى ذلك النهار والليل الذي تلاه ثم النهار والليل التاليان، لم تنم ولم تترك أمها، كان حبها الثابت الصبور الذي ما كان يحاول إيجاد التفسير أو إزجاء العزاء، ولكن كان أشبه بنداء إلى الحياة يحيط بالكونتيس من كل ناحية وفي أية لحظة.

وفي الليلة الثالثة هدأت الكونتيس بضع دقائق فأغمضت ناتاشا عينيها مسنِدة رأسها إلى ذراع الأريكة، وقعقع السرير ففتحتهما، كانت الكونتيس جالسة تتحدث بصوت خافت: كم أنا سعيدة لعودتك! إنك متعب، هل تتناول شايًا؟ واقتربت ناتاشا منها، بينما استرسلت الكونتيس تقول وهي تمسك يد ابنتها: كم أصبحت فتًى جميلًا، إنك الآن رجل!

– أماه ما هذا الذي تقولين؟! ...

– ناتاشا، إنه قضى، لم يعد له وجود!

وطوَّقت ابنتها، وراحت الكونتيس تبكي للمرة الأولى.

الفصل الثالث

رحيل ماري وناتاشا

أرجأت الأميرة ماري سفرها، وحاول الكونت وسونيا عبثًا أن يحلا محل ناتاشا قرب الكونتيس، كانا يشعران بأنها وحدها القادرة على انتزاع أمها من جنون اليأس، لم تغادرها لحظة واحدة طيلة ثلاثة أسابيع، كانت تنام إلى جانب الكونتيس على المقعد وتقدم لها الطعام والشراب، تحدثها باستمرار لأن صوتها المهدهِد الحاني وحده كان قادرًا على تهدئتها.

ما كان الجرح المعنوي الذي أُصِيبت به الأم المسكينة يقبل الشفاء، لقد انتزع موت بيتيا منها نصف حياتها.

وعندما خرجت من غرفتها بعد شهر من تلقيها نبأ موت ابنها لم تعد الكونتيس، التي حملت برشاقة ودون عناء سنِيها الخمسين، إلا امرأة كهلة، نصف ميتة، فقدت لذة الحياة، لكن ذلك الجرح نفسه الذي قتل الكونتيس نصف قتل دعا ناتاشا إلى الحياة.

إن جرح الروح الذي ينجم عن انقلاب الكيان الداخلي يشبه، مهما بلغ التشابه من غرابة، جرحًا عميقًا في الجسد لا يلتئم داخليًّا بعد شفائه الظاهر إلا نتيجة لاندفاع القوة الحيوية.

وهذا ما حصل بالنسبة إلى جرح ناتاشا، كانت تظن أن حياتها قد انتهت.

وفجأة أظهر لها حبها لأمها أن سبب حياتها الموجب، أي الحب، لا يزال حيًّا في نفسها، ولقد أظهر الحب نفسه ومعه الحياة.

ولقد ربطت أيام الأمير آندريه الأخيرة ناتاشا بالأميرة ماري، وقربت هذه المصيبة الجديدة بينهما أكثر من ذي قبل، ولما أرجأت الأميرة ماري سفرها أخذت تُعْنَى بناتاشا وكأنها تعالج طفلًا مريضًا طيلة الأسابيع الثلاثة التي تلت ذلك، إن الأسابيع الأخيرة التي أمضتها ناتاشا في حجرة أمها حطمتها تحطيمًا.

وذات يوم، في فترة بعد الظهر، شاهدت الأميرة ماري ناتاشا ترتعد من الحمى، فأخذتها إلى غرفتها وأرقدتها في فراشها. تمددت ناتاشا، ولكن عندما أرادت الأميرة ماري أن تخرج بعد أن أسدلت الستر، نادتها ناتاشا إليها: ليست بي حاجة إلى النوم يا ماري، اجلسي بجانبي.

– أنت متعبة، حاولي أن تنامي قليلًا.

– كلا، كلا، لماذا أتيت بي إلى هنا؟ سوف تدَعونني الآن.

– إنك تعلمين تمامًا أنها أفضل كثيرًا من ذي قبل، لقد تحدثت اليوم بتعقل كبير!

راحت ناتاشا المتمددة على السرير تتأمل وجه الأميرة في عتمة الغرفة، حدثت نفسها: «تُرى هل تشبهه؟ نعم ولا، لكن فيها كل شيء خاص، واضح، جديد كل الجدة، مجهول، ثم إنها تحبني، ماذا في أعماق نفسها؟ لا شيء غير طيب. ولكن ماذا؟ ماذا تفكر؟ ماذا ترى فيَّ؟ نعم، إنها روح طاهرة طيبة.»

قالت باستحياء وهي تمسك يدها: ماشا، ماشا، لا تفكري في أنني رديئة، أليس كذلك؟ يا عزيزتي ماشا الصغيرة، كم أحبك! لنكن صديقتين، صديقتين حقيقيتين.

وأحاطتها ناتاشا بذراعيها، وراحت تغمر وجه الأميرة ماري ويديها بالقبلات في خجل وسعادة معًا.

ومنذ ذلك اليوم قامت بينهما تلك الصداقة المدنفة الحانية، التي لا يمكن أن تكون إلا بين النساء، ما كانتا تكفان عن تبادل القبل والكلمات الودودة، وتقضيان الوقت كله معًا تقريبًا. فإذا كانت واحدة منهما تبتعد كانت الأخرى تحس بالقلق فتُهرَع للحاق بها، كانتا تشعران بانسجام كبير كلما كانتا معًا أكثر من شعورهما به وهما منفصلتان وكل واحدة حيال نفسها، وكان الشعور الذي يجمع بينهما أقوى من الصداقة كان ذلك الشعور قائمًا على أساس اعتقادهما الراسخ بعدم استطاعة إحداهما الحياة بدون الأخرى.

كان يقع لهما أن تظلا ساعات طويلة دون أن تتحدثا، ويقع لهما أن تبدأا الحديث بعد أن تستلقيا للنوم وأن تتحدثا حتى الصباح، كانتا ترويان لبعضهما في الغالب ماضيَيْهما البعيد جدًّا، فتصف الأميرة ماري طفولتها وأمها وأباها وأحلامها. أما ناتاشا، التي كانت تشيح من قبل، بعدم فهم هادئ، عن فكرة الزهد المسيحي، ناتاشا التي باتت مرتبطة بحبها إلى الأميرة ماري؛ فإنها أصبحت تحب ماضي صديقتها نفسه، وتدرك هذا الجانب من الحياة الذي ظل مستغلقًا عليها. ما كانت تفكر في أن تطبق على حياتها الشخصية الإذلال والتضحية، لأنها كانت متعودة على البحث عن مختلف المسرات، لكنها أخذت تدرك الفضائل التي كانت ممتنعة الفهم عليها من قبل وتعجب بها في شخص

آخر، بينما راحت الأميرة ماري نفسها تكتشف عالمًا مجهولًا منها حتى ذلك الحين: الإيمان بالحياة، الإيمان بمباهج الحياة، وهي تصغي إلى أقاصيص ناتاشا عن طفولتها ويَفَعَتها.

كانتا تتدبران أمرهما بحيث لا تتكلمان أبدًا «عنه» حتى لا تدركا بالكلمات — أو على الأقل هذا ما كانتا تظننانه — سمو الشعور الذي تكنانه في نفسيهما، فكان هذا الصمت يعمل بشكل جعلهما تدريجيًّا تنسيان الأمير آندريه.

هزلت ناتاشا وشحبت، وأصبحت على درجة من الضعف، حتى بات كل الناس يسألون عن صحتها، فكان ذلك يلذ لها. لكنها كانت أحيانًا عرضة للخوف ليس من أن تموت فحسب، بل من أن تقع مريضة وأن تضعف وتفقد جمالها وأحيانًا برعمها، كانت تتأمل بانتباه ذراعها النحيلة وتدهش لهزالها، أو تلقي صباحًا نظرة على وجهها المتقلص في المرآة فيبدو لها مثيرًا للشفقة. كان يخيل إليها أنه لا بد وأن يكون الحال على هذا النحو، لكنها رغم ذلك كانت تجده أمرًا محزنًا ومخيفًا.

وذات يوم صعدت مسرعة جدًّا فبهرت أنفاسها تمامًا، فلم تلبث أن ابتدعت لا شعوريًّا سببًا آخر للهبوط لتعود إلى الصعود بسرعة كلية مرة أخرى، قصد اختبار جلَدها وقوتها وإدراك مداهما.

ومرة أخرى استدعت دونياشا فخانها صوتها فنادتها مرة أخرى — رغم سماعها صوت خطاها — بصوتها الثاقب الذي كانت تغني به، وراحت تصغي إلى صوتها بدورها.

ما كانت تشعر بذلك، بل وما كانت تريد أن تصدقه، ولكن تحت الطبقة الكثيفة التي خُيِّل إليها أنها تغطي روحها أخذت بعض الحشائش النضيرة الدقيقة تطل برأسها، مبشرة بالنمو المطرد ودفع الغم الذي يخنقها بشدة، لدرجة لن يلبث معه أن تدرس آثاره فيتعذر رؤيتها، لقد كان جرحها يلتئم من الداخل.

وفي نهاية كانون الثاني ذهبت الأميرة ماري إلى موسكو، فألح الكونت على ناتاشا أن تذهب معها كي تستشير الأطباء هناك.

الفصل الرابع

بلبلة القيادة الروسية

بعد اصطدام الجيوش في فيازما، حيث لم يتمكن كوتوزوف من منع قطعاته الراغبة في قلب العدو وقطعه، استمر تقهقر الجيش الفرنسي الفار ومطاردة الجيش الروسي له دون قتال حتى كراسنواييه. وكان الجيش الفرنسي سريعًا في فراره، حتى إن الجيش الروسي الذي كان يطارده لم يكن يتمكن من اللحاق به، وإن الجياد باتت تنهار تحت فرسانها وتعجز عن أداء عملها في سلاح المدفعية، وإن المعلومات المستقاة عن تحركات الفرنسيين كانت دائمًا خاطئة.

وبلغ الإعياء بالجنود الروسيين من هذا الانتقال اليومي المستمر، الذي كانوا يقطعون خلاله أربعين فرسخًا في اليوم، مبلغًا جعلهم عاجزين عن زيادة سرعتهم.

ولإدراك درجة إنهاك الجيش الروسي يكفي معرفة حقيقة أن هذا الجيش منذ تاروتينو لم يخسر إلا خمسة آلاف رجل بين قتيل وجريح وبالكاد مائة أسير، وأنه عندما خرج من تاروتينو بمائة ألف رجل بات عدده الآن لا يتجاوز الأربعين ألفًا في كراسنواييه.

فسرعة المطاردة إذن كانت ذات أثر مذيب على الجيش الروسي بمثل ما كان الفرار على الجيش الفرنسي، مع فارق واحد هو أن الجيش الروسي كان يتقدم دون الخوف من الفناء المعلَّق فوق الجيش الفرنسي، الأمر الذي ينجم عنه أن المتخلفين الفرنسيين كانوا يقعون بين أيدي الروسيين، أما المتخلفون من هؤلاء فيمكثون في بلادهم. والسبب الرئيسي إذن لانحلال جيش نابليون كان ناجمًا عن سرعة جري هذا الجيش، ولدينا على ذلك الدليل الذي لا يقبل النقض في انحلال الجيش الروسي المماثل.

كان نشاط كوتوزوف كله يهدف فقط، كما في تاروتينو وفي فيازما، إلى عدم إعاقة التقهقر الفرنسي بقدر ما يقع ذلك في نطاق طاقته، خلافًا لما كانوا يريدون في بيترسبورج ولما كان يريده جنرالات الجيش الروسي، بل مساعدة تقدم قطعات العدو وتسهيل سيره.

ولكن عدا عن الإنهاك الذي كان الجيش الروسي يظهره، والخسائر الفادحة التي سببها له سيره السريع، فإن سببًا آخر كان يدعو كوتوزوف إلى إبطاء حركة قطعاته وتلطيف حدتها، كانت غاية الروسيين مطاردة الفرنسيين، في حين أن الطريق الذي سيسلكه الفرنسيون كان مجهولًا منهم، لذلك كلما تقدم رجالنا على آثار الفرنسيين حثَّ هؤلاء خطاهم ليباعدوا المسافة بينهم، فلم يكن ممكنًا قطع الخطوط المتعرجة التي كان الفرنسيون يرسمونها في سيرهم باللجوء إلى الطرق المختصرة، إلا عن طريق مرافقتهم طيلة مسافة كبيرة. وكانت التحركات العاقلة كلها التي كان الجنرالات يعرضونها تُلخَّص في حركات تقدُّم طردية وعكسية عديدة وزيادة في طول المراحل، في حين أن الهدف المعقول الوحيد كان على العكس في تقصيرها. ونحو هذا الهدف تركزت حيوية كوتوزوف خلال كل الحملة من موسكو إلى فيلنا، ليس بمحض الصدفة أو تبعًا لعرض مفاجئ بل بذكاء متسلسل محكم، حتى إنه لم يحِد مرة واحدة عن الطريق.

كان كوتوزوف يعرف، ليس بفضل استنتاجاته الفكرية أو بمعرفته العسكرية بل بطبيعته الروسية، يعرف ويشعر بما يشعر به كل جندي روسي وهو أن الفرنسيين قد هُزِموا، أن الأعداء يفرون وأنه يجب مطاردتهم، لكنه كان يحس بنفس الوقت مثل جنوده بثقل هذه الحملة كلها، الفريدة بسرعتها وبالفصل الذي وقعت فيه من السنة.

أثناء ذلك كان الجنرالات، وبصورة خاصة غير الروسيين منهم، الراغبون في إظهار تفوقهم وإحداث الدهشة وأسر دوق أو ملك ليجروا من ورائه بعض الغنم؛ كانوا يفكرون على العكس بأن اللحظة قد أزفت لخوض المعركة والانتصار على عدو ما، ويريدون ارتكاب هذه الخطيئة المروعة المنافية، لكن كوتوزوف كان يكتفي بهز كتفيه عندما كانوا يقدمون واحدًا إثر آخر يقوِّمون مشاريع تحركات جديدة لتنفيذها برجال شبه حفاة، محرومين من الألبسة الدافئة، نصف مجوَّعين، ذابوا خلال شهر واحد دون أي قتال حتى بلغوا النصف، كان يجب أن يقطعوا حتى الحدود مسافة أطول كثيرًا من التي قطعوها حتى الآن، هذا إذا استمرت مطاردة الهاربين ضمن أفضل الشروط.

وكانت هذه الرغبة العنيفة بالظهور والتحرك وصد العدو وقطعه، تظهر بصورة خاصة عندما كان الجيش الروسي يصطدم بالجيش الفرنسي.

وهذا ما حصل في كراسنواييه حيث ظُنَّ أنهم لن يجدوا إلا جمهرة واحدة من جمهرات الفرنسيين الثلاث، فوقعوا على نابليون بالذات على رأس جيش قوامه ستة عشر ألف رجل، وعلى الرغم من كل الوسائل التي لجأ إليها كوتوزوف ليتحاشى ذلك الاصطدام

السيئ المغبة وتوفير قطعاته، فإن الجيش الروسي المنهوك انهمك طيلة ثلاثة أيام في كراسنواييه لتحطيم زُمَر الفرنسيين.

ولقد وضع تول الخطة: القطعة الأولى تتحرك ... وهلمَّ جرًّا. وكالعادة دائمًا لم يقع شيء وفقًا للخطة، فالأمير أوجين دو وورتمبرج الذي كان يطلق النار من على مرتفع على التجمهرات الفرنسية طلب إمدادات لم تصل، والفرنسيون انتهزوا فرصة الظلام ليلفوا ويخدعوا الروسيين، فتبعثروا واختفوا في الغابات وتوصلوا على شكل ما إلى شق طريق لأنفسهم.

وميلورادوفيتش، الذي كان يزعم أنه لا يأبه لشيء من احتياجات فرقته المادية، والذي ما كان يمكن إيجاده عند الحاجة الماسة إليه، ميلورادوفيتش الفارس الذي لا يهاب ولا يُلَام كما كان يدعو نفسه بنفسه، ذلك الهادي للمفاوضات؛ أرسل رسلًا يطالب باستسلام الفرنسيين فأضاع وقته وعُمِل عكس ما أمر به تمامًا.

قال لفرسانه وهو يتقدم أمام قطعاته ويشير إلى الفرنسيين أمامه: يا أولادي! أعطيكم هذه الفرقة.

وراح فرسانه على جيادهم التي كانت تتحرك بشق النفس، والتي كانوا يدفعونها إلى الأمام ضربًا بمهاميزهم وسيوفهم، يجرون خببًا خفيفًا بكثير من الجهد، ويلقون بأنفسهم على الفرقة الفرنسية التي قدمها لهم هدية، أي على رجال بائسين خدَّرهم البرد كلهم فباتوا نصف متجمدين، ولم تلبث الفرقة أن ألقت سلاحها واستسلمت، وهو الأمر الذي كانت تتوق إليه منذ أمد كبير.

أسروا في كراسنواييه ستة وعشرين ألف أسير، وغنموا حوالي مائة مدفع وعصا زعموا أنها عصا ماريشال، وبعد أن تناقشوا لمعرفة المبرزين بينهم ارتضى كل منهم بحقه لكنهم أسفوا أشد الأسف لأنهم لم يأسروا نابليون أو على الأقل واحدًا من الأبطال ماريشالًا ما، وراحوا يتبادلون اللوم ملقين الذنب كله على كاهل كوتوزوف فوق كل ذلك.

هؤلاء الناس الذين تدفعهم أهواؤهم ما كانوا إلا أدوات عمياء لأسوأ الضرورات وأكثرها حزنًا، لكنهم كانوا يعتقدون بأنهم أبطال ويتصورون أنهم قاموا بأكثر المآثر نبلًا واستحقاقًا للثواب. كانوا يتهمون كوتوزوف ويزعمون بأنه منعهم منذ بدء الحملة عن هزم نابليون، وأنه لا يفكر إلا في إرضاء أهوائه وعدم مغادرة إقليم «فيلاتور» — وهو إقليم واقع على طريق كالوجا في مقاطعة ميلاين، يملكه حينذاك كما يملك مصانع النسيج فيه التي استمد منها اسمه، آل جوتشاروف، أسرة زوج بوشكين، وقد توقف كوتوزوف في

ذلك الإقليم بعض الوقت عام ١٨١٢ — لأنه يعيش فيه بسلام، وأنه في كراسنواييه أوقف الحركة لأنه أضاع صوابه تمامًا حينما علم بوجود نابليون بالذات، وأنه يمكن الافتراض بأنه على اتفاق مع نابليون وأنه باع نفسه إليه، وهلمَّ جرًّا (مذكرات ويلسن).

ولم يكن المعاصرون وحدهم الذين أعماهم الهوى هم الذين تخرصوا على هذا الشكل، بل إن الجيل الصاعد والتاريخ ناديا بعظمة نابليون، وقال الأجانب عن كوتوزوف إنه ثعلب عجوز فاجر رجل بلاط غير جريء، أما الروسيون فقد وصفوهم على اعتبارهم مخلوقًا لا يمكن تحديد وصفه أشبه بصورة من الورق المقوَّى، نافعة فقط لأنها تحمل اسمًا روسيًّا …

الفصل الخامس

إنصافًا لكوتوزوف

اتهموا كوتوزوف بصراحة خلال سنتي ١٨١٢-١٨١٣ وكان الإمبراطور شديد الاستياء منه، ولقد جاء في تاريخ حُرِّر بناء على رغبة سامية أن كوتوزوف كان رجل بطانة ماكر وكذاب، يروعه مجرد ذكر اسم نابليون، حرم الجيش الروسي في كراسنواييه وفي بيريزينا بفضل أخطائه من مجد هزيمة الفرنسيين هزيمة كاملة.

ذلك هو مصير ليس الرجل القيم الرجل العظيم الذي ترفض العقلية الروسية الاعتراف به، بل الرجال النادرون دائمو الانفراد يخضعون مشيئتهم الشخصية لمشيئة القدر التي يتفهمونها. إن حقد الجمهور واحتقاره يعاقب هؤلاء الرجال على تفهمهم النظم العليا.

إن نابليون، أداة التاريخ التافهة تلك، الذي لم يُظهر في أي مكان حتى ولا في المنفى ما يدل على الكرامة الإنسانية، نابليون هذا في نظر المؤرخين الروسيين (وهو غريب وبشع أن يقال) موضع إعجاب وحماس، وهو رجل عظيم. أما كوتوزوف، هذا الرجل الذي لم يناقض نفسه مرة واحدة من البداية حتى النهاية طيلة نشاطه عام ١٨١٢، من بورودينو وحتى فيلنا، في كل تصرفاته ولا في أقواله، هذا الرجل الذي يبدو في التاريخ كمثال خارق للتضحية بالذات وللتعمق في معرفة المستقبل؛ فإنه يبدو لهم على العكس مخلوقًا مترددًا يستحق الرثاء، يشعر المرء بلون من الخجل كلما تحدث عنه في عام ١٨١٢.

مع ذلك فإن من العسير تصور شخصية تاريخية تبعث نهائيًّا هدفًا واحدًا بكل ذلك الدأب والثبات، من العسير تصور غاية أكثر نبلًا وأكثر انسجامًا مع إرادة شعب بأكمله، وكذلك أنه عسير أكثر إيجاد مثال في التاريخ بلغ الهدف المنشود سلفًا من جانب شخصية تاريخية ما؛ بمثل ذلك الكمال الذي بذل كوتوزوف قواه فيه كلها خلال مجرى عام ١٨١٢ لبلوغه.



كوتوزوف.

لم يتحدث كوتوزوف قط عن القرون الأربعين التي تطل علينا من أعالي الهرم، ولا عن التضحيات التي كان يبذلها في سبيل وطنه، ولا عما عمله أو ما كان ينوي عمله، ما كان يتحدث عن نفسه قط بصورة عامة، ولا يبحث عن أن يلعب أي دور، يظهر نفسه دائمًا أكثر الرجال بساطة وسلامة نية. كان يكتب لبناته ولمدام دوستايل، ويقرأ الروايات، ويحب عشرة النساء الجميلات، يمزح مع جنرالاته وضباطه وجنوده، لا يناقض قط أشخاصًا يتحدثون إليه بشيء ما. ولما جاء الأمير روستوبتشين راكضًا على ظهر جواده عند جسر أياووزا يكيل له اللوم الشخصي ويتهمه بأنه كان سبب ضياع موسكو، ويقول له: «كيف؟! لقد وعدت ألَّا تهجر المدينة دون قتال»؛ أجابه كوتوزوف: «لست أنوي هجر موسكو دون قتال» رغم أن موسكو كانت حينذاك في أيدي الأعداء. ولما جاء أراكتشييف

يقابله من لدن الإمبراطور ليقول له بأنه يجب أن ينيط قيادة المدفعية بإيرمولوف، أجابه: «نعم، هذا تمامًا ما كنت أقوله شخصيًّا منذ حين»، رغم أنه كان قبل دقيقة واحدة يقول عكس ذلك، وأية أهمية كانت لذلك في نظره؟ هو الذي كان وحده يدرك المعنى الرائع للأحداث وسط الحشد الأبله الذي كان فيه، أية أهمية لأن يعزو روستوبتشين لنفسه المصائب التي حلَّت بالعاصمة أو أن يعزوها إليه؟ فكم بالأجدر ألَّا يأبه لمعرفة من سيُعيَّن قائدًا للمدفعية!

لقد كان ذلك العجوز ليس في هذه المناسبات فحسب بل بصورة مستمرة، يتفوه بالكلمات العارية عن أي معنى أول ما يتبادر إلى ذهنه من كلمات، وهو الذي اكتسب من الخبرة في الحياة الإيمان بأن الآراء والكلمات التي تعبر عنها ليست هي التي توجه البشر.

لكن هذا الرجل نفسه الذي كان قليلًا ما يأبه لما يقول، لم يدعْ خلال حياته العملية كلها كلمة تفلت منه دون أن تكون متفقة مع الهدف الأوحد الذي كان ينشده طيلة مدة الحرب. ولقد كشف في مناسبات عديدة عن حقيقة فكرته، حيث تسلط عليه التأكد الأليم بأن ما من أحد يفهمه. واعتبارًا من معركة بورودينو، التي هي السبب الرئيسي لاختلافاته مع المحيطين به، كان وحده الذي قال: «إن معركة بورودينو نصر»، وكرر ذلك بإلحاح وبصوت مرتفع في تقاريره وفي اتصالاته حتى ساعة موته. وهو وحده الذي قال: «إن ضياع موسكو ليس ضياع روسيا.» وفي جوابه على عروض الصلح التي قدمها لوريستون أعلن أن «السلم غير ممكن، لأن تلك هي مشيئة الشعب». وهو وحده الذي أعلن عند تقهقر الفرنسيين: «إن كل تحركاتنا عقيمة، وإن كل شيء سيُسوَّى من تلقاء نفسه على نحو أفضل مما نتمناه، وإنه يجب أن نصنع للأعداء جسرًا من ذهب، وإن معارك تاروتينو وفيازما وكراسنواييه ليست ضرورية، وإن الأمر يتطلب الوصول إلى الحدود بقوات كافية»، وإنه لا يعطي جنديًّا روسيًّا واحدًا لقاء عشرة جنود فرنسيين.

وهذا الرجل وحده، الذي يصورونه لنا على شكل مَلَّاق مذنب لأنه كذب على أراكتشييف ليرضي الإمبراطور، هو وحده الذي تجرأ في فيلنا على التعرض لغضبة مليكه حين قال: «إن حربًا تدفع إلى ما وراء الحدود ستكون حربًا ضارة، ولا غاية لها.»

لكن كلماته ليس وحدها التي يمكن أن تكون برهانًا على تفهمه لمعنى الأحداث، إن تصرفاته كلها دون أي استثناء تهدف نحو الهدف الثلاثي نفسه: (١) تركيز كل قواته بانتظار اشتباك منتظر مع الفرنسيين. (٢) هزيمتهم. (٣) وطردهم من روسيا، والإقلال بقدر المستطاع من آلام الشعب والجيش.

إنه هو، كوتوزوف المتمهِّل، الذي كان شعاره «الصبر وطول الوقت»، كوتوزوف عدو كل نشاط حاسم، الذي يشتبك في معركة بورودينو وهو يضفي على استعداداته جلالًا لا مثيل له، إنه هو كوتوزوف هذا نفسه الذي أعلن في أوسترليتز قبل خوض المعركة أنها ستكون هزيمة، والذي أكد في بورودينو رغم ما أكده جنرالاته كلهم من أن المعركة قد خُسِرت، ورغم المثل الأوحد في التاريخ الذي شُوهِد فيه جيش ظافر يغادر ساحة المعركة مرغمًا؛ إنه هو وحده ضد الجمع الذي أكد حتى الموت أن معركة بورودينو كانت نصرًا. إنه وحده الذي ألح طيلة تقهقر الفرنسيين على وجوب تحاشي القتال الذي أصبح عقيمًا منذ أن بدأ التقهقر، كي لا تبدأ حرب جديدة وكي لا يوغل في ما وراء الحدود الروسية.

إن من السهل اليوم فهم معنى الحدث إذا أردنا أن نترك جانبًا تلك الكتلة من الأهداف التي كانت تملأ رأس حفنة من الرجال، لأن الحدث في كليته وبكل نتائجه ينبسط تحت أعيننا.

ولكن كيف استطاع ذلك العجوز، الوحيد ضد الجميع، أن يفرق منذ البداية وبمثل هذه الدقة المتناهية غاية الشعور الشعبي في ذلك الحدث، تلك الغاية التي لم يتنحَّ عنها مرة واحدة طيلة فترة نشاطه كلها؟

لكن كان مصدر ذلك التفهم الخارق لمعاني الوقائع الجارية هو ذلك الشعور الشعبي، الذي كان يحمله في نفسه على غاية النقاء وفي كل قوته.

ولمعرفة الشعب بهذا الإحساس في نفسه انتخبه الشعب بوسائله الغريبة، هذا العجوز المغضوب عليه، ضد رغبة القيصر؛ ليجعل منه ممثلًا للحرب الشعبية. إن هذا الإحساس وحده هو الذي سما به إلى الدرجة القصوى من الرفعة الإنسانية، التي كان القائد الأعلى يدير من أعلاها كل قواه لا ليقتل الرجال ويبيدهم، بل لينقذهم ويوفر حيواتهم.

وهذه الصورة البسيطة المتواضعة، وبالتالي العظيمة عظمة حقيقة، ما كان يمكن أن تنطبع في قالب البطل الأوروبي الكاذب الذي زُعِم أنه مسيِّر الشعوب كما تصوَّره التاريخ.

ذلك أنه لا يمكن أن يكون هناك رجل عظيم بالنسبة إلى الوصيف، لأن للوصيف طريقته الخاصة به في تفهم العظمة.

الفصل السادس

خطاب القائد الأعلى

كان اليوم الخامس من تشرين الثاني هو اليوم الأول للمعركة المسماة بمعركة كراسنواييه. حوالي المساء، بعد عدد من المناقشات، وبعد تحركات خاطئة من جانب الجنرالات الذين لم يقودوا الجيوش إلى حيث كان يجب أن تكون، وبعد إرسال المساعدين العسكريين إلى مختلف الجهات وهم يحملون الأوامر المناقضة، وبعد أن بات واضحًا أن العدو يفر من كل الجهات، وأن أية معركة لن تقع كما لا يمكن أن تقع؛ غادر كوتوزوف كراسنواييه ومضى إلى دوبروايبه حيث نقل مركز القيادة العامة خلال النهار.

كان النهار صاحيًا مقرسًا، وكوتوزوف ترافقه حاشية ضخمة من الجنرالات النافرين منه المتهامسين وراء ظهره يتجه نحو دوبروايبه على متن جواده الأبيض، وعلى طول الطريق كانت الفرق الفرنسية التي أُسِرت خلال النهار محتشدة متراصة وعددها يناهز السبعة آلاف رجل تقريبًا، تصطلي الدفء حول نيران مشبوبة. وبالقرب من دوبروايبه كان حشد كبير من الأسرى في ثياب خلقة التفُّوا واتَّشحوا بأول ما وقعت عليه أيديهم من الأسمال البالية يتناقشون بلفظ، واقفين على الطريق إلى جانب رتل طويل من المدافع الفرنسية المحلولة، فلما اقترب الجنرال القائد الأعلى هدأت الأصوات وشخصت الأبصار كلها إلى كوتوزوف في قلنسوته البيضاء ذات الحافة الحمراء، المتدثِّر بمعطفه الضخم المبطن المرفوع باحديداب فوق كتفيه المقوستين، وهو يتقدم ببطء على جواده وقد راح أحد الجنرالات يشرح له مصدر المدافع والأسرى.

وكان كوتوزوف بادي الاستغراق حتى لكأنه لا يسمع أقوال الجنرال.

كان يرف بعينيه بامتعاض، وينظر إلى أشباح الأسرى بثبات متيقظ وهم في مظهرهم المتغرد في الإيلام، كان معظمهم مشوهين بوجناتهم وأنوفهم المتجمدة، وعيونهم جميعًا تقريبًا كانت حمراء منتفخة ومتقيحة.

وفي زمرة من الفرنسيين الواقفين إلى جانب الطريق وعلى مقربة كان جنديان، أحدهما تغطي البثور وجهه، يمزقان بأيديهما قطعة من اللحم النِّيء، وكان في النظرة المختلسة التي ألقياها على الجنرالات وفي التعبير الحقود الذي دل عليه الجندي ذو البثور حينما أشاح برأسه عن كوتوزوف بعد أن عاينه مليًّا واستمر في عمله؛ شيئًا من الهول والحيوانية.

تأمل كوتوزوف طويلًا وبانتباه هذين الجنديين، فتقعَّر وجهه المتغضن أكثر من ذي قبل وطرفت عيناه وهز رأسه ساهمًا. وفي مكان آخر لاحظ جنديًّا روسيًّا كان يضحك وهو يضرب على كتف أحد الفرنسيين ويقول له شيئًا ما بمودة، فبدت تلك الأمارات الساهمة على وجه كوتوزوف من جديد وهز رأسه أيضًا.

سأل الجنرال الذي كان لا يزال يدلي بتقريره، محاولًا أن يجتذب انتباه القائد الأعلى على الرايات الفرنسية التي أُسِرت كذلك، والتي نصبوها على مقدمة فيلق بريوبراجنسكي: ماذا تقول؟ آه! الأعلام.

ولقد نطق بهذه الكلمة وهو ينتزع نفسه بجهد ظاهر من موضوع انشغاله الداخلي، ألقى حوله نظرة ساهمة، كانت ألوف العيون من حوله شاخصة إليه بانتظار ما سيقوله.

توقف أمام فيلق بريوبراجنسكي ثم أطلق زفرة عميقة وأغمض عينيه، وقام أحد مرافقيه بحركة يستقدم بها حملة الأعلام حول الجنرال القائد الأعلى، وبعد بضع ثوانٍ رفع كوتوزوف رأسه وراح يتكلم، مغتصبًا أقواله بشكل ملحوظ تمشيًا مع متطلبات الموقف، فأحاط به حشد من الضباط أخذ يجول بأبصارهم في دائرتهم وتعرف بعضهم.

صاح وهو يخاطب الجنود أولًا ثم الضباط: أشكركم جميعًا — ولقد برزت كل كلمة من كلماته بوضوح كامل في ذلك الصمت الذي ران — أشكركم جميعًا على خدمتكم الشاقة المخلصة. إن النصر تامٌّ، وروسيا لن تنساكم. المجد لكم إلى الأبد!

وصمت وهو ينظر حوله، ثم قال لجندي كان يحمل نسرًا فرنسيًّا خفضه دون قصد أمام راية فيلق بريوبراجنسكي: اخفض رأسه، أكثر انخفاضًا، أكثر، هكذا، هكذا!

وصاح يوجه صيحته إلى الجنود وقد ارتجت ذقنه بحركة مفاجئة: هورا، أيها الأولاد!

فزمجرت ألوف الأصوات: هرر … را … ا … ا!

ولقد أطرق كوتوزوف طيلة الوقت الذي ظل الجنود خلاله يزمجرون، وهو منحنٍ فوق سرجه، وفي عينه الوحيدة وميض لذيذ يقارب المكر. ولما هدأت الأصوات قال: وهذا كل ما هناك أيها الإخوان!



كوتوزوف يخطب في الجيش.

وفجأة غيَّر تعابير وجهه وطبقة صوته: لقد تكلم القائد الأعلى، والآن أزف دور عجوز بسيط جدًّا يريد أن ينهي إلى رفاقه شيئًا ما مهمًّا.

ارتفعت في الصفوف بين الجنود وبين الضباط حركة تدل على رغبة هؤلاء في الإصغاء إلى ما سيقوله بشكل أفضل: وهذا كل ما هناك أيها الإخوان! إنني أعرف أن هذا قاسٍ عليكم، ولكن ما العمل؟ اصبروا، سنبلغ الغاية قريبًا، سوف نستريح بعد أن نشيع ضيوفنا. أما ثمن خدماتكم فإن القيصر لن ينساكم. هذا قاسٍ، لكنكم رغم ذلك في وطنكم، أما هم — وأشار إلى الأسرى — إنكم ترون إلى أي حال وصلوا، لقد باتوا أسوأ من أسوأ المتسولين! ما كنا نشفق حتى على أنفسنا ما زالوا أقوياء، أما الآن فيجب أن نشفق عليهم أيضًا إنهم بشر كذلك، أليس كذلك يا أولاد؟

ونظر حوله مرة أخرى، فقرأ في العيون المتيقظة الخاشعة المتسائلة الشاخصة إليه الانفعال الذي أيقظته كلماته في النفوس، فازداد وجهه إشراقًا بابتسامته العجوز الطيبة التي رسمت نجومًا من التغضنات عند ركن شفتيه وعينيه.

صمت ثم أطرق برأسه وكأنه حيران، وفجأة صرخ وهو يرفع رأسه: ولكن، من الذي دعاهم إلى المجيء إلينا؟ إنهم يستحقون ما نالهم، يا للألف لعنة!

ثم همز جواده ومضى جاريًا لأول مرة خلال الحملة، وسط عاصفة من الضحك البهيج والهتافات المدوية المنطلقة من حناجر الجنود الذين تفرقت صفوفهم.

لم يفهم الجنود الكلمات التي نطق بها كوتوزوف كلها، وما من أحد كان يستطيع ترديد فحوى خطاب الفيلد ماريشال هذا الذي بدأ جليلًا ثم أضحى عند نهايته بسيطًا وأبويًّا. لكنهم أدركوا معناه العميق، ذلك الشعور من العظمة الجليلة المتحدة مع الشفقة على العدو، ومع تفهم الحق الصريح الذي أبرزته البسة الأليفة المقبولة التي فاه بها هذا العجوز، ذلك الشعور المقيم في قلب كل جندي والذي عبرت عنه الهتافات التي دامت طويلًا قبل أن تصمت، ولما جاء أحد الجنرالات بعد ذلك يسأل كوتوزوف عما إذا كان يجب استقدام عربته، صعدت إلى حنجرة هذا شهقة وهو يجيبه، شهقة مفاجئة دلت على تأثره العنيف.

الفصل السابع

اليوم الأخير

في الثامن من تشرين الثاني اليوم الأخير لمعركة كراسنواييه، كان الليل قد هبط عندما عاد الجنود إلى معسكراتهم، ولقد كان النهار كله هادئًا، مجمدًا، تخلله تساقط الثلوج من حين إلى آخر. لكنه حوالي المساء صحا الجو، فكانت السماء السوداء المائلة إلى اللون البنفسجي تُرَى خلال جَوالِح الثلج بنجومها المتوهجة، وازداد البرد شدة.

وصل فيلق من الرماة كان يعد ثلاثة آلاف رجل لدى خروجه من معركة بورودينو، فبلغ عدده الآن تسعمائة رجل فحسب، إلى المكان المعين لقضاء الليل، في عداد الفرق التي وصلت إلى أماكنها قبل سواها؛ إلى قرية تقوم على جانب الطريق العام. فجاء بعض رواد الجيش للقائد وشرحوا للرماة أن الأكواخ الخشبية مشغولة كلها بالمرضى والميتين من الفرنسيين والجنود والفرسان والقيادة العسكرية، وأنه لم يبقَ إلا كوخ واحد لقائد الفيلق.

مضى القائد إلى كوخه، أما الفيلق فقد اخترق القرية، ولما بلغ نهاية البيوت أقام جماعات حول الطريق.

لم يلبث الفيلق أن انصرف إلى العمل أشبه بحيوان هائل ذي أطراف عديدة، بدأ يبني حجرة ويعد معاشه اليومي، فهُرِع عدد من الجنود والثلج يغمرهم إلى ما فوق ركبهم يتبعثرون في غابة سندر كانت إلى يمين القرية، فلم تلبث جلبة الفئوس أن ارتفعت وأصوات الزناد والأغصان المهشمة والأصوات البهيجة. ومضى قسم آخر يعمل حول عربات النقل التابعة للفرقة والجياد المجمعة كالقطيع، فأعدوا القدور والبسكويت وقدموا العلف للجياد. وآخرون انتشروا في القرية لينظموا إسكان قيادة الفرقة، فأجلَوْا جثث الفرنسيين عن الأكواخ، واستولوا على الألواح الخشبية والحطب الجاف والقش الذي يغطي السقوف لإيقاد النيران وعلى الحواجز الخشبية لبناء الملاجئ.

وراح حوالي خمسة عشر منهم وراء الأكواخ عند طرف القرية يزعزعون، وهم يطلقون صرخات مرحة، حاجز رواق كبير انْتُزِع سقفه من قبل، كانوا يهتفون: هيا، هيا، معًا، لندفع دفعة قوية!

وفي عتمة الليل شُوهِد جانب كبير من الحاجز المكلَّل بالثلج يترنح في جلبة الجليد الذي يتحطم، وفرقعت الأوتاد السفلية وأخذت تميل، ولم يلبث الحاجز كله أن انهار والجنود فوقه، وأفلتت سباب لاذعة من الأفواه وارتفعت قهقهات.

– انتظموا اثنين اثنين! عتلة من هنا! هكذا! أين تحشر نفسك؟

– هيا، معًا، كلنا! ... انتبهوا! ... بانسجام!

وران الصمت وراح صوت دقيق لطيف رخيم يغني، وفي نهاية المقطع الثالث عندما راح آخر نغم يخبو هتفت أصوات عشرين رجلًا مجتمعة: «هو ... و... و! لقد لان! معًا! ميلوا عليه يا أولاد!» وعلى الرغم من تلك الدفعة المركزة لم يتزحزح الحاجز، وارتفع في الصمت الذي أعقب ذلك لهث الرجال الثقيل.

– هيه، أنتم، يا جنود السادسة! يا للشياطين المقدسة! ساعدونا ... سوف نرد المساعدة لكم!

وكان عشرون رجلًا تقريبًا من السرية السادسة يمرون حينذاك في طريقهم إلى القرية، فانضموا إليهم وراحوا يدفعون معهم، فراح الحاجز وطوله يزيد على العشرة أمتار وعرضه على المترين، وقد ارتكز ملتويًا على أكتاف الجنود اللاهثين الذين كان يسحقهم بثقله ويقطع أنفاسهم، يترنح على طول شارع القرية.

– هيا، تقدم يا ... إنك تتعثر أيها الحيوان ... لماذا تتوقف ...؟ هيا، اصمد!

واستمرت السباب اللاذعة المرحة لا تنقطع. وفجأة زمجر صوت صف ضابط آمر هُرِع صاحبه نحو الحمالين: ماذا تفعلون؟ إن الرؤساء هنا وفي الكوخ «جننار»، يا لطغمة الصعاليك يا هؤلاء! سوف أساعدكم!

وأحكم على ظهر أول جندي وصلت إليه يده دفعة قوة، واستأنف: أما كنتم تستطيعون إثارة أقل من هذه الضجة؟

صمت الجنود، بينما راح الذي تلقَّى الضربة من صف الضابط يمسح وجهه المغطى بالدم الذي جُرِح إذ اصطدم بالحاجر، وهو يزمجر مغمغمًا، وقال بلهجة وجلة عندما ابتعد صف الضابط: آه! الحيوان، يا للضربة التي أصابني بها! آه! إن «بوزي» كله ملطخ بالدم.

فقال صوت ساخر: إنك لا تحب ذلك، هه؟

لكن الجنود استمروا في طريقهم بعد أن خفضوا من هتافاتهم.

وعندما خرجوا من القرية عادوا يتحدثون بصخب، ويطلقون السباب بكل مناسبة ودون سبب.

وفي الكوخ الذي مر الجنود أمامه كانت القيادة العليا مجتمعة، يشرب أعضاؤها الشاي ويتناقشون بحمية حول أحداث النهار والتحركات المقررة لليوم التالي. لقد عُرِض القيام بمشية جناح على الجانب الأيسر لقطع فرقة نائب الملك وأسره.

ولما جاء الجنود بالحاجز المحطم كانت نيران المطاهي المتنقلة مستعرة في كل مكان والخشب يفرقع والثلج يذوب، وأطياف الجنود السوداء تروح وتجيء على طول المساحة التي يشغلونها المغطاة بالثلج الذي وطئته الأقدام.

كانت الفئوس والأزند تعمل بنشاط، وراح كلٌّ يعمل دون أن ينتظر صدور الأمر إليه، جاءوا بالحطب لإذكاء نار الليل، وأخذوا يعدون الأكواخ للرؤساء، ويطهون الطعام في القدور، وينظفون الأسلحة والتجهيزات.

أُقِيم الحاجز الذي جاء به رجال السرية الثامنة على شكل نصف دائرة من ناحية الشمال ودُعِّم بالأسناد، ثم أُوقِدت نار المعسكر أمامه، ثم نُفِخ في البوق إيذانًا بالاستراحة، وأُجْرِي التفقد، وأكل الجميع، ثم اتخذوا أماكنهم أمام النار لقضاء الليل؛ هذا يرفع حذاءه، وذاك يدخن غليونه، وثالث يخلع ملابسه بحثًا عن «قملاته».

الفصل الثامن

لَغَط الجنود

كان يمكن الظن بأن الجيش الروسي، في الشروط الفظيعة التي لا يمكن تصور قسوتها تقريبًا، التي كان الجندي الروسي يعاني منها وهو محروم من الأحذية المبطَّنة وجلود الخراف مفتقرٌ إلى سقف فوق رأسه في درجة حرارة بلغت ١٨ تحت الصفر، بل ودون جرايته الكاملة لأن الأرزاق ما كانت دائمًا تتبع الفرق في تنقلاتها؛ كان يمكن الظن بأن الجيش الروسي يبرز مظهرًا من أكثر المظاهر مدعاة للإشفاق والأسى.

على العكس: إن الجيش، حتى في الظروف المادية الأكثر مواتاة، لم يعطِ مشهدًا أكثر وداعة وبهجة وحمية، ذلك أنه مع الوقت كان من يفقد شجاعته أو تخور عزائمه ينشق من الجيش، أي إن العناصر الضعيفة ماديًّا ومعنويًّا باتت منذ أمد طويل في المؤخرة، فلم يبقَ إلا زهرة الجيش القوة الروحية والجسدية.

كانت السرية الثامنة التي يحميها الحاجز تضم عددًا كبيرًا من الجنود، انضم إليهم رقيبان لأن النيران في السرية كانت أشد استعارًا من النيران الأخرى، كان أولئك الجنود يشترطون للجلوس حول النار الإتيان بالحطب ليحق لمن يأتي به الاصطلاء.

صاح جندي أصغر، متورِّد الوجه، كانت عيناه تطرفان بفعل الدخان دون أن يبتعد عن النار: هيه، يا ماكييف، أين أنت؟ ... هل ضعتَ أم هل افترستك الذئاب؟ جِئْ بحطب.

وصاح آمرًا جنديًّا آخر: هيا، تحرك، يا مصير الخنزير جِئْ بحطب.

لم يكن الأمغر رقيبًا حتى ولا عريفًا، لقد كان جنديًّا قويًّا يستغل قوته ليتحكم بمن هم أضعف منه. نهض الجندي الصغير النحيل ذو الأنف المدبب الذي وُصِف بمصير الخنزير واستعد بدعة للخضوع للأمر الصادر، ولكن في تلك اللحظة بالذات ظهر على ضوء اللهب شبح ضامر لجندي شاب محمل بالحطب.

– هاته إلى هنا، عال!

وكُسِر الحطب وحُوِّل إلى قطع صغيرة، ثم أُضْرِمت النار وهم ينفخونها ويحركون ذيول المعاطف، ولم يلبث اللهب أن صعد مفرقعًا. اقترب الجنود وأشعلوا غلايينهم، وراح الجندي الشاب الجميل الذي جاء بالحطب يقرع الأرض بنعليه بشدة وحذق وقد وضع قبضتيه على وسطه بغية بعث الدفء في قدميه المتجمدتين، ثم شرع يغني وهو يفيق لدى كل كلمة (والمعروف أن قرع الأقدام على طريقة الرقص الشعبي يُشْفَع دائمًا بأغنية): آه! يا أمي الصغيرة، الندى بارد وجميل وحامل البندقية ...

صرخ الأمغر وقد لاحظ أن نعلَي الراقص تالفتان: هيه! إن نعليك «طائرتان»! يا له من سم هذا الرقص!

توقف الراقص وانتزع قطعة الجلد السائبة وألقاها في النار، وقال وهو يجلس: إيه نعم، يا شيخ!

وأخرج من حقيبته قطعة من القماش الأزرق الفرنسي لف قدمه بها، وأضاف وهو يمد ساقيه نحو النار: إن الحرارة تخدرهما.

– سوف يسلموننا أحذية جديدة بعد حين. يقولون إنه عندما تنتهي الأمور ستُدفَع لنا أجورنا مضاعفة.

قال واحد من الرقيبين: قل لي، هذا الكلب بيتروف لقد تخلف في الطريق.

فرد الآخر: كنت أشك في ذلك منذ وقت طويل. ماذا تريد «شقفة» جندي كهذا؟! ...

يقولون: إن تسعة جنود تخلفوا عن تفقد الأمس في السرية التاسعة.

– ولكن تعقل قليلًا، كيف يمكن متابعة المسير عندما تتجلد الأقدام؟

فهتف صف الضابط: إيه! يا للخرافة!

فقال جندي عجوز بلهجة عتاب، مخاطبًا ذاك الذي تحدث عن الأقدام المتجمدة: هل بك رغبة إلى تذوق ذلك؟

سأل وهو ينهض من الجانب الآخر من النار الجندي ذو الأنف المدبب الذي وُصِف بأنه مصير خنزير: ماذا تريد أن تقول؟

ثم أضاف بصوت حاد مرتعد: مهما كان المرء سمينًا فإنه ينحل، والهزال معناه الموت.

وأكد فجأة بلهجة حازمة مخاطبًا واحدًا من الرقيبين: خذ مثلًا أنا، إنني فقدت قواي فاعمل على إدخالي المستشفى لأنني أشعر بأوصالي كلها منعقدة، وإلا فإنني لن أستطيع المثابرة على اتِّباع الصفوف.

فرد صف الضابط بهدوء: هيا، لا تنطق بهذه الغباوات.

فصمت الجندي الصغير وعاد الحديث، فقال جندي راغب في إثارة موضوع جديد للنقاش: إننا اليوم لم نأخذ شيئًا قليلًا من أولئك الفرنسيين، أما فيما يتعلق بالأحذية فإن ما من واحد منهم كان يملك زوجًا حقيقيًّا منها، يمكن القول إنها ليست أحذية إلا بالاسم.

– إن القوقازيين هم الذين يأخذونها منهم دائمًا، لقد نظفوا المسكن من أجل الزعيم، وحملوا الجثث إلى الخارج، ولقد فتشوها وقلبوها حتى إن ذلك كان يدعو إلى الشفقة.

وأضاف المتكلم وهو الجندي الذي كان يرقص: كان بينهم واحد لا يزال على قيد الحياة، لو تصدق، وكان يغمغم شيئًا ما بلغَتِه.

فاستأنف الأول: ثم إنهم أشخاص نظيفون أيها الأولاد، إنهم بيض، بيض كالسندر، ثم إن بينهم باسلين ونبلاء أيضًا! لو علمت!

– ماذا كنت تظن إذن؟ إنهم يُجنَّدون في بلدهم من كل الفئات.

فقال الراقص بابتسامة دهشة: ثم إنهم لا يعرفون كلمة واحدة من اللغة الروسية، سألت أحدهم: «إلى أي تاج تنتمي؟» فدمدم بما لست أدري ماذا، يا للشعب المضحك!

واسترسل الذي أظهر دهشته للون الفرنسيين الأبيض: ثم إن فيهم شيئًا غريبًا أيها الإخوان، هل تعرفون ماذا قال القرويون الذين جمعوا جثث الأموات في موجائيسك؟ لاحظوا أن جثثهم كانت هناك منذ شهر، حسنًا، لقد قالوا: إنهم كانوا ممدَّدين ولونهم أبيض كالورق، نظيف تمامًا دون أدنى رائحة.

فرد جندي: لا ريب أن ذلك مبعثه البرد، أليس كذلك؟

– يا للماكر! بسبب البرد! لكن الطقس كان دافئًا، فلو أنهم تجمدوا لوجب ألَّا تتفسخ جثث رجالنا أيضًا، مع ذلك فقد بدا أنهم ما إن يجمعوا واحدًا حتى يروا أنه كتلة من الديدان فكان يجب لف الفم بمنديل والإشاحة بالوجه وهم يحملونهم مع ذلك ما كانوا يحتملون، بينما هم لا شيء كالورق الأبيض دون أية رائحة.

صمتوا جميعًا برهة، فقال واحد من الرقيبين: لا ريب أن ذلك ناشئ عن الطعام، إنهم يأكلون كالسادة.

فلم يعترض أحد.

– لقد روى ذلك القروي من موجائيسك حيث دارت المعركة أنهم حملوا الجثث من عشر قرى طيلة عشرين يومًا دون أن يستطيعوا نقلها كلها، وقال إنه كانت هناك جموع من الذئاب …

فأكد جندي عجوز: كانت هذه معركة حقيقية، فيها ما يحمل المرء ذكراه، أما ما دار منذ ذلك الحين … إنه عبارة عن ألم العالم الفقير.

– قل لي يا جداه، لقد تبعوهم أمس الأول لكن لم يتسنَّ لهم الوقت للاقتراب منهم، كانوا قد ألقَوْا بأسلحتهم، وها هم أولاء على رُكَبِهم ينشدون المغفرة، إنهم جيش في المظهر فحسب، يقولون: إن بلاتوف قد أمسك مرتين بـ «بوليون» نفسه، لكنه ما كان يعرف كلمة السر، لقد أمسك به هكذا في يده فتحول «بوليون» إلى عصفور ثم طار وطار. ثم إنه لا يمكن قتله كذلك.

– أنت، كيسليف، أراك تقصد أمرًا، إنك لا تصلح إلا لرواية الأكاذيب.

– كيف أكاذيب؟ إنها الحقيقة الحقة.

– وأنا، لو أنني أمسكت به، عندما أمسكه بيدي سأدفنه حيًّا، ثم سأضربه بعصا من الحَوَر، ذلك لأنه سبب قتل كثير من الناس. (الوتِد من الحور يُستعمَل في ضرب الأرواح الشريرة أو السَّحَرة لمنعهم عن إيذاء الناس، وقد جرت العادة على دفنهم مع وتد من الحور لمنعهم من العودة بعد الموت إلى هذا العالم.)

فأكد الجندي العجوز وهو يتثاءب: لا بأس، إنه لن يفلت دائمًا، سوف نبلغ النهاية.

وهدأ النقاش واستعد الجنود للنوم. هتف جندي كان يتأمل المجرة: انظر «لي» إلى هذه النجوم، إنها رائعة لا ريب في ذلك! هه هذه النساء اللواتي نشرن غسيلهن!

– هذا أيها الفتيان، دليل عام خير.

– لا بد من إضافة كمية أخرى من الحطب.

– إن ظهرنا يحترق وبطننا متجلد، وهذا هو المزعج.

– أوه! يا ربي!

– ما بك أيضًا تدفع، يا أنت؟ ... هل النار لك وحدك؟ انظر كيف يتمدد هذا!

وفي الصمت الذي خيم سُمِع شخير بعض النائمين بينما استمر الآخرون يتقلبون ويتقلبون طلبًا للدفء، ويتبادلون من حين إلى آخر كلمة. ومن معسكر قائم على بعد حوالي مائة خطوة كانت ضحكة مرحة تبلغ الأسماع على دفعات، فقال أحد الجنود: هيه، إنهم يمزحون في الخامسة، ثم يا لكثرة الناس! هذا يثير الفضول!

ونهض ومضى يستطلع ما في السرية الخامسة، وقال بعد أن عاد: ليس هناك ما يضحك، هناك فرنسيان جاءا، أحدهم متجمد كليًّا، بينما الآخر غير متأثر، الرجل! إنه ينشد الأناشيد!

– غير ممكن! هيا بنا إليهما.

ومضى بعض الجنود بدورهم نحو معسكر السرية الخامسة.

الفصل التاسع

رامبال وتابعه

كانت السرية الخامسة قد عسكرت عند تخم الغابة نفسه، وعلى الثلج شبت نار كبيرة أخذت تضيء أغصان الشجر المثقلة كلها بالجليد.

وفي أعماق الليل سمع جنود السرية الخامسة في صميم الغابة وقع خطى على الثلج وتحطم أغصان جافة، هتف أحد الجنود: أوه! أيها الفتيان، دب!

رفعوا جميعهم رءوسهم ليصغوا، فشاهدوا على ضوء النار النيِّر شكلَيْن آدميَيْن خارجَيْن من الغابة في لباس غريب، يسند أحدهما الآخر.

كانا فرنسيَّيْن اختبأا في الغابة، اقتربا من النار وهما يلفظان بصوت أجش كليمات بلغة غير مفهومة من الجنود. كان أحدهما طويل القامة يضع على رأسه عمرة ضابط ويبدو شديد الضعف، فلما بلغ قرب النار أراد أن يجلس لكنه هوى على الأرض تمامًا. أما الآخر فكان جنديًّا قصير القامة ربعة، يبدو أكثر قوة من زميله، يغطي رأسه بمنديل، أنهض رفيقه وقال شيئًا وهو يدل على فمه. أحاط الجنود بالفرنسيَّيْن ومدُّوا المريض على معطف، وجاءوا لهما بحساء الحنطة السوداء والفودكا.

كان الضابط المريض هو رامبال، أما الرجل ذو المنديل المعقود فموريل.

بعد أن شرب موريل قدح الفودكا وابتلع ملء قصعة من الحساء، استبد به مرح محموم وراح يتحدث دون توقف إلى الجنود الذين ما كانوا يفهمونه. أما رامبال فقد رفض أن يأكل وظل ممددًا قرب النار، مستندًا إلى مرفقه، يتأمل الجنود الروسيين بعينيه المحمرَّتَيْن الخاليتَيْن من النظر، ومن حين إلى آخر كان يطلق زفرة حرَّى ثم ينطوي في صمته، ولقد أشار موريل إلى شارات كتفَي رامبال محاولًا إفهام الجنود بأنه ضابط يجب تدفئته. ولقد أرسل ضابط روسي اقترب من النار إلى الزعيم يسأله ما إذا كان يوافق على قبول ضابط فرنسي لديه، ولما عاد الرسول يعلن عن سماح الزعيم بحمل الضابط إليه،

أشاروا إلى رامبال بالذهاب إلى هناك، فنهض وأراد أن يسير، لكنه كاد أن يسقط لو لم يبادر الجندي الذي كان إلى جانبه إلى إسناده.

قال الجندي لرامبال وهو يطرف بعينه ساخرًا: هه، ماذا؟ لن تعود إلى مثلها؟

فهتف الجنود من كل صوب وقد أحنقتهم هذه الدعابة: هه، أيها الأحمق! ماذا تنهق؟! أيها المنحط! نعم منحط!

أحاطوا برامبال فحمله جنديان على أذرعهما المعقودة ومضوا به إلى داخل الكوخ، وكان رامبال وذراعه حول عنق حاملَيْه يقول بصوت شاكٍ: أوه! أيها البواسل، أيها الطيبون، يا أصدقائي الطيبين! ها هم أولاء رجال! أوه! أيها البواسل، يا أصدقائي الطيبين!

وأسلم رأسه كالطفل على كتف أحدهما.

خلال ذلك كان موريل قد جلس في أفضل مكان وحوله الجنود.

كان موريل فرنسيًّا قصيرًا ربعة، أحمر العينين دامعهما، يعقد منديله كالقرويات العجائز فوق عمرته، ويرتدي «فروة» نسائية قبيحة الشكل. كان موريل ثملًا بشكل واضح، يحيط عنق الجندي الجالس إلى جانبه بذراعه، ويغني بصوت متهدج أغنية من بلده، أما الجنود فكانوا يمسكون بأضلاعهم وهم يتأملونه.

هتف الذي كان موريل يحيط عنقه بذراعه وهو محب للمزاح والغناء: هيا، هيا، علمنا هذه الأغنية، هه سوف أحفظ اللحن بسرعة، كيف هو؟ …

أخذ موريل يغني وهو يخزر عينيه: يحيا هنري الرابع، يحيا هذا الملك المقدام، هذا الشيطان على أربع …

راح الجندي يردد وهو يلوح بيديه: فيفاريكا! فيف سييروفارو! سيديا بلاكا …

والواقع أنه حفظ اللحن بشكل لا بأس به، فراح رفاقه يهتفون من حوله ويشفعون هتافهم بقهقهات مدوية: يا للبراعة! هو، هو، هو، هو!

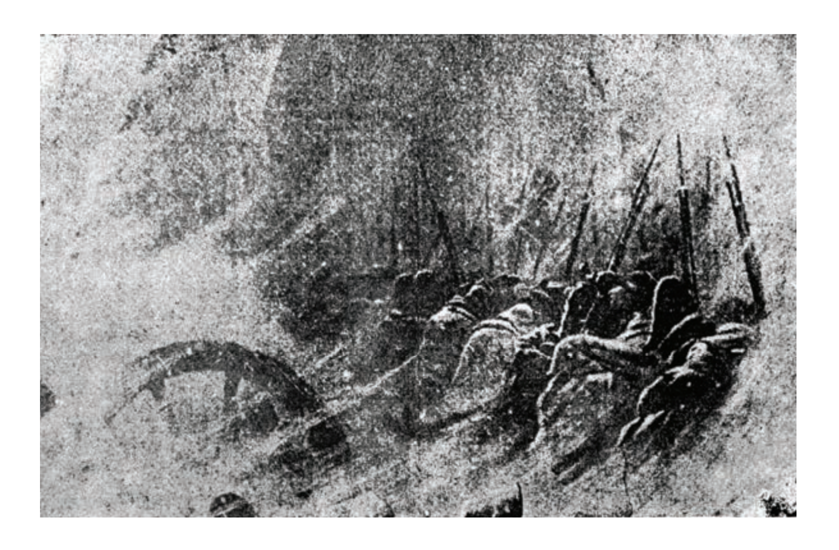
فكان موريل يقهقه بدوره وهو يصعِّر وجهه: هيا، استمر يا شيخ!

الذي له الموهبة المثلثة.

موهبة الشرب والقتال وأن يكون مغازلًا كيِّسًا …

– آه! إن لهذا وقع جميل! هيا، دورك يا زاليتاييف! …

فراح زاليتاييف يردد بجد ومجهود وقد أبرز شفتيه: كيو، كيو، كيو … لييتر يبتالا ديي بو ديي باديترا فاجالا.



الجيش الكبير يعسكر في الليل.

– مرحى! رائع! مثل الإفرنسي تمامًا! حسنًا! ها! ها! ها! قل يا هذا، ألا زلت جائعًا؟
– أعطوه حساء القمح الأسود، إنه لا يشبع بمثل هذه السرعة.

قدموا له الحساء من جديد، فراح موريل يلتهم ملء إنائه الثالث وهو يضحك. كانت وجوه الجنود الشبان كلهم مشرقة لرؤية هذا الفرنسي، أما المسنون الذين كانوا يجدون أن الاهتمام بمثل هذه الترَّهات غير جديد بهم، فقد لبثوا ممدَّدين إلى الجانب الآخر من النار يتناحرون بين الحين والآخر بالمرافق ليتأملوا موريل وهم يبتسمون.

قال أحدهم وهو يتدثر بردائه: إنهم بشر مثلنا، إن نبات الأفسنتين ينبت هو الآخر على جذوره. (نبات الأفسنتين يُعتبَر في نظر القرويين الروسيين نبتة سيئة.)

– أوه، مولاي الرب! يا لكثرة النجوم! سوف يعقب ذلك الحمد! ...

وصمت كل شيء وكأن النجوم كانت تعرف أنه لم يبقَ هناك من ينظر إليها، فراحت تستعيد مرحها وحركتها في السماء القائمة، كانت تارة براقة وأخرى منطفئة وتارة ملتمعة، تبدو كأنها تتهامس فيما بينها بشيء بهيج غامض.

الفصل العاشر

نهاية المهمة

استمرت القطعات الفرنسية في ذوبانها المنتظم بحسب توالٍ حسابي صارم، حتى ذلك المرور في بيريزينا الذي كتبوا حوله أقوالًا كثيرة، فإنه بدلًا من أن يكون حادثًا لاحقًا حاسمًا في الحملة لم يكن إلا خطوة أخرى في عملية تهديم الجيش الفرنسي. وإذا كانوا كثيرًا ما كتبوا وما زالوا يكتبون عن بيريزينا من جانب الفرنسيين، فإن مبعث ذلك أن المصائب التي أصابت الجيش الفرنسي والتي كانت من قبل متشابهة كلها احتشدت فجأة هنا حول ذلك الجسر المنهار، في مشهد «تراجيدي» أُعِد بإتقان ليبقى عالقًا في الأذهان. ومن الجانب الروسي إذا كتبوا كثيرًا وما زالوا يكتبون حول بيريزينا، فإن سبب ذلك أنهم في بيترسبورج بعيدًا عن ساحة المعركة كانوا أعدوا خطة هي خطة «بفوهل»، كانت ترى في ذلك النهر نافورة «استراتيجية» سيغرق فيها نابليون، وكان كل شخص هناك واثقًا من أن كل شيء سيجري في الواقع تبعًا لتلك الخطة، لذلك فقد راحوا يتهافتون على التأكيد بأن عبور بيريزينا سبب ضياع الجيش الفرنسي على وجه الدقة. وفي الحقيقة أن نتائج هذا العبور كانت أقل تخريبًا لهم من خسائرهم بالرجال والمدافع في كراسنوابيه، والأرقام تدل على صحة ذلك.

ليس للعبور في بيريزينا غير معنى واحد، لقد أعطى الدليل الواضح الذي لا يقبل الشك على خطأ كل الخطط الرامية إلى قطع العدو وعلى صحة السلوك الوحيد الممكن، ذلك الذي كان كوتوزوف يطالب به قطعاته كلها (السواد الأعظم)، والذي يقوم على أساس تعقب العدو فحسب. كان فرار الفرنسيين يجري بسرعة متزايدة تنشِّطه حيويتهم الرامية إلى هذا الهدف وحده، كانت حشودهم تفر كالحيوان الجريح، فكان يستحيل عليها الوقوف في الطريق. ولقد دلل على ذلك عبور بيريزينا نفسه فوق الجسور أكثر مما دلل عليه تنظيم العَبْر، فعندما تحطمت الجسور استمروا جميعهم: الجنود المجردون من

الأسلحة، سكان موسكو، النساء والأطفال الذين كانوا في رحال الفرنسيين. استمروا كلهم، وقد استولت عليهم قوة المقاومة السلبية بدلًا من الاستسلام، في الفرار إلى الأمام في زوارق أو في المياه المتجمدة.

وهذا التهافت معقول، لأن مركز الفارين ومطارديهم كان سيئًا على السواء، ففي البقاء مع بني قومه كان كل واحد يعتمد على مساعدة زملائه في حالة البؤس، في النطاق المحدود للمركز الذي يشغله بينهم. بينما الاستسلام للروسيين معناه البقاء في تلك المصيبة إياها، يزيد فيها واقع كونهم آخر من تُوزَّع عليهم الأرزاق. ولم يكن من حاجة بالفرنسيين إلى معرفة أن نصف الأسرى الذين يحتفظ بهم الروسيون دون أن يعرفوا ما هم صانعون بهم، يموتون بردًا وجوعًا رغم رغبة الروسيين في إنقاذهم، ويشعرون بأن الأمور لا يمكن أن تدور على نهج آخر. ما كان أكثر الرؤساء الروسيين إشفاقًا على الفرنسيين — ولا أولئك الذين بهم استعداد خاص للعطف عليهم، ولا الفرنسيون العاملون في خدمة الروسيين — قادرين على مد يد المساعدة للأسرى، فكان ضياع الفرنسيين مرده الخاتمة التي وجد الجيش الروسي نفسه فيها. وما كان يمكن حرمان الجنود المجوَّعين الذين هم في حاجة إليهم من الخبز والكساء ليقدموه هدية إلى الفرنسيين العزل الذين ما كانوا يحقدون عليهم والذين ما كانوا مذنبين، بل كانوا أفواهًا عديمة النفع فحسب، ولقد نهج بعضهم هذا النهج رغم ذلك لكنه كان عملًا استثنائيًّا.

في المؤخرة كان الخسران المؤكد، وفي المقدمة الأمل، ولقد أحرقوا مراكبهم فلم يبقَ من وسيلة للخلاص إلا الفرار المشترك الجماعي، فكانت قوى الفرنسيين كلها تجنح إلى ذلك الفرار.

وكلما طال أمد التقهقر أصبح حطامهم أكثر بعثًا للرثاء وخصوصًا اعتبارًا من بيريزينا، ذلك أن بيريزينا تبعًا للخطة الروسية الموضوعة في بيترسبورج خلقت كذلك في نفوس الروسيين آمالًا خاصة، الأمر الذي نشطت له أهواء القادة الروسيين الذين كانوا يتبادلون الاتهامات ويتهمون على الأخص كوتوزوف، كانوا يزعمون أن عدم نجاح خطة بيترسبورج على بيريزينا يجب أن يُعزَى إليه، فكانت السخريات التي وُجِّهَت إليه والتبرم الذي كان يوحي به والاحتقار الذي يكنونه له تزداد شدة أكثر فأكثر. ولقد كانت السخريات والاحتقار وهذا واضح جلي يُعبَّر عنها بشكل مفعم بالاحترام، حتى إن كوتوزوف نفسه ما كان يستطيع أن يتساءل بأي شيء ولا لأي شيء يتهمونه، وعندما كانوا يرفعون إليه تقريرًا ما ويسألونه أوامره كانوا يتظاهرون بالقيام بحفل مأتمي، فيخزرون عيونهم وراء ظهره ويحاولون في كل لحظة جاهدين أن يخدعوه.

كان هؤلاء الناس كلهم، بسبب عجزهم عن فهمه فحسب، قانعين بعقم مناقشة هذا العجوز الفاني، ويقولون فيما بينهم إنه لا يستطيع قط أن يدرك خططهم إدراكًا عميقًا، وإنه سوف يجيبهم بجملته المألوفة (وكانت هذه في نظرهم جملًا ليس إلا) عن الجسر الذهبي واستحالة تخطي الحدود بجيش من الحفاوة، وهلمَّ جرًّا. ولقد سمعوا هذه النغمة من قبل حتى حلوها، فمثلًا كان كل ما يقوله كوتوزوف عن ضرورة انتظار الأرزاق وافتقار الرجال للأحذية كان كل هذا على بساطة طفولية إزاء عروضهم المعقدة العليمة، فهو إذن ولا ريب رجل عجوز لا يصلح لشيء وهم رجال حرب عباقرة ولكن للأسف عاجزون.

وبعد أن التحق بالجيش الأميرال اللامع ويتجنستن، بطل بيترسبورج، بلغت هذه الاستعدادات العدائية وضجيج أركان الحرب وجعجعتهم الذروة، فكان كوتوزوف يشعر بذلك ويكتفي بهز كتفيه وهو يتنهد، ولقد سخط مرة واحدة بعد بيريزينا فكتب الرسالة التالية إلى بيينجسن الذي كان يبعث إلى الإمبراطور بتقارير خاصة:

> نظرًا إلى حالتكم الصحية المؤقتة، أرجو سعادتكم الذهاب إلى كالوجا فور تلقيكم هذه الكلمة والانتظار هناك القرار الذي سيُتَّخذ بشأنكم من قبل جلالته الإمبراطورية.

وبنتيجة طرد بيينجسن شاهد الجيش عودة الجراندوق كونستانتان بافلوفيتش، الذي بعد أن نشط في بداية الحملة أُبْعِد من قبل كوتوزوف. ومنذ أن وصل الجراندوق أبلغ كوتوزوف استياء الإمبراطور لأن انتصارات جيوشنا كانت تافهة جدًّا وحركاتنا بطيئة جدًّا، وأنهى إليه أن الإمبراطور شخصيًّا عازم على اللحاق بالجيش.

فأدرك هذا الرجل العجوز الذي كانت به خبرة في شئون البلاط بقدر خبرته بشئون الحرب، كوتوزوف هذا الذي عُيِّن في شهر آب من العام نفسه قائدًا على رغم إرادة ملكية، ذلك الرجل نفسه الذي أبعد عن الجيش وريث العرش والذي اتخذ من عندياته وضد رغبة الإمبراطور قرار إخلاء موسكو؛ أدرك هذا الرجل أن زمنه قد انصرم، وأن دوره قد انتهى، وأن السلطة الشكلية التي في يده لم يعد لها وجود. ثم إنه لم يكن يفهم ذلك كرجل بلاط فحسب، لقد كان يشعر من جهة أن النشاط العسكري الذي لعب فيه دوره قد أوفى على نهايته وأن مهمته قد أُنْجِزت، ومن جهة أخرى أخذ يحس بنفس الوقت في جسمه الذي حطَّمَتْه السن بتعب يرغمه على انتجاع سبل الراحة.

الفصل الحادي عشر

وصول الإمبراطور

دخل كوتوزوف إلى فيلنا في التاسع والعشرين من تشرين الثاني إلى مدينته الطيبة فيلنا كما كان يقول، لقد تولى مرتين في حياته العملية ولاية هذه المدينة، كان يستعد في هذه المدينة الغنية التي ظلت سليمة من كل أذى، إلى جانب الرفاهية التي حُرِم منها زمنًا طويلًا، أصدقاؤه القدماء وذكريات قديمة. استغرق فجأة، وقد تخلص من كل شاغل عسكري أو سياسي، في حياة منتظمة هادئة بقدر ما كانت الأهواء التي تستعر في أعماقه تسمح له، وتظاهر وكأن كل ما كان يدور حينذاك وما كان سيجري في تاريخ العالم لا يمسه مطلقًا.

استقبله تشيتشاجوف، وهو الأكثر حماسًا بين أولئك الراغبين في قطع العدو وصده، تشيتشاجوف هذا الذي كان بادئ الأمر يريد القيام بحركة لإلهاء العدو في اليونان ثم في فارسوفيا، ولكنه يرفض دائمًا الذهاب إلى حيث يرسلونه، تشيتشاجوف هذا الشهير بأجوبته الجريئة للإمبراطور، تشيتشاجوف هذا الذي كان يعتبر كوتوزوف مدينًا له لأنه عام ١٨١١ عندما أُرسِل إلى تركيا لعقد الصلح وجد أن الصلح قد عُقِد فعلًا، فاعترف أمام الإمبراطور بأن موهبة كوتوزوف هي التي أدت إلى هذه النتيجة، تشيتشاجوف هذا هو الذي كان أول من استقبله في قصر فيلنا حيث كان يجب أن يحل. سلم تشيتشاجوف، وهو في ثوب أميرال والسيف القصير عريض النصل إلى جنبه والعمرة تحت ذراعه، إلى جانب مفاتيح المدينة تقريرًا عن حالة الحامية إلى كوتوزوف. وكان الاعتبار المحتقر الذي كان الشباب يظهرونه لهذا العجوز الذي بات يجنح في نظرهم إلى الطفولة يظهر في أجلى معانيه في تصرفات تشيتشاجوف، الذي كان على علم بالاتجاهات الموجهة حتى ذلك الحين إلى كوتوزوف.

قال كوتوزوف لتشيتشاجوف خلال محادثة معه، في جملة ما، قال إن الجياد والعربات التي سُلِبت منه في بوريسوف، والتي كانت تحوي آنيته، لم يمسها الأذى وأنها ستُعاد إليه.

فرد تشيتشاجوف بانفعال: إنك تريد بذلك أن تقول إنني لا أملك ما أقدم الطعام فيه ...؟ مع أنني أستطيع على العكس أن أقدم من كل شيء، حتى في الحالات التي ترغب فيها أن تقيم الولائم.

وكان يريد بكل كلمة من كلماته أن يثبت بأنه غير مسئول للإخفاق الحاصل على بيريزينا، وأنه بالتالي يعتقد أن كوتوزوف يحمل في نفسه هذا الشاغل بالذات.

فرد كوتوزوف وقد طافت على شفتيه ابتسامته الدقيقة المؤثرة وهو يهز كتفيه: لم أقل لك ذلك إلا لأقول ما قلت.

أوقف كوتوزوف في فيلنا، ضد رغبة الإمبراطور، سير معظم قطعات جيوشه. ولقد ضعف وخار بشكل خارق — على زعم المحيطين به — خلال مكوثه في تلك المدينة، كان يهتم مرغمًا بشئون الجيش، ويحيل الأعمال كلها إلى جنرالاته، يحيا حياة مفرجة بانتظار وصول الإمبراطور.

ولقد وصل الإمبراطور إلى فيلنا في الحادي عشر من كانون الأول، بعد أن غادر بيترسبورج في السابع منه مع حاشيته والكونت تولستوي والأمير فولكونسكي وأراكتشييف وآخرين، ومضى مباشرة إلى القصر في زحَّافة السفر. وأمام القصر، رغم البرد الشديد، كان حوالي مائة جنرال وضابط أركان حرب ينتظرون في ثياب العرض مع حرس شرف من فيلق سيميونوفسكي.

ولقد وصل الرسول الذي يسبق الإمبراطور بسرعة هائلة على زحافة يجرها ثلاثة جياد يغطيها الزبد، وصاح: «إنه يصل!» فاندفع كونوفنيستلين إلى الدهليز لإخطار كوتوزوف، الذي كان ينتظر في غرفة البواب الصغيرة.

وبعد دقيقة بدا شبح العجوز الضخم في ثوب العرض تزين الأوسمة صدره ويقطع بطنه وشاح، وتقدم نحو المرقاة بخطى غير ثابتة. وضع كوتوزوف العمرة الملائمة لثوبه وأمسك بقفازين بيده، ونزل الدرجات بصعوبة وهو يمشي متمايلًا، فبلغ أسفل السلم حاملًا في يده الطليقة التقرير المعد للملك.

ثار لَغَط وهمس، ومن جديد مرت زحافة كبيرة بأقصى سرعة، وانتقلت الأنظار كلها إلى زحافة كانت تقترب، كان شبح الإمبراطور ظاهرًا فيها ومعه فولكونسكي.

وعلى الرغم من اعتياده تلك المظاهر طيلة خمسين عامًا، فإن ذلك أحدث اضطرابًا حسيًّا على الجنرال العجوز، فراح يتحسس نفسه بحركة محمومة وأصلح قبعته، ثم رفع عينيه إلى الإمبراطور في اللحظة التي كان ينزل فيها من الزحافة، واستعاد ثقته فاتخذ وضعية الاستعداد ومد يده بالتقرير وراح يتكلم بصوت متزن مفرط في المجاملة.

شمل الإمبراطور كوتوزوف بنظرة سريعة من رأسه إلى أخمص قدميه وقطب حاجبيه ثانية، لكنه لم يلبث أن تمالك نفسه ففتح ذراعيه وطوَّق الجنرال العجوز. ومرة أخرى أحدثت هذه الضمة في نفس كوتوزوف أثرها المألوف، إذ انفجر منتحبًا تحت تأثير عادة قديمة مدفوعًا بفكرته الشخصية.

حيًّا الإمبراطور الضباط والحرس من فيلق سيميونوفسكي، ثم بعد أن شد مرة أخرى على يد العجوز دخل معه إلى القصر.

ولما انفرد بكوتوزوف راح العاهل يعرب له عن استيائه لبطء مطاردته وللأخطاء التي ارتُكِبت في كراسنواييه وبيريزينا، وأطلعه على آرائه حول حملة مقبلة في الخارج، فلم يعترض كوتوزوف ولم يقدم أية ملاحظة، كان وجهه يعكس مثل ذلك الخضوع السلبي الذي ظهر عليه قبل سبع سنين عندما كان يصغي إلى أوامر مولاه على ساحة القتال في أوسترليتز.

وعندما خرج كوتوزوف بخطاه الثقيلة المترنحة من الحجرة واجتاز البهو مطرق الرأس استوقفه صوت، قال أحدهم: يا صاحب السمو!

رفع كوتوزوف رأسه وحدق طويلًا في وجه الكونت تولستوي الذي كان واقفًا أمامه يقدم له شيئًا على طبق فضي، بدا على كوتوزوف أنه لم يدرك ما يطلبونه إليه.

وفجأة، وكأنه استعاد حواسه، طافت على وجهه المنتفخ ابتسامة لا تكاد تُرَى وغالى في الانحناء، ثم أخذ ذلك الشيء بمزيد من الاحترام من فوق الطبق الفضي، وكان ذلك الشيء صليب القديس جورج من الدرجة الأولى.

الفصل الثاني عشر

نهاية كوتوزوف

وفي اليوم التالي أقام الماريشال حفلة عشاء تبعتها حفلة راقصة شرفها الإمبراطور بحضوره، لقد تلقى كوتوزوف وسام القديس جورج من الدرجة الأولى، وكان الإمبراطور يظهر حياله منتهى الرعاية والالتفات، لكن ما من أحد كان يجهل أن الإمبراطور مستاء من كوتوزوف. وعلى ذلك فإن اللياقة كانت مرعية والإمبراطور نفسه أعطى المثال عليها، لكنهم كانوا يعرفون جميعًا أن العجوز مذنب، وأنه لم يعد صالحًا لشيء. خلال الحفلة الراقصة، وتبعًا لتقليد قديم يرجع إلى عهد كاتيرين، عندما ولج الإمبراطور قاعة الرقص أمر كوتوزوف على أن تُلقَى عند أقدامه الأعلام التي غُنِمت من العدو، فنطق الإمبراطور ببضع كلمات وهو مقطب حاجبيه تقطيبة عدائية، خُيِّل إلى بعضهم أنه جاء فيها: «أيها المهرج العجوز!»

ازداد استياء العاهل من كوتوزوف في فيلنا أيضًا، لا ريب أن العجوز ما كان يريد ولا يستطيع فهم معنى الحملة المزمع القيام بها.

وفي صبيحة اليوم التالي قال الإمبراطور للضباط المجتمعين حوله: «إنكم لم تنقذوا روسيا فحسب، بل أنقذتم كذلك أوروبا» ففهموا جميعهم حينذاك أن الحرب لم تنته.

بيد أن كوتوزوف وحده ما كان يريد فهم ذلك، بل كان يدلي برأيه بصراحة حول هذه الحملة الجديدة التي لا يمكن أن تحسِّن وضع روسيا ولا أن تزيد مجدها، بل على العكس لا تصلح إلا لزيادة الحالة سوءًا وتقليل درجة المجد الرفيعة التي بلغتها روسيا الآن كما كان يقول. كان يحاول جاهدًا أن يبرهن للإمبراطور على استحالة تجنيد قطعات جديدة، ويتحدث عن موقف الشعب العسير وعن إمكانية السقوط في إخفاق، وهلمَّ جرًّا.

فكان واضحًا أن كوتوزوف بات بمثل هذه الأفكار شيئًا مزعجًا مُوقِفًا لعجلة الحرب المقدرة.

ولتحاشي كل اصطدام مع العجوز وجدوا بشكل طبيعي المخرج المناسب، المخرج نفسه الذي وجدوه في أوسترليتز وفي بدء الحملة مع باركلي: لقد سحبوا من القائد الأعلى أدوات سلطته دون جلبة ودون مزيد من التفسير، ليسلموها إلى الإمبراطور بالذات.

ولهذه الغاية شُرِع في تحقيقها على مراحل بإعادة تشكيل هيئة الأركان.

وبالتدريج أُحِيلت كل السلطة التي كانت لهيئة أركان كوتوزوف إلى لا شيء، وأصبح للإمبراطور اليد العليا على العمليات، وتلقى تول وكونوفنيتسين وإيرمولوف مناصب جديدة، فكان كلٌّ منهم يعلن جهارًا أن الماريشال بات شديد الضعف شديد المرض.

والواقع أن صحته كان يجب أن تكون معتلة تمامًا حتى سلم مناصبه إلى خلفه بهذا الشكل، وكان ذلك صحيحًا إذ كان مصابًا في صحته.

وبمثل البساطة التي شرع فيها كوتوزوف من قبل في ممارسة أعماله تدريجيًّا في الوزارة وتأسيس فرق المتطوعين ليعود إلى الجيش في اللحظة التي لم يكن هناك بدٌّ من وجوده فيها، وكان ذلك إثر عودته من تركيا إلى بيترسبورج؛ بمثل تلك البساطة وبذلك الشكل الطبيعي أقاموا بدلًا عنه سيد الإبداع الجديد، الذي كانت الظروف تطالب به الآن وقد انتهى هو من دوره.

ولقد وجب أن تأخذ حرب عام ١٨١٢، إضافة إلى معناها الشعبي العزيز على النفس الروسية، معنًى أوروبيًّا كذلك.

كان يجب أن يعقب سيرَ شعوب الغرب إلى الشرق سيرُ شعوب الشرق نحو الغرب، وكان يجب لهذه الحملة الجديدة رجل جديد يتحلى بصفات أخرى، بوجهات نظر أخرى، بدوافع أخرى، غير صفات ودوافع كوتوزوف.

وكان ألكسندر الأول، بالنسبة إلى سير شعوب الشرق على شعوب الغرب وبالنسبة إلى إعادة تنظيم الحدود، الشخص الذي لا بد منه، كما كان كوتوزوف لا بد منه من قبل في سبيل خلاص روسيا ومجدها.

ما كان كوتوزوف يعقل معنى الكلمات: أوروبا، توازن، نابليون، وما كان يستطيع فهمها. الآن وقد هُزِم العدو وتحررت روسيا، لم يعد لخالق المجد لمثل الشعب الروسي بوصفه روسيًّا ما يعمله، لم يبقَ لذلك الذي تجسَّدت فيه الحرب الشعبية إلا أن يموت، ولقد مات.

الفصل الثالث عشر

بعد الأسر

كما يحدث دائمًا تقريبًا لم يحس بيير بكل عبء الحرمان والتعب الجسديَّيْن والآلام التي قاساها خلال فترة أسره، إلَّا عندما انتهت تلك الآلام والحرمان والتعب. مضى إلى أوريل بعد أن استعاد حريته، لكنه بعد ثلاثة أيام عندما كان يستعد لمغادرة أوريل إلى كييف سقط مريضًا، واضطُرَّ إلى ملازمة الفراش في أوريل طيلة ثلاثة أشهر لأنه أُصِيب على زعم الأطباء بحمى مرارية، وعلى الرغم من العناية التي لقيها منهم، وعلى الرغم من الأدوية وتكرار الفِصَاد فقد استعاد صحته.

لم يخلف كل ما وقع له منذ تحريره وحتى مرضه أثرًا في ذاكرته، كان يتذكر فقط وقتًا كالحًا كئيبًا ممطرًا تارة ومثلَّجًا تارة أخرى وبخدر جسدي وآلام في الأضلاع والساقين، ويذكر الأثر الذي كان البؤساء المتألمون من الناس يخلفونه في نفسه بصورة عامة، والأسئلة المزعجة التي كان الضباط الجنرالات الفضوليون يطرحونها عليه، وكل تدابيره ليجد لنفسه عربات وجيادًا لها، وعلى الأخص عجزه عن التفكير أو الإحساس بالمكان الذي كان فيه حينذاك. شاهد يوم تحرره جثة بيتياروستوف، وفي اليوم نفسه علم أن الأمير آندريه ظل حيًّا شهرًا كاملًا بعد معركة بورودينو وأنه مات أخيرًا في أياروسلافل، في بيت آل روستوف وفي اليوم ذاته أيضًا لَمَّح دينيسوف، الذي جاء يحمل إليه هذا النبأ، إلى موت هيلين خلال الحديث، مفترضًا أن بيير لا بد وأن يكون على علم بالأمر من قبل، ولقد بدا له كل ذلك في حينه غريبًا فحسب، لقد كان بيير يشعر بعجزه عن فهم معنى هذه الأنباء. لم يكن يتعجل إلا أمرًا واحدًا، أن يبتعد قدر المستطاع عن هذه الأمكنة حيث يقتل الرجال بعضهم بعضًا، والذهاب إلى مكان هادئ يلجأ إليه، وهناك يجمع أفكاره ويستريح ويفكر في كل هذه الأشياء الغريبة الجديدة التي عرفها خلال هذه الحقبة. لكنه لم يكد يصل إلى أوريل حتى مرض، فلما استيقظ من مرضه شاهد بيير نفسه محاطًا

باثنين من خدمه جاءا من موسكو هما تيرانتي وفاسكا، ثم بكبرى الأميرات من بنات عمه التي كانت تقطن في مسكنه في إقطاعيته في إيليتز، التي ما كان بلغها نبأ تحرره ومرضه حتى هُرِعت للعناية به.

لم يتخلص بيير طيلة فترة نقاهته من المشاعر التي باتت أليفة لديه خلال الأشهر الأخيرة إلا بشكل لا شعوري، ما كان يألف إلا تدريجيًّا فكرة أن ما من أحد غدًا سيطرده طرد السائمة، وأن ما من أحد غدًا سينتزع منه فراشه الدفيء، وأنه سيحصل حتمًا على غدائه وعشائه، ولقد ظل فترة طويلة يرى نفسه في الحلم كما كان في الأسر، كما أن بيير لم يدرك معنى الأنباء التي عرف بها يوم أن تحرر: موت زوجته، إبادة الفرنسيين، إلا مع الزمن.

ملأت نفس بيير فرحة عودته حرًّا وامتلاك تلك الحرية الكاملة غير المنقوصة الملازمة للطبيعة البشرية، تلك الحرية التي شعر بها للمرة الأولى عند أول مرحلة بعد مغادرة موسكو طيلة مدة نقاهته. وما كان يدهشه على الأخص هو الشعور بأن هذه الحرية المعنوية المستقلة عن كل ظرف خارجي تأتلف الآن مع أَرْيَحِيَّة مع بذخ من الحرية الخارجية. كان وحيدًا في مدينة غريبة لا يعرف فيها أحدًا، وما كان أحد يطالبه بشيء، ولا أحد يرسله إلى أي مكان، وهو يحصل على كل ما يمكن أن يشتهيه، حتى إن عذابه الفكري الخالد قد اختفى طالما أن زوجته لم تعد على قيد الحياة.

كان يقول عندما كانوا يقربون منه مائدة بديعة التنسيق وعليها آنية من مرق عطر، أو عندما كان يتمدد لقضاء الليل على سرير نظيف ليِّن، أو يتذكر أن كل شيء قد انتهى، أو يذكر زوجته والفرنسيين: آه! كم هذا جيد! كم هذا رائع! آه! كم هذا جيد! كم هذا حسن!

كان يطرح على نفسه حسب عادته القديمة هذا السؤال: «والآن، ماذا سأعمل؟» ثم لا يلبث أن يجيب نفسه بنفسه: «لا شيء، سأعيش، آه! كم هذا جيد!»

وذاك نفسه الذي طالما عذبه من قبل، والذي طالما بحث عنه باستمرار، هدف حياته؛ لم يعد يؤثر عليه. لم يكفِ هدف الحياة ذاك الذي كان يبحث عنه عن أن الكون في نظره في تلك الدقيقة فحسب، بل بات يشعر أنه لم يكن هناك هدف قط وأنه ما كان يمكن أن يكون، فكان غياب الهدف ذاك هو الذي يخلق فيه ذلك الإحساس المفعم المرح بحريته، الذي كان حينذاك مبعث سعادته.

ما كان يمكن أن يكون هناك هدف، لأنه بات الآن يملك الإيمان، ليس الإيمان ببعض القواعد الخاصة أو بعض الأفكار، بل الإيمان بإله حي دائم الشعور به، كان سابقًا يبحث

عن الله في الغاية التي يعرضها على نفسه، فكان ذلك البحث عن الغاية هو البحث عن الله. وفجأة، طيلة أسره، اكتشف ليس بالكلام وليس بالمناقشات الفكرية ولكن بلون من الوحي الخاص، ما كانت مربيته العجوز تقوله له من قبل: إن الله هنا، هناك، في كل مكان. لقد تعلم خلال أسره أن إله كاراتاييف أكبر وأجلُّ من أن يُدرَك، وأكثر امتدادًا وامتناعًا عن التحديد من الله الذي يسميه الماسونيون مهندس الكون الأعظم. كان يعتلج في نفسه شعور الرجل الذي يجد عند قدميه ما كان يبحث عنه جاهدًا في الأبعاد، لقد أمضى حياته كلها ينظر إلى البعد إلى نقطة ما فوق الرءوس التي تحيط به، في حين أنه لم يكن عليه إلا أن ينظر ما هو أمامه دون أن تجحظ عيناه.



الجيش الكبير يبدأ بالتقهقر.

من قبل لم يعرف كيف يرى في أي مكان هذه العظمة التي لا تُدرَك والتي لا يُحَاط بها، كان يحس بها فحسب أنها ولا ريب موجودة في مكان ما لذلك كان يبحث عنها. وكان كل ما هو قريب منه مفهوم منه يبدو له محدودًا سخيفًا مبتذلًا ومنافيًا، كان يتسلح بنوع من المنظار المقرب الفكري لينقب في الأبعاد، حيث كانت أشياء عقيمة ساخرة يحجبها الضباب تبدو له عظيمة غير محدودة، لمجرد أنها لم تكن مرئية بوضوح، ولقد تمثل حياة أوروبا على هذا النحو والسياسة والماسونية والفلسفة ومحبة البشر. ولكن ابتداء من هذه الآونة، في اللحظة نفسها التي كان يقيس فيها ضعفه، والتي كانت روحه فيها تتغلغل في

ذلك البعيد؛ كان يرى ذلك الغرور إياه وتلك الحقارة وذلك السخف نفسه. لقد تعلم الآن رؤية العظمة، الخلود المحيط بكل شيء، ولكي يتأمل هذا الكل وينعم بتأمله ترك منظاره المقرب، الذي ظل حتى تلك اللحظة يستعمله للنظر فوق رءوس الرجال، راح بمرح يتأمل حوله مشهد الحياة المتبدلة أزليًّا، الكبيرة أزليًّا، الممتنعة التي لا حدود لها. ولم يعد السؤال الرهيب «لماذا؟» الذي كان من قبل يهدم كل ما تشيده أفكاره، يُطرح عليه، لقد أصبحت نفسه الآن متمسكة بجواب مُعَدٍّ على «لماذا؟» تلك «لماذا؟» لأن الله موجود، هذا الله الذي لا تسقط شعرة من رأس إنسان دون إرادته.

الفصل الرابع عشر

بعث جديد

لم يبدل بيير شيئًا تقريبًا من طرق الظاهرية، بل ظل يقدم المظهر إياه، كان ساهمًا كحاله من قبل، يبدو منشغل البال ليس بما يقع تحت عينه بل بشيء ما خاص، شخصي. فكان الفارق بين حاله القديم وحاله الحاضر يرتكز على أنه من قبل عندما كان يفقد عن إبصاره ما هو أمامه أو ما كان يقال له، كانت تغضنات أليمة تقلص جبينه وكان يبذل مجهودًا عقيمًا لمشاهدة شيء ما بعيد جدًّا، أما الآن فإنه ما زال ينسى ما يقال له وما هو أمامه، لكنه بات يملك ابتسامة دقيقة ساخرة للنظر إلى ما هو أمامه وللإصغاء إلى ما يقال له، على الرغم من أنه كان بكل تأكيد يرى ويسمع شيئًا مختلفًا تمامًا. كان من قبل يبدو تعيسًا رغم مظهر الطيبة الذي يكسو وجهه، لذلك فإن الناس كانوا يبتعدون عنه لا إراديًّا، أما الآن فإن ابتسامة تعبر عن الفرحة بالحياة كانت تتلاعب على شفتيه، وتشع عيناه بجاذبية وكأنهما تسألان: هل ما زالوا مسرورين مني؟ فكان الناس في حضرته يشعرون بالارتياح.

كان من قبل يكثر الكلام، وينفعل أثناء الحديث ولا يكاد يصغي أبدًا، أما الآن فإن المحادثة قليلًا ما باتت تجتذبه، وبات يحسن الإصغاء، حتى إن الناس أصبحوا يقصون عليه بيسر أعمق أسرارهم الشخصية.

والأميرة ابنة عمه، التي لم تحبه قط، والتي كانت تغذي كراهية خاصة منذ اليوم الذي شعرت فيه بعد موت الكونت العجوز بأنها مدينة له، والتي جاءت إلى أوريل بقصد واحد هو أن تبرهن له على أنها رغم عقوقه تعتبر العناية به كواجب لها؛ هذه الأميرة شعرت بسرعة بعد مكوثها القليل بأنها تحبه وذلك لفرط سخطها ولمزيد دهشتها، في حين أن بيير ما كان يعمل شيئًا لكسب مودتها، كان يكتفي بأن يتأملها بفضول. وكانت الأميرة من قبل تشعر في النظرة التي يوجهها إليها بلا مبالاة وسخرية، لذلك فقد كانت

في حضرته كما في حضرة الآخرين تنطوي على نفسها فلا تظهر إلا مزاجها الباسر، أما الآن فعلى العكس أخذت تشعر بأنه تغلغل إلى أعمق حنايا نفسها مجازًا، فراحت تكشف له في حذر بادئ الأمر ثم بعرفان عن النواحي الخيرة في عقليتها.

ما كان لأكثر الرجال مكرًا أن يتعمق بأكثر مهارة في ثقة الأميرة، حتى ولو استعرض معها أفضل ذكريات شبابها وأظهر اهتمامه بذلك، مع ذلك فإن براعة بيير كلها كانت ناجمة عن شعوره الشخصي بالمتعة في إيقاظ المشاعر البشرية في نفس هذه المرأة المتغطرسة الجافة الساخطة.

كانت الأميرة تحدث نفسها: نعم، إنه فتى باسل عندما يكون تحت تأثير أشخاص مثلي بدلًا من أن يكون تحت أشخاص سيئين.

ولقد لوحظ التبديل الذي وقع لبيير من جانب خادميه تيرانتي وفاسكا كذلك، اللذين شعرا على طريقتهما بذلك الفارق، وجدا أنه أصبح أكثر بساطة من ذي قبل. كان تيرانتي غالبًا بعد أن يخلع عن سيده الثياب ويتمنى له ليلة سعيدة ينسحب ببطء حاملًا حذاءيه وثيابه بين يديه، أملًا أن يحدث بيير عن شيء ما، وكان بيير غالبًا ما يلاحظ هذه الرغبة فيستوقف تيرانتي ويسأله: قل لي لحظة … كيف عملت حتى تدبرت لنفسك ما تأكله؟

فيبسط تيرانتي قصة عن دمار موسكو أو عن الكونت المرحوم، ويمكث طويلًا وثياب بيير فوق ذراعه، يتحدث تارة ويصغي تارة أخرى، فلا يمضي إلى الردهة إلا وبنفسه اعتقاد بأنه بات أكثر قربًا إلى مولاه وأنه ينعم بتعلقه به.

وكان الطبيب الذي يعالجه، والذي يحضر لزيارته كل يوم، يعتقد أن من واجبه ككل طبيب يحترم نفسه أن يظهر بمظهر الرجل الذي تُعتبَر كل دقيقة من وقته ثمينة في حساب الإنسانية المعذبة، مع كل ذلك فإنه كان يمكث ساعات طويلة عند بيير يروي له أفضل أقاصيصه، ويحيطه علمًا بملاحظاته عن عادات مرضاه بصورة عامة والسيدات منهم بصورة خاصة، كان يقول: هذا شخص يجد المرء متعة في التحدث معه، خلافًا لما هو عندنا في الإقليم.

وكان في أوريل عدد من ضباط الجيش الفرنسي وقعوا في الأسر، فجاء الطبيب ذات يوم بأحدهم معه وكان إيطاليًّا.

ولقد أَلِف هذا الضابط زيارة بيير، حتى إن الأميرة ابنة عمه ما فتئت تسخر من الشعور الحاني الذي يظهره ذلك الإيطالي حيال ابن عمها.

ما كان يبدو سعيدًا إلا عندما كان يستطيع المجيء لزيارة بيير والتحدث معه عن ماضيه وعن حياته العائلية وغرامياته، ويسهب في إظهار سخطه على الفرنسيين، وخصوصًا على نابليون.

كان يقول لبيير: لو أن الروسيين كانوا يشبهونك ولو قليلًا، فإنه من الخزي محاربة شعب كشعبكم، أنت الذي لشدة ما تألمت بسبب الفرنسيين لا تكاد تحمل في نفسك ضغينة عليهم.

ولقد كسب بيير هذه المحبة القوية من الإيطالي بكل بساطة لأنه أيقظ في نفسه أفضل جوانب روحه، وراح يتأمل تلك الجوانب.

خلال المدة الأخيرة من إقامته في أوريل، تلقى بيير زيارة أحد معارفه القدماء من العالم الماسوني، الكونت فيلارسكي، الذي استقبله في المحفل عام ١٨٠٧، ولقد تزوج فيلارسكي روسية غنية جدًّا تملك عقارات كبيرة في ولاية أوريل، وأصبح يشغل مركزًا مؤقتًا في تموين المدينة.

عندما علم بوجود بيزوخوف في أوريل، جاء فيلارسكي لزيارته رغم عدم وجود روابط صداقة وثيقة بينهما من قبل، مظهرًا بوادر الصداقة والألفة التي يظهرها عادة الأشخاص الذين يتقابلون في صحراء. كان فيلارسكي دائم السأم في أوريل، فشعر بسعادة لوقوعه على رجل لا بد وأن يكون بحسب ظنه منصرفًا إلى مثل المشاغل التي انصرف هو إليها.

لكن فيلارسكي لعظيم دهشته لم يلبث أن رأى أن بيير لم يكن قط في المكانة التي وضعه فيها، وأنه وقع — كما أخذ يحدث نفسه — في الجمود والأنانية، فرغ إلى القول أخيرًا: لقد تطبعت يا عزيزي.

وعلى الرغم من ذلك باتت عشرة بيير تبدو له مستطابة أكثر من ذي قبل، فكان يأتي كل يوم لزيارته، أما بيير فإنه بإصغائه إلى فيلارسكي وبالنظر إليه كان يفكر بذهول غير مصدِّق بأنه كان قبل وقت قريب جدًّا مثله تمامًا.

كان فيلارسكي متزوجًا ورب أسرة، منشغلًا بأملاك زوجته وبوظيفته وأولاده معًا، وكان ينظر إلى هذه المشاغل المختلفة نظرته إلى عقبة في الحياة فيحتقرها، لأن هدفه الأوحد كان سعادته الشخصية وسعادة ذويه، وكانت المشاغل العسكرية والإدارية والسياسية والماسونية تحتكره كليًّا، فكان بيير يهتم بهذه الحالة الغريبة المعروفة منه تمامًا، دون أن يحاول التأثير عليه لإبدال وجهة نظره، أو يحكم عليه بسخرية مرحة هادئة لا تتزعزع.

كان بيير في علاقاته مع فيلارسكي والأميرة والطبيب ومع كل الأشخاص الذين بات يقابلهم الآن، يُظهر بادرة جديدة عادت عليه بميل الجميع إليه، أخذ يعترف بحق كل فرد في التفكير والشعور والنظر إلى الأشياء على طريقته، ويعترف كذلك باستحالة إقناع إنسان ما بالكلام. وهذه الشخصية الشرعية لكل إنسان التي كانت تقلق بيير من قبل وتسخطه، باتت اليوم بالنسبة إليه سبب الاهتمام والانجذاب إلى الناس اللذين يشعر بهما الآن. وطرق النظر إلى الأمور التي يتمتع بها الأشخاص مختلفة، والتي كانت أحيانًا متعارضة تمامًا مع وجهات نظره؛ كانت تبهجه وتخلق على شفتيه ابتسامة وديعة ساخرة.

وفي الأمور ذات الطابع العملي بات بيير الآن يشعر بدهشة أنه يملك مركز الثقل الذي كان يفتقده بالأمس، فقديمًا كانت كل المسائل المادية وبصورة خاصة طلبات الإخراج التي كانت غالبًا ما يتعرض لها بوصفه رجلًا واسع الثراء، تحدث في نفسه اضطرابًا وترددًا ما كان يجد لهما حلًّا، كان يتساءل: «هل يجب العطاء أم لا يجب؟ إن لديَّ مالًا وهو في حاجة إليه، لكل هذا الآخر أشد حاجة إليه منه فأيهما أساعد؟ لعل الاثنين محتالان معًا!» ولما لم يكن يصل إلى التحلل من افتراضاته، فقد كان يعطي الجميع بقدر ما يستطيع العطاء، ويعود دائمًا إلى ذلك التردد إياه كلما عرضت له مسألة تمس بمصالحه، وأشار عليه أحدهم أن ينهج هذا النهج، بينما يشير آخر عليه بذاك.

أما الآن، لدهشته الكبيرة، أخذ يجد أن الشكوك والتردد في هذه المسائل لم يعد لها مكان، بات الآن يحمل في نفسه حكمًا يحكم تبعًا لقوانين مجهولة منه، ويقرر ما يجب عمله وما لا يجب صنعه.

ظل لا مباليًا كسابق عهده فيما يتعلق بالمسائل المادية، لكنه لم يعد الآن يؤوي أي شك حول ما يجب وما لا يجب عمله. ولقد أصدر ذلك القاضي الجديد حكمه الأول خلال زيارة زعيم فرنسي أسير جاء يعوده وأخذ يسهب في التحدث عن مآثره، وفي النهاية طالبه في شبه إلحاح بإعطائه أربعة آلاف فرنك يرسلها إلى أسرته في فرنسا، فرفض بيير طلبه هذا دون أي تردد أو ارتباك، وقد دُهِش من نفسه فيما بعد إذ استطاع أن يعمل بمثل هذه السهولة ما كان من قبل يبدو على صعوبة لا تُذلَّل، لكنه بينما رفض للزعيم ذلك الطلب قرر أن يتصرف قبل مغادرته أوريل بأسلوب لبق، حتى يجعل الإيطالي يقبل منه مبلغًا من المال كان في حاجة ظاهرة إليه. ولقد كان الدليل الجديد على ثباته في الشئون العملية هو القرار الذي اتخذه بشأن ديون زوجته وإعادة ترميم بيوته في موسكو وفي الريف.

ولقد جاء وكيله الرئيسي يزوره في أوريل، فأقام بيير معه بيانًا تامًّا برُيُوعه المخفضة، وبحسب تقدير وكيله سبَّب حريق موسكو لبيير خسارة تبلغ حوالي مليوني روبل. لقاء هذه الخسارة قدم له الوكيل بيانًا مشفوعًا بالأرقام يثبت أن عائداته ستزداد بدلًا من أن تنقص إذا رفض بيير سداد الديون التي تركتها الكونتيس، والتي لا يمكن لأحد أن يرغمه على دفعها، وإذا عدل عن تجديد منزلَي موسكو والضاحية اللذين يقتضيان مصروفًا يبلغ ثمانين ألف روبل في العام دون أن يعودا عليه بأي نفع.

فقال بيير بابتسامته الفكهة: نعم، نعم، هذا صحيح، لست في حاجة إلى كل هذا، لقد أغناني دماري كثيرًا.

لكن سافليتش هو الذي جاء من موسكو في شهر كانون الثاني، تحدث عن حالة المدينة وعن التصميم الذي وضعه المهندس لإعادة بناء بيت في المدينة وآخر في الضاحية، وراح يتكلم عن هذه الأمور وكأنها قضية منهية. وفي تلك البرهة تلقى بيير رسالة من الأمير فاسيلي ورسائل أخرى أرسلها أصدقاؤه من بيترسبورج. كان موضوع هذه الرسائل يدور حول الديون التي تركتها زوجته، وحينئذ قرر بيير أن المشروع المهم جدًّا الذي قدمه وكيله له خطأ، وأن عليه أن يذهب إلى بيترسبورج لتسوية شئون زوجته، وعليه كذلك أن يعيد بناء بيت موسكو. لماذا كان كل هذا ضروريًّا؟ لم يكن يعرف، لكنه كان يدرك أن عليه أن يتصرف على هذا النحو دون أي شك، ولقد نقصت موارده من جراء ذلك بمعدل ثلاثة أرباعها لكن الأمر كان إلزاميًّا، ذلك كان شعوره.

كان فيلارسكي ينوي الذهاب إلى موسكو، فعملا على أن يترافقا خلال الطريق.

شعر بيير خلال نقاهته في أوريل كلها بإحساس بالفرج والاستقلال والتجدد، فلما سار في الطريق ووجد نفسه في الهواء الطلق وشاهد مئات الوجوه المعروفة ازداد هذا الشعور امتدادًا. كان خلال كل الوقت الذي استغرقه الطريق أشبه بطالب في عطلته: كل الأشخاص الذين قابلهم؛ سائق المركبة، مدير بريد، القرويون على الطريق أو في القرى، كل شيء اتخذ سمة جديدة في نظره، وما كان وجود فيلارسكي وملاحظاته وشكاواه المستمرة عن الفقر ومن تأخر الزحف على أوروبا وجهل روسيا إلا لتزيد من سرور بيير. كان بيير يرى قوة حيوية خارقة حيث لا يرى فيلارسكي إلا مظهر الموت، هذه القوة المتسلطة التي تدعم في ذلك الثلج الذي يغطي المساحات وجودَ هذا الشعب الذي لم يُمَس، الخاص الوحيد. ما كان يتأمل صديقه، ولكنه وكأنه يؤيده في رأيه، لأن التظاهر بالموافقة أقصر سبيل إلى تحاشي محاولات عقيمة، كان يصغي إليه بابتسامة مرحة.

الفصل الخامس عشر

العودة إلى موسكو

كما أنه يصعب بيان أين يذهب النمل، ولماذا يدب فيه النشاط عندما تنهار مدينته فيبتعد بعضه جارًّا معه البُيُوض والجثث والقش والدقيق ويعود البعض الآخر إلى المدينة، ولماذا يتدافع ويتقاتل ويطارد بعضه بعضه؛ كذلك يصعب تفسير الأسباب التي دفعت الروسيين بعد ذهاب الفرنسيين إلى التجمع في ذلك المكان الذي كان يُدعَى من قبل موسكو. وكما يلمس المرء عند ملاحظته النمل المنتشر حول مدينته المخربة، وجلَد هذه الحشرات التي لا تُحصَى ونشاطها وحيويتها رغم انهيار مدينتها الكامل، أن كل شيء قد دُمِّر باستثناء شيء ممتنع عن الدمار، شيء غير مادي هو أساس كل قوة مدينة النمل؛ كذلك موسكو في شهر تشرين الأول، فقد ظلت موسكو نفسها رغم عدم وجود سلطات ولا كنائس ولا أشياء مقدسة ولا ثروات ولا بيوت، ظلت كما كانت في شهر آب، كان كل شيء متهدم فيها باستثناء شيء قوي وغير قابل الهدم.

كانت دوافع الأشخاص المنتقلين نحو موسكو بعد جلاء العدو عنها من أكثر الدوافع اختلافًا، دوافع شخصية وذات طابع بُدائي حيواني في الآونة الأولى. وكان الشعور الوحيد المشترك بين الجموع هو رغبتهم في العودة إلى ذلك المكان الذي كان يُدعَى من قبل موسكو وممارسة نشاطهم فيه.

في غضون أسبوع أصبحت موسكو تضم خمسة عشر ألف ساكن، وبعد أسبوعين قفز العدد إلى خمسة وعشرين ألفًا وهلمَّ جرًّا، ومضى الرقم في تزايد مستمر حتى إن عدد السكان في خريف عام ١٨١٣ فاق عددهم في عام ١٨١٢.

كان الروسيون الأُوَل الذين دخلوا موسكو هم قوقازيو فيلق وينتزبخيرود، وقرويون من القرى المجاورة، والسكان الهاربون الذين اختبئوا في الريف المتاخم، وعندما دخلوا موسكو الخربة ووجدوا أنها منهوبة شرعوا هم كذلك بالسلب، لقد أتموا ما بدأه

الفرنسيون، كان القرويون يقدمون بعرباتهم ليحملوا إلى مساكنهم كل ما بقي في المنازل المتهدمة وفي الشوارع، وحمل القوقازيون كذلك إلى معسكرهم كل ما استطاعوا حمله، ووضع ملَّاك البيوت أيديهم على كل ما وجدوه لدى الآخرين، ونقلوه إلى مساكنهم بحجة أن هذه الأشياء تخصهم.

وبعد هؤلاء النهابين الأولين جاء آخرون ثم آخرون كذلك، وبات السلب آخذًا في الصعوبة كلما ازداد عدد السلَّابين حتى بدأ يأخذ أشكالًا منهاجية.

لقد وجد الفرنسيون موسكو فارغة ولكن حية بأعضاء منتظمة وبكل ما ينفع لممارسة التجارة والمهن والترف والإدارة والدِّين، كانت أعضاء جامدة ولكن صالحة للعمل بعد، كانت هناك أسواق ودكاكين وحوانيت ومستودعات وأماكن لبيع الخضار وجُلُّها مليء بالسلع، وكانت هناك مصانع ومعامل وقصور ومساكن غنية مليئة بالأشياء الثمينة، وكانت هناك مستشفيات وسجون ومكاتب وكنائس وكاتدرائيات. وكلما طال أمد مكوث الفرنسيين راحت إطارات حياة المدينة هذه تختفي، حتى إن موسكو غدت في النهاية ساحة كبيرة متسعة للموت والنهب.

وكلما طال أمد نهب الفرنسيين نضبت ثروات موسكو وطاقة السلَّابين. أما سلب الروسيين، الذي اتصفت به أيام عودتهم الأولى إلى العاصمة، فكان على العكس: كلما طال أمده وكثر عدد المساهمين فيه، أقام ثروة المدينة وحياتها الطبيعية بسرعة أكثر ...

وإلى جانب السلَّابين جاء أناس من مختلف الألوان بعضهم بدافع الفضول، وبعضهم بدافع واجبات عمله، وبعضهم بدافع المصلحة، بين ملَّاكين وطلبة دينيين وموظفين كبار وصغار وباعة وصناع وقرويين، توافدوا من كل حدب إلى موسكو كما يندفع الدم إلى القلب.

ولم يكد يمضي أسبوع حتى صُودِرت عربات القرويين، الذين جاءوا بها فارغة لينقلوا عليها ما يستطيعون حمله إلى منازلهم، واستُعمِلت من جانب السلطة في نقل الجثث خارج المدينة. وآخرون علموا بإخفاق رفاقهم، كانوا يفدون إلى المدينة حاملين على عرباتهم الحنطة والعلف والخَرْطال، ويخفضون الأسعار بشكل مناسب حتى باتت أكثر انخفاضًا من سابق العهد. وراحت فرق من النجارين تفد باستمرار يجذبها ارتفاع الأجر، وشرعت هذه الفرق تعيد البناء أو تصلح البيوت المحترقة. وأخذ الباعة يقيمون لأنفسهم الدكاكين في مبانٍ من الخشب، وفُتِحت الخانات والفنادق في الدور المحترقة. وراح رجال الدين يقيمون الاحتفالات الدينية في عدد كبير من الكنائس ظلت سليمة، وشرع بعض الواهبين يعيدون إلى الكنائس الأشياء ذات الطابع الديني المسروقة. وراح الموظفون

يقيمون في حجرات صغيرة مكاتبهم المغطاة بالقماش وخزائن. وراحت سلطات البوليس توزع الأمتعة والأشياء التي تركها الفرنسيون. وراح أصحاب البيوت الذين وُجِدت لديهم أمتعة كثيرة مصدرها بيوت أخرى يحتجون مشتكين بمغدوريتهم في نقل كل الأشياء المنقولة إلى قصر فاسيت (في الكريملن)، وآخرون أخذوا يحتجون بأن الفرنسيين جميعًا وضعوا كثيرًا من أثاث البيوت في بيت واحد، وأنه ليس من العدل تقديم ذلك المتاع المجموع هدية إلى صاحب البيت الذي وُجِد فيه، وكانوا يشتمون رجال الشرطة ويقدمون إليهم الرشوات، ويغالون في تقدير قيمة الممتلكات المحترقة حتى يصلوا إلى عشرة أضعافها ويطالبون بمساعدات مادية. أما الكونت روستوبتشين فكان يدبج بلاغاته.

الفصل السادس عشر

زيارة ماري للأميرة

وصل بيير إلى موسكو حوالي نهاية كانون الثاني وأقام في جناح من مسكنه ظل قائمًا، قام بزيارة لروستوبتشين وإلى آخرين من معارفه الذين عادوا إلى المدينة، واستعد منذ غداة اليوم التالي لوصوله بمتابعة السفر إلى بيترسبورج. وكان الناس كلهم يتباهون بالنصر وكل شيء يجيش بالحياة في العاصمة المنبعثة. وكان كل واحد سعيدًا برؤية بيير من جديد، يستقبله كل واحد ويستجوبه عما رآه، فكان يشعر في نفسه بأكثر الميول صداقة نحو كل الذين يقابلهم، لكنه أصبح رغمًا عنه يحتفظ الآن ببعض التحفظ الذي كان يسمح له بعدم الدخول في التزام ما. كان يجيب على كل سؤال يُوجَّه إليه سواء أكان السؤال مهمًّا أم تافهًا، عندما يُسأل أين سيقطن، هل سيعيد بناء مساكنه، هل يقبل حمل صندوق صغير معه إلى بيترسبورج؛ كان يجيب: نعم، يمكن أن يكون، آمل ذلك، أو جوابًا آخر من هذا القبيل.

علم أن آل روستوف موجودون في كوستروما، لذلك فإن التفكير في ناتاشا راح يراوده بين حين وآخر، وعندما كانت الفكرة تراوده لم تكن أشبه بذكرى فاتنة لماضٍ يطل منذ زمان طويل، كان يظن أنه تحرر ليس من فروض الحياة كلها فحسب، بل كذلك من ذلك الإحساس الذي يصور له أنه تقبل موضوعًا متعمدًا.

علم غداة اليوم التالي لوصوله إلى موسكو من آل دروبتسكوي أن الأميرة ماري موجودة في موسكو، فراحت آلام وموت وأيام الأمير آندريه الأخيرة تغزو مخيلة بيير الآن بشكل أقوى من أي وقت مضى، فلما علم خلال الغداء أن الأميرة ماري في المدينة وأنها تقطن بيتها في فوزدفيجنكا الذي ظل سليمًا، مضى لزيارتها ذلك المساء بالذات.

لم يكفَّ خلال الطريق عن تمثل الأمير آندريه وتصور صداقتهما ولقاءاتهما العديدة، وبصورة خاصة لقائهما الأخير في بورودينو.

راح يحدث نفسه: «هل يمكن أن يكون قد مات وهو في حالة الانفعال والثورة التي كان عليها حينذاك؟ هل يمكن ألَّا تكون الحياة قد تكشفت له قبل موته؟» وفكر في موت كاراتاييف، فراح رغمًا عنه يقارن بين كليهما رغم الود شديد الاختلاف شديد التقارب مع ذلك الذي كان يكنه لهما، ويقارن بين الطريقة التي عاش فيها كل منهما ومات.

ولقد وصل بيير إلى مسكن الأمير العجوز وهو على تلك الحالة الفكرية الخطيرة، ولقد ظل ذلك المسكن سليمًا يحمل آثار التلف لكنه ظل محتفظًا بطابعه. وكان للوصيف العجوز الذي استقبل بيير وجه صارم، وكأنه كان يريد بذلك أن يشعر الزائر بأن غياب الأمير لم يغير شيئًا من عادات الدار، قال له: إن الأميرة أوت إلى مخادعها منذ حين لاستقبال يوم الأحد.

قال بيير: اذهب وأخطرها بوجودي لعلها تستقبلني.

فأجاب الوصيف: حسب أوامركم. تفضلوا بالدخول إلى قاعة اللوحات.

عاد الوصيف بعد حين يتبعه ديسال، لقد جاء ديسال يخطر بيير على لسان الأميرة ماري بأنها سعيدة جدًّا لرؤيته، وأنها ترجوه إذا لم يجد مانعًا لهذه الطريقة غير المتكلفة أن يصعد إليها.

كانت الأميرة جالسة في حجرة صغيرة منخفضة السقف تنيرها شمعة واحدة، في صحبة إنسان متشح بالسواد. تذكر بيير أنها تحتفظ دائمًا إلى جانبها بسيدات مرافقات، أما فيما يتعلق بمن كنَّ أولئك السيدات وكيف كنَّ، فإنه لم يكن يذكر أبدًا. فكر وهو يلقي نظرة على السيدة المتشحة بالسواد: «إنها إحدى مرافقاتها.»

نهضت الأميرة بنشاط وجاءت تستقبله وتمد له يدها، وتقول وهي تتأمل التغيير الذي طرأ عليه بعد أن فرغ من تقبيل يدها: نعم، هذا هو الشكل الذي نلتقي عليه.

ثم أضافت وهي تنقل بصرها على السيدة المرافقة في شيء من الارتباك جعل بيير يدهش لحظة: لقد تحدث عنك كثيرًا في الأُوَيْقات الأخيرة. كم كنت مسرورة إذ علمت أنك أُنقِذت! إنه الخبر الطيب الوحيد الذي تلقيناه منذ أمد طويل.

ومن جديد ألقت نظرة أكثر قلقًا على السيدة المرافقة، وأرادت أن تضيف شيئًا ما لكن بيير قاطعها ليقول: تصوري أنني ما كنت أعرف عنه شيئًا، كنت أظن أنه قُتِل، وكل ما عرفته نُقِل إليَّ من قبل آخرين، أشخاص ثالثين، لقد رَوَوْا لي أنه وجد نفسه لدى آل روستوف ... يا للقدر الغريب!

كان بيير يتحدث بحماس وحُميًّا. نظر بدوره إلى السيدة المرافقة فشاهد النظرة المحبة التي ترمقه بها، وكما يحدث غالبًا في بحر الحديث شعر دون أن يدري السبب

أن هذه المخلوقة ذات الرداء الأسود لطيفة طيبة، وأنها مخلوقة ممتازة لا تزعج في شيء سياق حديثه مع الأميرة ماري.

لكنه عندما نطق باسم آل روستوف ازداد دهشة للارتباك الذي بدا على الأميرة ماري، لقد انتقلت نظرتها من جديد من وجه بيير إلى السيدة ذات الثوب الأسود، وقالت: كيف؟ ألا تعرفها؟

ألقى بيير من جديد نظرة على ذلك الوجه الهزيل الشاحب ذي العينين السوداوين والفم الغريب الذي للسيدة المرافقة، كان هناك شيء ما أليف، شيء منسي منذ زمن طويل، شيء عزيز جدًّا ينظر إليه بتينك العينين اليقظتين.

فكَّر: «كلا، هذا لا يمكن أن يكون! هذا الوجه الشاحب الهزيل الصارم الضعيف! لا يمكن أن يكون هي مجرد شبه!» لكن الأميرة ماري قالت في تلك اللحظة: «ناتاشا»، وبدا الوجه ذو العينين المتيقظتين كأنه يتفتح بعناء وبجهد كما يُفتح باب علاه الصدأ وأضاء بابتسامة، ومن خلال ذلك الباب المفتوح لفحت بيير فجأة نفحة عطرة من تلك السعادة المنسية منذ وقت طويل، التي كان في تلك اللحظة بالذات أبعد ما يكون عن التفكير فيها، شمله ذلك العطر وتسلل إلى كُلِّيته، ولما ابتسمت لم يعد للشك مجال، إنها ناتاشا دون ريب وإنه ليحبها.

منذ الدقيقة الأولى كشف بيير رغمًا عنه لناتاشا والأميرة ماري وخصوصًا لنفسه عن السر الذي كان يجهله، تضرج وجهه من الفرح والألم وأراد إخفاء انفعاله، لكنه كلما جاهد لإخفائه كان يكشف عن حبه لنفسه ولناتاشا وللأميرة ماري بشكل أوضح من التعبير عنه بدقيق الكلام.

حدث بيير نفسه: «لا بد وأن ذلك ناجم عن المفاجأة»، لكنه عندما أراد أن يستأنف الحديث مع الأميرة ماري، نظر مرة أخرى إلى ناتاشا فغطت وجهه حمرة قانية واكتسحه تأثر أقوى مبعثه القلق والفرح، وراح يتخبط في أقواله ثم توقف في منتصف جملة.

لم يلاحظ بيير وجود ناتاشا بادئ الأمر، لأنه ما كان يتوقع أن يراها هناك، ثم إنه لم يعرفها بسبب التغيير الكبير الذي طرأ عليها منذ آخر مرة رآها فيها، لقد هزلت وشحبت. ولكن لم يكن كل هذا هو الذي يجعلها غير معروفة له، كان يستحيل عليه أن يعرفها للوهلة الأولى لأن على ذلك الوجه، في تينك العينين اللتين كانت بهجة الحياة تشع منهما فتلتمع بها ابتسامة غامضة، لم يكن على ذلك الوجه حتى ولا شبح ابتسامة، لم يبقَ إلا العينان المتيقظتان الطيبتان الحزينتان المستفسرتان.

لم ينتقل اضطراب بيير منه إلى ناتاشا، لكن ابتهاجًا لا يكاد يُلحظ أضاء وجهها.

الفصل السابع عشر

مفاجأة

قالت الأميرة إنها جاءت تقضي بعض الوقت معي، ولسوف يصل الكونت والكونتيس في حالة مريعة بعد حين أن الكونتيس، بيد أن ناتاشا نفسها في حاجة إلى معالجة طبيب، وقد أرغموها على مرافقتي.

فقال بيير مخاطبًا ناتاشا: نعم، هل هناك أسرة لا ألم لها؟ إنك تعرفين أن ذلك وقع يوم تحريرنا بالذات، لقد رأيته، يا للفتى الفتان!

أخذت ناتاشا تتطلع إليه وكجواب على كلماته اتسعت عيناها وأضاءتا بوميض أقوى. استأنف بيير: ماذا يمكن أن يقال أو أن يُتصوَّر مما يبعث العزاء؟ لا شيء، لماذا كان يجب أن يموت فتى على مثل لطفه؟ مثله طافح بالحياة.

فقالت الأميرة ماري: نعم، في العصر الذي نعيش فيه يصعب العيش بدون الإيمان.

فبادر بيير يجيب: نعم، نعم، هذه هي الحقيقة الحقة.

سألت ناتاشا وهي تحدق بانتباه في عيني بيير: لماذا؟

استأنفت الأميرة: كيف لماذا؟ لمجرد التفكير فيما يُنتظَر ...

بيد أن ناتاشا لم تصْغِ إلى النهاية، بل راحت من جديد تحدق في عيني بيير بنظرة مستفسرة، استرسل بيير يقول: لأن الإنسان الذي يؤمن بأن هناك إلهًا يسيرنا يستطيع وحده أن يحتمل خسارة مثل خسارتها و... خسارتكم.

فتحت ناتاشا فمها لتجيب لكنها صمتت فجأة، وأسرع بيير يشيح بوجهه وراح يخاطب الأميرة ماري مستفسرًا منها عن أيام صديقه الأخيرة.

ولقد تبدد اضطراب بيير تقريبًا، لكنه كان يشعر بذات الوقت أن حريته السابقة كلها قد اختفت بالمثل، شعر الآن أن لكل كلماته وتصرفاته حكمًا يُعتبَر حكمه أغلى وأثمن من حكم العالم أجمع، فراح وهو يتكلم يجزع للأثر الذي تحدثه كلماته على ناتاشا، ما

كان يبحث عن الكلمات التي يمكن أن تروق لها، لكنه كان يحكم على كل ما يقوله من وجهة نظرها هي.

وكعادتها دائمًا راحت الأميرة ماري تتكلم دون حماس عن الحالة التي وجدت الأمير آندريه عليها، لكن أسئلة بيير ونظرته المتَّقدة الجزعة ووجهه المضطرب من التأثر دفعتها تدريجيًّا إلى الدخول في تفاصيل كانت تخاف على نفسها من أن تجدد ذكراها.

كرر بيير وهو منحنٍ بكل جسده إلى الأمام نحو الأميرة ماري يصغي بفهم إلى روايتها: نعم، نعم، هو ذلك، هو ذلك ... نعم، نعم، إذن لقد هدأ؟ لقد رق؟ ذلك أنه ما كان يبحث إلا عن أمر واحد بكل قوة روحه، كان يريد أن يكون جيدًا بكمال وما كان ولا ريب يخاف الموت، والأخطاء التي كانت فيه — إذا كانت لديه أخطاء — لم تكن صادرة عنه، إذن لقد رق؟

وقال فجأة مخاطبًا ناتاشا والدموع ملء عينيه: يا لسعادته إذ شاهدك!

طافت على وجه ناتاشا انتفاضة، وقطبت حاجبيها وخفضت عينيها فترة، وترددت ثانية في الكلام، ثم قالت بصوتها الحلو الخطير: نعم، كان ذلك ولا ريب سعادة لي.

ثم بعد صمت أردفت: وهو ... هو ... لقد قال لي إنه كان يرغب في رؤيتي في اللحظة التي جئت فيها إليه ...

وتحطم صوت ناتاشا، تضرج وجهها وتقلصت يداها أعلى ركبتيها، وفجأة بذلت مجهودًا ظاهرًا على نفسها فرفعت رأسها وراحت تتحدث بسرعة: ما كنا نعرف شيئًا عندما غادرنا موسكو، وما كنت أجرؤ على الاستعلام عنه، إن سونيا هي التي أخطرتني فجأة بأنه معنا، ما كنت أفكر في شيء ولا أقدر على تمثل الحالة التي هو عليها.

وأضافت وهي تتغضن وتتنفس بصعوبة: كنت أريد فقط أن أراه وأن أكون معه.

ودون أن تسمح بمقاطعتها روت ما لم تتحدث به بعد إلى أحد، روت كل ما عانته طيلة أسابيع سفرهم الثلاثة وفي مكوثهم في إياروسلافل.

وكان بيير يصغي إليها فاغر الفم وعيناه الممتلئتان بالدموع شاخصتان إليها، لم يكن وهو يصغي إليها يفكر في الأمير آندريه ولا في الموت ولا في ما تقول، كان يشفق عليها فقط للألم الذي تسببه الرواية لنفسها.

أما الأميرة التي كان وجهها متقلصًا كله لرغبتها في كبت دموعها، فقد كانت جالسة إلى جانب ناتاشا تصغي للمرة الأولى إلى قصة أيام الغرام الأخيرة بين أخيها وناتاشا.

وكانت رواية هذه الآلام المشفوعة بالفرح ضرورة لناتاشا كما كان ذلك واضحًا.

كانت تتحدث خالطة أتفه التفاصيل بأعمق الأسرار الشخصية، تبدو كأنها لم تعد تستطيع التوقف، ولقد كررت مرارًا الأشياء ذاتها.

وارتفع صوت ديسال من وراء الباب يسأل عما إذا كان نيكولا الصغير يستطيع الدخول لإلقاء تحية المساء، فأعقبت ناتاشا: وهذا كل شيء، كل شيء ...

ونهضت بشدة في اللحظة التي دخل فيها نيكولا، ولقد اصطدم رأسها وهي تسارع إلى الخروج بالباب الذي يحجبه ستر، فاندفعت خارجة وهي تزمجر من الألم بقدر ما يطفح في نفسها من الحزن.

نظر بيير إلى الباب الذي خرجت منه دون أن يدرك لماذا ظل فجأة وحيدًا في العالم.

أخرجته الأميرة ماري من تأملاته، جاذبة انتباهه إلى ابن أخيها الذي دخل لتوه، ولقد أحدث وجه نيكولا الشديد الشبه بوجه أبيه في نفسه وهو على تلك الحالة من التحنان أثرًا كبيرًا، حتى إنه بعد أن عانق الفتى نهض بشدة وأخرج منديله ثم ابتعد نحو النافذة، أراد أن يستأذن الأميرة ماري منصرفًا لكنها استبقته: كلا، لا تذهب، إن ناتاشا وأنا نسهر أحيانًا حتى قرابة الساعة الثالثة صباحًا، عد إلى الجلوس أرجوك، سوف آمر بإعداد العشاء، انزل، لن نتأخر عن اللحاق بك.

وفي اللحظة التي همَّ بيير فيها بالخروج قالت له الأميرة: هذه هي المرة الأولى التي تحدثت فيها عنه بهذا الشكل.

الفصل الثامن عشر

لقاء مع ناتاشا

اقتيد بيير إلى غرفة طعام كبيرة جيدة الإضاءة، ولم يلبث بعد بضع دقائق أن تناهى إليه وقع خطى، ودخلت الأميرة ماري إلى الحجرة مع ناتاشا، كانت ناتاشا هادئة وإن كان وجهها قد اتخذ طابعه الصارم الخالي من الابتسام. ولقد شعر ثلاثتهم، الأميرة ماري وناتاشا وبيير، بذلك الانزعاج الذي يعقب عادة حديثًا شخصيًّا جديًّا، إذ تتعذر العودة إلى الحديث السابق ويخجل المرء أن يتحدث عن التفاهات، كما أنه يحس بالانزعاج إذ يصمت لأن به حاجة إلى الكلام، ولأن الصمت المطبِق الذي يلزمه صمت ملزِم. جلسوا إلى المائدة صامتين، وأبعد الخدم الكراسي ليسمحوا لهم بالجلوس ثم عادوا فقربوها. ونشر بيير منشفته الباردة، ونظر إلى ناتاشا ثم إلى الأميرة ماري وبه رغبة في قطع حبل الصمت، كانتا دون ريب تحسان بمثل تلك الرغبة، لقد كانت عينا كليهما تشع بالرغبة في الحياة، وتبدوان شاهدة على أن هناك مكانًا للفرح رغم الحزن.

سألت الأميرة ماري: هل ترغب في شرب الفودكا يا كونت؟

فطردت هذه الكلمات فجأة أطياف الماضي. أضافت: حدثنا عنك، إنهم يروون عنك أشياء لا تُصدَّق.

أجاب بيير وعلى شفتيه تلك الابتسامة الطافحة بسخرية حلوة التي أصبحت مألوفة لديه: نعم، لقد رَوَوْا إليَّ شخصيًّا أشياء مدهشة حقًّا لم أرها بنفسي قط. لقد دعتني ماري إبراموفنا إلى منزلها وقصت عليَّ حكاية ما وقع لي أو بالأحرى ما وجب أن يقع لي، ثم إن ستيبان ستيبانيتش علمني هو الآخر ما يجب أن أرويه عن نفسي. لقد لاحظت بصورة عامة أن كون المرء شخصًا مهمًّا عمل يحوي كل عناصر الراحة، ولما كنت الآن أحد المهمين فإنهم يستدعونني ويسردون حكايتي.

ابتسمت ناتاشا وكادت أن تفتح فاها لتقول شيئًا غير أن الأميرة ماري قالت تستوقفها: لقد أكدوا لنا أنك تعرضتَ لخسارة مليونَي روبل في موسكو، هل هذا صحيح؟

فهتف بيير: لكنني الآن أغنى ثلاث مرات مما كنت قبلًا.

لقد ظل بيير يؤكد رغم ديون زوجته وضرورة إعادة البناء التي تبدل وجه أعماله أنه أغنى ثلاث مرات من ذي قبل.

أضاف بيير بصوت خطير: على أية حال فإن ما ربحته بشكل لا يتطرق إليه الجدل هو حريتي.

لكنه امتنع عن الاستمرار في الحديث واجدًا أن من الأنانية الاقتصار في الحديث على نفسه من جانبه.

– وتريد إعادة البناء؟

– نعم، إن سافيليتش يرغب في ذلك.

قالت الأميرة ماري: قل لي، ما كنت تعرف بموت الكونتيس بعد عندما كنت في موسكو، أليس كذلك؟

واحمرَّ وجهها إثر ذلك عندما شعرت بأنها طرحت عليه هذا السؤال فور إعلانه نبأ استرداده حريته، وأن ذلك يمكن أن يعطي لكلماته معنى قد لا يكون عناه بها.

أجاب بيير الذي لم يظهر عليه أنه يعتبر الطريقة التي فسرت فيها الأميرة توريته إلى حريته مربكة: كلا، لقد عرفت الأمر في أوريل، ولا يمكنك أن تتصوري الأثر الذي أحدثه ذلك في نفسي.

وأردف بحمية وهو يختلس نظرة إلى ناتاشا ويلاحظ على وجهها الفضول الذي ارتسم عليه بانتظار أن يتحدث عن زوجته: لم نكن زوجَيْن مثاليَّيْن لكن موتها هذا أحدث في نفسي أثرًا مريعًا. عندما يتخاصم شخصان يكون كلاهما على خطأ، والمرء يشعر بخطئه أوقع على نفسه حيال شخص لم يعد على قيد الحياة، ثم إن موتًا بهذا الشكل … دون أصدقاء ولا أعزاء.

وأعقب وهو يلاحظ مسحة من التأييد المرح على وجه ناتاشا: إنني أشفق عليها كل الإشفاق، كل الإشفاق!

فقالت الأميرة ماري ملاحِظة: وعلى هذا ها إنك عَزَب من جديد، وصالح للزواج.

فتضرج وجه بيير فجأة وبذل جهده كي لا ينظر ناحية ناتاشا لفترة طويلة، ولما قرر النظر إليها كانت قد اتخذت وجهًا جامدًا صارمًا بل ومحتقِرًا على ما بدا له.

سألت الأميرة ماري: إذن، هل صحيح أنك رأيت نابليون وتحدثت إليه كما قالوا لنا؟

فراح بيير يضحك: ولا مرة واحدة، أبدًا، يبدو للناس جميعًا أن الوقوع في الأسر معناه المكوث في ضيافة نابليون، إنني لم أره أبدًا فحسب، بل كذلك لم أسمع أحدًا يتحدث عنه. لقد كنت في صحبة أسوأ مما تظنين.

كادوا أن يفرغوا من الطعام، ووجد بيير نفسه مُسَاقًا إلى التحدث عن أسره، وهو الذي تحاشى بادئ الأمر الخوض في هذا الموضوع.

سألته ناتاشا وهي تبتسم ابتسامة خفيفة: هل صحيح أنك مكثت في موسكو لتقتل نابليون؟ لقد خمنت ذلك عندما التقينا قرب برج سوخارييف، هل تذكر؟

اعترف بيير بأن ذلك صحيح. واستسلم أخيرًا، تدفعه تدريجيًّا أسئلة الأميرة ماري وخصوصًا أسئلة ناتاشا، إلى رواية مغامراته بالتفصيل.

تحدث أولًا بتلك المسحة الساخرة اللطيفة التي باتت الآن ترافق أحكامه على الآخرين وعلى نفسه بصورة خاصة، لكنه عندما بلغ في حديثه إلى الأهوال والآلام التي شهدها احتد دون أن يشعر بذلك، وراح يعبر عن مشاعره بالانفعال الكامن الذي يعتلج في نفس إنسان عاش فترات أليمة مؤثرة.

كانت الأميرة ماري تنظر تارة إلى بيير وأخرى إلى ناتاشا وعلى شفتيها ابتسامة أنيسة، كانت ترى في كل ما تسمعه بيير وطيبته فحسب. أما ناتاشا فكانت متكئة بمرفقيها إلى المائدة تتبدل أمارات وجهها باستمرار، تتابع ما يقوله بيير دون أن تغادره بعينيها دقيقة واحدة وكأنها تحيا معه في كل ما يرويه، ولم تكن نظرتها وحدها تبرهن لبيير على أنها فاهمة كل ما يريد التنويه عنه، بل كذلك هتافات الدهشة التي كانت تطلقها والأسئلة المختصرة التي كانت تطرحها عليه. وكان يستنتج أنها لم تكن تستوعب القصة التي يرويها فحسب، بل كذلك ما لم تكن الكلمات قادرة على التعبير عنه. وفيما يلي الأسلوب الذي روى فيه بيير قصة المرأة والطفل اللذين أنقذهما واللذين كانا سبب توقيفه: كان مشهدًا مريعًا، أطفال مهجورون، وبعضهم في أحضان اللهب ... ولقد أخرجوا واحدًا أمامي من النار ... نساء كانوا يسلبونهن ما معهن وينتزعون الأقراط من آذانهن ... وتضرج وجه بيير فجأة وتمتم: وحينئذ برزت دورية من العَسَس فاقتادت كل الرجال، كل الذين ما كانوا يسلبون، وأنا بينهم.

قالت ناتاشا: إنك لا تذكر كل شيء، لا بد وأنك عملت شيئًا.

ثم أردفت بعد توقف: شيئًا ما جميلًا.

تابع بيير حديثه، ولما بلغ مرحلة إعدام مشعلي النار أراد أن يكتم تفاصيل مريعة جدًّا، لكن ناتاشا أرغمته على عدم إسقاط شيء.

وكان بيير، الذي نهض عن المائدة وشرع يذرع الحجرة وعينا ناتاشا شاخصتان إليه، يريد أن يتحدث عن كاراتاييف، لكنه توقف.

– كلا، لا يمكنكما أن تفهما كل ما علمنيه ذلك الأمي، البسيط الفكر.

فقالت ناتاشا: ولكن بلى، ولكن بلى، استمر. ماذا وقع له؟

– لقد قتلوه تحت بصري تقريبًا.

وروى بيير أيام تقهقرهم الأخيرة مع الجيش الفرنسي، ومرض كاراتاييف وموته وصوته دائم التهدج.

كان يروي مغامراته وكأنه لم يستعرضها قط في ذاكرته من قبل، لقد اتخذ كل ما قاساه معنًى جديدًا الآن في نظره. وبينما هو يتحدث إلى ناتاشا كان يتذوق تلك المتعة النادرة التي تسبغها على الرجال النساء اللاتي يصغين إليهم، ليس النساء الحاذقات اللاتي يبذلن جهدهن وهن يصغين إلى استيعاب ما يُقال لهن لإغناء فكرتهن، ولكي يعِدن الرواية عند حلول المناسبة مرتبة وَفْق هواهن، ويروجنها بوضعها إنتاجًا أُعِد في مطبخهن الفكري الصغير؛ بل إن المتعة التي كان يشعر بها كانت تلك التي تسبغها النساء الحقيقيات، أولئك اللاتي يعرفن كيف ينتقين أفضل ما يُقال لهن ولا يشبهنه إلا بالأفضل. كانت ناتاشا دون أن تدري كلها آذان صاغية، ما كانت تضيع كلمة ولا نبرة صوتية ولا نظرة ولا حركة من حركات بيير ولا ارتعاشة عضلة من عضلات وجهه، كانت تلتقط الكلمة قبل أن يكاد يفوه بها وتنقلها مباشرة إلى قلبها وهو على أتم استعداد لتلقيها، ولقد خمنت المعنى المستتر لكل ما يعتلج في نفس بيير.

وكانت الأميرة ماري تفهم القصة وتساهم فيها، لكنها كانت ترى بنفس الوقت شيئًا آخر احتكر كل انتباهها، كانت ترى إمكانية قيام حب وسعادة بين ناتاشا وبيير، ولقد ملأتها هذه الفكرة التي واتتها للمرة الأولى بالفرح.

بلغت الساعة الثالثة صباحًا، وجاء الخدم بوجوههم الصارمة يبدلون الشموع ولكن لم يلقِ إليهم أحد بالًا.

أنهى بيير حديثه وظلت ناتاشا تتأمله شاخصة الأبصار وعيناها تلتمعان بحيوية، وكأنها ترغب في أن تعرف ما تبقى له أن يقول مما يمكن أن يكون قد أخفاه، وراح هو يختلس النظر إليها مضطربًا سعيدًا، ويتساءل عن الموضوع الذي يجب أن يثيره لإذكاء الحديث، بينما كانت الأميرة ماري صامتة، ولم يكن أحد من الثلاثة يشعر بأن الساعة الثالثة وأن وقت النوم قد أزف.

هتف بيير: إنهم يتحدثون عن الشقاء والألم، لكنهم لو قالوا لي الآن في هذه الدقيقة: هل تفضل أن تعود إلى ما كنت عليه قبل الأسر، أم أن تحيا من جديد كل هذه المغامرة من بدايتها؟ لأجبتهم: بحق الله، أعيدوا إليَّ الأسر ولحم الحصان! إن المرء يعتقد بأنه ضائع منذ أن يُلْقَى خارج الطريق المألوف، في حين أن هنا يبدأ شيء جديد طيب، إن السعادة موجودة ما وُجِدت الحياة، ولدينا أمامنا سعادة، كثير من السعادة.

وأضاف مخاطبًا ناتاشا: إنني أوجه هذا القول إليكِ بصورة خاصة.

فأجابت وأفكارها نائية: نعم، نعم، أما أنا فإنني لا أرغب في أكثر من أن أحيا الحياة التي عشتها من قبل.

تأملها بيير بانتباه فقالت مؤيدة: نعم، ولا شيء أكثر!

صاح بيير: هذا خطأ، كل الخطأ! إنني لست مسئولًا أن أعيش وأن أرغب في العيش، ولا أنت كذلك.

وفجأة أسقطت ناتاشا رأسها بين يديها وانخرطت في البكاء. سألت الأميرة ماري: ناتاشا، ما بك؟!

– لا شيء، لا شيء، (وابتسمت لبيير خلال دموعها) إلى اللقاء، لقد حان وقت النوم.

فنهض بيير واستأذن منصرفًا.

تقابلت الأميرة ماري وناتاشا كعادتها في غرفة نومها، وتحدثتا عما رواه بيير. لكن الأميرة ماري لم تقل رأيها في بيير، وكذلك ناتاشا فإنها لم تتحدث عنه.

قالت ناتاشا: هيا، عِمي مساءً يا ماري، إنني غالبًا ما أخاف كما تعلمين من كثرة عدم تحدثنا عنه (عن الأمير آندريه)، وكأننا نخشى أن ندنس عاطفتنا فننساه.

زفرت الأميرة ماري زفرة عميقة، وكان معنى تلك الزفرة أنها تجد أن ناتاشا قد صدقت القول، لكنها مع ذلك لم تعرب لها عن تأييدها، قالت: وهل يمكن النسيان؟

فقالت ناتاشا: لقد أفادني جدًّا أن تحدثنا على هذا الشكل اليوم، كان ذلك أليمًا صعبًا لكنه أفادني، إنني واثقة من أنه كان يحبه حقًّا، ولهذا السبب قصصت عليه ...

وفجأة سألت وقد تضرج وجهها: هل كنت مخطئة؟

فهتفت الأميرة ماري: بتحدثك إلى بيير؟ أوه! كلا، إنه شديد الطيبة.

استأنفت ناتاشا فجأة وعلى شفتيها الابتسامة الكيسة، التي لم تعد الأميرة ماري تراها على وجهها منذ أمد طويل: هل تعلمين أنه أضحى شديد النظافة، شديد الوضوح، منتعشًا جدًّا وكأنه خارج لتوه من الحمام، هل تفهميني؟ حمام معنوي أليس كذلك صحيحًا؟

فردت الأميرة ماري: نعم، لقد كسب كسبًا كبيرًا.

– ومعطفه الرسمي القصير، وشعره المُعْنَى به، نعم، تمامًا مثل الخارج من الحمام ... مثل أبي سابقًا ...

قالت الأميرة ماري: أفهم «أنه» (الأمير آندريه) لم يحبب قط إنسًا بقدر ما أَحبه.

– نعم، مع أنه ليس بينهما شيء مشترك، يزعمون أن الصداقات بين الرجال تقوم بين أفراد مختلفين كل الاختلاف، ويجب الاعتقاد بصحة ذلك إذ هل يشبهه في شيء حقًّا؟

– على أية حال إنه فتى رائع!

ردت ناتاشا: هيا، عِمِي مساءً.

وظلت الابتسامة الكيسة على وجهها فترة طويلة وكأنها نُسِيَت عليه.

الفصل التاسع عشر

الحب

مكث بيير طويلًا قبل أن استطاع النوم ذلك اليوم، كان يمشي في طول غرفته وعرضها يقطب حاجبيه تارة وهو مستغرق في أفكار خطيرة، ويهز كتفيه تارة أخرى وكأن الرعشة تسري فيه، وتارة يبتسم باغتباط سعيد.

كان يفكر في الأمير آندريه وناتاشا وفي غرامها، فيشعر تارة بالغيرة من ناتاشا وماضيها، ويأخذ على نفسه غيرته تلك تارة أخرى، ويعتذر عن نفسه تارة ثالثة. وكانت الساعة السادسة صباحًا وهو لا يزال في نزهته عبر غرفته.

حدَّث نفسه وهو يخلع ثيابه بعجلة ويتمدد في سريره متأثرًا، ولكن دون أن يشعر بشك ولا بتردد: «ولكن ما العمل في ذلك طالما لا يمكن معالجته في شيء؟ ما العمل في ذلك؟ لا ريب أن الأمور يجب أن تكون على هذا النحو.»

وحدَّث نفسه: «مهما بلغت غرابة هذه السعادة واستحالتها، يجب عليَّ أن أعمل كل شيء لنصبح زوجًا وزوجة.»

لقد حدد قبل أيام سفره إلى بيترسبورج، فلما استيقظ وكان يوم خميس جاء سافيليتش يسأله أوامره بصدد استعدادات السفر.

تساءل بيير رغمًا عنه: «لماذا السفر إلى بيترسبورج؟ ولمَ أذهب؟ وما عملي هناك؟ ماذا يوجد هناك؟» ثم تذكر: «آه! نعم، كنت مزمِعًا الذهاب إلى هناك قبل أن يحدث ذلك، لمَ لا؟ سأذهب فيما بعد.» وفكر وهو ينظر إلى سافيليتش العجوز: «يا له من رجل باسل! ويا لحسن عنايته! إنه يفكر في كل شيء! ثم يا لابتسامته اللطيفة!»

سأل بيير: إذن ما زلت يا سافيليتش لا ترغب في أن تصبح حرًّا؟

– ماذا أعمل بالحرية يا صاحب السعادة؟ لقد عشنا أفضل حياة تحت أوامر المرحوم سيدي الكونت — ليتغمد الله روحه — وتحت أوامرك أيضًا، دون أن يكون لنا قط ما نشكو منه.

– ولكن أطفالك؟

– إن الأطفال سيعملون مثلنا يا صاحب السعادة، يستطيعون أن يعيشوا مع أسياد مثلك.

سأل بيير: وورثتي؟

وأضاف وعلى شفتيه ابتسامة لا إرادية: قد أتزوج ذات يوم ... وهذا ممكن الوقوع.

– وإنني أسمح لنفسي أن أقول يا صاحب السعادة إن ذلك سيكون جيدًا جدًّا.

ففكر بيير: «ها إنه يعتقد ذلك بسيطًا كل البساطة، إنه لا يدرك مبلغ ما هو مريع وخطير وهو واقع إن آجلًا أو عاجلًا ... إنه شيء مريع!»

سأل سافيليتش: ما هي أوامر سيدي؟ ألا يسافر سيدي غدًا؟

فقال بيير: كلا، لقد أرجأت السفر قليلًا إلى ما بعد، وسوف أخطرك. اعذرني إذ سببت لك كل هذه المصاعب.

ولما رأى سافيليتش يبتسم فكر: «كم هذا يثير الفضول! إنه لا يشك قط في أن المسألة لم تعد مسألة سفر إلى بيترسبورج، وأنه قبل ذلك يجب الفراغ من أمر ما. على أية حال إنه يرتاب وإن كان يتظاهر بأنه لا يدري شيئًا»، ثم تساءل: «هل يجب أن أحدثه بالموضوع؟ أن أسأله رأيه فيه؟ كلا، سيكون ذلك مرة أخرى.»

حدَّث بيير ابنة عمه خلال الطعام بأنه كان بالأمس عند الأميرة ماري، وأنه شاهد هناك «هل تستطيعين أن تتصوري من؟ ناتاشا روستوف».

تظاهرت بأنها لا تجد ذلك خارقًا أكثر مما لو قال لها بيير إنه شاهد هناك مثلًا ذات آنًّا سيميونوفنا.

سأل بيير: هل تعرفينها؟

فأجابت: لقد رأيت الأميرة، وسمعت بأنها مخطوبة إلى روستوف الشاب. سيكون ذلك ذا نفع كبير لآل روستوف، إنهم يشيعون بأنهم في دمار كامل.

– كلا، الآنسة روستوف، هل تعرفينها؟

– لقد سمعتهم يروون قصتها، وإنها لقصة محزنة.

حدَّث بيير نفسه: «إنها بالتأكيد لا تفقه شيئًا، أم لعلها تتظاهر بأنها لا تفقه شيئًا؟ يجدر بي ألَّا أحدثها هي الأخرى بشيء.»

ولقد أعدت ابنة العم هي الأخرى بعض الزاد لسفر بيير. فكر هذا: «كم هم طيبون! إنهم يفكرون في كل هذا في حين أن لا فائدة لهم منه، وكل ذلك من أجلي، كم يدهشني ذلك!»

وفي ذلك اليوم بالذات جاء رئيس الشرطة يعلم بيير بوجوب إرسال رجل أهل للثقة إلى قصر فاسيت (في الكريملن)، ليشرف على توزيع الأمتعة التي ستُمنح لأصحاب الأملاك.

فكر بيير وهو يتأمل وجه رئيس الشرطة: «وهذا أيضًا، يا له من رجل باسل! يا له من ضابط جميل! ويا له من إنسان طيب! الاهتمام «الآن» بمثل هذه التفاهات! في حين أنهم يزعمون بأنه غير شريف، وأنه يقبل الرشوات، كم هذا غباء! ثم لماذا لا يتقبل المال؟ لقد عودوه على ذلك، إنهم جميعًا يعملون هذا العمل، ولكن يا له من وجه طيب أنيس! ويا لها من ابتسامة حلوة عندما ينظر إليَّ!»

ذهب بيير يتناول طعام الغداء لدى الأميرة ماري.

وبينما هو يجتاز الشوارع بين أنقاض الخرائب، أدهشه جمال تلك الدور المتهدمة، كانت هناك أنابيب مدافئ وأجزاء من جدران خربة تذكره بقوة بضياع الرين والكوليزيه،[١] تمتد مختبئة بعضها وراء بعض في الأحياء المحترقة. وكل الأشخاص الذين كان يقابلهم؛ سائقي العربات، النجارين وهم ينظمون الألواح، الباعة، البقالين، كلهم كانوا ينظرون إليه ببهجة، وكأن وجوههم المشرقة تقول: «آه! هذا هو! لنرَ ماذا سينتج من كل ذلك!»

ولما دخل إلى منزل الأميرة، تساءل بيير عما إذا كان حقًّا قد جاء إلى هنا أمس، وإذا كان حقًّا رأى ناتاشا وتحدث معها: «لعلني حلمت بذلك! لعلني سأدخل فلا أجد أحدًا.» لكنه ما كاد يجتاز عتبة البهو حتى أشعره اختفاء حريته الكامل بوجود ناتاشا شعورًا أحسه بكل كيانه، كانت ترتدي ذلك الثوب الأسود إياه ذا الثنيات الرخوة وتسريحة الشعر تلك التي بدت فيها مساء أمس، مع ذلك فقد كانت مختلفة كل الاختلاف، ولو أن شكلها هذا كان هو شكلها بالأمس لَمَّا دخل، لَمَا كان يمكن أن يعرفها للوهلة الأولى.

كانت مثلما عرفها عندما كانت طفلة تقريبًا ثم مخطوبة الأمير آندريه، وكانت ومضة سرور تشع في عينيها المستفسرتين، ووجهها يحمل تعبيرًا حانيًا وكيِّسًا كياسة غريبة في آن واحد.

وكان بيير بعد الغداء يود لو مكث طيلة السهرة هناك، لكن الأميرة ماري كانت تريد حضور قداس المساء، فاضطُرَّ بيير إلى الانصراف عندما انصرفت الصديقتان.

[١] الكوليزيه، مسرح رائع في روما، شُرِع في بنائه على عهد فيسبازيان، وانتهى على عهد تيتوس عام ٨٠ ق.م، يضم ثمانين صفًّا يمكن أن تُجلِس ٨٠٠٠٠ متفرج. وفيه قُدِّم الشهداء المسيحيون للوحوش الضارية، وهو اليوم أطلال هائلة.

وفي اليوم التالي عاد مبكرًا فتناول الطعام وأمضى السهرة كلها. ولكن على الرغم من اللذة الواضحة التي أظهرتها كل من الأميرة ماري وناتاشا لرؤيته، وعلى الرغم من أن كل ما في حياته من غرض قد تركز الآن في ذلك البيت؛ فإن الحديث ظل كثير التقطع ينتقل من موضوع تافه إلى آخر مثله وينقطع غالب الأحيان. ولقد تأخر بيير كثيرًا حتى إن الأميرة ماري وناتاشا تبادلتا النظرات وتساءلتا عما إذا كان سينصرف بعد حين، وكان يرى ذلك لكنه لا يستطيع الذهاب، لقد شعر كثيرًا بالانزعاج والارتباك لكنه ظل مع ذلك جالسًا لأنه «ما كان يستطيع» النهوض والانصراف.

ولما لم تجد الأميرة ماري نهاية للموقف نهضت واقفة متذرعة بصداع، واستأذنت منه منصرفة.

قالت: إذن سيكون غدًا موعد سفرك إلى بيترسبورج؟

فرد بيير بدهشة وكأن السؤال يهينه ويأخذه على حين غرة: كلا، لست مسافرًا، نعم ... كلا ... إلى بيترسبورج؟ غدًا.

وأضاف وهو واقف أمام الأميرة ماري متضرج الوجه ولكن دون أن يبدي رغبته في الذهاب: لكنني لا أقول لكما الوداع، سأحضر لأسألكما ما تريدان أن أقوم به لكما من خدمات.

مدت ناتاشا له يدها وانصرفت، وبدلًا من أن تنحو الأميرة ماري نحوها عادت إلى أريكتها تغرق فيها، وتشمل بيير بنظرة مشعة عميقة خطيرة ويقظة، ولقد اختفى التعب الذي تظاهرت به منذ حين، أطلقت زفرة عميقة وكأنها تتأهب لحديث طويل.

ولقد تبدد فجأة كل تشوش بيير وارتباكه بذهاب ناتاشا، وحل محلهما حيوية متأججة. أسرع يقرب مقعده من أريكة الأميرة ماري، وشرع يقول جوابًا على نظرتها وكأنها سؤال: نعم، كنت أريد أن أقول لك يا أميرة ساعديني، ماذا يجب أن أعمل؟ هل يمكنني أن أطمح؟ أيتها الأميرة، يا صديقتي العزيزة، اصغِ إليَّ، إنني أعرف كل شيء، أعرف أنني لا استحقها، وأعرف أنه لا يمكن التطرق إلى هذا الموضوع في الوقت الحاضر، لكنني أريد أن أكون أخًا لها، كلا، ليس هذا، لست أريد، لا أستطيع ...

توقف، ومر بيده على عينيه ووجهه، واستأنف: حسنًا، إليك الموضوع.

وبذل مجهودًا ظاهرًا على نفسه كي يتحدث باطراد متماسك: لست أدري منذ متى أحبها، لكنها هي، هي وحدها، التي أحببتها طيلة حياتي، والتي أحبها لدرجة يتعذر معي أن اتصور الحياة بدونها. إنني لا أسعى إلى طلب يدها على الفور، لكن التفكير في

أنها يمكن أن تكون لي وأنني قد أفوِّت على نفسي هذه الفرصة … هذه الإمكانية …! منها مخيفة. قولي لي هل لي أن آمل؟ قولي لي ماذا يجب أن أعمل يا أميرتي العزيزة!

وبعد فترة صمت لمس يدها حين رأى أنها لا تجيب.

قالت الأميرة ماري: إنني أفكر في ما فرغت من قوله لي، وهذا ما أفكر فيه أنك على حق أن تحدثها الآن عن الحب …

وتوقفت الأميرة، أرادت أن تقول أنْ تحدثها الآن عن الحب أمر مستحيل، لكنها لم تستطع النطق بهذا الرأي حتى النهاية وهي التي لاحظت منذ أمس الأول تبديلًا مفاجئًا طرأ على ناتاشا، ورأت أنها إلى جانب عدم اعتبار حديث بيير إليها عن الحب إهانة لها لا ترغب إلا في ذلك الحديث.

رغم ذلك أتمت الأميرة ماري جملتها: أنْ تحدثها عن الحب الآن … مستحيل.

– إذن ماذا يجب أن أعمل؟

فقالت الأميرة ماري: دعني أعمل، إنني أعرف …

فنظر بيير إلى عينيها وقال: قولي، قولي …

صححت جملتها: إنني أعرف أنها تحبك … وأنها ستحبك.

ولم تكد تنطق بهذه الكلمة حتى انتفض بيير وأمسك بيدها وعلى وجهه أمارات الهلع: لماذا تظنين ذلك؟ هل تظنين أن بوسعي التمسك بالأمل؟ هل تظنين؟

فأكدت الأميرة ماري باسمة: نعم، أظن ذلك، اكتب إلى ذويها واعتمد عليَّ، سوف أحدثها عندما يحين الوقت، إنني أرغب في ذلك، وقلبي يحدثني بأن ذلك سيتم.

– كلا، كلا، هذا لا يمكن أن يكون! كم أنا سعيد! … كلا هذا غير ممكن … كم أنا سعيد!

وأخذ بيير يردد: كلا، هذا غير ممكن. وهو يقبِّل يدَي الأميرة ماري.

قالت له: ولكن اذهب إلى بيترسبورج ذلك أفضل، وسوف أكتب لك.

– إلى بيترسبورج؟ السفر؟ نعم، حسنًا جدًّا، سأذهب، ولكن هل أستطيع الحضور لرؤيتك غدًا؟

وفي اليوم التالي جاء بيير يودعها. كانت ناتاشا أقل حيوية من الأيام السابقة، لكنه ذلك اليوم عندما كان ينظر في عينيها كان بيير يشعر بأنه يختفي وبأنه ليس هناك بيير ولا ناتاشا، بل الشعور بالسعادة وحده قائم، كان يكرر تساؤله لنفسه: «هل هذا ممكن؟ كلا، ذلك لا يمكن أن يكون!» ويردد ذلك بعد كل نظرة وكل حركة وبعد كل كلمة من كلمات ناتاشا، وكلها أشياء تطفح لها روحه من البهجة.

وفي لحظة الفراق أخذ يدها الدقيقة المهزولة واستبقاها في يده فترة ما بالرغم منه: «هل يمكن أن تكون هذه اليد وهذا الوجه وهاتان العينان، كل هذا الكنز من الجمال النسائي الغريب عني، هل يمكن أن يصبح كل هذا ملكي إلى الأبد، أن يصبح لي مثل نفسي؟ كلا، هذا لا يمكن أن يكون ...!»

قالت له بصوت مرتفع: إلى اللقاء يا كونت.

ثم أضافت بصوت خافت: سوف أنتظرك بفارغ الصبر.

ولقد كانت هذه الكلمات البسيطة والنظرة والتعبير اللذان رافقاها منبع ذكريات لا ينضب بالنسبة إلى بيير طوال شهرين، ومبعث افتراضات وأحلام سعيدة: «سوف أنتظرك بفارغ الصبر ...» نعم، نعم، كيف قالت ذلك؟ نعم، «سأنتظرك بفارغ الصبر» آه! كم أنا سعيد! كيف يمكن أن يكون ذلك؟! كم أنا سعيد!

ولم يفتأ بيير يردد ذلك.

الفصل العشرون

نفسية بيير

لم يكن يعتلج في نفس بيير في تلك الآونة شيء مماثل لما كان يحس به في مناسبات مماثلة أثناء فترة خطوبته لهيلين.

لم يكن يكرر على نفسه كذلك العهد الكلمات التي فاه بها بخجل مرضي ولا يحدث نفسه قائلًا: «آه! لمَ لم أقل هذا؟ لماذا، لماذا قلت أحبك؟» أما الآن فعلى العكس كان يكرر في ذاكرته كل كلمة من كلماتها وكل كلمة من كلماته، وهو يرى بعين الخيال الأمارات نفسها والابتسامة ذاتها، دون أن يرغب في إبدال شيء وإضافة شيء مهما كان نوعه، كان كل ما يرغب فيه هو ترديد تلك الأقوال أيضًا. وأيضًا لم يتساءل لحظة واحدة عما إذا كان ما يشرع به سيئًا أم جيدًا، مع ذلك فإن نوعًا من الرهبة كان يتسلط عليه أحيانًا: «ولكن أليس كل هذا أضغاث أحلام؟ ألم تخطئ الأميرة ماري؟ ألست شديد التيه بنفسي مفرط الثقة بها؟ إنني مطمئن، وفجأة يقع ما يجب أن يقع، سوف تكلمها الأميرة ماري، وعندئذ سوف تبتسم وتجيب: كم هذا غريب! إنه مخدوع بلا شك، ألا يعرف بأنه مجرد رجل، لا أكثر من رجل، في حين أني أنا … شيء آخر مختلف كل الاختلاف؟ إنني مخلوق متفوق كل التفوق؟!»

كانت تلك الخشية وحدها تعذب بيير، ما كان يضع أي مشروع للمستقبل إذ إن السعادة التي تنتظره كانت تبدو بعيدة التصديق لدرجة كان يكفيه أن يراها تتحقق، وبعد ذلك لا يمكن لأي شيء أن يكون موجودًا، سوف يتم كل شيء.

استحوذ على بيير خبل مفاجئ، كان يعتقد أنه عاجز عن مثله، كان كل معنى الحياة ليس بالنسبة إليه فقط بل بالنسبة إلى العالم أجمع يتلخص في حبه وفي إمكان أن يكون محبوبًا منها. كان يخيَّل إليه أحيانًا أن الناس كلهم منشغلون بشيء واحد بسعادته المقبلة، ويخيَّل إليه أنهم جميعًا مبتهجون بقدر ما هو مبتهج، لكنهم يتظاهرون بإخفاء

تلك الفرحة متظاهرين بأنهم منصرفون إلى مصالحهم الأخرى. كان يرى في كل كلمة وفي كل حركة تلميحًا إلى سعادته. وكان غالبًا ما يفاجئ الذين يقابلونه بنظراته وابتساماته المعبرة طافحة بمشاركة سرية ومشعة بالسعادة، لكنه عندما كان يلاحظ أن الأشخاص يمكن أن يكونوا جاهلين بسعادته كان يرثي لهم من كل نفسه، ويشعر بالرغبة في إفهامهم بأن كل ما يشغلهم ليس إلا تفاهة وبلادة لا يستأهلان عناء الالتفات إليهما.

وعندما كانوا ينصحونه بالاضطلاع بأعباء خدمة ما أو يصدرون في حضرته الحكم على مسألة ذات طابع عام تتعلق بالدولة أو بالحرب، ويزعمون أن هذا الحل أو ذاك هو الذي تتوقف عليه سعادة الجميع؛ كان يصغي إلى المحاضر وعلى شفتيه ابتسامة لطيفة مشفقة، ويدهش الذين يتحدثون معه بغرابة ملاحظاته. لكن كل الذين كانوا يبدون له أنهم فاهمون معنى الحياة الحقيقي أي شعوره هو، مثل التعساء الذين بلا ريب ما كانوا يفهمونه؛ كل هؤلاء كانوا يبدون له في هذه الحقبة من حياته تحت الضوء الساطع المنبعث من الشعور الذي يضيء روحه، لذلك فإنه يرى كأنه يرى دون أي عناء في أول من يقع بصره عليه كل ما هو جيد وجدير بالحب.

فحص أوراق زوجته المتوفاة، فلم يشعر لذكراها بأية عاطفة، كان يرثي لها فقط لأنها لم تتعرف على السعادة التي بات يتذوقها الآن. وبدا الأمير فاسيلي شديد الفخار بوسامه الجديد وبالمركز الجديد الذي حصل عليه، بدا لعينَي بيير عجوزًا يثير الشفقة والرثاء طيبًا.

تذكر بيير غالبًا في ما بعد هذه الفترة من الجنون السعيد، لقد ظلت الأحكام كلها التي أصدرها حينذاك على الناس والأشخاص عادلة في نظره لا يتطرق إليها الشك، ولم يكتفِ بعدم التنكر في ما بعد لأية وجهة نظر ارتآها حينذاك، بل كان على العكس يُهرع دائمًا إلى الفكرة التي تبناها خلال فترة جنونه كلما تطرق إلى نفسه الشك العميق أو التردد. وكانت تلك الفكرة تبدو دائمًا صحيحة.

كان يفكر: «لعلني بدوت حينذاك غريبًا ومثيرًا للضحك، لكنني ما كنت حينذاك مجنونًا بقدر ما يظنون، لقد كنت على العكس أكثر إحساسًا ونفاذ بصيرة مما لم أكنه قط، وكنت أفهم كل ما يجدر أن يُفهم في الحياة لأنني كنت سعيدًا.»

وكان بيير يقوم على أساس أنه لم يعد كسابق عهده ينتظر أن تكون لديه أسباب شخصية ليحب الناس على أساسها، أسباب كان يدعوها ميزان أولئك الناس، بل إن الحب كان يطفح من قلبه فكان يحب الناس دون سبب، ويجد أسبابًا لا تقبل الجدال تدفعه إلى محبتهم.

الفصل الحادي والعشرون

اعتراف ناتاشا

منذ ذلك المساء الذي قالت فيه ناتاشا، بعد ذهاب بيير للأميرة ماري بابتسامتها المرحة الفكهة، إنه كان «تمامًا، حقًّا تمامًا كأنه خارج من الحمام، بسترته الرسمية القصيرة وشعره المُعْنَى به»؛ منذ تلك اللحظة استيقظ في أعماق نفس ناتاشا شيء سري مجهول منها ولكن لا يمكن مقاومته، ولقد تبدل وجهها واختلفت أماراتها ونظرتها، انبعثت في نفسها قوة حيوية ما كانت تشتبه بوجودها وآمالُ في السعادة وأخذت تطالب بنصيبها. ومنذ الليلة الأولى بدت ناتاشا وكأنها نسيت كل ما اجتازته منذ حين، لم تعد تشكو مرة واحدة في الأيام التالية من وضعها، ولا تنوه ولو مرة واحدة بماضيها، ولا تخشى أن تبيِّت المشاريع البهيجة للمستقبل. كانت قليلة الكلام عن بيير، ولكن عندما كانت الأميرة ماري تشير إليه كانت نار خمدت في نفسها منذ أمد طويل تعود إلى الاتقاد في عينيها، وتنفرج شفتاها عن ابتسامة غريبة.

ولقد أدهش التبدل الذي طرأ على ناتاشا الأميرة ماري بادئ الأمر، ولما أدركت السبب أحست بالكآبة، فكرت الأميرة ماري عندما لبثت وحدها تمعن النظر بذلك التحول: «أتُراها كانت تحب أخي محبة سطحية حتى يتيسر لها الآن أن تنساه بمثل هذه السهولة؟» لكنها عندما كانت تجتمع بناتاشا لم تكن تحقد عليها ولا توجه إليها أي لوم. كانت القوة الحيوية المستيقظة في نفس ناتاشا مستولية عليها بشكل لا يقبل المقاومة حقًّا، شكل لم يكن متوقعًا من جانبها نفسها، حتى إن الأميرة ماري أخذت تشعر في حضرتها بأنها لا تملك حق اتهامها حتى ولا سرًّا في أعماق نفسها.

أما ناتاشا فكانت مستسلمة إلى إفعام كلي وإخلاص تام لشعورها الجديد، حتى إنها ما كانت تحاول إخفاء حلول المرح والابتهاج محل الكآبة والحزن.

وعندما مضت الأميرة ماري إلى حجرتها بعد تفاهمها مع بيير، جاءت ناتاشا تستقبلها على العتبة، سألتها بإلحاح: هل تعلم؟ نعم؟ هل تعلم؟

وارتسم على وجه ناتاشا تعبير مرح وأليم بنفس الوقت يسأل الصفح عن فرحتها: كنت أريد أن أصغي وراء الباب، لكنني كنت أعرف أنك ستحدثينني بكل شيء.

ومهما بلغت النظرة التي شملت بها ناتاشا الأميرة ماري من امتناع عن الإدراك عند هذه وإثارة للعطف، ومهما بلغ إشفاقها عليها لانفعالها وقلقها؛ فإن أقوال ناتاشا آلمتها بادئ الأمر، تذكرت أخاها وغرامه، فكرت: «ولكن ماذا أعمل؟ لا يمكنها أن تكون غير ما هي عليه.»

وكررت على ناتاشا بلهجة حزينة فيها بعض الصرامة كل ما قاله بيير منذ حين، ولقد دُهشت ناتاشا عندما علمت بأنه سيسافر إلى بيترسبورج. رددت وكأنها لا تفهم المعنى: إلى بيترسبورج!

لكنها عندما لمحت تعبير الحزن الذي انطبع على وجه الأميرة ماري خمنت السبب، وفجأة انخرطت في البكاء.

قالت: ماري، قولي لي ماذا يجب أن أعمل، إنني أخشى أن أكون رديئة، سوف أعمل ما تشيرين عليَّ بعمله، أعلميني ...

– هل تحبينه؟

فهمست ناتاشا: نعم.

قالت الأميرة ماري التي غفرت لناتاشا ابتهاجها بالنظر إلى دموعها: وإذن لماذا تبكين؟ إنني سعيدة من أجلك.

– لن يكون الأمر فوريًّا، بل فيما بعد ... فكري بالسعادة التي ستغمرنا عندما أصبح أنا زوجته، وتصبحين أنت زوجة نيكولا.

– ناتاشا، لقد سألتك من قبل ألَّا تتحدثي عن هذا الأمر، إن المسألة تتعلق بك الآن.

وصمتتا كلتاهما.

وفجأة استأنفت ناتاشا: ولكن، لماذا يسافر إلى بيترسبورج؟

بيد أنها سارعت تجيب نفسها على سؤالها قائلة: كلا، كلا، يجب ذلك، أليس كذلك يا ماري؟ يجب أن يسافر ...

الخاتمة

الجزء الأول

الفصل الأول

القادحون والمادحون

بعد سبع سنين عاد محيط التاريخ الصاخب إلى شطآنه فبدا هادئًا، لكن القوى الخفية التي تحرك الإنسانية، خفية لأننا نجهل قوانين حركتها، ظلت على حركتها.

وعلى الرغم من أن كل شيء بدا ساكنًا على سطح هذا المحيط من التاريخ، فإن الإنسانية ظلت مثابرة على حركتها الدائمة كسابق العهد، فاتحدت جمهرات بشرية كثيرة أو انفرط عقدها، ونضجت أسباب جديدة لتشكيل حكومات وتجزئتها وأُعدَّت هجرات شعوب.

لم يعد محيط التاريخ يندفع كسابق عهده فجأة من شاطئ إلى الشاطئ الآخر، لقد أخذ يغلي في الأعماق. ولم تعد الشخصيات التاريخية تُجرف بالأمواج من شاطئ إلى آخر، بل بدت الآن تدور في مكانها، فالشخصيات التاريخية التي كانت من قبل على رأس القطعات تعبر عن حركة الجماهير بأوامر حربية وحملات ومعارك، باتت تبحث الآن عن التعبير عن تلك الحركة بترتيبات سياسية ودبلوماسية وقوانين ومعاهدات.

والمؤرخون يطلقون على هذا النشاط من جانب الشخصيات التاريخية اسم «رد فعل».

والمؤرخون بوصفهم نشاط الشخصيات التاريخية الذي هو سبب ما يسمونه «رد فعل» على حد زعمهم، إنما يحكمون على تلك الشخصيات. وكل الأشخاص المعروفين في ذلك العصر من ألكسندر ونابليون ومدام دوستال وفوسيوس[١] وشيلنج[٢] وفيخته[٣] وشاتوبريان[٤] وآخرين، كانوا يمثلون أمام محكمتهم الصارمة، فيُبرَّءون أو يُحكَم عليهم تبعًا لمساهمتهم في التطور أو في رد الفعل.

[١] فوسيوس، بطريك القسطنطينية عام ٨٥٨، وكاتب بيزانتي وسياسي طموح جريء، أثار عام ٨٦٣ انفصال الروم الأكبر عن الكنيسة. وُلد عام ٨٢٠، وتُوفِّي في المنفى عام ٨٩١.

وتبعًا للمؤرخين كان هناك رد فعل يتبدى في روسيا نفسها في ذلك العهد، وكان المسئول الأول عن ذلك هو ألكسندر الأول، هذا نفسه الذي كان دائمًا، تبعًا لهم، المحرض الرئيسي للمبادهات المتحررة المتعلقة ببدء حكمه وبخلاص روسيا.

واليوم، في الأدب الروسي، ابتداء من الطالب العادي وحتى أوسع المؤرخين علمًا، ليس هناك رجل لا يلقي اللوم على ألكسندر الأول بسبب الأخطاء التي ارتُكِبت في تلك الفترة من عهده.

«كان عليه أن يتصرف على هذا النحو أو ذاك. في هذه المناسبة أحسن التصرف وفي تلك أساء. لقد تصرف تصرفًا رائعًا في بدء عهده وفي عام ١٨١٢، لكنه أساء إذ منح بولونيا دستورًا، وأقام الحلف المقدس، وأعطى لأراكتشييف ملء السلطان، وأيَّد جوليتسين ومذهب التصرف، ثم بتشجيعه شيشكوف وفوسيوس. لقد أساء صنعًا إذ اهتم بالتدريبات العسكرية وحلَّ فيلق سيميونوفسكي ... إلخ.»

ويقتضي لتعداد المظالم، التي أحاطه المؤرخون بها باسم علم سعادة البشرية هذا الذين يزعمون امتلاك ناصيته، صفحات وصفحات.

ما معنى تلك المظالم؟

ألم تنجم التصرفات التي يؤيد المؤرخون ألكسندر الأول فيها، وأعني مذهب التحرر عند بدء حكمه ونضاله ضد نابليون، والثبات الذي أظهره طيلة عام ١٨١٢ ثم حملة ١٨١٣، عن المصادر إياها التي صدرت عنها التصرفات التي يذمونها؛ مثل الحلف المقدس وإعادة الملكية إلى بولونيا ورد فعل عام ١٨٢٠؟ وهذه المصادر هي التركة، الثقافة، شروط الكينونة، التي جعلت من شخصية ألكسندر الأول على ما كانت عليه.

وعلى أي أساس تقوم تلك المظالم على وجه الدقة؟

---

[٢] فردريك غليوم جوزيف شيلنج، فيلسوف ألماني، وُلِد في ليونبيرج عام ١٧٧٥، وتُوفِّي عام ١٨٥٤. مؤلف طريقة للمثالية الباطنية.

[٣] جان جوتليب فيخته، فيلسوف ألماني، وُلِد في رامونو عام ١٧٦٢، وتُوفِّي عام ١٨١٤. كان تلميذًا للفيلسوف «كانت» وأستاذًا لشيلنج. سبق البحث عن فلسفته.

[٤] الفيكونت فرانسوا رونيه دوشاتوبريان، كاتب فرنسي، وُلِد في سان مالو عام ١٧٦٨، وتُوفِّي عام ١٨٤٨. سافر إلى أمريكا وعاد إلى وطنه إبَّان الثورة، ثم هاجر عام ١٧٩٢ ليعيش في إنجلترا فلم يعد منها إلا عام ١٨٠٠. سبق التحدث عنه.

على الأساس التالي: شخصية تاريخية من وزن ألكسندر الأول موضوعة على رأس السلطة البشرية، وبمعنى آخر في المركز الباهر الضوئي الذي تتركز فيه كل الإشعاعات التاريخية، شخصية خاضعة لأقوى تأثيرات العالم، تلك التأثيرات التي لا تنفصل عن سلطة الحكم: دسائس، كذب، إطراء، إعماء عن الذات، شخصية يشعر صاحبها في كل لحظة بمسئوليته عن كل ما يدور في أوروبا، شخصية كانت محرومة من الفضيلة.

وذم المؤرخين لا ينصبُّ على هذه الناحية، بل لأنه كان لها رأي آخر حول سعادة الإنسانية، مختلف عن رأي أستاذ اليوم الذي انصرف إلى العلم منذ حداثته، والذي يستودع في دفتر ما قراءات ومحاضرات.

ولكن إذا فرضنا جدلًا أن ألكسندر الأول قد أخطأ منذ خمسين عامًا في وجهات نظره حول سعادة الشعوب، فإننا بالتالي نستطيع أن نفرض كذلك أن المؤرخ الذي يحكم عليه سيبدو خلال زمن ما مخطئًا في وجهات نظره حول سعادة الإنسانية هذه بالذات، وهذا الفرض طبيعي لا مراء منه بقدر ما. إذا تتبعنا تطور التاريخ نجد أن وجهة النظر حول السعادة البشرية تختلف عامًا بعد عام ومن مؤرخ إلى آخر، لدرجة أن ما بدا لأول وهلة خيرًا يصبح بعد عشرة أعوام شرًّا، والعكس بالعكس. بل إننا نجد أكثر من ذلك، آراء في التاريخ نُشِرت في آن واحد متناقضة كل التناقض حول مدلول الخير والشر، فبعضهم يطرون ألكسندر الأول بسبب الدستور الذي منحه لبولونيا ولعقده الحلف المقدس، وآخرون يعتبرون هذه التدابير جريمة.

لا يمكن القول عن نشاط ألكسندر الأول ولا عن نشاط نابليون إنه كان ضارًّا أو نافعًا إذا تعذر بيان كيف كان، فإذا كان ذلك النشاط لا يروق لهذا أو ذاك فلأنه لا يتفق فقط والمعرفة المحدودة التي اتخذها عن طبيعة الخير، وإذا كان الخير بالنسبة إلى بقاء بيت أبي في موسكو سليمًا عام ١٨١٢، أو ظفر الجيوش الروسية أو ازدهار جامعة بيترسبورج أو أي مركز علمي آخر، أو حرية بولونيا أو قوة روسيا، أو ذلك الشكل من الحضارة الأوروبية المعروف تحت اسم تطور؛ فإنني بنفس الوقت مُرغَم على الاعتراف بأن نشاط كل شخصية تاريخية استهدف باستثناء هذه الاهداف غايات أخرى ذات طابع أعم يفوق حد مفاهيمي.

ولكن لنفترض أن ما يسمونه العلم حاصل على قدرة تحويل كل المتناقضات ما لك وسيلة لا تخطئ لقياس الخير والشر، سواء بالنسبة إلى الشخصيات التاريخية أو إلى الأحداث.

لنفترض أن ألكسندر كان قادرًا على التصرف في كل ظرف خلافًا لما عمل، لنفترض أنه كان قادرًا تبعًا لإرشادات أولئك الذين يتهمونه والذين يزعمون معرفتهم بالهدف النهائي الذي تتوق الإنسانية إليه، لنفترض أنه كان قادرًا على اتِّباع منهاج المصلحة القومية والحرية والمساواة والتطور (وليس هناك شيء أكثر جدة من هذا على ما يبدو)، الذي يضعه له مشنِّعوه اليوم، ولنفترض أن هذا البرنامج كان ممكن التطبيق جيد الإعداد، وأن ألكسندر الأول سار عليه؛ ماذا كان يحدث لنشاط الأشخاص كلهم الذين كانوا يعارضون حينذاك التوجيه المتَّخَذ من قبِل الحكومة، وهو النشاط الذي تبعًا لآراء المؤرخين كان نافعًا وخيرًا؟ ما كان ذلك النشاط ليكون وما كانت الحياة لتكون وما كان ليحدث أي شيء.

فافتراض أن حياة الإنسانية يمكن أن تسير بواسطة العقل إنما هو نكران كل إمكانية للحياة.

الفصل الثاني

عاملا الصدفة والعبقرية

الافتراض، كما ينهج المؤرخون، أن الرجال العظام يقودون الإنسانية نحو تحقيق الأهداف المعروفة، سواء أكانت عظمة روسيا أم عظمة فرنسا أم التوازن الأوروبي أم التطور العالمي أم أي هدف آخر، يجعل تفسير أحداث التاريخ مستحيلًا دون اللجوء إلى مدارك «الصدفة» و«العبقرية».

وإذا كانت غاية الحروب الأوروبية في غرة قرننا عظمة روسيا، فإن هذا الهدف كان قابل البلوغ دون أية من الحروب التي سبقت الغزو ودون الغزو نفسه. ولو كانت الغاية هي عظمة فرنسا، فإنها كان يمكن إدراكها بدون الثورة والملكية. ولو كان الهدف نشر بعض الأفكار، فإن المطبعة كانت قادرة على القيام به أفضل بكثير مما قدر الجنود. ولو كانت الغاية تطور المدنية، فإن بالإمكان التقبل دون أي صعوبة بأن هناك من الوسائل الناجعة لنشر المدنية أفضل بكثير من إفناء الرجال وثرواتهم.

فلماذا إذن وقعت الأمور على هذا النحو وليس على نهج آخر؟ لأنها وقعت كذلك.

فـ «الصدفة» خلقت الموقف الفلاني، فاستخدمته «العبقرية»، هذا ما يقول التاريخ. ولكن ما هي الصدفة؟ ما هي العبقرية؟

إن كلمتَي صدفة وعبقرية لا تعنيان شيئًا ما موجودًا، لذلك لا يمكن تحديدهما. إن هاتين الكلمتين لا تعنيان إلا درجة محدودة في مضمار فهم الظاهرات، فأنا لا أدري لماذا حدثت هذه الظاهرة أو تلك، وأفكر بأنني لا أستطيع دراية السبب، وبالتالي لا أستطيع إدراكه فأقول: صدفة، وأرى قوة تحدث أثرًا فوق النسبة المتفقة مع إمكانيات الإنسان الشائعة فلا أدرك سبب هذا الحدث وأقول: عبقرية.

وبالنسبة إلى قطيع يجب أن يكون الخروف الذي يقوده الراعي كل مساء إلى مزرب خاص ليُعلف على حدة، والذي يصبح بالتالي ضعف حجم الآخرين، يجب أن يكون هذا

الخروف عبقريًّا، أما واقع أن هذا الخروف نفسه الذي بدلًا من أن يمضي كل مساء إلى الحظيرة يُقاد إلى زريبة خاصة ليتلقى علفه خاصة، وواقع أن هذا الخروف بالذات عندما يصبح سمينًا شحيمًا يُذبح من أجل لحمه، هذه الواقعة يجب أن تبدو على صورة مقارنة مدهشة للعبقرية ولسلسلة من الصدف الخارقة.

ولكن يكفي للخراف أن تكف عن التفكير في أن ما يقع لها ناجم عن واقع وجوب بلوغهم أهدافًا مختارة لفصيلة الخراف، يكفيها أن تتقبل أن لكل ذلك غاية مجهولة منها، وحينئذ سترى وحدة وتسلسلًا منطقيًّا في ما يقع لأحدهما بعد تسمينه. وإذا ما كانت تعرف السبب الذي من أجله عُلف الخروف على حدة، فإنها ستعرف على الأقل أن كل ما وقع لم يحدث دون سبب، وحينئذ لن يعود بها حاجة إلى اللجوء إلى الصدفة والعبقرية.

ولن نرى تسلسلًا منطقيًّا في حياة الشخصيات التاريخية إلا إذا تخلينا عن محاولة معرفة الهدف القريب المفهوم واعترفنا بأن الغاية النهائية مجهولة منا، حينئذ فقط نكتشف سبب التفاوت الكائن بين تصرفاتها واستعداد النشاط الشائع عند كل البشر، ولن تعود بنا حاجة إلى كلمتَي صدفة وعبقرية.

يكفي أن نفترض بأن غاية هياج شعوب أوروبا مجهولة منا، وأننا لا نعرف إلا الوقائع القائمة على شكل مجازر في فرنسا أولًا ثم في إيطاليا وأفريقيا وبروسيا والنمسا وإسبانيا وروسيا، وأن حركة الغرب نحو الشرق والشرق نحو الغرب تشكل جوهر الأحداث وغايتها، وحينئذ لا تعود بنا حاجة إلى رؤية شيء ما على لون من العبقرية أو الاستثناء فحسب في طبيعة نابليون وألكسندر، بل إننا لن نعود في حاجة كذلك إلى تصور هذين الرجلين على شكل يختلف عن بقية الرجال، ولا تعود بنا حاجة إلى اللجوء إلى الصدفة لتفسير أتفه الأحداث التي جعلت من هذين الرجلين ما كانا عليه فحسب، بل نرى كذلك بوضوح أن كل تلك الحوادث التافهة كانت ضرورة لازمة.

فإذا عزفنا عن الاعتراف بالهدف النهائي، فهمنا بجلاء أنه كما لا يمكن أن نتصور لنبتة ما لونًا أو بذارًا أفضل لطبيعتها من اللون والبذار اللذين تنتجهما، كذلك يستحيل علينا أن نتصور رجلين آخرين بماضٍ كامل يستطيعان أن يجيبا بكل هذه الدقة وحتى في أدق التفاصيل على المهمة التي كان عليهما الاضطلاع بها.

الفصل الثالث

نابليون بإيجاز

إن المعنى العميق للأحداث الأوروبية في بداية القرن التاسع عشر يكمن في حركة الجماهير الشعبية الأوروبية الحربية، جماهير الغرب نحو الشرق ثم الشرق نحو الغرب. إن حركة الغرب نحو الشرق كانت الأولى، ولكي يصبح ممكنًا للشعوب الغربية أن تدفع تقدمها الحربي حتى موسكو كان لزامًا: (١) أن تتحد في كتلة حربية على امتداد كبير، حتى تصبح قادرة على تحمل صدمة الكتلة الشرقية المحاربة. (٢) أن تتنكر لكل تقاليدها ولكل عاداتها. (٣) أنه لكي يبلغ هجومها الغاية، وجب أن يكون على رأسها رجل يستطيع أن يبرر لنفسه ولها المداجاة والسلب والمذابح التي لا بد من وقوعها والتي رافقت الحركة.

أولًا: التجمهر القديم للقوات قليل الأهمية انحل في فرنسا بفعل الثورة، وأُبِيدت التقاليد والعادات القديمة، وقام تجمهر جديد تدريجيًّا على نطاق أوسع وبعادات جديدة وتقاليد جديدة، وعندئذ تجهز الرجل الذي يجب أن يقوم على رأس الحركة المقبلة ويحمل كل مسئولية الأحداث التي يجب أن تتم.

وهذا الرجل عديم البراهين عديم الماضي والتقاليد، المحروم من الاسم، بل وغير الفرنسي أيضًا؛ يتسلل بمساعدة أكثر الظروف غرابة على ما يبدو بين كل أحزاب فرنسا وهي في حالة الغليان، وحمل نفسه إلى الصف الأول دون أن يرتبط بحزب منها.

وجهالة مرافقيه وضعف أخصامه وتفاهتهم وقلة الحياء وضيق فكر هذا الرجل اللامع المغرور؛ وضعته كلها على رأس الجيش. وقيمة جنود الجيش الإيطالي، ونفور خصومه من القتال، واستهتاره وزهوه الصبيانيان؛ عادت عليه بالمجد العسكري. إن عددًا لا يُحصَى من «الصدف» تواكبه دائمًا. ففقد الحظوة التي نزلت به من جانب المديرين الفرنسيين خدمته، والمحاولات التي شرع فيها لتبديل اتجاهه لا تنجح، إذ يُرفض عرضه

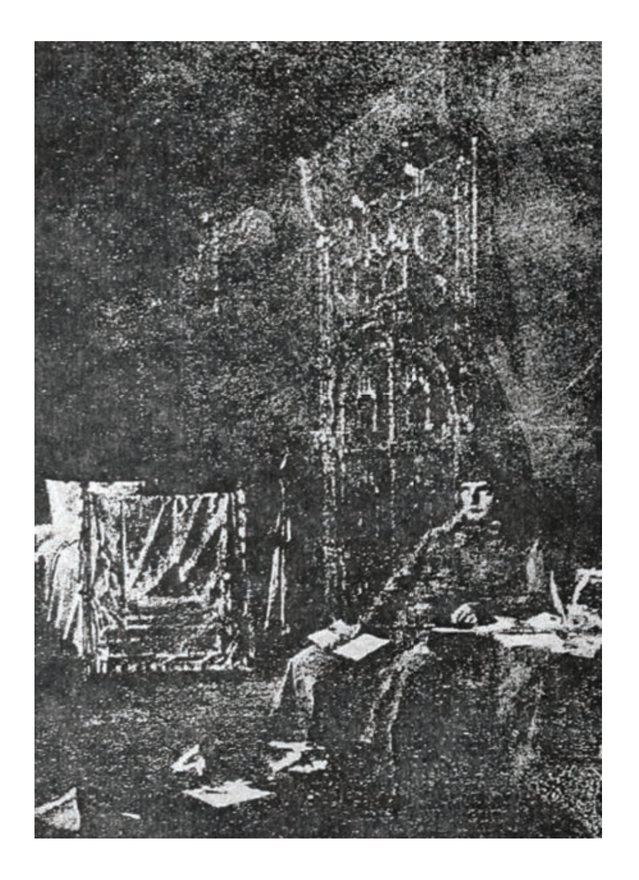
الخدمة في روسيا ولا يتوصل إلى الاستقرار في تركيا. وأثناء الحرب الإيطالية يصبح مرتين قاب قوسين أو أدنى من نهايته، وفي كل مرة يفلت بطريقة غير منتظرة. والجيوش الروسية الوحيدة القادرة على تهديم مجده لا تتقدم في أوروبا بنتيجة تدابير دبلوماسية مختلفة ما زال هو فيها.

وعند عودته من إيطاليا إلى باريز وجد الحكومة في حالة من التفسخ جعلت المساهمين فيها عرضة للتبدد والفناء بشكل لا مناص معه، فتعرض وسيلة من تلقاء نفسها لإنقاذه من موقفه الخطير: بعثة غير مصيبة منافية إلى أفريقيا. ومن جديد تعود «الصدف» نفسها إلى مواكبته، فمالطة المشهورة بامتناعها تستسلم له دون أن تطلق رصاصة واحدة، والقرارات الأكثر عرضة للخطر تكلل بالنجاح، فالأسطول العدو الذي لا يدع بالتالي زورقًا واحدًا يمر يوسع المجال لمرور جيش كامل. وفي أفريقيا ارتُكِبت أسوأ الشناعات ضد شعب شبه أعزل تقريبًا، فيجد فاعلو هذه المساوئ ورئيسهم على رأسهم كل هذا رائعًا، وأنه جدير بقيصر وبالإسكندر المقدوني، وأنه خير.

وهذا المثل الأعلى من المجد والعظمة الذي لا يقوم فقط على الظن بأنهم لا يأتون منكرًا، بل كذلك على الافتخار بكل هذه الجرائم التي يرتكبونها بعز وتفسير لها غير مفهوم وفوق طبيعي. هذا المثل الأعلى الذي وجب أن يسوس هذا الرجل ككل المتصلين بمصيره، نضج في الرقعة الأفريقية المتسعة، إذ إن كل ما شرع به هناك أصاب النجاح، وتنكبه الطاعون، ولم يُنسَب إليه أي جرم عن تقتيل الأسرى الوحشي. ومغادرته أفريقيا بخرق صبياني لا معنى له وهِجران مرافقيه في البؤس عاد عليه بالنفع، ومن جديد ترك له الأسطول العدو مجال الإفلات للمرة الثانية. وفي تلك الأثناء عندما كان رأسه ثملًا بنجاح كل جرائمه، وصل إلى باريز وهو على استعداد ليلعب دوره ولكن دون أن تكون له غاية محددة، وتفسخ الحكومة الجمهورية الذي كان منذ عام مضى يمكن أن يسبب ضياعه، كان قد بلغ مرحلته النهائية. فلم تكن صنعته، صنعة البعد عن كل الأحزاب، إلا لتبرز ميزته وتخدم علوه.

ليس لديه أية خطة للعمل، وهو خائف من كل شيء، لكن الأحزاب تسعى إلى التعلق به وتطالب بمعاونته.

فهو وحده، بالمثل الأعلى من المجد والعظمة الذي خلقه لنفسه في إيطاليا وأفريقيا ومصر، وبعبادته المجنونة لذاته، وجرأته في مضمار الجريمة ووقاحته؛ هو وحده يستطيع أن يقرر الأحداث التي يجب أن تتم.



نابليون يبعث رسالة.

إنه الرجل الملازم للمكان الذي ينتظره. وهكذا بشكل خارج عن إرادته تقريبًا، رغم قلة حزمه وافتقاره للبرنامج وكل الأخطاء التي يكدسها، جُرَّ في مؤامرة تهدف إلى رفعه إلى سدة الحكم ونجحت هذه المؤامرة.

وجروه إلى جلسة من جلسات حكومة المديرين، فذُعِر وحاول أن يفر ظنًّا منه أنه ضائع، وتظاهر بالغشيان وألقى خطبًا منافية كانت كافية للقضاء عليه، لكن المديرين الفخورين حتى ذلك الحين الفطينين شعروا الآن بأن دورهم قد انتهى، ففاهوا هم كذلك وهم أشد جزعًا منه بكلمات هي أقل ما يصلح لحفظ السلطان لهم وجر الخراب على هذا الرجل.

إنها «الصدفة»، إنها ملايين «الصدف» التي سلمت إليه السلطان، وراح كل الناس وكأنهم خاضعون لكلمة سر واحدة يساهمون في تدعيم هذا السلطان. إنها «الصدف» التي كونت شخصيات مديري فرنسا حينذاك، إنها الصدف التي كونت شخصية بول[1] الأول، الذي اعترف بسلطانه، وهي الصدفة التي دبرت ضده مكيدة دعمت سلطانه بدلًا من أن تُودي به، وهي الصدفة التي سلمته الدوق دانجيان[2] ودفعته إلى العمل على قتله غيلة، ساعيًا عن هذا السبيل الأقوى من كل السبل الأخرى إلى إقناع الجمهور بأن له الحق طالما بيده القوة. وهي «الصدفة» التي جعلته يوجه كل قواه للقيام بحملة ضد إنجلترا كانت ولا ريب ستسبب دماره الكامل فلا يحقق هذه الغاية أبدًا، لكنه يقع فجأة على ماك[3] وجماعته النمساويين الذين يستسلمون دون قتال. وهي «الصدفة» و«العبقرية» اللتان منحتاه النصر في أوسترليتز. ومن قبيل «الصدفة» كذلك أن كل الرجال ليس رجال فرنسا فحسب، بل رجال أوروبا كلها باستثناء إنجلترا التي لم تساهم أبدًا في أي من الأحداث الجارية؛ كل الرجال رغم هولهم الأصلي وحقدهم على جرائم هذا الرجل يعترفون الآن بسلطانه وباللقب الذي منحه لنفسه وبمثله الأعلى عن العظمة والمجد، الذي يتبارى كل منهم إلى اعتباره شيئًا ما رائعًا ومعقولًا.

وكأن القوات الغربية أرادت أن تجرب سلفًا حركتها المقبلة، فاتجهت مرات عديدة نحو الشرق في أعوام ١٨٠٥ و١٨٠٦ و١٨٠٧ و١٨٠٩، وكل مرة بأكثر قوة وأوفر عدد. وفي عام ١٨١١ ذابت الكتلة من الرجال المتكتلة في كتلة أخرى هائلة من شعوب وسط أوروبا، وكلما ازدادت هذه الكتلة ضخامة وقوة ازداد تبرير تصرف الرجل القائم على رأس الحركة. وخلال حقبة العشر سنوات التي أعدت هذه الحركة دخل هذا الرجل في مفاوضات مع كل الرءوس المتوَّجة في أوروبا. وسلطات هذا العالم المسلوبة من سلطانها لا يمكن أن تعترض على مثل نابليون الأعلى بالعظمة والمجد، ذلك المثل الأعلى الخالي من أي معنى، بأي مثل أعلى آخر معقول.

[1] بول الأول، إمبراطور روسيا، ابن كاتيرين الثانية، وُلِد في بيترسبورج عام ١٧٥٤، واعتلى العرش عام ١٧٩٦، ثم اغتيل في مؤامرة بالبلاط عام ١٨٠١.

[2] الدوق دانجيان، ابن لويس هنري جوزيف دوق دوكونديه، وُلِد في شانتِّي عام ١٧٧٢، واختُطف بناءً على أمر بونابرت من الأراضي الألمانية وحُمل إلى باريز حيث أُعدِم رميًّا بالرصاص في فانسين عام ١٨٠٤.

[3] شارل ماك، جنرال نمساوي، وُلِد عام ١٧٥٢، وتُوفِّي عام ١٨٢٨، استسلم لنابليون — كما سبق القول — في أولم مع ثلاثين ألف رجل دون قتال.

فراحت الواحدة تلو الأخرى تتهافت على تقديم مشهد تفاهتها إليه، فملك بروسيا يرسل زوجته لاستجداء التفاتات الرجل العظيم، وإمبراطور النمسا يعتبر نعمة أن يتفضل هذا الرجل العظيم باستقبال ابنة القياصرة في سريره، والبابا حارس كنوز الشعوب المقدسة يسخر دينه لرفعة الرجل العظيم. إن نابليون بالذات لم يعد نفسه لإشغال دوره بقدر ما جرفه من حوله وألجأه إلى احتمال كل مسئولية الأحداث الحاضرة والمقبلة على عاتقه، إنه لم يرتكب غشًّا أو جرمًا أو خيانة وضيعة إلا وانقلبت في فم من حوله إلى عمل رائع، لم يجد الألمان لإرضائه خيرًا من الاحتفال بهزيمتهم في إيينا وأويرستادت. ثم إنه ليس وحده العظيم بل أسلافه وإخوانه وأبناء زوجته وأصهاره وإخوان زوجاتهم كلهم عظماء كذلك، فكل شيء يساهم في حرمانه من آخر آثار تعقله وإعداده لدوره المريع، ولما أُعِد كانت القوى التي أعدته جاهزة كذلك.

نشر الغزو قلوعه باتجاه الشرق فبلغ هدفه النهائي الذي هو موسكو، وأُخِذت العاصمة، وأُبيد الجيش الروسي إبادة لم يقوَ مثلها على جيوش الأعداء في الحروب السالفة من أوسترليتز إلى واجرام. وفجأة بدلًا من هذه «الصدف» ونوبات «العبقرية» التي حملت نابليون بكثير من الاستمرار من ظفر إلى ظفر حتى الهدف المحدد، ظهرت سلسلة لا تُحصَى من «الصدف» العكسية، ابتداءً من حالة الزكام في بورودينو وحتى برد الشتاء القارس والشرارة التي أشعلت النار في موسكو، وبدلًا من العبقرية ظهر غباء ونذالة لا مثيل لهما.

الغزو يتقهقر ويعود إلى الوراء ويفر من جديد، والآن ودون توقف أصبحت الصدف ضد نابليون بدلًا من أن تكون معه.

وقامت حركة عكسية من الشرق نحو الغرب تمثل مجانسات مرموقة مع السابقة حركة الغرب نحو الشرق، نفس المحاولات الأولية للشرق ضد الغرب كما في أعوام ١٨٠٥ و١٨٠٦ و١٨٠٩ قبل التزعزع الأكبر، نفس تركيز الرجال الهائل واشتراك شعوب وسط أوروبا نفسه في الحركة، والتردد في منتصف الطريق نفسه، ومضاعفة السرعة نفسها كلما ازداد القرب من الهدف.

وبلغت الغاية الأخيرة باريز، فدُمِّرت حكومة نابليون كما دُمِّر جيشه، فلم يعد لنابليون نفسه سبب للوجود، فكل تصرفاته باتت منذ ذلك الحين منحطة تستدر الشفقة. لكن صدفة جديدة لا يمكن تفسيرها تتدخل في الأمر من جديد، إن الحلفاء يكرهون نابليون الذي يتهمونه بأنه سبب تعاساتهم، فلما جُرِّد من قوته وسلطانه وثبتت عليه

جرائمه وغدره، كان يجب أن يظهر لهم كما كانوا يرونه منذ عشرة أعوام خلت وكما رأوه بعد عام آخر: مجرمًا خارجًا عن القانون، لكن ما من أحد بصدفة غريبة رأى ذلك. إن دوره لم ينته بعد، فالرجل الذي قبل عشرة أعوام مضت وعام قدم اعتُبِر مجرمًا خارجًا عن القانون، أُرسِل إلى مسافة سفر يومين عن فرنسا في جزيرة مُنِح فيها السيادة المطلقة مع حرس وملايين، الله يعلم في أي شيء نفعته.

الفصل الرابع

علاقة وليس غاية

بدأت حركة الشعوب تتعقل في شواطئها، وانحسرت موجات المد الكبير، وأخذت الحلقات تتشكل على صفحة البحر الهادئ، طفا فوقها الدبلوماسيون الذين كانوا يتصورون أنهم هم الذين جاءوا بهذا الهدوء.

لكن البحر الهادئ ماج، فلم يلبث الدبلوماسيون أن ظنوا أنهم هم باختلافاتهم سببوا هذا التوتر الجديد من القوى، وتوقعوا حربًا بين ملوكهم، وبدا لهم الموقف لا مخرج له. لكن الموجة التي شعروا بارتفاعها لم تنتشر من حيث توقعوا أنها دائمًا الموجة إياها، نقطة الانطلاق نفسها، باريز. إنها آخر تفجر للمد المتدفق من الغرب، تفجر عليه أن يحل المصاعب الدبلوماسية ذات الطابع الممتنع عن الحل، ووضع حد للحركات الحربية في ذلك العهد.

عاد الرجل الذي دمر فرنسا إلى فرنسا هذه وحيدًا، دون أن يكون في حاجة إلى مؤامرة ودون جنود، يستطيع أي حارس غابة أن يطبق على عنقه. ولكن بصدفة غريبة لا يطبق أحد على عنقه فحسب، بل إنهم جميعًا يُهرَعون لاستقبال هذا الرجل الذي كانوا يلعنونه بالأمس، والذي سيلعنونه بعد شهر، استقبالًا حماسيًّا.

ما زال هذا الرجل ضروريًّا لتبرير آخر حركة جماعية.

ولقد أُنجزت هذه الحركة.

لعب الدور الأخير، وطُلِب إلى الممثل أن يخلع ثوبه وينزع ما على وجهه من مساحيق، إذ لم تعد بهم حاجة إليه.

وتمضي بضع سنين، يلعب هذا الرجل خلالها في وحدة جزيرته مسرحية مضحكة مثيرة للعطف، فيدس ويكذب ليبرر أعماله حيث لا نفع في أي تبرير، ويظهر للعالم أجمع قيمة ما كانوا يعتبرونه قوة، في حين أن يدًا خفية كانت تقوده، وبعد أن تأدَّى الدور وخلع الممثل ثيابه أخذ المخرج يرينا الممثل.

– انظروا إلى الذي آمنتم به! ها هو ذا! هل رأيتم الآن أنه ليس هو الذي كان يوجهكم بل أنا؟

لكن الرجال الذين أعمتهم القوة التي جعلتهم يتماوجون ظلوا طويلًا لا يفهمون ذلك.

والمنطق والضرورة اللذان يمثلان حياة ألكسندر الأول، الشخصية التي كانت على رأس الحركة في الاتجاه المعاكس، من الشرق إلى الغرب؛ كانا أعظم من ذلك.

ماذا كان يجب للرجل الذي سيتخذ مكانًا على رأس هذه الحركة كاسفًا الآخرين؟

كان عليه أن يمتلك شعور الحق، ويساهم في مشاكل أوروبا ولكن عن بعد كي لا تعكر المصالح الدنيئة رؤيته، كان عليه أن يطغى بعظمته الخلقية على شركائه ملوك ذلك الزمان، وأن يكون صائرًا على شخصية فتانة محبوبة، وعليه كذلك أن يكون قد تلقى من قبل إهانة شخصية من نابليون. ولقد اجتمعت هذه الشروط كلها في ألكسندر الأول، وكل ذلك ثمرة لـ «صدف» لا تكاد تُحصَى غُرِست على طول حياته الماضية، وفي ثقافته وميوله المتحررة، وفي المستشارين من حوله، وعن طريق أوسترليتز وتيلسيت وإيرفورت.

ظل عاطلًا عن النشاط خلال الحرب الشعبية، لأن الحاجة لم تكن تدعو إليه. ولكن ما كادت ضرورة حرب أوروبية تبدو، حتى ظهرت شخصية في مكانها في اللحظة المناسبة، فجمع شتات الشعوب الأوروبية كلها وقادها إلى الهدف.

بلغ الهدف، ووجد ألكسندر نفسه بعد حرب ١٨١٥ الأخيرة في أوج القوة الذي يمكن لإنسان أن يبلغه، فبأي شكل استغله؟

ألكسندر الأول، معيد السلم إلى أوروبا، الرجل الذي لا يبحث منذ نعومة أظفاره إلا عن سعادة شعبه، المحرض على التشكيلات التحريرية التي أُدخلت إلى وطنه في اللحظة التي على ما يبدو كان يملك أوسع سلطة وبالتالي الوسائل لتحقيق سعادة شعبه. في اللحظة التي شرع نابليون في منفاه يضع الخطط الصبيانية المخادعة حول الطريق التي سيجعل العالم سعيدًا بها لو تُرك له مجال العمل، في هذه اللحظة بالذات بعد أن أنهى ألكسندر الأول مهمته وشعر بيد الله عليه، اعترف بالعدم فجأة عدم تلك السلطة المزعومة، فأسلمها إلى أيدي أشخاص محتقَرين يستحقون الاحتقار، وقال ببساطة: «كلا، ليس لأجلنا مولانا، ليس من أجلنا، ولكن من أجل اسمك!» إنني رجل مثلكم فدعوني أَعِشْ كرجل، دعوني أفكر في روحي وبالله.

وكما أن الشمس، ككل ذرة من الأثير، كرة كاملة في نفسها وبنفس الوقت ذرة واحدة في اللامتناهي الذي لا يمكن للإنسان بلوغه في أقصى سعته، كذلك يحمل كل شخص في نفسه أهدافًا خاصة به، مع ذلك فإنه يحملها لخدمة أغراض عامة لا يطولها الإنسان.

لقد لسعت نحلة وقفت على زهرة طفلًا، والطفل يخاف النحل ويقول إن غايته لسع الناس، والشاعر يتأمل النحلة التي تمتص ما في كم الزهرة، ويقول إن غايتها امتصاص أريج الزهور. ومربي النحل عندما يلاحظ أن النحلة تجمع غبار الطلع وتحمله إلى الخلية يقول إن غاية النحلة هي إنتاج العسل له، ومربٍّ آخر درس حياة الثول بأكثر تعمق يقول إن النحلة تجمع غبار الطلع لتغذي الفقس الصغير ولكي تربي الملكة، وإن غايتها هي المحافظة على النوع. وعالم النبات يرى أن النحلة تحمل غبار اللقاح من الزهرة ثنائية المسكن إلى الزهرة الأنثى فتلقحها، ويرى أن غاية النحل تنحصر في هذا العمل. وآخر يهتم بانتشار النبت يرى أن النحلة تساهم فيه، فيستنتج هذا البحاثة أن غاية النحل هي هذه، في حين أن غاية النحل الأساسية لا تقتصر على الأولى ولا على الثانية أو الثالثة من الغايات التي استطاع الفكر البشري اكتشافها، وكلما ارتقى الفكر البشري في اكتشاف هذه الغايات ازداد إدراكه بوضوح كلي أن الغاية الكامنة وراءها لا يمكن بلوغها.

إن شيئًا واحدًا ميسور للإنسان: ملاحظة الارتباطات الكامنة بين حياة النحل وظاهرات الحياة الأخرى. وهذا هو الحال بالنسبة إلى الشخصيات التاريخية والشعوب والغايات التي يسعَوْن إليها.

الفصل الخامس

إرث الكونت

كان زواج ناتاشا وبيزوخوف الذي تم عام ١٨١٣ آخر حدث سعيد وقع للأسرة العجوز، أسرة روستوف. لقد مات الكونت إيليا أندريئيفيتش ذلك العام، وكما يحدث دائمًا أدى ذلك الموت إلى تجزؤ الأسرة.

لقد أبهظت أحداث السنة الفائتة، حريق موسكو وفرار آل روستوف من المدينة وموت الأمير آندريه ويأس ناتاشا وموت بيتيا وألم الكونتيس، كل هذا أبهظ الكونت العجوز، ما كان يفهم على ما يبدو ولا يحس بقوة لفهم معنى كل هذه الأحداث، فكان يطأطئ رأسه العجوز معنويًّا وكأنه يتوقع أو يلتمس الضربة التي ستجهز عليه، كانوا يرونه تارة مروَّعًا ومرتبكًا، وتارة ممتلئًا بحماس ونشاط مصطنعَيْن.

ولقد شغله زواج ناتاشا بعض الوقت من جانبه الظاهري، أعد الحفلات والولائم وعمل جاهدًا ليظهر مرحًا، لكن مرحه بدلًا من أن يكون ساريًّا كعادته ما كان يوقظ إلا الإشفاق في نفوس الذين كانوا يعرفونه ويحبونه.

ولقد هدأ بعد رحيل بيير وزوجته، وبدأ يشكو آلامه فلم يلبث أن سقط مريضًا ولازم الفراش. ولقد فهم منذ أيام مرضه الأولى، رغم تأكيدات الأطباء، أنه لن يبلى منه، وأمضت الكونتيس أسبوعين كاملين أمام سريره دون أن تخلع ثيابها، وكلما جرعته الدواء كان يقبِّل يدها ويبكي دون أن ينطق بكلمة. وفي اليوم الآخر سأل زوجته وابنه الغائب الصفح وهو يجهش على تبذيره ثروته، وهي الخطيئة الرئيسية التي شعر بنفسه مذنبًا لارتكابها. وبعد أن تناول وتلقى المسحة الأخيرة مات بهدوء، وملأت جمهرة المعارف الذين جاءوا في اليوم التالي يشيعون المتوفَّى حجرات المسكن الذي استأجره آل روستوف، كان هؤلاء الأشخاص كلهم الذين كثيرًا ما تناولوا الطعام على مائدته ورقصوا في بيته والذين كثيرًا ما

سخروا منه، كلهم؛ باتوا الآن يشعرون شعورًا موحدًا بتبكيت الضمير والتحنان، يقولون كلهم ليبرروا سلوكهم: «نعم، يمكن أن يقال كل شيء، لكنه كان رجلًا ممتازًا، إن أشخاصًا مثله لم يعد ممكنًا إيجادهم … ثم، من ذا الذي لا يحمل أخطاء في نفسه؟ …»

في الفترة التي بلغت أعماله من الارتباك حدًّا جعله لا يستطيع أن يتصور كيف سينتهي الأمر إذا دام طيلة عام آخر؛ مات الكونت فجأة.

وكان نيكولا مع الجيش الروسي في باريز عندما بلغه نبأ موت أبيه، فطلب من فوره إحالته على المعاش، ودون أن ينتظر النتيجة استأذن وسافر إلى موسكو. ولقد أُقيم كشف عن حالة الكونت المادية بعد شهر من وفاته، فذُهِل كل الناس من ضخامة المبلغ الذي شكلته الديون التافهة المختلفة التي لم يكن أحد قط يتوقع وجودها، لقد بلغت الديون ضعف قيمة ممتلكاته.

أوصى الأقرباء والأصدقاء نيكولا أن يرفض الإرث، لكن نيكولا وجد في ذلك الرفض مسبة لذكرى أبيه المقدسة، لذلك فإنه امتنع عن الإصغاء إلى أي نصح وقبِل الميراث، مع الوعد بتسديد الديون كلها.

وراح الدائنون الذين صمتوا طويلًا يستوقفهم في حياة الكونت التأثير غير الممكن تحديده والمعترف بقوته، الذي كان لطيبة الكونت المضطربة عليهم؛ يطالبون بسداد الديون، كلهم، وبشكل مفاجئ. وقامت بينهم، كالعادة، خصومات حول من سيُدفَع له قبل غيره، وراح الذين بأيديهم أوراق رهن وليس اعتراف بدين، أمثال ميتانكا وغيره، يظهرون أكثر إلحاحًا، لم يتركوا لنيكولا متسعًا للراحة أو الاستمهال. وأولئك الذين أشفقوا على العجوز المسئول عن خسارتهم — مع فرض تعرضهم لهذه الخسارة — أخذوا الآن يتكالبون على الوارث الشاب الذي تعهد طائعًا أن يسدد كل ديونهم.

لم يُوفَّق واحد من الوسطاء ولم يُقبَل أي عرض قدمه نيكولا، فبيعت الأملاك بالمزاد العلني بنصف قيمتها وبالتالي ظلت نصف الديون دون سداد، ولقد قبل نيكولا مبلغ ثلاثين ألف روبل من صهره بيزوخوف ليسدد ما يعترف به من ديون نقدية، ديون حقيقية، ولكي يتحاشى إلقاءه بالسجن كما كان دائنوه يهددونه عاد إلى الخدمة.

استحال عليه العودة إلى الجيش حيث كان يمكن أن يصبح برتبة زعيم عند أول شاغر، لأن أمه باتت شديدة التعلق به، تعتبر أنه غايتها الأخيرة الوحيدة في الحياة. وعلى ذلك فقد قبِل وظيفة في موسكو رغم زهده في البقاء في المدينة في الجو نفسه الذي كان فيه من قبل، ورغم كراهيته للخدمات المدنية. وبعد أن خلع الزي العسكري الذي طالما

أحبه أقام مع آن وسونيا في مسكن صغير في سيفنتسيف-فراجيك، وهو شارع ذو بيوت متواضعة وراء متحف ألكسندر الثالث، باتجاه حاجز دراجوميلوفسكاييا.

وكان بيير وناتاشا اللذان كانا يقطنان بيترسبورج حينذاك يجهلان حقيقة وضع نيكولا، لقد أخذ هذا يعمل جاهدًا بعد اقتراضه المال من صهره على إخفاء شروطه الحياتية المؤقتة، لقد كانت شئونه المالية سيئة بشكل خاص حتى إنه لم يكن مضطرًّا إلى أن يقوم بأوده بألف ومائتي روبل، هي كل مرتبه، وبحاجات سونيا وأمه فحسب، بل كذلك أن يسهر على أن تحيا أمه بشكل لا يجعلها تشعر بفقرهم. وكانت الكونتيس عاجزة عن تقبل الحياة بدون الترف الذي ألفته منذ طفولتها، فكانت في كل مناسبة دون أن تشعر بما تحدثه لولدها من منغصات، تطالب سواء بالعربة التي ما عادوا يملكونها لتستقدم صديقة، أو بطعام نادر لها أو بخمر ثمينة لولدها، أو بمال لتقدم هدايا مفاجئة لناتاشا وسونيا ونيكولا نفسه.

وكانت سونيا منصرفة إلى شئون البيت، تُعْنَى بعمتها فتقرأ لها وتحتمل نزواتها وكرهها السري، وتساعد نيكولا على أن يخفي عن الكونتيس العجوز الارتباك الذي كانوا واقعين فيه. وكان نيكولا يشعر بأنه مدين نحو سونيا لقاء كل ما كانت تعمله من أجل أمه، دينًا من العرفان لن يقدر على سداده، فكان يُعجَب بصبرها وتفانيها لكنه كان يتركها دائمًا عند حد ما.

كان يبدو ناقمًا عليها من أعماق قلبه، لأنها مفرطة الكمال مفرطة في الامتناع عن اللوم، كانت تملك كل ما يزيد التقدير، لكنها ما كانت تستطيع أن تجعل نفسها محبوبة منه. ولقد أدرك نيكولا نفسه أنه كلما سما بها السماك قل حبه لها، ولقد أخذ عليها كلمتها في الرسالة التي وجهتها إليه تعيد إليه حريته، فبات الآن يتصرف حيالها وكأن كل ما وقع بينهما نُسِي منذ أمد طويل، لا يمكن أن يعود بأي حال إلى الحياة.

ازداد مركز نيكولا المالي سوءًا، ولم تكن فكرة الاقتصاد من مرتبه إلا أضغاث أحلام، لم يكن عاجزًا عن الاقتصاد من راتبه فحسب، بل إنه كذلك اضطُرَّ إلى التورط في قروض صغيرة ليرضي متطلبات أمه، كان يرى نفسه في ورطة لا خلاص منها، تسيء إليه فكرة الزواج من وارثة غنية كما كان ذووه يشيرون إليه بها وتنفره. أما المخرج الثاني موت أمه، فما كان يتوارد إلى خاطره، ما كان يرغب في شيء ولم يعد يأمل شيئًا، كان يتلذذ في أعماق نفسه برغبة قاتمة شرسة توحي إليه بتقبل مصيره دون تذمر، وأخذ يعمل على تجنب معارفه السابقين الذين كانت رأفتهم وعروض المساعدة التي يقدمونها تجرح

كبرياءه، وبات يتحاشى كل أنواع التسرية والتسلية حتى في مسكنه، فلا يهتم إلا بقطع الوقت بفتح «فأل» مع أمه أو بذرع حجرته جيئة وذهابًا وهو صامت يدخن غليونًا إثر غليون، كان يبدو صارفًا عنايته إلى رعاية المزاج الباسر في نفسه بعناية الذي ما كان يشعر بقدرته على حمل عبئه إلا به.

الفصل السادس

ماري ونيكولا

عادت الأميرة ماري في أوائل الشتاء إلى موسكو، واطَّلعت من ثرثرات المدينة على وضعية آل روستوف، والطريقة التي كان «الابن يضحي بنفسه بها من أجل أمه» — على حد تعبير الإشاعات.

حدَّثت الأميرة ماري نفسها وهي تشعر بفرح بثقة أقوى من أي وقت مضى بحبها له: «ما كنت أتوقع شيئًا خلافًا لذلك منه.» ولقد ظنت أن من واجبها استنادًا إلى علاقات الصداقة بل والقرابة تقريبًا التي تربطها مع الأسرة كلها، أن تقوم بزيارة لآل روستوف، مع ذلك فإنها لمجرد التفكير فيما جرى لها مع نيكولا في فورونيج كانت تخاف من تلك الزيارة، وبعد أن قامت بمجهود كبير على نفسها مضت لزيارة آل روستوف بعد بضعة أسابيع من وصولها إلى موسكو.

كان نيكولا أول من قابلته إذ كان يجب اجتياز غرفته قبل بلوغ حجرة الكونتيس، وللنظرة الأولى التي ألقاها عليها اتخذ وجهه بدلًا من تعبير الفرح الذى كانت تتوقعه أمارات البرود والجفاء والتعالي، التي لم ترها من قبل قط على وجهه. استعلم نيكولا عن صحتها وقادها إلى أمه، وبعد أن جلس خمس دقائق انسحب متسللًا.

وعندما خرجت الأميرة من لدن الكونتيس، جاء نيكولا يلحق بها فقادها الى الردهة بأدب احتفالي مفرط، لم يجب بكلمة واحدة على الملاحظات التي أبدتها حول صحة الكونتيس، وكأن نظرته كانت تقول: «ماذا يهمك؟ دعيني بسلام.»

قال بصوت مرتفع أمام سونيا بعد أن ابتعدت عربة الكونتيس، وقد بدا عليه عجزه عن كبت سخطه: لماذا جاءت تحوم هنا؟ ماذا ينبغي لها؟ إنني لا أستطيع احتمال أولئك الغبيات الثرثارات وتوددهن!

قالت سونيا التي وجدت صعوبة في إخفاء سرورها: آه! كيف يمكنك التحدث على هذا النحو يا نيكولا؟! إنها شديدة الطيبة و«ماما» تحبها كثيرًا.

لم يجب نيكولا بشيء، كان يود لو لم يرد ذكر الأميرة قط بعد ذلك، لكن الكونتيس ما فتئت تتحدث عنها منذ زيارتها وتمتدحها وتلح على ابنها بالذهاب لزيارتها معبرة عن رغبتها في رؤيتها أغلب الأحيان، ولكن ينتهي بها الأمر دائمًا إلى الانفعال وهى تتحدث عنها.

وكان نيكولا يسعى إلى التسلح بالصمت كلما تحدثت أمه عن الأميرة، لكن صمته هذا كان يثير حفيظتها.

كانت تقول: إنها فتاه كريمة جدًّا، فتانة كل الفتنة، يجب أن تزورها، إن ذلك يتيح لك زيارة بعضهم وبدون ذلك سينتهي بك الأمر الى السأم.

– لكننى لا أنوي زيارتها يا أماه.

– لقد كنت راغبًا في ذلك أشد الرغبة من قبل، والآن بات هذا لا يروق لك، حقًّا يا عزيزي إنني لا أفهمك، إنك تتضجر فجأة، وفجأة لا ترغب في رؤية أحد.

– لم أقل إنني متضجر.

– كيف؟ لقد أعربت لي منذ حين أنك غير راغب في رؤيتها، مع أنها فتاة عظيمة القيمة كانت دائمًا تروق لك. والآن ما هي هذه الأسباب؟! إنكم تخفون عني كل شيء.

– ولكن أبدًا يا أماه!

– لو أنني كنت أسألك تصرفًا كريمًا لجاز الأمر، غير أنني لا أسألك إلا أن تذهب لترد زيارتها، يُخيَّل إليَّ أن الآداب تفرض ذلك ... لقد رجوت مرارًا أن تفعل ذلك، لكنني منذ الآن لن أتدخل في شيء طالما أن لديك ما تخفيه عن أمك.

– حسنًا، سأذهب طالما أنك تصرين على ذلك.

– أنا، سِيَّان عندي. إنني أطالب بذلك من أجلك.

أطلق نيكولا زفرة، وعض على شاربه، ثم نشر أوراق اللعب بغية اجتذاب انتباه أمه إلى موضوع آخر.

ولقد تجدد هذا الحديث في الغد واليوم الذى تلاه والأيام التالية.

حدَّثت الأميرة ماري نفسها بعد اللقاء الفاتر غير المنتظر، الذى أظهره لها نيكولا بأنها على صواب حينما كانت ترغب في عدم الذهاب إلى زيارة آل روستوف أولًا؛ حدَّثت نفسها وهى تتسلح بالكبرياء لمساعدتها: ما كان لي أن أتوقع شيئًا آخر، إنه لا يعنيني

بحال، ما كنت أريد إلا رؤية الكونتيس العجوز التي كانت طيبة دائمًا معي، والتي أنا مدينة لها بالكثير.

لكن هذه المبررات ما كانت تستطيع تهدئتها، كان هناك لون من الندم لا يكف عن تعذيبها كلما فكرت في تلك الزيارة. وعلى الرغم من قرارها المكين بعدم العودة إلى زيارة آل روستوف، ونسيان ما حدث، فإنها كانت تشعر دائمًا بأنها في موقف قليل الجلاء، وعندما كانت تتساءل عما يعذبها كانت مرغمة على الاعتراف بإنهاء علاقاتها مع نيكولا. إن اللهجة المهذبة الفاترة التي اتخذها حيالها غير صادرة عن الشعور الذى يكنه لها — وهي تعرف ذلك تمامًا — إنه يخفي شيئًا ما، وهذا «الشيء» هو الذى يجب أن تستجلي غموضه، وبانتظار ذلك كانت تشعر بأنها لن تستقر.

كانوا في منتصف الشتاء، وكانت مستقرة في حجرة درس ابن أخيها وهي تراقب درسه عندما جاءوا يعلنون لها زيارة روستوف. ولما كانت مقررة ألَّا تفضح شيئًا من سرها وألَّا تظهر أي ارتباك، فقد استدعت الآنسة بوريين ودخلت معها الى البهو.

أدركت من النظرة الأولى التي ألقتها على نيكولا أنه لم يحضر إلا لأداء واجب من واجبات اللياقة، فوعدت نفسها بحزم بأن تحتفظ بمثل هذا التحفظ الذي ظهر عليه.

تحدثوا عن صحة الكونتيس وعن أصدقائهم المشتركين وعن أخبار الحرب الأخيرة، ولما انقضت الدقائق العشر التي تفرضها اللياقة، والتي يستطيع الزائر اللبق بعدها أن ينهض وأن ينسحب، قام نيكولا لينصرف.

ولقد أدارت الأميرة الحديث بمساعدة الآنسة بوريين خير إدارة، لكنها في الدقيقة الأخيرة عندما نهض نيكولا شعرت بإعياء شديد من الكلام عما لا يهمها التكلم عنه، واستولت عليها فكرة حرمانها من أتفه أسباب المرح في الحياة، لدرجة أنها لم تلحظ في فترة شرود ونظرتها المضيئة شاخصة الى الأمام أنها ما زالت جالسة لا تتحرك وأن نيكولا واقف.

نظر إليها نيكولا ورغب في ألَّا يظهر بمظهر الملاحظ شرودها، فقال بضع كُلَيْمات إلى الآنسة بوريين ثم عاد ينظر إليها من جديد، ما كانت تتحرك وكان وجهها الوديع يعبر عن الألم. وفجأة شعر بإشفاق عليها، وشعر بإبهام أنه قد يكون هو سبب الألم الذى يفضحه وجهها، وود لو يبادر إلى مساعدتها وأن يتفوه بكلمات ودودة، لكنه لم يستطع إيجاد شيء.

قال: وداعًا يا أميرة.

فعادت إلى نفسها وتضرج وجهها، ثم زفرت زفرة عميقة وهتفت وكأنها استيقظت لتوها: آه! عفوًا، إنك ذاهب يا كونت؟ حسنًا، إلى اللقاء إذن! ولكن ماذا بشأن وسادة أمك؟

فقالت الآنسة بوريين التي غادرت الحجرة من فورها: انتظر، سأحضرها على الفور.

لزم كلاهما الصمت وتبادلا النظر من حين الى آخر، وأخيرًا قال نيكولا بابتسامة حزينة: نعم يا أميرة، يبدو ذلك وكأنه من أمس، ولكن كم من المياه مرت تحت الجسور منذ أن تقابلنا للمرة الأولى في بوجوتشاروفو! كنا نعتقد حينذاك أننا تعساء حقًّا بينما يا لكثرة ما أدفع لكي يعود ذلك الزمن ...! ولكن لا يمكن إعادته.

كانت الأميرة تنظر إليه بإلحاح بعينيها المضيئتين وهو يتحدث، كانت تبدو وكأنها تبذل جهدها للتوغل في معنى الكلمات السري التي يفوه بها ذلك المعنى، الذي يستطيع أن يكشف لها عن حقيقة شعوره نحوها.

قالت: نعم، نعم، ولكن لا تأسف على الماضي يا كونت، إنني على قدر ما أستطيع أن أفهم حياتك الحالية أعتقد أنك واجد متعة أبدًا في الذكرى طالما أن حياتك الآن ترتكز على التضحية.

قاطعها نيكولا بحدة: لا أقبل إطراءاتك، إن العكس كل العكس هو ما يحدث، وليس لي إلا أن أوجه اللوم إلى نفسي ... لكن هذا لا يثير الاهتمام ولا المرح إذا دار الحديث حوله.

واستعادت نظرته تعبيرها الفاتر الجاف، ولكن الأميرة ماري كانت قد وجدت الرجل وحده.

– كنت أظن أنك ستسمح لي أن أقول ذلك، ولقد كنت شديدة القرب منك ومن أسرتك حتى إنني ظننت أنك لن تأخذ مودتي في غير محلها، لكنني أرى أنني كنت واهمة.

وارتعد صوتها فجأة ثم استأنفت وهي تتمالك: لست أدري السبب، لكنك لم تكن من قبل على هذا النحو و...

– إن هناك ألف سبب لـ «لماذا» هذه. وضغط على هذه الكلمة، ثم قال بصوت خافض جدًّا: أشكرك يا أميرة، إن ذلك شديد القسوة أحيانًا.

وهتف صوت سري في نفس الأميرة ماري: «آه! هذا هو السبب! هذا هو السبب! إنني لم أحبب فيه فقط هذه النظرة المرحة الصريحة الطيبة، ولم يكن هذا المظهر الجميل وحده هو ما أحببت، بل خمنت كذلك النفس النبيلة الحازمة القادرة على التفاني. نعم، إنه الآن فقير وأنا غنية ... نعم، هذا هو السبب ... نعم، لو أن هذا لم يقع ...»

ولما تذكرت رقته السابقة ونظرت الآن إلى وجهه الطيب الحزين، أدركت فجأة سبب بروده.

وفجأة قالت وهى تصرخ تقريبًا وتقترب منه لا إراديًّا: لماذا إذن يا كونت؟ لماذا؟ قل لي لماذا، يجب أن تقوله لي.

ظل صامتًا فاسترسلت: لست أفهم «لماذاك» يا كونت، لكن ذلك يؤلمني ... أعترف لك بذلك. إنك تريد أن تحرمني صداقتي السالفة، لا أعرفه وهذا يؤلمني. وكانت عيناها ممتلئتين بالدموع وكذلك صوتها: لقد لقيت النزر التافه من السعادة في حياتي حتي إن كل خسارة تبهظ كاهلي، اصفح عني! الوداع ...

وانفجرت باكية فجأة، وخرجت من الحجرة.

هتف نيكولا وهو يحاول جاهدًا استيقافها: يا أميرة، امكثي حبًّا بالله! يا أميرة!

التفتت وتبادلا النظر خلال بضع ثوان بصمت، وفجأة بات كل ما كان مستحيلًا ونائيًا قريبًا، ممكنًا، لا مناص منه.

الفصل السابع

نيكولا في ممتلكاته

في خريف ١٨١٤ تزوج نيكولا الأميرة ماري وذهب مع زوجه يقيم مع سونيا وأمه في ليسياجوري.

وفي مدة أربعة أعوام استطاع، دون أن يمس ثروة زوجته، أن يسدد ما تبقى من ديون، بل وسدد دين بيير كذلك بفضل إرث خلفته له بنت عم له.

وبعد ثلاث سنين، أي في عام ١٨٢٠، استطاع نيكولا أن يسوى أوضاعه المادية حتي إنه استطاع شراء أرض صغيرة قرب ليسياجوري، وراح يدخل في مفاوضات لاستعادة أرض أبيه في أوتراندويه، وهو ما كان يحلم به.

ولما اتخذ بحكم الضرورة إدارة أملاكه بنفسه وسيلة، كُلِّف بالزراعة حتى باتت شاغله المفضل، بل والأوحد. كان نيكولا مالكًا بسيطًا ما كان يحب التجديدات وبصورة خاصة تجديدات الإنجليز التي كانت شائعة حينذاك، وكان يسخر من دراسات فن الزراعة النظرية، لا يحب مرابض تجويد نسل الخيل، ولا منتجات الترف وزراعة الحبوب الغالية، ولا يركز عنايته في ناحية مميزة من نواحي انتفاعه، لقد كانت إقطاعيته، وإقطاعيته كلها هي الماثلة أمام عينيه وليس جانبًا منها. لم يكن الآزوت أو الأكسجين الموجودان في الأرض أو في الهواء هما ما يثيران انتباهه، ولا محراث أو مرعى خاصًّان، ولكن الأداة الرئيسية التي تحرك الآزوت والأكسجين والمرعى والمحراث، وأعني العامل، الفلاح.

وعندما أكبَّ نيكولا على مهمته كمالك عقاري واستطاع أن يتأمل عن قرب كل تفصيل، اجتذب الفلاح انتباهه بصورة خاصة، ورأى أنه لا يمثل بالنسبة إليه أداة فحسب، بل كذلك الغاية الواجب بلوغها والحكم. وفي بادئ الأمر عندما درس الفلاح حاول أن يدرك حاجته وما يعتبره جيدًا وما يراه رديئًا، ولقد كان نيكولا يتظاهر فقط بأنه يتخذ التدابير ويلقي الأوامر، لكنه كان في الحقيقة يتثقف باحتكاكه بالفلاح، ويدرس

آراءه ومواضيعه وأحكامه على ما هو خير أو شر. وبعد أن فهم أذواق الفلاح وميوله، وبعد أن تعلم لغته وأدرك المعنى المستتر فيها، وبعد أن تقرب إليه تقربه إلى قريب؛ راح يوجهه بنشاط، أي يقوم حيال الفلاح بالواجبات نفسها التي كان يطالبه بتحقيقها، ولقد انتهى انتفاع نيكولا إلى ألمع النتائج.

ولما اتخذ نيكولا أعباء إدارة ممتلكاته مهمة له، عيَّن بلون من التكهن لكل الوظائف العامة من حكم ووكيل ومساعد، وهم الرؤساء الذين كان الإقطاعيون ينتخبونهم على عهد الرقيق، الرجالَ أنفسهم الذين كان القرويون سينتخبونهم لو كان لهم الحق، فلم يعد به حاجة قط إلى إبدال هؤلاء الرؤساء. وقبل أن يحلل خصائص السماد الكيميائية، وقبل أن يعد الـ «من» والـ «إلى» — كما كان يحب أن يقول ساخرًا — كان يستعلم عن كمية الحيوانات التي يملكها الفلاحون، ويزيد تلك الكمية بكل الوسائل الممكنة. كان يقيم الأسر على أوسع رقعة من الأرض ممكنة دون أن يسمح لها بالتقسيم، أما الكسالى والفاجرون والعمال الرديئون فكانوا يُطارَدون، وكان يعمل ما بوسعه لإقصائهم عن الاشتراك.

وخلال فترات البذار وحصاد الهشيم كان يراقب بمثل العناية المفرطة حقوله وحقول الفلاحين، فكان قليل من المالكين يرون حقولهم مزروعة بمثل هذه العناية ومحصودة، وقليل يستخلصون إنتاجًا يضاهي إنتاج نيكولا.

ما كان يحب الاهتمام بالخدم الأرقاء وكان يدعوهم «طفيليات»، ويترك لهم على ما كانوا يزعمون كل الحرية بل ويكثر من تدليلهم. فإذا ما اقتضى الأمر اتخاذ التدابير حيال واحد منهم، وبصورة خاصة عندما كان يجب معاقبته، كان نيكولا لا يرتبك ويأخذ رأي أهل البيت جميعهم، ولم يكن يتصرف دون أي تردد إلا عندما يقتضي الحال تقديم مملوك من البيت للجندية بدلًا من فلاح عامل، ما كان قط يشك في أي تدبير يتخذه حيال الفلاحين، كان يعرف أن كل قرار يتخذه سيلاقي الموافقة العامة.

على أية حال لم يكن يسمح لنفسه أن يبهظ أحدهم بالعمل أو أن يعاقبه تبعًا لرغبته، إلا بقدر ما كان يسمح لنفسه بتخفيف خدمته ومكافأته تبعًا لرضاه الشخصي، وما كان يستطيع القول على أي شيء ترتكز القاعدة التي تقرر ما إذا كان يجب أن يعمل أو ألَّا يعمل، لكن هذه القاعدة كانت دائمًا ثابتة في نفسه لا تتزعزع.

كان غالبًا ما يقول باحتداد في معرض الكلام عن إخفاق أو عن سوء تصرف ما: «مع شعبنا الروسي هذا»، ويتصور أنه لا يطيق احتمال الفلاح.

لكنه كان يحب بكل ما في نفسه من قوة «شعبنا الروسي هذا»، يحبه ويحب طرقه في الحياة، ولهذا السبب وحده أدرك وتبنى الأسلوب الأوحد في الاستغلال الذي يعود على صاحبه بنتائج طيبة.

وكانت الأميرة ماري تحس بغيرة من حب زوجها هذا، وتأسف ألَّا تستطيع مشاطرته فيه، لكنها ما كانت تتوصل إلى فهم أفراح عالم غريب عنها إلى هذا الحد وأتراحه. ما كانت تتوصل إلى فهم سبب شدة حمية نيكولا وسعادته عندما يعود من البذار، بعد أن يكون قد استيقظ منذ الفجر وأمضى الصباح كله بين الحقول أو في أرض الدراس أو في حصاد الهشيم أو الحصاد، ليتناول الشاي معها. ما كانت تدرك سبب حماسته الشديدة عندما يحدثها عن الفلاح الثري «ماتفيئي إيرميشين»، الذي أمضى الليل مع أسرته ينقل الحزم بجد حتى إنه أول من بدأ الحصاد وأول من جُهِّزت عُرَمه. ما كانت تفهم لماذا يبتسم بمرح تحت شاربيه، ويرف بعينيه وهو يروح ويجيء من النافذة إلى الشرفة عندما كان المطر يهطل مدرارًا قويًّا فاترًا على خَرْطَاله النامي الذى يكاد أن يجف، ولا لماذا كان نيكولا يقول إذا ما طردت الرياح سحابة سوداء متوعدة قاتمة في موسم الحصاد أو حصاد الهشيم، وعاد من البيدر متضرج الوجه لاهث الأنفاس ينضح بالعرق، يفرك يديه مبتهجًا وفي رأسه خليط من الأفسنتين والنعنع: «حسنًا، يوم آخر صغير كهذا اليوم وسيتم إيداع كل شيء في المكادس، حصادي وحصاد القرويين.»

بل وكانت تعجز أكثر من ذلك عن فهم السبب الذي من أجله يخرج عن طوره رغم كل طيبة قلبه ومبادرته الدائبة على إشباع رغباتها، عندما كانت تنقل إليه طلبات القرويين أو القرويات الراغبين في إعفائهم من عملهم، ولماذا كان نيكولا «ها» شديد الطيبة يجيبها بإصرار وعناد بالرفض، راجيًا منها ألَّا تتدخل في مثل تلك اللحظات. كانت تدرك أن له عالمًا خاصًّا به، عالمًا يتعلق به بكَلَف، وأن لهذا العالم من القواعد ما لا تصل هي إلى إدراكه.

وعندما كانت أحيانًا تجهد نفسها لفهمه فتحدثه عن فضله في الخير الذي يعممه على أتباعه، كان يتوقف ويرد عليها: «ولكن مطلقًا، إن ذلك لا يتبادر إطلاقًا إلى ذهني، إنني لا أحاول قط أن أبني سعادتهم، إن سعادة الغير ليست إلا حلمًا شاعريًّا وثرثرة بين النساء. إن ما أنا في حاجة إليه هو ألَّا يقع أبناؤنا في الفاقة، وما ينبغي هو أن أنمي ثروتنا ما دمت حيًّا ليس إلَّا، ومن أجل ذلك يجب استعمال النظام والصرامة. هذا كل شيء!» وهنا يقبض قبضتيه القويتين ويضيف: «يجب كذلك تحري العدالة، وهذا بديهي،

لأن الفلاح إذا كان سيئ اللباس مجوَّعًا لا يملك إلا جوادًا هزيلًا فإنه لا يستطيع أن يعمل، لا من أجل نفسه ولا من أجلي.»

ولعل نيكولا بسبب امتناعه عن التفكير في أنه يعمل عملًا خيِّرًا للغير باسم الفضيلة، لعله لهذا السبب بالذات كان كل ما يشرع به يؤتي أكله، كانت ثروته تتضخم بشكل واضح، والقرويون من الجوار يفدون إليه راغبين إليه أن يشتريهم، ولقد ظل الشعب طويلًا بعد موته يحتفظ بذكراه بورع: «لقد كان سيدًا ... الفلاح أولًا وبعده هو، لا شك أنه لم يكن متساهلًا. ولكن لا مجال للجدل، لقد كان سيدًا.»

الفصل الثامن

بناء القصر

كان الشيء الوحيد الذي يعذب نيكولا أحيانًا في علاقاته مع مماليكه هو انفعاله، مضافةً إليه عادته القديمة كفارس وهي استعمال يده. ما كان في المرحلة الأولى يجد شيئًا معيبًا في ذلك، لكنه في السنة الثانية لزواجه تبدل رأيه فجأة حول هذه العدالة الموجزة.

وذات يوم، أثناء الصيف، استدعى من بوجوتشاروفو الوكيل الذي خلف المتوفَّى درون، وقد اتُّهِم باختلاسات مختلفة وإهمالات، مضى نيكولا للقائه على المرقاة فلم تلبث الصيحات والضربات أن بلغت الردهة إثر أجوبة الوكيل الأولى. ولما عاد لتناول الطعام في البيت اقترب نيكولا من زوجته الجالسة أمام نول الوَشْي مطرقة الرأس، وراح يروي لها حسب عادته ما فعله في الصباح فتحدث عن الوكيل في سياق الكلام، احمرَّ وجه الكونتيس ماري ثم شحبت وزمَّت شفتيها، ولكن دون أن تتحرك أو أن ترفع رأسها أو تنظر إلى زوجها.

هتف وهو يحتد لمجرد الذكرى: يا له من نذل وقح! ولو أنه كان ثملًا لوضح الأمر …

وفجأة سأل: ولكن، ماذا بك يا ماري؟

رفعت الكونتيس ماري رأسها وأرادت الكلام، لكنها سارعت إلى الإطراق برأسها وزمِّ شفتيها.

ماذا بك؟ ماذا بك يا صديقتي؟

كانت الكونتيس ماري الدميمة تصبح جميلة كلما بكت، ما كانت قط تبكي بسبب ألم جسماني أو لسأم ولكن بسبب حزن وإشفاق، وحينئذ كانت عيناها المضيئتان تتخذان فتنة لا تُعبَّر.

ما إن أمسك نيكولا بيدها حتى عجزت عن كبت عواطفها أكثر مما فعلت، فانهارت باكية: نيكولا، لقد رأيت … أنه مخطئ … ولكن أنت لماذا عملت … نيكولا؟!

وغطت وجهها بيديها.

صمت نيكولا وتضرج وجهه، ثم ابتعد عنها وراح يذرع الحجرة صامتًا.

لقد أدرك سبب دموعها، لكنه ما كان يستطيع للوهلة الأولى أن يتفق معها في أعماق نفسه، وأن يعترف بأن كل ما عمله منذ طفولته ويعتبره كشيء من أكثر الأشياء طبيعة يستوجب الذم، تساءل: «هل هذا شيء من الشعورية؟ هل هذا شيء من الشعورية؟ هل هي قصص تجعل المرء ينام وهو واقف أم أنها في واقع الحياة؟» ودون أن يحسم الموضوع بنفسه ألقى نظرة جديدة على وجه زوجته حيث كان الألم والحب يُقرأان عليه، وفهم فجأة أنها هي التي على حق، وأنه كان مذنبًا منذ أمد طويل حيال نفسه.

قال لها بصوت خافت وهو يقترب منها: ماري، لن يقع ذلك فيما بعد أبدًا، أعدك بذلك.

وكرر بصوت متهدج، صوت فتى صغير يستجدي صفحها: أعدك يا ماري لن يقع أبدًا.

انبعثت الدموع من عينَي زوجته بقوة أكثر فأمسكت بيده وقبَّلتها. قالت لتبدل الحديث وهي تنظر إلى يده والتي تحمل خاتمًا يحمل رأس لاوكون: نيكولا، متى حطمت الحجر الثمين؟

– اليوم، إنها المسألة نفسها أيضًا! آه! ماري، كُفِّي عن الحديث، عن هذا.

وتضرَّج وجهه من جديد: أمنحك كلمة الشرف أن هذا لن يعود مطلقًا.

وأضاف وهو يظهر الحجر الثمين المحطم: عسى أن يذكرني هذا بوعدي دائمًا.

ومنذ ذلك الحين ما إن تجعل مناقشة ما مع وكيل أو مسجل، حتى كانت الدماء تتصاعد إلى رأسه ويبدأ بضم قبضته؛ حتى يشرع نيكولا بإدارة خاتمه المحطَّم حول إصبعه ويطرق برأسه أمام الرجل الذي أثار سخطه. لكنه كان كذلك ينسى نفسه مرة أو مرتين خلال العام، وحينئذ كان يعود إلى قرب زوجته ويعترف لها، ثم يجدد الوعد بأن هذه ستكون المرة الأخيرة.

كان يقول لها: ماري، سوف تحتقرينني حقًّا، وإنني لأستحق ذلك.

فكانت الكونتيس ماري تقول له وهي بادية الحزن، محاوِلَة تعزيته: ولكن ابتعد مسرعًا عندما تشعر بأنك لم تعد تملك القوة على ضبط أعصابك.

كان النبلاء من أفراد الحكومة يضمرون الاحترام الجزيل لنيكولا ولا يحبونه إلا قليلًا، وما كان يُعنَى بمصالح هذه الطبقة بحيث كان البعض ينظرون إليه كرجل متكبر، والآخرون يعتبرونه أقرب بالأحرى إلى البلاهة. وكانت المعاينة بمزرعته تشغل وقته كله

منذ موسم الزراعة في الربيع حتى الحصاد، فإذا حل الخريف انطلق إلى الصيد بمثل ذلك النشاط الجدي يبديه في العناية بحقوله، وتغيَّب عن الدار حوالي شهر أو شهرين بصحبة قطيع من كلاب الصيد. وفي الشتاء كان يزور القرى البعيدة أو يطالع الكتب، وكانت مطالعاته تنحصر بكتب التاريخ على الأخص، فيخصص لها سنويًّا مبلغًا كبيرًا من المال، وكان يتضح من حديثه أنه يؤسس مكتبة محترمة، مقيدًا نفسه بقراءة سائر ما يبتاع من كتب، وكانت تلوح عليه مظاهر الجد عندما يتخذ مجلسه في مكتب عمله، مستسلمًا لمطالعاته التي كانت إلزامًا بادئ الأمر، ثم أصبحت عنده عادة توفر له في نفس الوقت لذة خاصة والشعور بالانشغال بعمل جدي. وإذا استثنينا الأسفار التي يقوم بها بسبب من أعماله، فهو يقضي في الشتاء القسم الأعظم من وقته في داره في أحضان العائلة، وكان يشارك في أمثال تفاصيل حياة زوجته وأولاده اليومية، وهو يحس انجذابًا متزايدًا إلى ماري ويكتشف فيها كل يوم كنوزًا روحية جديدة لم يكن يعرفها.

وكانت سونيا تعيش في بيت نيكولا منذ زواجه، وكان نيكولا قد روى لماري قبل زواجهما كل ما جرى بينه وبين سونيا، متهمًا لنفسه ممتدحًا خصائل الفتاة، راجيًا ماري أن تكون طيبة ومحبة تجاه ابنة عمه. وكانت الكونتيس ماري تشعر بما ارتكب زوجها من جرم بحق سونيا، وتشعر بذنبها الخاص أيضًا، وكانت تحسب أنه كان لثروتها تأثير على اختيار نيكولا، فما كانت تضمر لسونيا أي عتاب بل تود بالأحرى أن تحبها. بيد أنها لم تكن بعيدة عن حبها فحسب، بل غالبًا ما كانت تكتشف أيضًا في نفسها عواطف عدائية تجاهها تعجز عن التغلب عليها.

وذات يوم تحدثت إلى صديقتها ناتاشا في موضوع سونيا وظلمها لها، فقالت لها ناتاشا: أتعلمين، ما دمت قرأت الإنجيل كثيرًا ففيه مقطع ينطبق بالضبط على سونيا.

فسألت الكونتيس ماري في دهشة: أي مقطع؟

– «من معه يُعطَى ويُزاد ومن ليس معه يُؤخَذ منه.»[1] أتذكرين ذلك؟ من ليس معه؟ إنها هي، لماذا؟ لست أدري! لعلها بعيدة عن أدنى أنانية، لا أعلم، لكن سيُؤخَذ منها كل شيء، ولقد أُخِذ كل شيء منها. وإنها لتبعث فيَّ أحيانًا الرأفة بصورة فظيعة، ولقد أردت يومًا من صميم قلبي أن يتزوج نيكولا منها، ومع ذلك فقد كنت أشعر على الدوام أن ذلك

[1] متى: الإصحاح الخامس والعشرون، (٢٥).

لن يتحقق، إنها «الزهرة العقيم، كما يوجد مثل هذه الأزهار في شجرة القرين»، إني أرثي لها أحيانًا، وأحيانًا أفكر أنها لا تحس ذلك كما نحس نحن.

ورغم أن الكونتيس ماري أوضحت وقتئذ لصديقتها أنه ينبغي فهم كلمات الإنجيل هذه بصورة مغايرة، فقد كان يكفيها أن تتطلع إلى سونيا كي توافق على تفسير ناتاشا، ولقد كانت تقول: في الحقيقة أن سونيا اعتادت مصيرها ك «زهرة عقيم» بدلًا أن تتألم له، وكان يبدو عليها أنها تحب العائلة ككل واحد، منها بالأحرى تحب الأفراد في هذه العائلة، فمثلها مثل القط الذي يتعلق بالدار أكثر من تعلقه بأشخاصها. كانت تُعنَى بالكونتيس العجوز، وتداعب الأولاد وتدللهم، وهي أبدًا على أُهْبَة القيام بأدق الخدمات التي تستطيع إنجازها. ولكن ذلك كله يُؤخَذ على أنه أمر مفروغ منه، دون أن يُقابَل بشيء من الامتنان والعرفان بالجميل.

وكان قصر ليسياجوري المُعَاد بناؤه يختلف عنه أيام الأمير الراحل.

فقد كانت الأبنية المرفوعة في زمن لا بد من أخذ المال فيه بعين الاعتبار أكثر من محتقرة. وكان البناء الفخم ذو الأسس الحجرية مصنوعًا من خشب، قد طُلِي باطنه بالجص بكل بساطة، وكانت الحجرات الواسعة ذات الأرض الخشبية البيضاء مؤثثة بكنبات بسيطة ومقاعد كبيرة على درجة عظيمة من القسوة، وبطاولات وكراسيٍّ مصنوعة من خشب السندر المستمد من الغابات التابعة للملكية بأيدي نجارين من المنطقة أيضًا. ولما كانت الدار فسيحة الأرجاء، فقد كانت تضم غرفًا للخدم وجناحًا خاصًّا للمدعوين، وكان أقرباء آلَي روستوف وبولكونسكي يجتمعون في هذه الدار من حين لآخر، فتأتي عائلاتهم بنصابها الكامل، يرافقهم حتى ستة عشر جوادًا لجر المركبات وعشرات من الخدم، وكانوا يقيمون هناك أشهرًا طويلة.

وعدا ذلك فإن حوالي مائة مدعوٍّ كانوا يحلون في الدار يومًا أو يومين أربع مرات في السنة، وذلك بمناسبة عيد ميلاد سيدَي الدار وعيد شفيعهما. أما في غير ذلك من الأوقات، فقد كانت الحياة تجري بانتظام ودونما أي اضطراب بمشاغلها العادية، والاجتماعات حول الشاي أو في الإفطار والغداء والعشاء التي تُقدَّم جميعًا على ما تنتجه الملكية من مواد غذائية.

الفصل التاسع

عشية العيد

كان ذلك عشية عيد القديس نيكولا الشتوي، الخامس من كانون الأول عام ١٨٢٠، وكانت ناتاشا تلك السنة تقيم مع زوجها وأولادها عند أخيها منذ بداية الخريف. وكان بيير قد قصد بيترسبورج حيث تدعوه على زعمه مشاغل خاصة تستغرق من وقته ثلاثة أسابيع، ولقد مضت حتى الآن ستة أسابيع منذ رحيله، فهم يتوقعون مجيئه من لحظة لأخرى.

وفي الخامس من كانون الأول، فيما عدا عائلة بيزوخوف، كان ثمة ضيف آخر هو صديق نيكولا القديم الجنرال المتقاعد فاسيلي فيدوروفيتش دينيسوف، وكان نيكولا يعرف أن من واجبه في اليوم السادس من الشهر، وهو يوم الاحتفال الذي سيتدفق الضيوف فيه، أن يخلع سترته الواسعة التترية، ويرتدي بذلة الاحتفال الرسمية، ويلبس حذاء ضيق المقدمة، ويذهب إلى الكنيسة الجديدة التي بُنِيت تحت إشرافه ثم يتقبل التهاني، ويقود ضيوفه إلى أمام مائدة عامرة، ويتكلم عن انتخابات النبلاء، وعن الموسم، لكنه كان لمَّا يزل يحس عشية ذلك اليوم الحق في أن يحيا حسب عاداته. وهكذا قضى الوقت حتى موعد الغداء في مراجعة حسابات وكيل قرية قريبة من ريازان تابعة لملكية ابن أخ زوجته، وكتب رسالتين تتعلقان بأعماله، وقام بجولته على البيادر والزرائب والإسطبلات. وبعد أن اتخذ التدابير اللازمة ضد السكر العمومي المنتظر في الغداة، وهو يوم عيد للجميع، رجع من أجل الغداء، واتخذ مكانه إلى المائدة الطويلة حيث رُتِّبَت الصحون العشرون الخاصة بأهالي الدار، دون أن تسنح له فرصة مبادلة زوجته كلمة واحدة على انفراد. وكان الجميع قد اتخذوا أماكنهم إلى المائدة: أمه، والعجوز بيسلوخا التي ترافقها دائمًا، وزوجته، وأولاده الثلاثة، ومربيتهم وأستاذهم، وابن أخيه مع مربيته، وسونيا، ودينيسوف، وناتاشا وأبناؤها الثلاثة، ومربيتهم،

والعجوز ميخائيل إيفانيتش مهندس الأمير الراحل، الذي ينهي حياته بطمأنينة في ليسياجوري.

وكانت الكونتيس ماري تجلس إلى الطرف الآخر من المائدة، وما كاد زوجها يقصد كرسيه حتى أدركت من الحركة السريعة التي قام بها بعد أن نشر فوطته كي ينقل قدح الماء وقدح الشراب الموضوعَيْن أمامه؛ أنه مضطرب المزاج، الأمر الذي يقع له أحيانًا وعلى الأخص قبل تناول الحساء عندما يعود إلى الدار من الحقول مباشرة. وكانت الكونتيس ماري تعرف هذه الحال الروحية جيدًا، فإذا كانت هي نفسها حسنة المزاج انتظرت بهدوء حتى يتناول حساءه كي تشرع في الحديث وتحمله على الاعتراف بأن لا مبرر لامتعاضه، لكنها نسيت تمامًا في ذلك اليوم هذه الخطة، وراحت تتألم لرؤيته ممتعضًا منها دونما سبب وأحست بتعاسة عظيمة تجتاحها، وسألته أين كان فأجاب عن سؤالها، فعادت تسأله إذا كان كل شيء على ما يُرام في الملكية، فكانت لهجته قاسية حين كشر باكتئاب وأجاب بشيء من العنف.

وقالت الكونتيس ماري في نفسها: «لم أكن مخطئة إذن، ولكن ماذا يأخذ عليَّ؟» كان كل شيء في جواب نيكولا يشير إلى امتعاضه منها فلا يهمه سوى أن يضع حدًّا للحديث، وكانت تشعر بأن أسئلتها لا تبدو طبيعية ولا تستطيع مع ذلك امتناعًا عن طرح أسئلة جديدة عليه.

وسرعان ما احتدم الحديث بفضل دينيسوف وشمل الجميع، بيد أن الكونتيس ماري لم تتحدث بعدئذ إلى زوجها مطلقًا. وعند الانتهاء من الطعام اقترب كلٌّ بدوره من الكونتيس العجوز ليقدم إليها بشكره، فقبَّلت الكونتيس ماري زوجها وهي تمد له يدها ليقبلها[١] وسألته عن امتعاضه منها، فقال: إن أفكارًا تراودك دائمًا، لماذا تريدينني أن أكون ممتعضًا؟

ولكن كلمة «لماذا» في جوابه كانت تعني بالنسبة إلى الكونتيس: «أجل، إني ممتعض ولا أريد أن أقول لماذا.»

كان نيكولا يعيش في وئام تام مع زوجته، بحيث ما كانت سونيا والكونتيس العجوز، وهما تتمنيان بدافع من الغيرة بعض سوء التفاهم بينهما، تجدان ذريعة لتوجيه أي نقد مطلقًا. ولكن بعض التوتر كان يقوم أحيانًا على أية حال بين الزوج وزوجته، وفي الأحايين

[١] العادة في روسيا عند انتهاء الطعام أن يشكر المدعوون سيدة الدار بتقبيل يدها.

وخاصة بعد الأوقات الأكثر سعادة كان يجتاحهما شعور بالتباعد والنفور، وكان هذا الشعور يولد خاصة أثناء حمل الكونتيس ماري، ولقد كانت حاملًا في هذه الأيام.

قال نيكولا بصوت مرتفع ولهجة مازحة (كان يلوح للكونتيس ماري أنه يتحدث بهذه اللهجة عمدًا لإغضابها): حسنًا أيها السادة والسيدات، إني أقف على ساقي منذ ست ساعات، ومن المؤكد أنه لا بد لي غدًا من الاستمرار في الوقوف حتى النهاية، أما اليوم فإني ذاهب أنال قسطًا من الراحة.

وبدون أن يضيف شيئًا خاصًّا بالكونتيس ماري، انتقل إلى المخدع الصغير حيث تمدد على كنبة. وفكرت الكونتيس ماري: «تلك هي الحال دائمًا، فهو يوجه كلمة إلى الناس جميعًا، أما لي فلا يقول شيئًا، إني أرى جيدًا أني أنفره وخاصة عندما أكون هكذا»، وتطلعت إلى بطنها المتضخم، ونظرت في المرآة إلى وجهها المشدود الشاحب والمصفرِّ، حيث تبدو العينان أكبر منهما في أي وقت آخر.

وإذا كل شيء يصعب عليها بصورة مباغتة: رنين الأصوات، وضحكة دينيسوف، وأحاديث ناتاشا، وبصورة خاصة النظرة السريعة التي رمقتها سونيا بها.

ولقد كانت سونيا على الدوام الذريعة الأولى التي تقع الكونتيس ماري عليها عندما تكون في ثورة وامتعاض.

وبعد أن أمضت بضع دقائق مع ضيوفها دون أن تفهم شيئًا مما يقولون، غادرتهم دون ضوضاء واتجهت إلى غرفة أولادها.

وكان الأطفال الراكبون مقاعد ذاهبين إلى موسكو فدعوها لمرافقتهم. جلست ولعبت معهم، بيد أن فكرة زوجها وامتعاضه ما كانت تفارقها البتة، وما أسرع أن نهضت وغادرت الغرفة وهي تسير بحذر على أطراف أصابعها نحو المخدع الصغير!

قالت في نفسها: «لعله لم ينم بعد فأسوِّي الأمور معه»، وكان آندريه الصغير بكر أبنائها يتبعها وهو يقلدها ويسير مثلها على أطراف أصابعه، لكنها لم تنتبه إليه.

والتقت بسونيا في قاعة الاستقبال، سونيا هذه التي تصطدم بها في كل مكان (فيما يُخيَّل إلى الكونتيس ماري)، فقالت لها: يا ماري العزيزة، إنه ينام فيما أعتقد، إنه على درجة عظيمة من الإعياء، حاذري فسوف يوقظه آندريه.

فالتفتت الكونتيس ماري ورأت الصغير الذي يتأثر خطاها فأدركت أن سونيا على حق، ولأنها كانت مخطئة فقد احمرَّت وجنتاها وكادت تتفوه بكلمة جارحة، لاذت بالصمت. لكنها أرادت أن تبرهن أنها لا تأبه لما تقول سونيا، فأشارت للصبي أن يتبعها

دون ضوضاء، ثم اقتربت من الباب، بينا اختفت سونيا في الباب المقابل. ودفق من الحجرة حيث ينام نيكولا أصداء تنفسه المنتظم الذي تعرف أدق تفاصيله، وكانت ترى حيالها وهي تسمع هذا التنفس جبين زوجها المرتفع المغضن وشاربيه، وكل هذا المحيا الذي كثيرًا ما تتأمل فيه وهو ينام في هدأة الليل وسكونه. وبغتة تحرك نيكولا وسعل، فما أسرع أن صاح آندريه الصغير في خلف الباب: «أبتي، إن أمي هنا!» فعلا الشحوب وجه الكونتيس ماري ذعرًا، وأشارت لابنها أن يلوذ بالصمت فأطاع، فران طوال دقيقة سكون أليم بالنسبة إليها، كانت تعرف كم يكره نيكولا أن يوقظه من نومه وعلى حين بغتة. تردد في الجانب الآخر من الباب سعال جديد، فتحرك نيكولا مرة أخرى وقال بصوت فيه دلائل الاستياء: ليس من سبيل إلى الراحة دقيقة واحدة؟! أهذه أنت يا ماري؟ لماذا جئت به إلى هنا؟

– جئت لألقي نظرة فقط، ولم أرَ ... اعذرني ...

فسعل نيكولا وسكت، وابتعدت الكونتيس ماري عن الباب، ورجعت بولدها إلى غرفة الأطفال. بيد أن الصغيرة ناتاشا، وهي طفلة في الثالثة من سنِيها جميلة العينين السوداوَيْن، والابنة المفضلة عند أبيها، أسرعت بعد خمس دقائق وقد عرفت من أخيها أن أباها تألم وأن أمها ذهبت إلى المخدع تبحث عن نيكولا من دون علم والدتها. وفتحت الصغيرة السوداوية العينين الباب بجرأة، وتقدمت من المكتبة بخطوات حازمة على قدميها غير الثابتتَيْن، ووقفت هناك تتأمل برهة أباها الذي ينام وقد أدار لها ظهره، ثم تطاولت على رءوس أصابعها وطبعت قبلة على اليد التي تسند رأس نيكولا، فاستدار إليها وعلى شفتيه ابتسامة حنون.

ومن خلف الباب همست الكونتيس ماري بذعر: ناتاشا! ناتاشا! هلَّا تركت أباك نائمًا.

فهتفت الصغيرة ناتاشا ببهجة ظافرة: ولكن لا يا أماه، ليست به رغبة في النوم، إنه يضحك.

فوضع نيكولا قدميه على الأرض وجلس على الكنبة، وأخذ الصغيرة بين ذراعيه.

قال لزوجته: ادخلي يا ماري.

فدخلت الكونتيس ماري وجلست بجانب زوجها.

قالت بتردد: لم أكن أعلم أنه يتبعني، ولقد جئت هكذا.

فتطلع نيكولا ممسكًا بابنته الصغيرة بذراعه الواحدة إلى زوجته وشاهد سيماها المضطربة، فأحاط قامتها بذراعه الطليقة وطبع على شعرها قبلة سريعة.

استفهم من ناتاشا: أيمكن تقبيل ماما؟

فافترَّت شفتا ناتاشا عن ابتسامة خجول.

قالت وهي تشير بحركة آمرة إلى المكان حيث قبَّل نيكولا زوجته: أيضًا!

قال نيكولا مجيبًا على السؤال الذي يعرف أنه يدور في خَلَد زوجه: لا أدري لماذا تحسبين أني سيئ المزاج ...!

– لست تستطيع أن تتصور مبلغ تعاستي وشدة وحدتي عندما تكون على هذه الحال، لَيُخيَّل إليَّ على الدوام ...

فهتف في مرح: صه يا ماري، فتلك حماقات، كيف لا تخجلين من نفسك؟

– يُصوَّر لي أنك لا تستطيع أن تحبني، وأني قبيحة جدًّا ... وخاصة ... الآن ... في هذا الو ...

– آه! ما أسخفك! إن الجمال لا يصنع الحب بل الحب هو الذي يصنع الجمال، إن مالفينا وأشباهها نحبهن من أجل محياهن الجميل، أما بالنسبة إلى زوجتي فلست أشعر بالحب بل بشيء آخر، ولا أدري كيف أفسر لك ذلك حين لا تكونين ها هنا أو يمر ظل بيننا كما حدث قبل لحظة، فأشعر كأنني ضعت ولم أعد أساوي شيئًا. إليك، هذه الإصبع هل أحبها؟ كلا لست أحبها، ولكن هيا وجربي أن تقطعيها مني!

– كلا، أنا لست كذلك، لكنني أفهم. إذن فأنت غير ممتعض مني؟

فقال مبتسمًا: ممتعض بصورة فظيعة!

ونهض، وأمرَّ يده في شعره المشعَّث، وراح يذرع أرض الغرفة بخطواته. قال على الفور وقد تم الصلح بينهما، فهو مستعد إذن أن يفكر أفكاره بصوت مرتفع أمام زوجته: أتعرفين يا ماري في ما فكرت؟

لم يسأل نفسه ما إذا كانت مستعدة للاستماع إليه فذلك لا يهمه كثيرًا، ينبغي منذ أن تراوده فكرة أن تشاركه فيها أيضًا. وعرض عليها نيته في دعوة بيير إلى قضاء الربيع معهم.

وأصغت الكونتيس ماري إليه، وقدمت بضع ملاحظات، وجعلت بدورها تفكر بصوت مرتفع، كانت تفكر في أبنائها.

قالت بالفرنسية مشيرة إلى ناتاشا الصغيرة: كم تحس فيها المرأة منذ الآن! أنتم تأخذون علينا نحن النساء انعدام المنطق عندنا، ولكن إليكنَّ منطقنا؛ إني أقول: بابا راغب في النوم، فتجيب: «كلا، إنه يضحك!»

ثم هتفت وعلى شفتها ابتسامة سعيدة: وإنها على حق.

– أجل، أجل.

وأخذ نيكولا ابنته في ذراعيه القويتين ورفعها عاليًا ووضعها على كتفه، ثم عاد يذرع أرض الغرفة بخطاه وقد أمسك بها من فخذيها، وكان من الصعب أن نقول أيًّا من الأب والابنة كان أعظم سعادة وهناءً.

همست الكونتيس ماري بالفرنسية: اسمع، أنت تتعرض لأنْ تكون ظالمًا، إنك تحب هذه كثيرًا.

– ماذا تريدين أن أفعل؟ ... إني أسعى كي لا أظهر ذلك ...

وفي تلك اللحظة سمع في الغرفة المجاورة والدهليز أصوات خطى ثقيلة، شبيهة بالأصوات التي تعلن عن وصول مسافر من مكان بعيد.

قال نيكولا: جاء شخص ما.

فقالت الكونتيس ماري وهي تخرج من الغرفة: أنا متأكدة أنه بيير.

واغتنم نيكولا فرصة غياب زوجه كي يخب بابنته قليلًا ثم توقف منقطع الأنفاس، ورفع بسرعة الصغيرة الضاحكة عن كتفه وشدها إلى صدره، كانت القفزات التي قام بها لتوِّه تذكره ببعض الخطوات الراقصة، وحين تأمل الوجه الصغير المدور المشع فرحًا فكر فيما ستكون عليه حين يصير عجوزًا، وكيف سيخرج بها إلى ما بين الناس ويرقص المازوركا معها كما كان المرحوم والده يرقص الدانيوكوبر مع ناتاشا.

صاحت الكونتيس ماري بعد دقائق قليلة وهي تعود إلى الغرفة: هذا هو يا نيكولا، والآن عادت حبيبتنا ناتاشا إلى الحياة، ولو رأيت بأية حمية استقبلته ثم كيف عنَّفته لتأخره! هيا تعال، تعال سريعًا.

وأضافت أخيرًا وهي تبتسم وتنظر إلى الصغيرة المتعلقة بأبيها: هلَّا انفصلتما أخيرًا!

فرح نيكولا ممسكًا ابنته من يدها، بينما تباطأت الكونتيس في المخدع.

همست: أبدًا، أبدًا، لم أفكر أني يمكن أن أكون على هذه الدرجة من السعادة.

وتألق وجهها بابتسامة، بيد أنها صعَّدت زفرة في الوقت نفسه، ومر في نظرتها العميقة انعكاس حزن صموت، فكان ثمة سعادة أخرى إلى جانب السعادة التي تُحَس، سعادة لا تُبلَغ في هذه الحياة لكنها تتردد الآونة في ذهنها رغمًا عن إرادتها.

الفصل العاشر

عودة بيير

كانت ناتاشا قد تزوجت في الأيام الأولى من ربيع ١٨١٣، وفي عام ١٨٢٠ كانت قد ولدت ثلاث بنات بالإضافة إلى الابن الذي طالما تاقت إليه والذي كانت ترضعه من ثديَيْها، كانت قد سمنت قليلًا وازدهرت بحيث كان يصعب على المرء أن يعرف في هذه الأم المخصاب للعائلة ناتاشا الأيام السابقة، النحيلة والدائبة الحركة. وكانت سيماء وجهها قد اتضحت واتخذت تعبيرًا في الوضوح والليونة الهادئة، وبارحتها تلك الشعلة من الحياة الملتهبة أبدًا التي كانت تشكل فتنتها في الأيام الغابرة. إن المرء لا يشاهد منها الآن في غالب الأحيان سوى وجهها وجسدها، أما نفسها فصارت غير مرئية، لم يعد يرى منها سوى الأنثى القوية، الجميلة والمخصابة. وكان لهيب الماضي يعادل الاشتعال فيها في حالات استثنائية، مثلها اليوم لدن قدوم زوجها، أو حين يقوم أحد أبنائها من الفراش بعد مرض أَلَمَّ به، أو حين تتحدث مع الكونتيس ماري عن الأمير آندريه (لم تكن تتحدث البتة عن الأمير آندريه أمام زوجها، مفترضة أنه يغار من الذكرى التي تحفظها عنه)، أو حتى يدفعها شيء ما مصادفة إلى الغناء بعدما أهملته تمامًا منذ زواجها. وفي أثناء هذه اللحظات النادرة حيث يتأرث لهيب الماضي في هذا الجسد الجميل اليانع، كانت تصير أشد إغراء منها قبلًا.

كانت ناتاشا تقيم منذ زواجها من زوجها في موسكو، وفي بيترسبورج، أو في ملكيته الواقعة في ضواحي موسكو، أو عند أمها يعني عند نيكولا. ونادرًا ما كانت الكونتيس بيزوخوف الشابة تُرَى في المجتمعات، وأولئك الذين كانوا يقابلونها هناك ما كانوا يُسرُّون منها كثيرًا، فهي بعيدة عن كل لطف ومودة، ولم يكن دافعها إلى ذلك تفضيلها للوحدة (ما كانت تعرف إذا كانت تحبها أم لا، بل كانت تعتقد أن لا). غير أن حملها المتكرر، وواجب إرضاع أطفالها، ومساهمتها في كلٍّ من لحظات حياة زوجها، هذه الأمور جميعًا كانت تحملها على الابتعاد عن الناس، وكان سائر الذين عرفوها قبل الزواج يدهشون لذلك

التبدل الطارئ عليها فكأنه أمر فوق العادي. وكانت الكونتيس العجوز وحدها بمظهرها الأمومي قد فهمت أن سائر انطلاقات ناتاشا ناشئة من مجرد رغبتها في تأسيس عائلة، والحصول على زوج كما أعلنت ذلك ذات يوم في أوترانדويه جادةً في ذلك أكثر منها مازحة. وكانت تدهش في قلبها الأمومي من عجب الناس الذين لا يفهمون ناتاشا، فهي لا تني تردد أنها قد عرفت على الدوام أن ابنتها ستكون زوجة دائمًا مثالية.

وكانت تضيف: سوى أنها تذهب أبعد قليلًا مما يجب في حبها لزوجها وأولادها، بل إن ذلك يجانب السخف قليلًا.

ولم تكن ناتاشا تتبع تلك القاعدة الذهبية التي ينادي بها الناس الأذكياء، والفرنسيون بصورة خاصة، القائلة إن الفتاة إمَّا تتزوج يجب ألا تتنازل عن مواهبها أو تدفنها، بل أن تُعنَى بشخصها أكثر من ذي قبل ساعيةً لإغراء زوجها بقدر ما كانت تجهد لإغراء خطيبها. بيد أن ناتاشا على العكس من ذلك قد أهملت دَفعة واحدة سائر فتنها التي كان الغناء أشدها قوة، ولقد أهملت الغناء بسبب وحيد ألَا وهو كونه أفضل فتنة تتمتع بها. ولم تكن ناتاشا تأبه للياقة في سلوكها، أو الرقة في أحاديثها، أو الأوضاع المغرية التي يجب أن تتخذها حيال زوجها أو بزينتها، وكذلك لم تكن أكثر اهتمامًا بعدم إزعاج زوجها بطلباتها. كانت تتصرف ضد هذه القواعد تمامًا، فهي تشعر أن الإغراءات التي كانت غريزتها تحملها على إظهارها من قبل، ستلوح سخيفة مضحكة في عينَي الرجل الذي استسلمت إليه بكليتها، يعني بكل روحها، دون أن تحتفظ بزاوية خفية عليه. وكانت تشعر أن اتحادها مع زوجها لا يعود إلى تلك المشاعر الشعرية التي اجتذبته إليها، بل إلى شيء آخر لا يمكن تحديده لكنه ثابت، صلب، مثله مثل اتحاد نفسها الخاصة بجسدها.

أما أن تتخذ أوضاعًا مسرحية، وتحمل سلالًا وتنشد أغاني غرامية كي تجعل زوجها عاشقًا لها، فذلك عندها أمر غريب مثل تزينها كي تعجب نفسها، أما أن تتزين كي تعجب الآخرين فلعل ذلك كان يلاقي قبولًا عندها، إنها لا تعرف على وجه الدقة لكنها لا تجد الوقت له مطلقًا. وفي الحقيقة أن السبب الرئيسي الذي هجرت من أجله الغناء والزينة والرقة في الحديث، هو عَوَزها للوقت الضروري في سبيل هذه الأمور جميعًا.

نحن نعلم أن الإنسان يملك القدرة على الاستغراق بكليته في أي مشاغل مهما تكن تافهة، ونعلم أيضًا أنه لا يوجد أي مشاغل تافهة إلا دعته أن يتعاظم في الأهمية حتى ما لا نهاية عندما يتركز الانتباه عليه بصورة كلية.

وما كان يشغل ناتاشا بصورة كلية هي العائلة، يعني الزوج الجاهدة للاحتفاظ به كي يكون لها دون شريكة، والبيت والأطفال الذين ينبغي حملهم وولادتهم وتغذيتهم وتربيتهم.

وبقدر ما كانت تستغرق لا بعقلها بل بكل روحها وبكل كينونتها في هذا الشيء المفضل، كان هذا الشيء يزداد أهمية في عينيها فتبدو لها قواها غير كافية، بحيث لا بد لها من تركيز سائر هذه القوى على ذات النقطة، دون أن تتوصل أبدًا إلى تحقيق كل ما يلوح لها ضروريًّا لا استغناء عنه.

وكانت المناقشات والمحاكمات العقلانية عن حقوق الزوجة، والعلاقات بين الزوجين، وحرياتهما وحقوقهما المتبادلة، رغم أن الناس يومئذ ما كانوا يسمونها «مشاكل» كما يفعلون اليوم؛ موجودة مثلها هذه الأيام بالضبط، بيد أن هذه القضايا ما كانت تثير اهتمام ناتاشا، وهي بكل تأكيد ما كانت تفهمها.

هذه القضايا في الماضي كما في الحاضر ما كانت توجد سوى بالنسبة إلى الناس الذين لا يجدون في الزواج سوى اللذة التي يتبادلها الزوجان، يعني عنصرًا واحدًا من عناصره وليس معناه الكامل الذي هو العائلة.

هذه المناقشات وهذه المشاكل التي تُطرح اليوم، وهي كثيرة الشبه بقضية معرفة كيف نستخرج أقصى ما نستطيع من لذة من وجبة طعام، ما كانت تُطرح وقتئذ أكثر منها اليوم بالنسبة إلى الناس الذين يعتبرون أن الغاية من وجبة الطعام هي تغذية الجسد، وأن الهدف من الزواج هي العائلة.

فإذا كانت الغاية من الطعام هي تغذية الجسد، فذاك الذي يتناول في وقت واحد وجبتين من الطعام ربما أحس متعة أعظم بَيْد أنه لن يبلغ الهدف المطلوب، لأن المعدة لا تستطيع أن تهضم وجبتَيْن في وقت واحد.

وإذا كان الهدف من الزواج هي العائلة فذاك الذي يريد أن تكون له زوجات متعددات، أو تلك التي تطلب أزواجًا كثيرين؛ ربما حصلا على لذة عظيمة، لكنه لن يكون لهما عائلة في حال من الأحوال.

إذا كانت الغاية في الطعام تغذية الجسد، والغاية في الزواج تشكيل العائلة، فالمسألة تعود إذن بكل بساطة إلى الامتناع عن تناول أكثر مما تستطيع المعدة أن تهضم من طعام، وإلى الامتناع عن الاقتران بعدد من الزوجات أو الأزواج أكبر مما تتطلب العائلة، يعني عدم الاقتران بأكثر من واحدة أو واحد. وكانت ناتاشا تحتاج إلى زوج، وقد أُعطِي

هذا الزوج لها، ولقد منحها هذا الزوج عائلة، وهي لم تكن عَمِيَة عن ضرورة الحصول على زوج أفضل فحسب، بل لمَّا كانت سائر قوى نفسها لا تسعى سوى لتكريس ذاتها لخدمة زوجها وعائلتها، فهي ما كانت تستطيع أن تتصور وما كانت ترى أية أهمية في تصور ما كان يحدث لو كانت الأمور تختلف عنها الآن.

وما كانت ناتاشا على العموم تحب الناس، فهي لذلك تفضل مجتمع أهليها: الكونتيس ماري، وأخيها، وأمها، وسونيا. كانت تحب مجتمع الكائنات اللائي تستطيع أن تأتي إليهن في ثياب النوم شعثاء الشعر، قادمة من غرفة الأولاد تطلعهن بمحيا سعيد على أحد قُمُط الرضيع الملوث بالصفرة بدلًا من الخضرة، كي تسمع كلمات مطمئنة تُقَال لها في موضوع الرضيع الذي صارت حالته الصحية باعثة على الارتياح.

وكانت ناتاشا تهمل هندامها بحيث إن أثوابها وزينتها وكلماتها التي تتفوه بها بغير مناسبة، وغيرتها — كانت تغار من سونيا، ومن المربية، ومن كل امرأة جميلة أو قبيحة — الموضوع العادي لعبث سائر أقربائها. وكان الرأي المنتشر أن بيير واقع تحت خفِّ زوجه، ولقد كانت تلك هي الحقيقة فمنذ الأيام الأُوَل لزواجهما أعلنت ناتاشا له عن طلباتها. ولقد دُهِش بيير كثيرًا من وجهات النظر الجديدة بالنسبة إليه التي تبشر بها زوجته حتى تزعم بأن كل دقيقة من حياته ملك لها وللعائلة، لقد دُهِش بيير كثيرًا من متطلبات زوجه لكنه سُرَّ بها ورضخ لها.

كان خضوع بيير على درجة عظيمة من الكمال، بحيث لم يكن يجسر لا على مغازلة امرأة أخرى فحسب، بل حتى على محادثتها وهو يبتسم، كما أنه لم يكن يجسر على الذهاب إلى النوادي لتناول طعام العشاء أو «هكذا» كي يجري الوقت، أو أن يصرف المال على أهوائه، أو على القيام بسفرة طويلة سوى من أجل أعماله، التي تُدخِل زوجته في عدادها أعمالها في علوم تعلِّق عليها أهمية قصوى دون أن تفهم شيئًا منها.

وبالمقابل فقد كان بيير يملك كل الحق في التصرف كما يشاء لا بذاته فحسب بل بكل عائلته، وكانت ناتاشا جعلت من نفسها عبدة لزوجها حين تكون وحيدة معه، فسائر سكان الدار يسيرون على رءوس أصابعهم حين يعمل بيير، يعني حين يقرأ أو يكتب في مكتبه، وكان يكفي أن يظهر رغبة ما كي تتحقق أمنيته في الحال، كان يكفيه أن يعبر عن رجاء حتى تنطلق ناتاشا على الفور وتنجز رجاءه.

كان البيت بأسره يسير حسب أوامر الزوج المزعومة، يعني برغبات بيير التي تجهد ناتاشا في سبيل تخمينها. كان أسلوب الحياة، ومكان الإقامة، والعلاقات مع الناس،

وروابط الصداقة، ومشاغل ناتاشا، وتثقيف الأولاد؛ كانت هذه الأشياء جميعًا مقررة حسب إرادة بيير كما أعلن عنها. والأكثر من ذلك أن ناتاشا كانت تجهد لتخمن ما يمكن أن ينبثق من الأفكار التي يصوغها بيير خلال أحاديثه، ولقد كانت تصيب دائمًا في تخمين هذه الأفكار والرغبات، بحيث إذا ما خمنتها مرة تعلقت بحزم بما قد اختارته، وحين كان بيير نفسه يحاول أن يذهب ضد رغبته الخاصة فقد كانت تقاومه بنفس أسلحته.

وهكذا فقد اضطُرَّت ناتاشا في ظروف صعبة سيحتفظ بيير بذكراها على الدوام، إثر ولادة طفل بِكر هزيل، أن تغير المرضعة ثلاث مرات حتى قد أمضَّها اليأس، وعندئذ أوضح لها بيير نظريات روسو التي كان يؤمن بها كل الإيمان عن استخدام المرضعات المخالِف للطبيعة ومضارِّهن وهي. وُلِد الطفل الآخر، صممت ناتاشا رغم معارضة أمها والأطباء وزوجها نفسه، وقد هبوا جميعًا يقاومون إرادتها في إرضاعه، الأمر الذي كان يُعتبَر وقتئذ شيئًا لا مثيل له بل ضارًّا، ومنذ ذلك الحين وهي ترضع سائر أبنائها.

وكثيرًا ما كان يحدث في لحظات الغضب أن يتخاصم الزوجان، بيد أن بيير يكتشف بعد الخصام بوقت طويل — وكان ذلك يبعث فيه فرحًا عظيمًا ودهشة كبيرة لا في كلمات زوجه بل في أفعالها أيضًا — فكرته الخاصة التي كانت تقاومها، ولم يكن يجد هذه الفكرة فحسب بل كان يجدها أيضًا وقد عريت عن كل المبالغة التي وضعها فيها في حميًّا النقاش والجدال.

وبعد سبع سنوات من الزواج، اكتسب بيير — وهو فرح — اليقين الحازم أنه لم يكن زوجًا شريرًا، وكان يحس ذلك بصورة خاصة لأنه كان يراه منعكسًا في زوجه، كان يشعر أن الصالح والرديء في باطنه يشكلان مزيجًا، ويقللان من حدة بعضهما بعضًا. بيد أن ما ينعكس في زوجه كان الشيء الصالح حقًّا منه، أما كل ما لم يكن صالحًا تمامًا فقد كانت تبعده، ولم يكن هذا الانعكاس ينشأ عن فترة منطقية، بل عن انعكاس آخر مباشر وخفي.

الفصل الحادي عشر

عتاب ناتاشا

قبل شهرين، وكان بيير قد استقر عند آل روستوف، تلقى رسالة من الأمير فيدور تدعوه إلى بيترسبورج لمناقشة مسائل هامة مع أعضاء الجمعية، التي كان بيير أحد مؤسسيها الرئيسيين.

وبعد أن قرأت ناتاشا هذه الرسالة (وكانت تقرأ رسائل زوجها)، نصحت له من تلقاء نفسها بالذهاب إلى بيترسبورج رغم كل ما يسببه لها غيابه من ألم. كانت تسبغ على سائر القضايا الفكرية والمجردة التي يُعنَى بها زوجها أهمية عظمى من دون أن تفهم شيئًا منها، وكانت تخشى دائمًا أن تكون عائقًا في سبيل هذا النوع من النشاط الذي يقوم به، وأجابت على النظرة الخجول المتسائلة التي رماها زوجها بها بعد قراءتها رسالة بأن توسلت إليه أن يذهب لكن بشرط أن يحدد لها بدقة موعد عودته، ومنحتْه فرصة مدتها شهر واحد.

ومنذ انتهى موعد هذه الفرصة، يعني منذ خمسة عشر يومًا، وناتاشا قلقة دون انقطاع، حزينة مكتئبة.

وكان دينيسوف، هذا الجنرال المتقاعد الممتعض من حالته هذه وقد وصل الدار في هذين الأسبوعين الأخيرين، ينظر إلى ناتاشا بشيء متساوٍ من الدهشة والحزن كما ينظر المرء إلى صورة كائن عزيز عليه لكنها قليلة الشبه به، وكان كل ما يراه أو يسمعه من فتنة الماضي نظرة ملأى بالضجر، وأجوبة مقتضبة، وأحاديث لا تخرج عن موضوع الأطفال مطلقًا.

وكان الاكتئاب والامتعاض ينتاب ناتاشا بصورة خاصة أثناء هذه الفترة، حتى تجرب أمها أو أخوها أو سونيا أو الكونتيس ماري أن يجدوا أعذارًا تبرر تأخر بيير، وهدفهم في ذلك تعزيتها وتشجيعها.

كانت ناتاشا تقول وهي تتحدث عن ذات هذه المشاغل التي كانت تؤمن بحزم بأهميتها العظمى: ما تلك سوى حماقات وسخافات، سائر مشاغل بيير هذه التي لا تؤدي إلى شيء، وسائر هذه الجمعيات البلهاء أيضًا.

وتغدو إلى غرفة الأطفال تعطي ثديها للصغير بيتيا ابنها الوحيد، ولم يكن في مكنة أي إنسان أن يقول لها أشياء معزية عاقلة قدر هذا الكائن الصغير البالغ ثلاثة أشهر من العمر، بينا هو يرتاح على صدرها فتحس حركة شفتيه والأنفاس المترددة من أنفه الصغير، كان يقول لها: «أنت تغضبين، أنت تغارين، أنت تريدين الانتقام منه، أنت خائفة. أما أنا فإني ها هنا، وأنا هو، فماذا يلزمك أكثر من ذلك؟» وما كانت تعرف بمَ تجيب، فذلك أكثر من الحقيقة.

وخلال هذين الأسبوعين من القلق ما أكثر ما لجأت ناتاشا إلى الصغير كي تطمئن نفسها! ولقد عُنِيَت به كثيرًا حتى قد أفرطت في تغذيته فوقع مريضًا وأصابها الهلع لمرضه، ومع ذلك فقد كان ذلك بالضبط ما تحتاج إليه، فالعناية التي تقفها عليه تخلصها من قلقها على زوجها.

وكانت ترضع الصغير عندما دقت أصداء عربة بيير لدى وقوفها عند عتبة البوابة، فجاءت المربية العجوز وهي تعرف كم ستسعد سيدتها الآن إلى الباب في الحال، دون أن تثير أي ضوضاء، وأطلت منه بمحيَّاها المشعشع.

وسألت ناتاشا في همس سريع وهي تخاف أن تأتي حركة توقظ الرضيع المتلفلف في غلائل النوم: أهذا هو؟

فأجابت المربية العجوز بصوت خفيف: أجل يا عزيزتي، هذا هو.

فوثب الدم إلى محيًّا ناتاشا وأتت قدماها بحركة غير إرادية، بيد أن تلك اللحظة لم تكن أوان القفز والركض، وفتح الطفل عينيه من جديد وتطلع إليها فكأنه يقول: «أنت هنا!» ثم عاد يرضع الثدي في كسل.

وسحبت ناتاشا الثدي من فمه بلطف، وأسلمته إلى المربية العجوز وهي تهدهده، ثم توجهت بخطًى سراع نحو الباب بيد أنها توقفت عند الباب، فكان ضميرها يؤنبها لما ألمَّ بها من فرح عجول قليلًا إذ تركته، ثم رجعت إليه وكانت المربية العجوز مرفوعة المرفق تمرر الرضيع من فوق حافة مهده.

همست مبتسمة وصوتها ينم عن تلك الألفة القائمة بينها وبين سيدتها: اذهبي، اذهبي يا عزيزتي، كوني مطمئنة، اذهبي!

فانطلقت ناتاشا سريعة الخطى نحو الغرفة الأخرى.

وشاهد دينيسوف من جديد للمرة الأولى ناتاشا القديمة، وهو يمر في تلك اللحظة من المكتب إلى قاعة الاستقبال الكبيرة وغليونه في فمه، كان نور مغتبط مشعشع متألق يغمر بأمواج متدفقة محيَّاها المتجلي.

صاحت به وهي تركض: هذا هو!

فأحس دينيسوف أنه سعيد بعودة بيير رغم أنه لا يضمر له كثيرًا من الحب.

وإمَّا بلغت ناتاشا الدهليز شاهدت شخصًا طويل القامة يرتدي معطف الشتاء، منهمكًا في رفع الحزام الذي يغطي أنفه، وكانت تردد في نفسها: «هذا هو! هذا هو حقًّا! إنه هنا!» ثم اندفعت وعانقته، والتصقت به بشدة مسندة رأسها إلى صدره، ثم ابتعدت عنه لتنظر إلى محياه الأحمر السعيد المغطَّى بالجليد: «أجل، هذا هو! إنه سعيد، مسرور ...»

ولكنها تذكرت بغتة سائر عذابات انتظارها خلال هذين الأسبوعين المديدين فتلاشى الفرح الذي كان ينير محياها، فعقدت ما بين حاجبيها وصبت على زوجها سيلًا من العتابات والكلمات المريرة: أجل، أنت مسرور، أنت مسرورًا جدًّا، وقد تسليت جيدًا ... وأنا أثناء ذلك؟ ... لو كنت تشفق على الأطفال فقط، إني أرضع وقد فسد حليبي وقد كاد الصغير يلاقي حتفه. أما أنت فتتسلى، أجل تتسلى ...

كان بيير يعرف أنه غير مذنب ما دام لم يستطع مجيئًا بصورة أقل، وكان يعرف أن انفجار الغضب هذا من قبَل ناتاشا في غير محله وأنه سيخمد في دقيقتين على أية حال، وكان يعرف على الأخص أنه هو سعيد مبتهج، وكان يود أن يبتسم لكنه لم يجرؤ على التفكير في ذلك، وساد الهلع ملامحه وانحنى ظهره، وقال: لم أستطع! أقسم لك، لكن بيتيا كيف حاله؟

– الآن هو في حالة حسنة، هيا، تعال! كيف لا تخجل من نفسك؟ لو عرفت إلامَ صرت أثناء غيابك والعذاب الذي عانيت ...

– أنت لست مريضة؟

فأجابت دون أن تفلت يده: تعال، تعال.

وانتقلا إلى جناحهما.

وعندما جاء نيكولا وزوجته يفتشان عن بيير، وجداه في غرفة الأطفال يحمل على راحة يده اليمنى العريضة رضيعه الذي استيقظ فكان آخذًا في تدليله، وكان وجه الصغير

العريض بفمه الخالي من الأسنان والمفتوح كل سعته يحمل ابتسامة هانئة مرحة، وكانت العاصفة قد مرت منذ زمن طويل، وشمس مرحة تضيء الآونة محيًّا ناتاشا، بينا هي تنظر بحنان إلى زوجها وابنها معًا.

استفهمت: وهل ناقشت الأمير جيدًا في سائر القضايا؟

– أجل جيدًا.

– أترى كيف يمسك به؟ (كانت ناتاشا تعني رأسه) لكنه لشد ما أخافني! والأميرة هل رأيتها؟ أصحيح أنها عاشقة ذلك …

– أجل، تصوري …

وفي هذه اللحظة دخل نيكولا والكونتيس ماري، فانحنى بيير يقبلهما دون أن يترك ابنه وراح يجيب عن أسئلتهما، لكنه كان من الواضح أن الرضيع الصغير بطاقيته ورأسه المتأرجح أخذ كل انتباه بيير رغم كل ما في الحديث الذي يتبادلونه من أهمية.

قالت الكونتيس ماري وهي تنظر إلى الطفل وتلاعبه: ما ألطفه!

واسترسلت تقول وهي تلتفت نحو زوجها: هذا ما لا أستطيع أن أفهمه يا نيكولا، لماذا لا تحس فتنة هذه الكائنات الصغيرة الرائعة؟

فأجاب نيكولا وهو يرمي الرضيع بنظرة باردة: لا أفهم شيئًا في ذلك ولا أستطيع، إنه قطعة من اللحم لا أكثر. هل تأتي يا بيير؟

فأضافت الأميرة ماري مبررة زوجها: ومع ذلك فليس أب أشد حنانًا منه، لكنه ينبغي أن يكون لهم سنة واحدة من العمر على الأقل، وإما …

فقالت ناتاشا: أما بيير فهو يعرف جيدًا كيف يكون مربية أطفال، وهو يدَّعي أن يده صُنِّفت على قالب تفاهم، انظري بالأحرى …

وصاح بيير بغتة وهو يضحك: أجل، لكن ليس من أجل ذلك وحده …

ثم أخذ الصغير وأعاده إلى المربية العجوز.

الفصل الثاني عشر

الكونتيس العجوز

كانت عوالم عديدة مختلفة تحيا في ليسياجوري، كما هي الحال في كل عائلة حقيقية كان كل فرد يحتفظ بعاداته الخاصة ويتسامح مع ذلك في علاقاته بالآخرين، بحيث كان الكل يذوبون في مجموع متناسق، فإذا ما نزل حادث بساحة البيت فهو فرح أو حزن بالنسبة إلى سائر هذه العوالم على حد سواء. وعلى أية حال فقد كان لكل من هذه العوالم بصورة مستقلة عن العوالم الأخرى أسبابه المخصوصة تمامًا التي تجعله يغتبط أو يتألم لهذا أو ذاك من الأحداث.

وهكذا فإن عودة بيير، هذا الحادث المفرح الهام، قد اعتبره الجميع هكذا دون استثناء.

وكان الخدم، وهم أفضل حكام على أسيادهم لأنهم يدينونهم لا تبعًا لأحاديثهم وتعابيرهم عن عواطفهم، بل تبعًا لأفعالهم وأسلوبهم في الحياة؛ سعداء بمقدم بيير لأنهم كانوا يعرفون أن الكونت سيكف بعد الآن عن الخروج يوميًّا لتفقد ملكيته، وأنه سيكون أكثر مرحًا ولطفًا، وفيما عدا ذلك فإن كلًّا منهم سيتلقى هدية ثمينة بمناسبة العيد.

وكان الأولاد والمربيات مغتبطين بمقدم بيير، فهو نسيج وحده في قدرته على إشراكهم في الحياة العامة، كان هو الوحيد الذي يعرف كيف يعزف على البِيان هذه القطعة الأُسكتلندية (المعزوفة الوحيدة التي يعرفها)، التي يزعم أنها يمكن أن ترافق سائر الرقصات التي يمكن أن يتصورها الخيال — دون حساب للهدايا التي يحملها بكل تأكيد للجميع دونما تفريق.

وكان نيكولا الصغير، وله من العمر الآن خمسة عشر عامًا، وهو فتى ذكي، ناحل، ممروض، كستنائي الشعر المجعد، كثير جمال العينين؛ مغتبطًا لأن العم بيير، كما كان يناديه، هو عنده موضوع إعجاب وحب جموحَيْن. ولم يجرب أي إنسان أن يوحي إليه

بحب مخصوص لبيير، الذي ما كان يراه إلا في النادر من الأحايين. وكانت الكونتيس ماري، التي أخذت أمر تربيته على عاتقها، قد جهدت بكل ما أُوتِيت من قوى كي تحمل نيكولا الصغير على حب زوجها بقدر ما كانت تحبه هي نفسها. وكان الصغير يحب عمه في الحقيقة، لكن بشيء غير محسوس من الازدراء، بينا هو يعبد بيير عبادة حقيقية. وما كانت به رغبة في الصيرورة فارسًا، أو الحصول على صليب القديس جورج مثل عمه نيكولا، كان يريد أن يكون عالمًا، ذكيًّا، طيبًا مثل بيير. وكان محياه يتألق سعادة على الدوام في حضرة بيير، لكنه يحمرُّ خجلًا ويضيق نفَسه عندما يخاطبه عمه. وما كان ينطق كلمة واحدة تسقط من شفتَي بيير، ومن ثَم يتذكر ذلك وحده أو مع ديسال، ويحاول أن يخمن معنى كل ما سمعت أذناه. وكانت حياة بيير الماضية، وأحزانه حتى عام ١٨١٢ (كان قد شكل عنها صورة غامضة شعرية بناءً على الأحاديث التي سمعها)، ومغامراته في موسكو، ووقوعه في الإسار، وأفلاطون كاراتاييف (الذي حدثه بيير عنه)، وحبه لناتاشا (التي كان الصبي يحبها أيضًا بعاطفة خاصة)، وبصورة خاصة صداقته لأبيه الذي ما كان يستطيع أن يتذكره؛ هذا كله كان يجعل من بيير في عينيه بطلًا وقديسًا.

لقد استنتج الفتى من بعض نقط الحديث الذي تساقط إليه عن أبيه وناتاشا، ومن العاطفة التي تتردد في صوت بيير حين يتحدث عن المرحوم، ومن الحنان المتحفِّظ والحار الذي تتحدث به ناتاشا أيضًا عنه؛ استنتج وقد بدأ يستيقظ على عاطفة الحب أن أباه قد أحب ناتاشا وسلمها لصديقه عند موته، وكان هذا الأب الذي لا يتذكره يشكل في نظره ألوهية لا يمكن أن تُسبَغ عليها صورة معينة، وما كان يفكر فيه إلا وينقبض قلبه وتترقرق دموع الحزن والحمية في عينيه. وهكذا فقد كان نيكولا الصغير سعيدًا إذن لعودة بيير.

وكان المدعوون سعداء أيضًا، كان بيير بفضل بشاشته وجَذَله يمكِّن من أواصر أعضاء الجمعية بأسرها.

وكان سائر الكبار في الدار بالإضافة إلى زوجته مغتبطين، إذ التقوا مجددًا بالصديق الذي تصير الحياة إلى جانبه أخف وطأة وأكثر هدوءًا.

وكانت النساء العجائز مسرورات بالهدايا التي يحملها، وبصورة خاصة بكون ناتاشا ستستعيد مرحها وتذوقها للحياة.

وكان بيير وهو يشعر أساليب النظر المختلفة التي تُرى إليه بها هذه العوالم المتعددة، يمنح كلًّا منها ما كان يُتوقَّع منه.

كان بيير، هذا الرجل الأكثر سهوًا ونسيانًا بين البشر، قد ابتاع كل ما تشير إليه لائحة وضعتها زوجته، من دون أن ينسى شيئًا من توصيات حماته وصهره، ولا قطعة القماش من أجل ثوب بيلوفا العجوز، ولا الدُّمى من أجل أبناء أخيه. ولقد وجد من الغرابة في الأيام الأولى من زواجه أن تطلب زوجه منه ألا ينسى شيئًا مما يجب أن يشتري، والأغرب من ذلك أيضًا أنها غضبت بصورة جدية حين نسي كل شيء في رحلته الأولى بعد الزواج، لكنه اعتاد هذا الأمر في ما بعد. وإما أدرك أن ناتاشا لا تطلب لنفسها ولا توصيه على شيء من أجل الآخرين إلا عندما يتطوع لذلك من تلقاء نفسه؛ فقد صار يجد الآونة لذة غير منتظرة، لذة صبيانية بأن يتبضع الهدايا لسائر أهل الدار، وما كان ينسى واحدًا منهم قط، وإذا استحق أي لوم ناتاشا بعد الآن، فذلك لابتياعه أشياء كثيرة وبثمن غالٍ جدًّا أيضًا. لقد كانت ناتاشا إلى جانب ما يسميه الناس عيوبها (إهمالها لهندامها وزينتها)، وهي أمور كان يراها بيير صفات حميدة؛ تجمع البخل أيضًا.

ومنذ أخذ بيير يحيا في سعة مع عائلة تتطلب مصاريف باهظة، وحبه والدهشة مستولية عليه أنه يعرف أقل من قبل بمرتين، وأن أعماله التي ساءت في الماضي خاصة بفضل ديون زوجته الأولى قد بدأت تتحسن الآن.

كان يعيش بمصاريف أقل لأنه أصبح مرتبطًا بعلاقات عائلية، فقد تنازل عن الزينة الأشد كلفة، ألا وهي ذلك الأسلوب في الحياة الذي يبدله المرء في كل لحظة، وما عاد يرغب فيه بعد الآن. كان يشعر أن مجرى حياته قد ثبت من اليوم فصاعدًا بصورة نهائية حتى وفاته، وأنه ما عاد في طاقته أن يغيره، وبالتالي فإن مجرى هذه الحياة قد قلَّت تكاليفه.

كان بيير ينشر مشترياته باسمَ الوجه مرح السِّيماء، قال وهو يغرد مثل بائع قطعة من قماش: إيه! أهي جميلة؟!

ونقلت ناتاشا، وهي تضع ابنتها البكر على ركبتها، نظراتها المتألقة من زوجها إلى ما يريها إياه بين يديه، وقالت: أهو من أجل السيدة بيلوف؟ رائع!

ولمست النسيج بيدها، واسترسلت تقول: هذا يساوي روبلًا على الأقل للمتر الواحد.

فأعلن بيير لها عن سعره فهتفت: إنه غالي الثمن! لكن لشد ما سيكون الصغار مسرورين وأمي أيضًا!

وأضافت دون أن تتمكن من كبح ابتسامة علت شفتيها، وهي تعجب بمشط ذهبي مزيَّن باللآلئ قد انتشر زيه في تلك الأحيان: لكنك أخطأت إذ ابتعت لي هذا الشيء!

– إن السيدة أديل قد أجبرتني على شرائه: اشترِ، هيا اشترِ. هذا ما ألحت به عليَّ.

– ولكن متى أحمله؟

وزرعته ناتاشا في ضفائرها: سأحمله يوم آخذ ماشا إلى ما بين الناس، لعل موضته تعود فتنتشر وقتئذ. هيا، فلنذهب.

وبعدما جمعا الهدايا مرًّا أولًا بغرفة الأطفال، ثم توجها إلى غرفة الكونتيس العجوز.

وكانت هذه الكونتيس تجلس كعادتها مع السيدة بيولوف يلعبان الورق عندما دخل بيير وناتاشا إلى الصالة ورزمهما تحت إبطهما.

كانت الكونتيس العجوز قد تجاوزت الستين، وكان شعرها أبيض تمامًا، وهي تلبس طاقية من الصوف تؤطِّر كل محياها، وكان وجهها يغص بالغضون، وقد انقلبت شفتها العليا إلى الداخل قليلًا، بينا أظلمت عيناها وتلاشى لونهما.

كانت تحس أنها منسية بصورة غريبة في العالم، لا تتذوق العيش ولا تجد له مبررًا، وذلك منذ وفاة ابنها وزوجها في فاصل قصير من الزمن. كانت تأكل وتشرب وتنام وتقعد بين الناس، لكن لا تحيا البتة، كانت الحياة تتركها لا مبالية تمامًا، فهي لا تنتظر منها بعد الآن سوى الراحة، وهذه الراحة لا تمكن أن تجدها سوى في الموت، ولكن ما دام الموت لم يأتِ بعد فلا بد من الاستمرار في الحياة، يعني لا بد من استخدام الإنسان لقواه الحية. كان المرء يلاحظ عندها ما يلاحظ عادة عند الأطفال الصغار والأشخاص الذين تقدمت السن بهم كثيرًا وقد بلغ حده الأقصى، فليس في حياتها أي هدف خارجي، ولم يبقَ منها في ما يبدو سوى الحاجة إلى تحريك ميولها وقابلياتها المختلفة. كانت في حاجة إلى الأكل، والنوم، والتفكير، والحديث، والبكاء، والاشتغال بأمر ما، والغضب ... إلخ، وذلك بمقادير قليلة، فقط لأنها تملك معدة، ودماغًا، وعضلات، وأعصابًا، وكبدًا. وكانت تنجز ذلك كله دون أن يحثها عليه أي دافع خارجي. وليس مثل الأشخاص المتقدمين في السن من لا يرى خلف الهدف الذي يسعى إليه الهدف الآخر، الذي هو بكل بساطة استخدام طاقتهم. كانت تتحدث بمجرد أنها تحتاج حكميًّا أن تقوم بقليل من العمل كي تشغل رئتيها ولسانها. وكانت تبكي مثل طفل صغير لأنها في حاجة إلى التمخط، وهكذا دوالَيْك. إن كل ما هو غاية عند الكائنات المكتملة القوة لم يكن عندها سوى ذريعة.

وهكذا في الصباح، خاصة إذا كانت تناولت طعامًا دسمًا في العشية، كانت تشعر بالحاجة إلى الغضب فتختار لذلك أول ذريعة تقع عليه، ألا وهي صمم السيدة بيولوف.

وتبدأ تقول لها أي شيء كان اليوم حين استيقظ من طرف الحجرة الآخر، فتهمس مثلًا: اليوم أظن أن الطقس شديد الحرارة يا عزيزتي.

وعنده تجيب السيدة بيولوف: «ولكن أجل، إنهم ها هنا.» فهي تهمهم في غضب إذن: «يا إلهي! لشد ما هي حمقاء وسخيفة!»

وكانت الذريعة الثانية لغضبها هي الطباق الذي تتنشقه، والذي تجده تارة كثير الجفاف، وتارة كثير الرطوبة، وتارة خشنًا قليل النعومة. وبعد هذه الفترات من الغضب، كانت الصفراء تتدفق إلى محياها. وهكذا كانت الوصيفات يعرفن بدلائل يقينية متى ستعيد بيولوف صماء من جديد، ومتى سيصير الطباق كثير الرطوبة من جديد، ومتى سيصفرُّ لون سيدتهن مجددًا. وكما أنها كانت تحتاج في الأحايين إلى تشغيل صفرائها، كذلك لم يكن لها بدٌّ من استخدام الإمكانيات الباقية لها ومن التفكير، بحيث إن الألعاب الطويلة بالورق تصلح ذريعة لها في سبيل ذلك. وإما تحتاج إلى البكاء فهي تفكر في الكونت المرحوم، وإما تحتاج إلى القلق فهي تُعنَى بنيكولا وصحته. وإن كانت تحتاج إلى قول أشياء خبيثة، فالكونتيس ماري هدف هجومها إذن. وإن كانت تحتاج إلى تمرين أعضائها الصوتية، الأمر الذي يحدث في غالب الأحيان حوالي الساعة السابعة بعدما تأخذ قسطها من الراحة والنوم في النور المعتم لغرفتها؛ فذريعتها هي إذن تكرار نفس القصص لنفس المستمعين.

وكان سائر المستمعين في الدار يدركون حالة السيدة العجوز، رغم أن أيًّا منهم لم يتحدث عنها، وكانوا جميعًا يبذلون جهدهم لإرضائها. وكانت النظرات الخاطفة ونصف الابتسامات المكتئبة التي يتبادلها نيكولا وبيير وناتاشا والكونتيس ماري، تشهد وحدها أن الجميع يفهمون هذه الحال التي صارت إليها.

بيد أن هذه النظرات فيما عدا ذلك كانت تقول أشياء أخرى، كانت تقول إن الكونتيس العجوز قد أنهت مهمتها في هذا العام، وإنها لم تكن على الدوام كما هي الآن، وإننا جميعًا سنصير مثلها يومًا ما، وإنه ينبغي أن نكون سعيدين بالنزول عند رغباتها وأهوائها، وأن نتمالك أنفسنا من أجل هذا الكائن الذي كان عزيزًا جدًّا في الماضي، والذي كان يطفح حياة من أجلنا في غابر الأيام، والذي صار اليوم باعثًا على الشفقة حتى درجة بعيدة. كانت سائر هذه النظرات تقول:

ولم يكن في الدار سوى الأشخاص الأغبياء تمامًا أو الخبثاء، والأطفال الصغار لا يفهمون ذلك فيتجنبون لهذا السبب الكونتيس العجوز ويبتعدون عنها.

الفصل الثالث عشر

حول السماور

عندما دخل بيير وزوجه إلى الصالة، كانت الكونتيس في تلك الحال العادية، حيث تمس الحاجة إلى ممارسة ذكائها بالقيام بتمرين من الصبر الطويل. وهكذا كان من الواضح، بالرغم من تفوهها بالكلمات التي تكررها كلما عاد بيير أو ابنها من السفر: حسنًا، «لقد حان وقت العودة يا عزيزي، لقد انتظرناك كفاية، وهذا أنت أخيرًا، شكرًا لله!» وكلما تلقت هدية ما: «ليست الهدية التي تسرني يا صديقي الصغير، شكرًا لأنك فكرت أن تأتي بشيء ما لعجوز مثلي»؛ كان من الواضح أن بيير يزعجها في تلك اللحظة، إذ يعكر صفو لعبتها التي لم تكن تسير في طريق النجاح، وأنهت اللعبة. وعندئذ فقط التفتت صوب الهدايا التي كانت تتألف من علبة لورق اللعب ذي صنع جميل للغاية، ومن قدح فني أزرق اللون له غطاء لطيف قد رُسِمت عليه جماعة من الرعيان، ومن علبة طباق ذهبية يزينها رسم الكونت قد أوصى بيير عليها عند عميل في بيترسبورج (وهي ما كانت الكونتيس تتوق إليه منذ زمن طويل). ولم تكن بها رغبة في البكاء في تلك اللحظة، ولذا فقد نظرت إلى الصورة بلا مبالاة كي لا تهتم سوى بالعلبة وحدها.

قالت مكررة جملها المعتادة: شكرًا يا صديقي، لقد منحتني سرورًا عظيمًا، لكن الأمر الأفضل هو وجودك ها هنا بلحمك وعظمك، وإلا فلا معنى لذلك كله. ينبغي أن توبخ زوجته على الأقل، فهي عديمة الحس السليم! إنها أشبه بالمجنونة حين تكون غائبًا، فهي لا ترى شيئًا ولا تتذكر شيئًا.

واسترسلت تقول: آنًّا تيمو فييئيفنا، انظري العلبة التي جاءنا ابننا بها.

فأُعجِبت السيدة بيولوف بالهدايا، وأشرقت فرحًا حين رأت قطعة النسيج الخاصة بها.

كان ثمة أشياء كثيرة يريد بيير وناتاشا ونيكولا والكونتيس ماري ودينيسوف أن يتبادلوا الحديث في موضوعها، ولا يستطيعون ذلك أمام الكونتيس العجوز، ليس لأنهم يخفون هذه الأشياء عنها بل لأنها ما كانت تعرف إلا الشيء القليل مما يجري حولها، بحيث إذا فُتِح حديث في حضورها فهي تروح تطرح الأسئلة ذات اليمين وذات اليسار، وتطلب أن يُعاد على مسامعها من جديد ما سبق، فقيل لها مائة مرة: إن فلانًا مات، وإن فلانًا تزوج، وهي أمور ما كانت تنجح في تذكرها، وتجمع أهل الدار أثناء ذلك كما هي العادة في الصالون حول السماور، حيث اضطُرَّ بيير أن يجيب عن عدد كبير من أسئلة الكونتيس العجوز العديمة النفع، فيقول لها وإن الأمير فاسيلي قد شاخ، وإن الكونتيس ماري ألكسيفنا ما برحت تذكرها وهي ترجوها ألا تنساها، وهكذا دواليك.

واستمر هذا الحديث الذي لا يثير اهتمام أحد، لكن الضروري رغم ذلك، طوال فترة تناول الشاي. وكانت سونيا تجلس بجانب السماور، وقد اجتمع سائر أشخاص العائلة الكبار حول المائدة المستديرة، بينا الأطفال والمربيات والمربون قد تناولوا نصيبهم من الشاي من قبل، وأصواتهم تدف الآونة من المخدع المجاور حيث تجمعوا. وكان كل يحتل مكانه المعتاد، فنيكولا يجلس بجانب المدفأة أمام مائدة صغيرة يُقدَّم له الشاي عليها. وكانت ميلكا العجوز، الكلبة العداءة، ابنة ميلكا الأولى، وهي ذات رأس أبيض تمامًا تبرز فيه عينان سوداوان كبيرتان؛ ترتاح على مقعد إلى جانبه. وكان دينيسوف، بشعره المصفف وشاربيه وسالفيه اللذين وَخَطَهما المشيب وبزة الجنرال المفكوكة الأزرار التي يرتديها؛ يجلس بجانب الكونتيس ماري. أما بيير فكان موقعه بين زوجته والكونتيس العجوز، وكان يروي حديثًا يعرف أنه يهم السيدة العجوز ويمكن أن يُفهَم منها، فهو يتحدث عن الحوادث السياسية وعن الأشخاص الذين كانوا يشكلون في الماضي حلقة الكونتيس — حلقة تعج بالحياة والنشاط في أيامها — لكن أعضاءها قد تبعثر اليوم معظمهم في مختلف أرجاء العالم، وهم يكملون بقية أيام عمرهم مثلهم مثلها يلتقطون الثمرات الأخيرة لما زرعوه في ماضي أيامهم. وعلى أية حال فإن معاصري الكونتيس هؤلاء يشكلون بالنسبة إليها العالم الحقيقي الجدي الوحيد.

وكانت ناتاشا تدرك في حيوية بيير أن الرحلة قد أثارت اهتمامه كثيرًا، وأن في جعبته أشياء كثيرة يرويها، لكنه لا يجرؤ على المباشرة بذلك في حضرة الكونتيس العجوز. ولم يكن دينيسوف وهو ليس عضوًا في العائلة بقادر على فهم تحفظ بيير، فهو رغم امتعاضه يُعنَى كثيرًا بالحوادث الجارية في بيترسبورج، ولا يني يستحث بيير كي يقدم

التفاصيل عن القضية الجديدة الخاصة بفرقة سيميونوفسكي، وأراكتشييف، وجمعية الكتاب المقدس. وكان بيير ينحرف أحيانًا فيروي قصة ما، لكن ناتاشا ونيكولا يسرعان فيردانه في الحال إلى الحديث عن صحة الأمير إيفان والكونتيس ماري أنتونوفنا.

وسأل دينيسوف: هيا، إنما هذا جنون، وغوستر ذاك وتاتارينوفا،[1] أيمكن أن يستمر هذا الأمر؟

فهتف بيير: أجل، هذا يستمر وأكثر من أي وقت مضى: إن جمعية الكتاب المقدس[2] هي كل الحكومة الآن.

فسألت الكونتيس العجوز التي أنهت قدحها فهي تبحث الآن عن حجة تتذرع بها كي تغضب: عما تتحدث يا صديقي العزيز؟ ماذا قلت؟ الحكومة؟ أنا لا أفهم.

فتدخل نيكولا في الحديث قائلًا وهو يعرف كيف يترجم الأشياء إلى لغة والدته: لكنك تعرفين جيدًا يا أماه أن الأمير ألكسندر نيكولافيفتش، غوليتسين قد نظم جمعية وهو لذلك على قدر من القوة فيما يقولون.

فقال بيير: أراكتشييف وغوليتسين إنهما كل الحكومة اليوم، وأية حكومة! إنهما يريان المكائد في كل مكان، ويخافان من كل شيء.

فقالت الكونتيس العجوز ممتعضة: كيف؟ كيف يمكن أن يكون الأمير ألكسندر ونيكولافيفتش مذنبًا؟ إنه رجل كريم للغاية، وقد التقيت به عند ماري أنتونوفنا.

ولما شاهدت أن الجميع يلوذون بالصمت، فقد ازدادت حنقًا وأضافت: في هذه الأيام يريد كل امرئ أن يدين سائر الناس جمعية إنجيلية، أين الشر في هذا؟

ونهضت صارمة الوجه فنهض الجميع أيضًا، واتجهت إلى مخدعها لتعاود اتخاذ مكانها إلى مائدتها.

ودق في الغرفة المجاورة في ملء الصمت الأليم الذي ساد المكان ضحكات الأطفال وأصداء أصواتهم، مما لا ريب فيه أن شيئًا يبعث على المرح بصورة خاصة قد اجتاح ذلك العالم الصغير.

---

[1] وقع ألكسندر الأول بعد عام ١٨١٥ تحت تأثير الصوفية والمتطهرين وأصحاب الرءوس، الذين كان غوستر وتاتارينوفا مشهورَيْن بينهم حتى درجة بعيدة.

[2] أسس أ. ن غوليتسين، وهو المشرف على المجمع المقدس آنذاك، جمعية الكتاب المقدس عام ١٨١٢، وهي نسخة عن الجمعية العاملة في إنكلترا. وقد حُلَّت هذه الجمعية فيما بعد إثر اتهامها بنشر كتب إلحادية.

كان صوت ناتاشا الصغيرة الحاد الفَرِح يهتف فوق بقية الأصوات: لقد تم، لقد تم.

فتبادل بيير نظرة مع الكونتيس ماري ونيكولا (أما ناتاشا فكان لا ينقطع البتة عن النظر إليها)، وافترَّت شفتاه عن ابتسامة سعيدة.

صاح: يا لها موسيقى رائعة!

فقالت الكونتيس ماري: إنها آنَّا ماكاروفنا قد أنهت الجوربَيْن.

فهتف بيير وهو يقفز من مكانه: أوه! أنا ذاهب لأرى.

وتوقف عند الباب وقال: أتعرفين لماذا أحب هذه الموسيقى بصورة خاصة؟ ذلك أنهم أول من يخبرني أن الأمور جميعًا تسير على ما يرام، اليوم وأنا قادم كان خوفي يتفاقم بقدر ما أقترب من البيت، وما كدت أدخل الدهليز حتى سمعت أندريوشا يضحك بأعلى صوته، فقلت في نفسي: كل شيء على ما يرام.

فوافق نيكولا على كلامه بقوله: إني أعرف، وأنا لا أجهل هذا الشعور، لكنه ينبغي ألا أذهب للاطلاع فهذان الجوربان مفاجأة يخبئونها لي.

ومر بيير إلى غرفة الأطفال حيث كانت الهتافات والضحكات تزداد رنينًا، وسُمِع صوته ينادي: هيا آنَّا ماكاروفنا أنت والأطفال، هنا إلى وسط الغرفة تحت إمرتي، واحد، اثنان، وعندما أقول ثلاثة ... أنت، ابقَ هنا، وأنت بين ذراعَيَّ ... مفهوم؟ واحد، اثنان ...

وكان صمت قصير ...

– ثلاثة!

وملأ الأطفال الغرفة بزمجرة ظافرة وهتفوا: اثنان، هناك اثنان!

كان ثمة جوربان تحيكهما آنَّا ماكاروفنا معًا بسر لا يعرفه أحد سواها، فإذا اكتملا أخرجتهما الواحد من الآخر بمهابة واحتفال في حضور الأطفال جميعًا.

الفصل الرابع عشر

في مكتب نيكولا

وما أسرع أن جاء الأطفال ليتمنوا لأهل البيت ليلة سعيدة، وبعدما قبلوا والديهم انحنى المربون والمربيات وذهبوا بعالمهم الصغير ولم يبقَ سوى ديسال مع تلميذه، ودعا المربي نيكولا الصغير إلى الخروج بصوت خفيض، فأجاب التلميذ بصوت خفيض أيضًا: كلا، إنه السيد ديسال، سأطلب من عمتي السماح بالبقاء.

وقال مقتربًا من الكونتيس ماري: عمتاه، اسمحي لي بالبقاء.

كان محياه يعبر عن الرجاء، والانفعال، والحماسة. وتطلعت الأميرة ماري إليه والتفتت صوب بيير وقالت له: عندما تكون هنا فهو لا يستطيع الذهاب.

فقال بيير وهو يمد يده إلى الأستاذ السويسري: سأجيئك به حالًا يا سيد ديسال، عم مساءً.

وتوجه مبتسمًا إلى نيكولا الصغير: يلوح لي أننا لم نلتقِ بعد نحن الاثنين؟

والتفت إلى الكونتيس ماري وأضاف: آه! لشد ما شرع يشبهه يا ماري!

فسأل الطفل وقد أصبح قرمزي اللون بغتة، وراح يتطلع إلى بيير من أسفل إلى أعلى بعينَيْن تتألقان إشراقًا: أبي؟

فأشار بيير برأسه ووصل ما انقطع من حديث مع الأطفال. وتابعت الكونتيس ماري عملها التطريزي، بينا عينا ناتاشا لا تغادران زوجها لحظة واحدة. وكان نيكولا ودينيسوف قد نهضا وتناول كل منهما غليونه، وراحا يطرحان الأسئلة على بيير وهما يدخنان ويتناولان الشاي من يد سونيا التي تقف بعناد ودلائل الحزن على سيماها قريبًا من السماور. وكان الصبي المريض الملامح ذو الشعر المجعد والعينين البراقتين، قد انزلق في زاوية من الغرفة دون أن يلاحظه أحد، وأدار رأسه ذا العنق الناحل البارز من ياقة

ضيقة نحو الجهة حيث يقف بيير وكان يرتعش من حين لآخر، واقعًا كما يظهر تحت سلطان إحساس قوي جديد، ويهمس بشيء ما بينه وبين نفسه.

كان الحديث يدور في موضوع الإشاعات المنتشرة اليوم والصادرة من طبقات الحكومة العليا، والتي يجد معظم الناس أن كل أهمية السياسة الداخلية متمركزة فيها. وكان دينيسوف المستاء من الحكومة بسبب ما لحق به من فشل في حياته السياسية، يتلقى بفرح أنباء الحماقات التي تُرتكَب في رأيه في بيترسبورج في الوقت الراهن، ويقدم ملاحظات مريرة حادة عن كل ما يقدم بيير من تقارير.

فيما مضى كان يجب أن يكون المرء ألمانيًّا، أما اليوم فيجب أن يرقص مع تاتارينوفا والسيدة دي كرودنر،[١] يجب أن يقرأ ... إيكهارتشوش وشركته[٢] آه! لو كان يمكن أن نصف ها هنا شجاعة بونابرت: لقد كان يعرف إذن كيف يتدبر أمره كي يكنس سائر هذه الحماقات.

وأضاف بصوت مرتفع: أسألكم بربكم ما معنى أن تُعطَى فرقة سيميونوفسكي للجندي شوارتز؟[٣] وكان نيكولا يعتبر، رغم عدم إحساسه بالحاجة إلى أن ينظر إلى الأشياء نظرة الشر مثل دينيسوفسكي، أنه من الواجب والمهم جدًّا أن يقول كلمته في الحكومة، كان يرى أن تعيُّن فلان وزيرًا لهذه الوزارة أو تلك وتعيُّن فلان حاكمًا عامًّا لهذه المقاطعة أو تلك، وأن هذه الكلمة التي تفوَّه بها الإمبراطور، أو تلك الكلمة التي تفوَّه بها ذاك الوزير؛ هي شئون ذات أهمية عظمى، فهذا يسأل بيير عنها. وكانت أسئلة هذين المتحدثين لا تسمح للحديث أن يخرج من إخبار هذا النوع من الشائعات الثقات المعهودة في الطبقات العليا من الجهاز الإداري.

بيد أن ناتاشا، وهي التي تعرف سائر أحاسيس زوجها وأفكاره، خمنت أن بيير يود منذ زمن طويل دون أن يتمكن من ذلك أن ينتقل إلى موضوع آخر، فيتحدث عن المسائل

---

[١] السيدة دي كرودنر (١٧١٤–١٨٢٤) صوفية روسية، قدمت إلى ألكسندر عام ١٨١٥ في هلبرون في ألمانيا، وكان لها عليه تأثير دائم.

[٢] إيكهارتشوش: كاتب صوفي، تُرجِمت مؤلفاته إلى الروسية وانتشرت كثيرًا، ما دام ناظر المحطة في قصة جوجول «النفوس الميتة» كان يقرؤه.

[٣] كانت فرقة سيميونوفسكي قد ثارت لأن الجنود لم يطيقوا أن يُساقوا إلى الفضيحة من قبل الكولونيل شوارتز صنيعة أراكتشييف، الذي ما كان الإمبراطور راغبًا أن يجحد به. وقد تساءل نيكولا عن عزو هذا التمرد إلى الجمعيات السرية!

الخصوصية التي حثته إلى القيام بهذه الرحلة إلى بيترسبورج كي يسأل الصفح من صديقه الجديد الأمير فيدور. وهكذا فقد أسرعت إلى معونته فسألته عن قضيته مع الأمير فيدور.

فسأل نيكولا: ما هي القضية؟

فقال بيير وهو يدور بنظره حواليه: الشيء نفسه دائمًا. إن الجميع يرون أن الأمور لا تسير باستقامة، وأن هذا لا يمكن أن يدوم. إن واجب كل امرئ شريف أن يفعل في حدود قواه.

فقال نيكولا وهو يعقد ما بين حاجبيه: وما يستطيع الناس الشرفاء أن يفعلوا؟ ماذا نستطيع أن نفعل حقًّا؟

– حسنًا بالضبط …

فقال نيكولا: فلننتقل إلى مكتبي.

وسمعت ناتاشا صوت المربية العجوز، وكانت تتوقع منذ فترة طويلة أن ينادوها لإرضاع صغيرها، فغدت إلى غرفة الأطفال ولحقت الأميرة ماري بها، بينما انتقل الرجال إلى مكتب نيكولا يتبعهم الصغير نيكولا بولكونسكي دون أن يلاحظه عمه، وذهب ينزوي في الظل قريبًا من النافذة بجانب طاولة العمل.

وسأل دينيسوف: إذن ماذا تفعل أنت؟

وقال نيكولا: أوهام دائمًا.

وشرع بيير يقول دون أن يجلس وهو يذرع أرض الغرفة بخطاه تارة ويتوقف تارة أخرى يتابع الإشارات بيديه، بينما ينطلق الصوت من فمه صافرًا: حسنًا إليكم رأيي، إن الوضع في بيترسبورج هو كما يلي: إن الإمبراطور لا يتدخل في أي شيء على الإطلاق، بل يستسلم للصوفية تمامًا (كان بيير في تلك الفترة لا يغفر لأي إنسان كونه صوفيًّا)، هو لا يطلب سوى طمأنينته، وطمأنينته لا يمكن أن يوفرها له سوى هؤلاء الناس الذين لا إيمان لهم ولا ناموس، الذي يسطون على كل شيء ويخنقون كل شيء، أمثال ماغنيتسكي[٤] وأراكتشييف ومن أَلِف لهم …

وتوجه إلى نيكولا بقوله: أتوافق أنه إذا لم تشرف بنفسك على أمور أملاكك، بل كنت لا تسعى سوى وراء الطمأنينة، فإنك بالغ هدفك بسرعة أعظم بقدر ما يكون وكيلك أشد قسوة وعنفًا؟

[٤] ماغنيتسكي، عميد جامعة قازان، دمَّر سائر الكتب المشبوهة، وأخذ تدابير رجعية ضد الأساتذة.

فأجاب نيكولا: ولكن بلى، لمَ سؤالك هذا؟

– إذن فكل شيء ينهار؛ في المحاكم تسود السرقة، وفي الجيش العصا ومشية العرض[٥] والمستعمرات العسكرية.[٦] إنهم يضطهدون الشعب، ويخنقون التعليم، ويدمرون كل ما هو شريف وفتِيٌّ. ويدرك الجميع أن ذلك لا يمكن أن يستمر على هذا المنوال، فالحبل قد توتر حتى الدرجة القصوى ولا بد أن ينقطع.

لم يكن بيير يقول شيئًا جديدًا، بل ذلك هو رأي الناس دائمًا منذ كانت الحكومات، وكلما تفحص المرء أفعال أية حكومة كانت.

واسترسل يقول: قلت لهم شيئًا واحدًا في بيترسبورج.

فاستفهم دينيسوف: من هم؟

فقال بيير بنظرة ذات مغزى: أنتم تعرفون ذلك جيدًا، الأمير فيدور وسائر الآخرين، أن نشر التعليم وأعمال الخير شيء رائع من دون ريب. إنه هدف مدهش، بيد أنه لا بد من أشياء أخرى في الظروف الراهنة.

وفي هذه اللحظة لاحظ نيكولا وجود ابن أخيه فأظلم محياه، واقترب منه قائلًا: ماذا تفعل هنا؟

فأخذ بيير نيكولا من ذراعه واسترسل: ما بالك؟ دعه. قلت لهم: هذا لا يكفي، بل لا بد من شيء آخر في هذا الحين. ما دمتم تنتظرون أن ينقطع الحبل المشدود كثيرًا، ما دمتم تتوقعون جميعًا من لحظة لأخرى انقلابًا محتومًا، فيجب أن نتكاتف بقدر المستطاع، أن يتماسك أكبر عدد ممكن منا بالأيدي، وذلك كي نقف في سبيل الكارثة العمومية. كل ما هو فتِيٌّ وقوي يُجتذَب هناك ويفسد؛ فهذا يغرونه بالنساء، والآخر بالهبات، والثالث بالغرور أو بالمال، وإنهم لينتقلون جميعًا إلى المعسكر الآخر. أما المستقلون، مثلك ومثلي، فلم يبقَ منهم أحد. وإني لأكرر ذلك: وسِّعوا حلقة الجمعية، وليكن شعاركم لا الفضيلة فحسب، بل الاستقلال والعمل أيضًا.

وقرَّب نيكولا مقعدًا وقد نسي ابن أخيه، واستقر فيه والامتعاض بادٍ في سيماه، وكان يسعل ويعقد حاجبيه أكثر فأكثر بقدر ما يرهف أذنيه لأقوال بيير.

---

[٥] هذه المشية حملها بول الأول في ألمانيا، ونشرها أراكتشييف بصورة خاصة.

[٦] كان هذا النظام يقوم على إسكان الجنود عند الفلاحين، بحيث كانت القرية تتألف من الفيالق العسكرية والجنود، ومن الفلاحين المستعمَرين وهم السكان الأصليون. وكان الجندي يساعد الفلاح في عمل الحقول، وأولاد الاثنين المُعَدُّون للخدمة العسكرية.

صاح: أجل، ولكن العمل لأي هدف؟ وماذا ستكون علاقاتكم مع الحكومة؟

– العلاقات؟ ستكون علاقات تعاون، فيمكن ألا تكون الجمعية سرية، وأن تسمح الحكومة لها بالعمل، وهي ليست معادية للحكومة ما دامت تتألف من عناصر محافظة حقًّا. إنها جمعية نبلاء بكل معنى الكلمة، وكل ما تريد هو منع مخلوق مثل بوغاتشوف من ذبح أولادك وأولادي، ومنع مخلوق مثل أراكتشييف أن يرسلني إلى مستعمرة عسكرية. من أجل هذا فقط نتماسك بالأيدي، وهدفنا الوحيد هو الخير العام والسلامة العامة.

– أجل، ولكن جمعية سرية لا يمكن أن تكون سوى معادية للحكومة وضارة بها، ولا يمكن أن ينشأ عنها سوى الشر.

– لماذا؟ هل كانت جمعية توغن التي أنقذت أوروبا (ما كانوا يجرءون بعد أن يفكروا أن روسيا هي التي أنقذت العالم) ضارة؟ ولقد كانت هذه الجمعية جمعية خيرية، كانت المحبة، والتعاون المتبادل، وهذا هو ما يُشبَّه به المسيح على الصليب …

كانت ناتاشا، وقد دلفت إلى الحجرة في ملء هذا الحديث، تتأمل زوجها بفرح، كانت مبتهجة لا بما يقول، فهذا لا يثير اهتمامها بل يبدو لها كله بسيطًا تمامًا ومعروفًا منذ زمن طويل، كانت تملك هذا الشعور لأنها كانت تعرف ينبوع هذا كله ألا وهو نفس بيير، كانت مغتبطة إذ ترى الحيوية المتدفقة في كل شخصه.

وكان الصبي الصغير ذو العنق الرقيق المنبثق من ياقته الضيقة، وقد نسيه الجميع، يلتهم بعينيه بشيء من البهجة والحماسة يفوق ما في نظرة ناتاشا إليه. كانت كل كلمة تسقط من فم عمه تلهب قلبه، فيحطم بحركة عصبية من أصابعه دون أن ينتبه الشمع والأرياش الموجودة تحت متناوَل يده على مكتب عمه نيكولا.

– ليس هذا كما تحسب مطلقًا! إليك ما كانت الجمعية توغن الألمانية، والاتحاد الذي أقترحه أنا …

فقاطعه دينيسوف بلهجة حاسمة عنيفة: هيا أيها الأخ، إنها تصبح لآكلة اللحم المقدد تلك الجمعية الألمانية. أما أنا فلا أفهم شيئًا منها، ولا أستطيع أن ألفظ هذه الكلمة جيدًا، كل شيء يذهب من سيئ إلى أسوأ، هذا ما أوافق عليه، لكن الجمعية فهذا ما لا أفهمه، كما أنه لا يروقني. إذا أردت ثورة فباقٍ معكم.

وتبسم بيير وانفجرت ناتاشا ضاحكة، بيد أن نيكولا رفع حاجبيه أكثر من ذي قبل وشرع يبرهن لبيير أن الانقلاب شيء غير منتظر، وأن الخطر الذي يتحدث عنه لا يوجد سوى في مخيلته، وكان بيير يبرهن له العكس في ذلك، ولما كان يملك فكرًا أقوى وأخصب

موادَّ فما أسرع أن أحس نيكولا الغلبة! الأمر الذي ضاعف حنقه لأنه كان يشعر في أعماق نفسه بدافع في حدس باطني أكثر منه بدافع من منطق عقلاني، إن فكرته صحيحة بصورة لا يتطرق الشك إليها.

هتف وهو ينهض ويضع غليونه على الطاولة بحركة عصبية وأخيرًا يرميه أرضًا: اسمع ما سأقول لك، وإن كنت عاجزًا عن برهانه. تزعم أن كل شيء عندنا يسير بصورة رديئة، وأننا نمشي صوب ثورة جارفة، وأنا لا أرى شيئًا من هذا كله، وأنت تقول: إن القسم مجرد عهد واتفاق، أما أنا فأجيبك هكذا: أنت أفضل صديق لي، وهذا ما تعرفه. ومع ذلك فإذا شكلت جمعية سرية وقمت ضد الحكومة مهما تكن هذه الحكومة، فأنا أعرف أن من واجبي إطاعتها، وإذا أمرني أراكتشييف في هذه اللحظة أن أهاجمك على رئيس فرقة عسكرية وأقتلك، فسوف أسير دون تردد على الإطلاق. والآن قل في ذلك ما تشاء.

وخيم سكون ثقيل بعد هذه الأقوال المباغتة، وكانت ناتاشا سبَّاقة إلى الكلام للدفاع عن زوجها بالهجوم على أخيها، وكان دفاعها ضعيفًا أخرق، لكنها توصلت إلى غايتها. واتصل الحديث بعد أن فقد تلك اللهجة المشبعة بعداء كريه، والتي ختم نيكولا حديثه بها.

وعندما نهض الجميع ليذهبوا لتناول العشاء، اقترب نيكولا بولكونسكي الصغير من بيير شاحب الوجه متألق العينين، وسأل: أيهما العم بيير ...؟ أنت ...؟ لا ... لو كان أبي حيًّا بعد ... أفلا يكون من رأيك؟

وأدرك بيير بغتة أي عمل عنيف، خاص، مستقل ومعقد قد قام في دماغ هذا الطفل وقلبه أثناء الحديث، وإما تذكر كل ما تفوَّه به آسفًا أن يكون هذا الصغير قد أصغى إليه، ومع ذلك لم يكن له بدٌّ من الجواب.

– أظن أن بلى.

قال ذلك في شيء من الضيق، ثم خرج من الغرفة.

فأحنى الصبي رأسه، وعندئذ رأى للمرة الأولى ما أحدث من أضرار على مكتب عمه، فاحمرَّت وجنتاه واقترب من نيكولا.

قال مشيرًا إلى الشمع والأرياش الممزقة: عفوًا يا عماه! فأنا الذي ارتكبت هذا ...

فانتفض نيكولا في شيء من الحنق.

تمتم وهو يرمي بقطع الشمع والأرياش تحت المائدة: حسنًا، حسنًا.

واستدار عن الصغير باذلًا جهدًا أليمًا فيما يبدو ليكبح جماح غضبه، وصاح: ما كان لك مكان ها هنا.

الفصل الخامس عشر

المذكرات

ولم يجر الحديث أثناء العشاء عن السياسة أو الجمعيات السرية، بل انتقل على العكس إلى الموضوع الأحب إلى قلب ناتاشا، ألا وهي ذكريات عام ١٨١٢ التي أثارها دينيسوف، وكان بيير جذلان متحمسًا بصورة غير معهودة وافترق الجميع أخيرًا في صداقة ووئام تامَّيْن.

وإثر الطعام خلع نيكولا ثيابه في حجرته، وأصدر أوامره لوكيل أملاكه الذي كان في انتظاره منذ مدة طويلة، ثم دخل بثياب النوم إلى غرفة النوم فوجد زوجته جالسة إلى مكتبه تكتب.

استفهم: ماذا تكتبين يا ماري؟

فاحمارَّت الكونتيس ماري، كانت تخاف ألا يفهم زوجها جيدًا ما هي بسبيل كتابته، وبالتالي لا يوافق عليه.

ولذا فقد كانت تفضل أن تخفي ما تكتب عنه، لكنها كانت سعيدة في الوقت ذاته لأنه اكتشفها أثناء هذه الكتابة، فهي مضطرة بالتالي أن تحدثه عنها.

قالت وهي تمد إليه دفترًا أزرق مغطًّى بكتابتها الكبيرة الثابتة: إنه مذكراتي.

فأجاب نيكولا بشيء من السخرية وهو يتناول الدفتر منها: مذكرات؟!

وقرأ فيه بالفرنسية:

٤ كانون الأول

اليوم حين استيقظ آندريه رفض أن يرتدي ثيابه، فأرسلت السيدة لويز في طلبي. ولقد تصلَّب في رغبته الطارئة، فجربت توبيخه لكن ذلك لم يفد سوى في مضاعفة حنقه، وعندئذ قررت أن تتركه على هواه قائلة له: إني لا أحبه بعد الآن، وشرعت أعني بمساعدة المربية بقية الأطفال. وبقي فترة طويلة في ستون فكأنه مصعوق، ثم ارتمى عليَّ بقميصه، وراح ينشج طويلًا بحيث لم أتمكن

من تعزيته. وكان من الواضح أن ما يعذبه أكثر من كل شيء آخر هو كونه أحزنني، وحين أعطيته دفتر علاماته مساء شرع يبكي من جديد بصورة تثير الشفقة وهو يعانقني، ليمكن أن ننال منه كل شيء عن طريق الحنان.

وسأل نيكولا: ما هو دفتر العلامات هذا؟ ...

– إني أضع الآن كل مساء علامة سلوك للكبار.

والتقى نيكولا بالنظرة المتألقة المثبتة فيه، وراح يتصفح الدفتر من جديد ويقرؤه. كانت المذكرات تروي كل ما يبدو ذا أهمية في عيني الأم في الحياة الطفولية، كل ما يكشف عن خلق الأطفال أو يؤدي إلى تأملات من المرتبة العامة في موضوع مناهج التثقيف. وكان معظمها تفاصيل صغيرة تافهة، لكنها ما كانت تلوح هكذا في نظر الأم أو في نظر الأب الذي كان يقرأ للمرة الأولى هذه المذكرات التي تدور حول الأطفال وحدهم.

وكان يقرأ فيها بتاريخ الخامس من كانون الأول:

لقد أساء ميتيا التصرف على مائدة الطعام، وقد أمر أبوه أن تُمنَع الحلوى عنه، ولم تُعْطَ له. يا لهيئته المحزنة اللهوف وهو يرى الآخرين يأكلون! أعتقد أن العقاب بالحرمان من الحلوى لا ينقل سوى مضاعفة الجشع. سأقول ذلك لنيكولا.

ووضع نيكولا الدفتر وتطلع إلى زوجه، كانت العينان المتألقتان ترمقانه وتسألانه ... «أيوافق على المذكرات أم لا يوافق عليها؟» ولم يكن ثمة ريبة: لم يكن يوافق فحسب، بل كان يقف معجبًا حيال امرأته.

كان يفكر: «لعل هذا التحذلق كله لم يكن ضروريًّا، لعله عديم الجدوى تمامًا.» بيد أن هذا التوتر الفكري الدائم الذي لا يهدف سوى لغاية واحدة ألا وهي خير الأطفال، يلَذُّ له ويرضيه. ولو استطاع نيكولا أن يحلل عاطفته فقد كان يكتشف إذن أن حبه المتين لزوجه، الحنون والفخور في نفس الوقت، يستند بصورة خاصة إلى تلك الدهشة التي يحس تجاه هذه الحياة الروحية المتدفقة، تجاه هذا الشعور الأخلاقي الرفيع، العصي على إدراكه، المتميز به العالم الداخلي حيث تعيش بصورة دائمة.

كان فخورًا بأن تكون على هذه الدرجة العظيمة من الذكاء والطيبة، ويعترف بتأخره عليها في عالمه الباطن، لكنه يغتبط أكثر فأكثر لأنها لم تكن بمثل هذه الروح ملكه، بل كانت أيضًا جزءًا من ذاته.

قال بلهجة حنون: أوافقك تمامًا يا صديقتي.

وأضاف بعد برهة من الصمت: لقد أسأت التصرف اليوم، لم تكوني في المكتب حيث تناقشنا مع بيير، ولقد احتددت لكني ما كنت أستطيع أن أفعل سوى ذلك، إنه طفل صغير حتى لأتساءل إلامَ كان سيصير لو لم تكن ناتاشا تضبط عنانه؟ أتستطيعين أن تتصوري لماذا ذهب إلى بيترسبورج؟ ... لقد أسسوا هنالك ...

فقاطعته الكونتيس ماري بقولها: أعرف ذلك، فقد روت لي ناتاشا ...

فعاد نيكولا يقول وقد أُحْقِد لمجرد ذكرى ذلك النقاش: آه! تعرفين ذلك! إنه يريد أن نُعْنَى بأن واجب كل إنسان شريف هو القيام ضد الحكومة، بينا القسم والواجب ... آسف أنك لم تكوني هناك، ولقد هاجمني جميع الحاضرين، دينيسوف وناتاشا على السواء، إن ناتاشا تضحكني فرغم سيطرتها عليه في أمور العقل والمنطق، فهي لا تجد كلمة واحدة في جعبتها ولا تفعل سوى تكرار ما يقول.

كان نيكولا يقول ذلك بصوت مرتفع، مستسلمًا لميله الجموح إلى انتقاد أولئك الأعز على قلبه والأقرب إليه، ناسيًا أن ما يقوله عن ناتاشا يمكن أن ينطبق عليه كلمة كلمة في علاقاته مع زوجته.

وقالت الكونتيس ماري: أجل، لقد لاحظت ذلك.

– حين قلت له: إن الواجب والعهد فوق كل شيء آخر، راح يبرهن لي الله يعرف ماذا. آسف أنك لم تكوني موجودة، وإلا فقد كنت بينت له ضلاله!

فأجابت الكونتيس ماري: عندي أنك على حق تمامًا، وهذا ما قلت لناتاشا، إن بيير يزعم أن البشر يتعذبون، ويتألمون، ويفسدون، وأن واجبنا هو مساعدة قريبنا، وإنه لعلى حق من دون ريب، بيد أنه ينسى أن ثمة واجبات أعجل تقع على أكتافنا قد فرضها الله نفسه علينا، وأننا نستطيع أن نفرض حياتنا الخاصة للخطر أما حياة أطفالنا فلا.

فهتف نيكولا معتقدًا أن ذلك هو بالضبط ما أفحم بيير به: أجل، أجل، هذا هو بالضبط ما قلته له، لكنهم انطلقوا في سبيلهم يتحدثون عن محبة الغريب والمسيحية ... وذلك كله أمام نيكولا الذي انزلق إلى المكتب وحطم كل شيء!

فعادت الكونتيس ماري تقول: آه! أتعرف يا نيكولا، هذا الصغير كثيرًا ما يعذبني، إنه صبي غير مألوف وأخاف أن أهمله بسبب من أطفالي، نحن إن لنا أبناءنا وعائلتنا به، أما هو فليس له أي إنسان، إنه أبدًا وحيد مع أفكاره.

– ولكن فلنتركه يخيل إليَّ أنه ليس ثمة ما تؤنبين نفسك عليه من أجله، مثل ما تستطيع أكثر الأمهات حنانًا أن تفعل لأبنائها قد صنعته له، وأنت تصنعينه بعد من أجله، ومما لا ريب فيه أني مسرور بذلك فهو صبي صغير طيب، طيب جدًّا.

ولقد كان اليوم في نوع من الإشراق وهو يصغي إلى بيير، وهل تستطيعين أن تتصوري هذا؟ حين نهضنا متجهين إلى غرفة الطعام رأيت أنه دمر كل شيء على مكتبي، وإذا هو يعتذر عن ذلك في اللحظة عينها! أبدًا لم أمسك به يقول كذبة واحدة، إنه طفل طيب للغاية.

كان يكرر ذلك رغم أنه في صميم نفسه ما كان يحب ابن أخيه، الأمر الذي يزيده تمسكًا بامتداحه.

قالت الكونتيس ماري: ومع ذلك فالأمر يختلف عما إذا كانت أمه موجودة. إني أشعر أن الأمر يختلف وهذا ما يعذبني، إنه طفل رائع وأنا أخاف عليه بصورة فظيعة، وإن العيش بين الناس ليفيده كثيرًا.

فقال نيكولا: بكل تأكيد، وسريعًا ما سيتحقق ذلك، فأنا سأرسله هذا الصيف إلى بيترسبورج.

وأضاف عائدًا إلى الحديث الذي جرى في مكتبه، والذي يثير اضطرابه فيما يبدو: أجل، هذا صحيح، فبيير لم يكن أكثر من حالم، وهو ما برح كذلك. قولي ماذا يهمني مما يجري هنالك، وما إذا كان أراكتشييف رجلًا لعينًا؟ ما عسى أن يهمني ذلك وقد تزوجت، وتراكمت عليَّ الديون بحيث تكفي لزجِّي في السجن، بينما أمي لا ترى أو تفهم شيئًا من ذلك؟ ومن بعد فهناك أنت، والأطفال، والعمل، وهل أقضي أيامي في الحقول أو في المكتب للذتي الخاصة؟ كلا، لكنني أعرف أنه ينبغي أن أعمل كي تعيش أمي في طمأنينة، وكي أوقع لك ما أنا مدين لك به، وكي لا نترك أطفالنا فقراء كما كنت.

وكانت الكونتيس ماري تود أن تقول لزوجها إن الإنسان لا يحيا من الخبز وحده، وإنه ربما يعلق كثيرًا من الأهمية على «أعماله» لكنها كانت تدرك أن ذلك سيكون عديم النفع وفي غير محله، فاكتفت بأن تأخذ يده وتقبلها. ورأى في هذه الحركة علامة تأييد له وتأكيد لأفكاره، فعاود حديثه الشخصي بعد برهة بصوت مرتفع: أتعرفين يا ماري، إن إيليا ميتروفانوفيتش (هو وكيل أعماله) قد رجع اليوم من قريتنا في حكومة طاموف، وقال لي إنهم يقدمون منذ الآن ثمانين ألف روبل من أجل الغاية.

وطفق نيكولا متأرِّث المُحيَّا يشرح لها كيف سيكون في الإمكان في برهة من الزمن استرداد أوتراندويه من جديد: «عشر سنوات أخر، وأترك الأطفال ... في وضع ممتاز.»

وكانت الكونتيس ماري تصغي إلى نيكولا دون أن تفلت منها كلمة واحدة مما يقول، كانت تعرف أنه حين يفكر هكذا بصوت مرتفع، فإنه سيعود ليسألها عما قال، وسوف يغضب حين يعلم أنها كانت تفكر في شيء آخر، لكنها كانت مضطرة أن تقوم بجهود عظيمة، لأن هذه الأحاديث ما كانت تعنيها على الإطلاق. كانت تنظر إليه إذن، وإذا لم تكن تفكر في شيء آخر فقد كانت عواطفها في مكان آخر على أية حال، كانت تحس حبًّا حنونًا مستسلمًا لهذا الرجل الذي لن يفهم قط كل ما تفهم هي، فهي تزداد حبًّا له ربما لهذا السبب بالضبط بشيء من الحنان اللاهب.

وإلى جانب هذا الشعور الذي كان يتملكها جميعًا ويمنعها من الاهتمام بتفاصيل مشاريع زوجها، كانت أفكار أخر تجتاز رأسها غريبة تمامًا عما يروي لها، كانت تفكر في ابن أختها (فحديث زوجها عن انفعال الصبي الصغير وهو يصغى إلى بيير قد أثر فيها بشدة)، كانت دلائل مختلفة من خلقه الحساس اللطيف تمر في ذهنها، فتفكر في أفعالها حين تفكر فيه. لم تكن تقارن ما بينه وبين أبنائها، بل كانت تقارن عاطفتها تجاهه بالمعاطفة التي يثيرها أطفالها في نفسها، فتشاهد في شيء من الأسى أن في العاطفة التي تمنحها للصبي الصغير شيئًا ناقصًا.

وكانت تفكر في الأحايين أن سبب هذا الفرق هو السن، لكنها كانت تشعر مع ذلك أنها مذنبة في حقه، فتقطع على نفسها عهدًا مخلصًا أن تصلح نفسها وتصنع المستحيل، يعني أن تحب في هذه الحياة رجلها، وأولادها، وابن أختها وسائر أقاربها، مثلما أحب المسيح الإنسانية.

كانت نفس الكونتيس ماري تتوق دون انقطاع إلى اللانهاية، إلى الأبدي، نحو الكمال المطلق، وبالتالي ما كانت تستطيع أن تطمئن قط، وكان محياها يحمل الطابع العميق لهذا العذاب السري الذي تقاسيه نفس يَئِيد الجسد عليها. وتطلع نيكولا إليها في تلك اللحظة بالضبط، وقال في نفسه: «يا إلهي! ألامَ نصير إذا ماتت؟ ولشد ما أفكر في ذلك دائمًا عندما يصير محياها هكذا!» ووقف حيال الأيقونات وأنشأ يتلو صلوات المساء.

الفصل السادس عشر

حلم الصغير

إمَّا صارت ناتاشا وحيدة مع زوجها، شرعت هي الأخرى تتحدث كما لا يجري الحديث إلا بين الزوج والزوجة، يعني بتخمين الفكرة قبل أن تُوضَع في قالب الكلمات، وتينك الحدة والسرعة فوق العاديتين، عن طريق متنافٍ لسائر قواعد المنطق دون محاكمات ودون استقراءات ودون استنتاجات، بل بأسلوب مخصوص تمامًا. وكانت ناتاشا قد اعتادت كثيرًا محاورة زوجها هكذا، بحيث إن العرض الأكيد للخلاف بينهما هو دائمًا مشروع بيير بالتعبير عن فكرته بصورة منطقية. كانت تعرف بيقين تام حين يشرع يبرهن ويقدم الحجج بمهابة فتنجرف هي به وتروح تصنع صنيعه؛ كانت تعرف إذن أن المناقشة ستنتهي إلى الخصام بصورة أكيدة ثابتة.

وما صارا وحيدين حتى اقتربت ناتاشا من زوجها بلطف متمددة العينين فرحًا، وأمسكت برأسها بصورة مباغتة، وشدته إلى صدرها وهي تهتف: «الآن، أنت لي بكليتك، ولن تفلت مني بعد الآن أبدًا!» وفي الحال قام بينهما حديث منافٍ لسائر قوانين المنطق ولو لمجرد شموله لمواضيع متناقضة تمامًا، وكانت هذه الطريقة في طَرْق عدة مواضيع في وقت واحد لا تخلُّ بوضوح الحديث مطلقًا، بل تكشف على العكس بيقين تام عن تفاهم الزوجين المطلق.

وكما أن كل شيء في الأحلام غير معقول ومضاد للمنطق وسخيف باستثناء العاطفة التي تثير تلك الأحلام، كذلك هو هذا التبادل للأفكار حيث المحاكمة لا دخل لها، حيث ليست الكلمات هي التي تتمتع بالوضوح والترتيب، بل العاطفة التي تمليها.

كانت ناتاشا تروي لبيير كيف يحيا أخوها، وتقول له إنها تتعذب ولا تستطيع حياة بدون رجلها، وتقول له إنها تزداد حبًّا للكونتيس ماري، وكيف تتجاوزها زوجة أخيها في كل مضمار صلاحًا وطيبة قلب. وكانت تعترف بإخلاص حين تتفوه بهذه الكلمات بتفوق

ماري عليها، لكنها لا تتساهل في طلبها من بيير أن يفضلها على ماري وعلى سائر النساء الأخريات، وكان لا بد له من تكرار ذلك على مسامعها، خاصة هذه الآونة إثر رجوعه من بيترسبورج حيث شاهد كثيرًا من النساء.

ونزل بيير عند إصرار ناتاشا فروى لها كم من دعوات الغداء والسهرات في بيترسبورج مع نساء من المجتمع الراقي لم يتمكن أن يطيقها!

قال: لقد فقدت تمامًا عادة التحدث إلى السيدات، فليس شيء أكثر ضجرًا من ذلك، وعلى أية حال فقد كنت مشغولًا.

فرَنَت ناتاشا إليه بثبات وأضافت: إنها الإغراء نفسه ماري هذه، لشد ما هي تفهم الأطفال لتقول إنها ترى نفسهم! فالبارحة مثلًا ركب الهوى رأس ميتيا الصغير.

فقاطعها بيير قائلًا: إنه صورة أبيه.

وفهمت ناتاشا لماذا قدم هذه الملاحظة عن البشر بين ميتيا ونيكولا، إنه يأسف لمناقشته مع صهره ويريد أن يأخذ رأي زوجته في الموضوع.

قالت وهي تكرر الكلمات التي سمعت بيير يتفوه بها: أجل، إن لنيكولا هذه الناحية الضعيفة التي تجعله لا يقبل شيئًا لا يقبل الجميع به، لكنني أفهم فأنت على العكس تريد أن تنطلق.

فأجاب بيير: كلا، بل الأمر الأساسي هو أن الأفكار والمحاكمات تسلية بالنسبة إلى نيكولا، تكاد تكون أسلوبًا لتزجية الوقت، لقد أسس مكتبة واتخذ قاعدة لنفسه هي ألا يبتاع كتابًا جديدًا قبل أن يقرأ آخر كتاب تلقاه، وسيسموندى وروسو ومونتسكيو …

قال ذلك مبتسمًا وأضاف راغبًا في تلطيف كلماته: وأنت تعرفين على أية حال كم …

فقاطعته ناتاشا مشعرة إياه أن ذلك غير ضروري: إذن فأنت تعتقد أن الأفكار تسلية بالنسبة إليه.

– أجل، أما بالنسبة إليَّ فإن كل شيء آخر هو التسلية، وخلال إقامتي في بيترسبورج كنت أشاهد كل شيء فكأني في حلم، وحين تتملكني فكرة فليس أي شيء آخر أوفى أهمية إذن.

فقالت ناتاشا: آه! لشد ما آسف لأني لم أرك تتمنى للأطفال صباحًا سعيدًا! أي واحدة كانت أكثرهن سرورًا؟ ليز بكل تأكيد.

فأجاب بيير: أجل.

واسترسل فتحدث عما يشغل فكره: يزعم نيكولا أنه لا ينبغي لنا أن نفكر، أما أنا فلست أستطيع. هذا إذا استثنينا أني كنت أحس في بيترسبورج (أنت، أستطيع أن أعترف

لك بذلك) أن كل شيء يتعرض للانهيار بدوني، وأن كل واحد يشد الغطاء إلى جانبه، ومع ذلك فقد نجحت في توحيدهم جميعًا، وعندئذ صار فكري بسيطًا جدًّا وواضحًا جدًّا. وأنا لا أقول إنه ينبغي لنا القيام في وجه فلان أو فلان، فقد نخطئ في هذه الحال، إني أقول فقط: تعاونوا، أنتم الذي تحبون الخير، ولتكن رايتكم الوحيدة الفضيلة الفاعلة. إن الأمير سيرج رجل ممتاز، وهو ذكي أيضًا.

ما كانت ناتاشا تشك في عظمة فكرة بيير، لكن شيئًا واحدًا كان يزعجها ألا وهو أن يكون ذلك هو زوجها بالضبط: «أيمكن أن يكون رجل على مثل هذه الأهمية والضرورة للمجتمع زوجي في الوقت نفسه؟ وكيف أمكن حدوث ذلك؟» وأرادت أن تعبر له عن شكها فهي تتساءل، مستعرضة في ذهنها سائر الذين يضمر لهم بيير عظيم الاعتبار، ولكن من هم إذن الذين يستطيعون أن يقرروا ما إذا كان حقًّا أذكى بكثير من الآخرين. وما كان يحترم أحدًا كما يُفهَم من أحاديثه مثل احترامه لأفلاطون كاراتاييف.

صاحت: أتعرف فيمن أفكر؟ في أفلاطون كاراتاييف، ما عساه يفعل هو؟ أهو يوافقك؟

ولم يدهش بيير مطلقًا لهذا السؤال، فقد كان يفهم تسلسل أفكار امرأته، قال: أفلاطون كاراتاييف؟

واستغرق في التفكير ساعيًا بكل إخلاص أن يتصور أي حكم يمكن أن يصوره كاراتاييف في هذا الموضوع، وأخيرًا قال: ما كان يفهم، ولكن من يدري؟ لعله كان يفعل!

فقالت ناتاشا بصورة مباغتة: ذلك يخيف، مبلغ حبي لك، إنه مخيف!

وقال بيير بعد برهة في التفكير: كلا، لن يوافقني، ما كان يوافق عليه هو حياتنا العائلية، لقد كان يود كثيرًا أن يشاهد الجمال في كل مكان، والسعادة والسلام، بحيث أكون فخورًا بأن يرانا، إليك، أنت تشكين أمر الفراق، ولكن لو تدرين أية عاطفة مخصوصة أضمر لك بعد الفراق ...

وأرادت ناتاشا أن تعترض: ولكن ...

– كلا، ليس هذا، أنا لا أنقطع البتة عن حبك، ولا يمكن لمرء أن يحب أكثر من هذا، ذلك أنه خاصة ... حسنًا، أجل ...

ولم يكمل الحديث لأن نظرتيهما التقتا، فتبادلتا بقية الحديث.

قالت ناتاشا على حين غرة: ما أحمق ذلك الحديث عن شهر العسل والقول إن المرء يكون سعيدًا في الأيام الأولى! الأمر على العكس، فالآن نحن أفضل من قبل، لو كنت لا

تسافر فقط، أتذكر كيف تخاصمنا وكنت أنا المخطئة دائمًا؟ أنا دائمًا، ولماذا؟ أنا لا أذكر أبدًا.

فقال بيير مبتسمًا: للسبب نفسه دائمًا، الغيرة.

فهتفت ناتاشا: لا تقل ذلك فأنا لا أطيق سماعه.

واشتغل لهيب بارد في عينيها، وأضافت بعد سكوت قصير: أرأيتها؟

– كلا، وعلى أية حال فلن أعرفها إذا ما شاهدتها.

وجنحا إلى الصمت.

صاحت ناتاشا راغبة بصورة بينة في طرد السحابة التي تقترب: وهل تعرف؟ حين كنت تتحدث في المكتب كنت أنظر إليك، إنك تشبهها مثل قطرتين من الماء، «الصغير» (هكذا كانت تدعو ابنها)، آه! لقد حان الوقت لأذهب وأُعنَى به ... هذا هو الميعاد ... لكنه يؤلمني أن أذهب.

ولاذا بالصمت بضع ثوان، ومن ثم وبصورة مفاجئة التفتا نحو بعضهما بعضًا، وشرعا يتكلمان في وقت واحد. كان بيير يتحدث بلطف وحرارة وناتاشا بابتسامة عذبة سعيدة، وإما تصادما فقد توقفا وتراجعا أمام بعضهما البعض: إذن، ماذا كنت تريدين أن تقولي؟ تكلمي، تكلمي.

فصاحت ناتاشا: كلا، بل أنت الذي يجب أن تتكلم، أما أنا فما تلك سوى حماقات. فرجع بيير إلى الموضع الذي افتتحناه، واستمر يتوسع بلهجة راضية عن نجاحاته ببيترسبورج، كان يعتقد في تلك الساعة اللحظة أنه مدعو لتوجيه المجتمع الروسي والعالم بأسره في منحى جديد.

– كنت أريد فقط أن أقول: إن سائر الأفكار التي تؤدي إلى نتائج عظيمة هي بسيطة دائمًا. وكانت كل فكرتي تقول: إن كان الناس الشريرون يؤلفون قوة باتحادهم، فما أمام الناس الشرفاء إلا أن يفعلوا مثلهم، وأنت ترين بساطة ذلك.

– أجل.

– وأنت ماذا كنت تريدين أن تقولي؟

– لا شيء، لا شيء.

– ولكن؟

فأصرت ناتاشا وعلى شفتيها ابتسامة تزداد اتساعًا: أقول لك لا شيء، كنت أريد فقط أن أحدثك عن بيتيا، لقد جاءت المربية اليوم لتأخذه، وكان يعتقد ركبتَي فطفق يضحك،

والتصق بي وهو يغلق عينيه فكأنه يريد أن يختبئ، إنه لطيف حتى الدرجة القصوى، وهذا هو يصيح، هيا، إلى اللقاء!

وخرجت من الغرفة.

وفي الوقت نفسه، في الطابق السفلي في غرفة نوم نيكولا بولكونسكي الصغير، كانت الساهرة مشعلة كالعادة (كان الصبي يخاف الظلام، ولم تنجح أية محاولة في تخليصه من هذا الضعف). وكان ديسال ينام مرتفعًا على وسائده الأربع، ومن أنفه الروماني ينطلق شخير منظم. وكان نيكولا الصغير، الذي استيقظ لتوه متصببًا عرقًا باردًا، جالسًا في سريره يحملق باستقامة إلى الأمام منه، كان كابوس مريع قد أيقظه، فقد شاهد فيما يشاهد النائم أنه يرتدي وعمه بيير قناعين شبيهين بتلك الأقنعة المصورة في مؤلفات بلوتارك، وهما يسيران في مقدمة جيش عظيم، وكان هذا الجيش مؤلفًا من صفوف بيض منحرفة تملأ الهواء مثل هذه الخيوط تتطاير في الخريف، ويسميها ديسال خيوط العذراء. وإلى الأمام منهما كانت الطليعة المصنوعة من نفس الخيوط لكنها أقوى بقليل، وكان كلاهما — العم بيير وهو — ينطلقان خفيفين فرحين ويقتربان من الهدف أكثر فأكثر وبغتة، أخذت الخيوط التي تحملها تنحل وتتشابك، وصارا في وضع خطر، وإذا العم نيكولا إيليتش يقف حيالهما في وضع صارم متوعد.

قال مشيرًا إلى بقايا ريش وشمع يُستخدَم في ختم الغلافات: «أأنتما اللذان فعلتما هذا؟ لقد كنتما عزيزين عليَّ، لكن أراكتشييف أمرني أن أقتل من يتقدم منكما خطوة واحدة إلى أمام»، وأدار نيكولا الصغير بصره نحو بيير، لكن بيير لم يكن هناك، كان بيير قد صار أباه، الأمير آندريه، ولم يكن لأبيه حدود أو شكل رغم أن الواقف بجانبه كان أباه عينه. وإمَّا رآه أدرك نيكولا الصغير أن الحب يحرمه قواه، فأحس أنه لا موطن له ولا قوام ولا هيكل، فكأنه تميَّع، وكان أبوه يربت عليه ويعزيه، بيد أن العم نيكولا إيليتش يهاجمهما ويقترب منهما أكثر فأكثر، فتملَّك الذعر الصبي الصغير واستيقظ من نومه.

فكر في داخله: «أبي (كان في البيت صورتان لأبيه على درجة عظيمة من الشبه، ومع ذلك فإن نيكولا الصغير لم يتصور الأمير آندريه في صورة بشرية قط)، لقد كان أبي بجانبي وكان يداعبني، وكان يوافقني، ويوافق العم بيير، ومهما سيقل لي رفاقي فإني فاعله. إن موسيوس شيفولا قد أحرق يده، فلمَ لا أفعل أنا مثله في حياتي؟ أعرف أنهم يريدونني أن أتعلم، ولسوف أتعلم ولكني سأنتهي من ذلك يومًا، وعندئذ أفعل. ولست أسأل الله سوى شيء واحد ألا وهو أن يصيبني ما أصاب الرجال العظام الذين يتحدث

بلوتارك عنهم، وسوف أصنع مثل صنيعهم، بل سوف أصنع أفضل من صنيعهم، وسوف يعرف جميع الناس ذلك، ويحبونني، ويُعجَبون بي.»

وأحس نيكولا الصغير على حين بغتة بالبكاء يغص به حلقه وينقبض له صدره، فانهمرت عبراته مدرارة غزيرة.

قال صوت ديسال: هل تشعر بوعكة؟

فأجاب الصغير وهو يعاود النوم على وسادته: كلا.

قال في نفسه وهو يفكر في ديسال: «إنه شريف وطيب، وأنا أحبه، وعمي بيير آه! يا له من إنسان رائع! وأبي، أبي ... أجل، سوف أصنع أشياء يكون هو نفسه ...»

الجزء الثاني

الفصل الأول

محرك التاريخ

إن غرض التاريخ هو حياة الشعوب والإنسانية، بيد أن الإدراك المباشر لا لحياة الإنسانية بل حتى لحياة شعب واحد، وحصر هذه الحياة في حدود الكلمات ووضعها لَأمورٌ تبدو مستحيلة تمامًا.

ولقد لجأ سائر مؤرخي الأزمان القديمة إلى ذات الطريقة كي يصفوا ويدركوا هذا العنصر الممتنع، ألا وهو حياة شعب من الشعوب، لقد وصفوا نشاط زعمائه لكن بصورة منعزلة، وكان هذا النشاط يعبر بالنسبة إليهم عن فاعلية الشعب بأسره.

أما السؤالان: كيف كان الأفراد المنعزلون يجبرون الشعوب على الفعل حسب إرادتهم؟ وماذا كان يوجه هذه الإرادة؟ فإن مؤرخي الأزمان القديمة قد أجابوا عنهما هكذا: أجابوا عن السؤال الأول بأن أرجعوا إلى إرادة الألوهية أمر خضوع الشعوب لشخص واحد، وأجابوا عن السؤال الثاني مؤكدين أن تلك الألوهية نفسها كانت توجه إرادة المنتخب نحو هدف معين سلفًا.

إذن فقد حُلَّت هذه المسائل بالنسبة إلى القدماء بالإيمان باشتراك الألوهية المباشر في القضايا الإنسانية.

لكن التاريخ المعاصر قد رفض في نظريته هاتين الفرضيتين.

وكان يمكن أن نعتقد أن التاريخ الحديث بتخلصه من العقيدة القديمة عن خضوع البشر للألوهية ولهدف معين سلفًا تتجه الشعوب نحوه، قد اختار أن يدرس بدلًا من مظاهرات السلطة الأسباب العميقة لها. لكن التاريخ الحديث لم يفعل ذلك، وإذا كان يرفض المفاهيم القديمة نظريًّا فهذا يتأثرها في الممارسة.

فالتاريخ الحديث يقدم لنا، بدلًا من شخصيات متمتعة بسلطان إلهي توجهها إرادة الألوهية بصورة مباشرة، إما أفرادًا يتمتعون بصفات غير مألوفة وفوق إنسانية، إما بكل

بساطة أفرادًا لهم جرارات مختلفة، منذ الملوك حتى الصحفيين، وهم يقودون الجماهير ويوجهونها. وبدلًا من الأهداف المعينة قبلًا من لدن الألوهية لبعض الشعوب، العبرانيين، والإغريقيين، والرومانيين، في سبيل توجيه خطى الإنسانية؛ فالتاريخ الحديث يضع أهدافه الخاصة: سعادة الشعب الفرنسي، والألماني، والإنكليزي. وإذا رفعنا التجريد حتى الدرجة القصوى فخير حضارة البشرية بأسرها، هذه البشرية التي يحصرها عادة في الشعوب المحتلة للقسم الشمالي الشرقي من الكرة الأرضية وحدها.

ولقد رفض التاريخ الحديث معتقدات القدماء دون أن يقدم بديلًا عنها، فإذا المنطق يجبر المؤرخين الذين زعموا رفض السلطان الإلهي للملوك والقدر القديم، أن يعودوا بطريق آخر إلى نقطة الانطلاق ألا وهي الاعتراف: (١) بأن البشر موجَّهون من قبل أفراد منعزلين. (٢) بأنه يوجد هدف محدد تمامًا تسير الشعوب والإنسانية نحوه.

وإن سائر المؤلفات الحديثة التي كتبها المؤرخون، منذ جيبون حتى باكل، رغم اختلافاتها الظاهرية والجدة الظاهرية لنظراتها؛ أساسها هاتان البديهيتان القديمتان المحتومتان.

فالمؤرخ يصف بادئ الأمر نشاط بعض الأفراد المنعزلين الذين يقودون الإنسانية في رأيه، ولا يحسب بعض المؤرخين في عداد هؤلاء سوى الملوك، والجنرالات، والوزراء، ويضع مؤرخ آخر إلى جانب الملوك الخطباء، والعلماء، والمصلحين، والفلاسفة، والشعراء. ومن ثم فالهدف الذي تسعى إليه الإنسانية معروف تمامًا من المؤرخ، وهذا الهدف هو عند هذا المؤرخ عظمة الدولة الرومانية أو الإسبانية أو الفرنسية، وهو عند ذاك المؤرخ المساواة وحضارة عرق معين من هذا القسم من العالم المسمى أوروبا.

وحدث اضطراب في باريس عام ١٧٨٩، ولقد كبر هذا الاضطراب وماج واتخذ شكل تحرك لشعوب الغرب إلى الشرق، ولقد اتجهت هذه الحركة مرارًا صوب الشرق واصطدمت بحركة معاكسة من مروح الشرق إلى الغرب، وفي عام ١٨١٢ بلغت حدها الأقصى موسكو، ورجعت نفسها بتناظر مرموق من الشرق إلى الغرب، خارقة معها في الذهاب والإياب على حد سواء شعوب أوروبا الوسطى، وقد رجعت هذه الحركة المعاكسة إلى نقطة انطلاقها باريس وتوقفت هناك.

وخلال هذه المرحلة التي دامت عشرين عامًا، ظل مقدار عظيم من الحقول نهبًا للثوار، وأُحرقت منازل وبدلت التجارة وجهتها، وأملق ملايين الناس، أو أثروا، أو تنقلوا، وكان ملايين من المسيحيين الذين يمارسون محبة القريب يتذابحون.

ماذا يعني كل هذا؟ ومن أين صار كل هذا؟ ما الذي كان يدفع هؤلاء الناس إلى إحراق الدور وقتل أشباههم؟ ما هي أسباب هذه الحوادث؟ أية قوة دفعت هؤلاء الناس إلى مثل هذه الأعمال؟ هذه هي الأسئلة غير الإرادية، الساذجة والمشروعة جدًّا مع ذلك، التي يطرحها المرء على نفسه عندما يقف حيال أنصاب المرحلة المنصرمة من هذه الحركة وتقاليدها.

وإنا لنلتفت في نحل هذه المسائل صوب عالِم التاريخ، الذي يهدف إلى أن يكشف للشعوب والإنسانية عن معرفة ذواتها.

ولو كان التاريخ يتقيد بوجهة النظر القديمة، فقد كان ينبغي له أن يقول: إن الألوهية كي تكافئ شعبها أو تقتص منه قد منحت السلطان إلى نابليون، وحصلت منه أداة أرادتها في سبيل إنجاز غايتها. ويكون هذا الجواب إذن واضحًا وكاملًا، ويمكننا أن نؤمن إلا أن نرفض الإيمان برسالة نابليون الإلهية، بيد أن ذاك الذي يؤمن يتضح مجمل تاريخ تلك الفترة، بحيث لا يبقى ثمة مجال تناقض على الإطلاق.

بيد أن التاريخ الحديث لا يستطيع أن يجيب على هذا القرار، فالعالم ما عاد يقبل الفكرة القديمة عن التدخل المباشر للألوهية في أفعال الإنسانية، وبالتالي فلا بد له تدبير أجوبة أخرى.

وإما يجيب التاريخ الحديث عن هذه الأسئلة يقول لنا: أنتم تريدون أن تعرفوا معنى هذه الحركة وأصولها، وأية قوة انتخبت مثل هذه الأحداث؟ اسمعوا إذن:

لقد كان لويس الرابع عشر إنسانًا متكبرًا مدعيًا بصورة مخصوصة، وكان عنده الخليلات العِلَّانيات والوزراء الفلانيون، وكان يسوس فرنسا بصورة رديئة، وكان خلفاؤه رجالًا ضعفاء قد حكموا البلاد هم أيضًا بصورة سيئة، كان لهم هم أيضًا الخلان الفلانيون والمحظيات الفلانيات، وفيما عدا ذلك فبعض الناس قد كتبوا كتبًا في تلك الفترة. وفي أواخر القرن الثامن عشر اجتمع في باريس قرابة عشرين رجلًا راحوا يقولون إن سائر البشر متساوون وأحرار، ونتج عن ذلك أن الناس أخذوا في كل مكان في فرنسا يقتلون أشباههم ويغرقونهم، ولقد قتل هؤلاء الناس مليكهم كما قتلوا أشخاصًا آخرين عديدين. وفي تلك الفترة بالضبط كان في فرنسا إنسان عبقري هو نابليون، وكان يسجل الانتصارات في كل مكان، يعني أنه كان يقتل عددًا كبيرًا من الناس لأنه كان عبقريًّا عظيمًا. الغد غدا يقتل، ولا ندري السبب، الأفريقيين في بلادهم، ولقد قتلهم بصورة رائعة. وكان عظيم الحيلة كثير الذكاء، بحيث استطاع لدى عودته إلى فرنسا أن يصدر الأمر للجميع كي يطيعوه،

ولقد أطاعه الجميع. وإما جعل نفسه إمبراطورًا فقد ذهب أيضًا إلى إيطاليا والنمسا وبروسيا يقتل البشر، ولقد قتل الكثيرين. ويومذاك كان يحكم في روسيا الإمبراطور ألكسندر، الذي قرر أن يعيد النظام كما كان في أوروبا، وكان يحارب نابليون بسبب ذلك. لكنه صار في ١٨٠٧ صديقه بصورة مفاجئة، وظل كذلك حتى عام ١٨١١ حين اختصم وإياه من جديد، وحين قتل كلاهما معًا عددًا كبيرًا من الناس مرة أخرى.

وقاد نابليون ستمائة ألف شخص إلى روسيا واحتل موسكو. لكن الإمبراطور ألكسندر وقد نصحه شتين وآخرون وحَّد أوروبا بأسرها ضد ذلك الذي يعكر طمأنينته، فإذا سائر حلفاء نابليون يصيرون بغتة أعداء له، ويقومون هبة واحدة ليقابلوا القوى الجديدة التي جمعها نابليون، وانتصر الحلفاء ودخلوا باريس وأجبروا نابليون أن يتنازل عن عرشه، وأرسلوه إلى جزيرة إلبا لكن دون أن ينزعوا عنه لقبه الإمبراطوري، مبدين مختلف ضروب التكريم لهذا الرجل الذي كان الجميع قبل خمس سنوات يعتبرونه — وسيعلنون ذلك بعد سنة واحدة أيضًا — لصًّا خارجًا عن القانون، وجُعِل لويس الثامن عشر، الذي لم يفعل الفرنسيون والحلفاء حتى ذلك الحين سوى السخرية منه، يحكم فرنسا، بينا تنازل نابليون عن سلطانه وهو يذرف بضع عبرات أمام حرسه العجوز، وغدا إلى المنفى. ومن بعد اجتمع في فينًّا للتشاور رجال دولة ودبلوماسيون ماهرون (وبصورة خاصة تاليران الذي تمكن من الجلوس في تلك الأثناء في مقعد معين ومن توسيع حدود فرنسا بهذه الواسطة)، وكان من نتاج أحاديثهم أن صيروا الشعوب سعيدة أو شقية. ولكنْ هؤلاء الدبلوماسيون قد تخاصموا بغتة، فإذا هم على استعداد كي يصدروا الأوامر إلى جيوشهم لتتذابح. بيد أن نابليون رجع إلى فرنسا في ذلك الحين برفقة فرقة عسكرية، فإذا سائر الفرنسيين الذين كانوا يكرهونه يخضعون له في الحال، وغضب الملوك لذلك فعادوا يحاربون الفرنسيين، ولقد انتصروا على الجنرال نابليون ونفوه إلى جزيرة القديسة هيلانة، وجعلوا يعاملونه بغتة كأنه قاطع طريق. وهناك بعيدًا عن الكائنات العزيزة على قلبه، وعن وطنه الحبيب فرنسا، مات المنفيُّ موتًا بطيئًا فوق إحدى الصخور، جاعلًا من الأجيال اللاحقة ورثة أفعاله الرفيعة. وفي أوروبا تمكنت الرجعية من الحكم مجددًا، وراحت سائر الحكومات تضطهد الشعوب مرة أخرى.

ولمن العبث أن نحسب أن هذا كله ليس سوى مزاح أو صورة كاريكاتورية للأقاصيص التاريخية. وعلى العكس فهو التعبير الأشد لطفًا عن هذه الأجوبة المتناقضة التي لا تجيب عن أي سؤال، والتي تقدم لنا التاريخ بأسره منذ صانعي الأبحاث والقصص

عن الدولة المنفصلة حتى مؤلفي التواريخ العامة أو تواريخ «الثقافة» هذا النوع المعاصر الجديد.

وغرابة هذه الأجوبة وسخفها ينشأان عن كون التاريخ يشبه أصم يجيب عن أسئلة لم يطرحها عليه أحد.

وإذا كانت غاية التاريخ هي وصف حركات الإنسانية والشعوب، فالسؤال الأول الذي يتطلب جوابًا بالضرورة، والذي يكون كل ما يتبع ممتنعًا عن الفهم بدونه، هو السؤال التالي: ما هي القوة التي تحرك الشعوب؟ وجوابًا عن هذا السؤال يروي لنا التاريخ الحديث بشيء من دلائل الاهتمام إما أن نابليون كان يتمتع بقوة عليا، وإما أن لويس الرابع عشر كثير التفكير، وإما أيضًا أن هؤلاء أو أولئك من المخالفين قد كتبوا هذه الكتب أو تلك.

وهذا كله شيء ممكن تمامًا، والإنسانية على استعداد للقبول به، بيد أن السؤال يكمن ها هنا: هذا كله يمكن أن يكون باعثًا على الاهتمام إذا كنا نريد القبول بأن قوة نابليون ولويس الرابع عشر والمؤلفين، ولكننا لا نعترف بهذه القوة. ولذا فإنه ينبغي قبل الحديث عن أمثال نابليون ولويس الرابع عشر والمؤلفين أن يكون لدينا الرابطة القائمة بين هذه الشخصيات وتحركات الشعوب.

وإذا كانت قوة أخرى قد اتخذت مكان الألوهية، فيجب أن نوضح قوام هذه القوة لأن أهمية التاريخ تقوم فيها بالضبط.

ويفترض المؤرخ أن هذه القوة أمر مفروغ منه وأن الجميع يعرفونها، ومع ذلك وبالرغم من الرغبة العامة في افتراض هذه القوة معروفة، فذاك الذي ينقب عددًا كبيرًا من المؤلفات التاريخية يشك رغمًا عنه ويتساءل ما إذا كانت هذه القوة، المهدمة بصورة مختلفة جدًّا من قبل المؤرخين أنفسهم، هي معروفة حقًّا منهم جميعًا.

الفصل الثاني

مغالطات المؤرخين

ما هي القوة التي تحرك الشعوب؟ إن مؤلفي الترجمات الفردية ومؤرخي الشعوب المنعزلة يعتبرون أن هذه القوة سلطان خاص بالأبطال والزعماء، وتبعًا لما يسردون من أوصاف فالأحداث ناتجة عن مجرد إدارة أمثال نابليون وألكسندر، أو بصورة عامة أولئك الأشخاص الذين يصف المؤرخ حياتهم المخصوصة. وإن الأجوبة التي يقدمها هذا النوع من المؤرخين عن هذا السؤال المتعلق بالقوة التي تحرك الأحداث لَمُرضية لكن في حدود معينة فقط، ألا وهي أن يكون ثمة لكل حادث مؤرخ واحد. ولا يكاد مؤرخون من قوميات وآراء مختلفة يشرعون في وصف نفس الحادث الواحد حتى تفقد الأجوبة المقدمة من قبلهم كل قيمة، لأن كل واحد منهم يفهم هذه القوة لا بصورة مختلفة فحسب، بل في الأحايين بصورة معاكسة تمامًا لفهم جاره لها. ويؤكد الواحد أن الحادث مسبَّب عن قوة نابليون، ويؤكد آخر أنه ناشئ عن قوة ألكسندر، ويؤكد ثالث أن مثاره قوة شخص ثالث، والأكثر من ذلك أن المؤرخين من هذا النوع يناقضون بعضهم بعضًا حتى في التفسيرات التي يعطون عن القوة التي يتولد منها سلطان نفس الشخصية. وهكذا فإن تييرس، وهو بونابرتي النزعة، يرجع سلطان نابليون إلى فضيلته وعبقريته، أما لانغري، وهو جمهوري النزعة، فيرجعه إلى سرقاته واحتيالاته حيال الشعب، وبالتالي فإن المؤرخين من هذا النوع حين يطور كل منهم أطروحته وفرضياته الخاصة، يدمرون بذلك مفهوم القوة التي تقوم في أصل الأحداث، ولا يعطون أي جواب عن السؤال الأساسي للتاريخ.

والمؤرخون الذين يُعْنَوْن بالتاريخ العام، باعتبارهم ينظرون إلى سائر الشعوب، يقبلون كما تشير الظواهر بخَطَل وجهة نظر المؤرخين المخصوصين في موضوع القوة القائمة في أصل الأحداث، إنهم لا يعترفون بهذه القوة كسلطان لاصق بالأبطال والزعماء،

بل كحاصلة قوى عديدة ذات اتجاهات مختلفة، وإما يصفون حربًا أو غزوًا لشعب ما، فإنهم ينقبون عن سبب الحوادث لا في سلطان شخص واحد، بل في الفعل ورد الفعل المتبادلَيْن لعدد كبير من الأشخاص ذوي العلاقة بالحادث المطروح على بساط البحث.

وتبعًا لوجهة النظر هذه، فسلطان الشخصيات التاريخية المعتبر كحاصلة قوى متعددة ما عاد يمكن بعد الآن، فيما يبدو، النظر إليه كقوة تكفي بذاتها في سبيل إحداث الحوادث. ومع ذلك فإن مؤلفي التواريخ العامة يلجئون إلى هذا المفهوم عن هذا السلطان المعتبر كقوة تكفي ذاتها بذاتها في سبيل إحداث الحوادث، وتسلك حيال هذه الحوادث سلوك المسبِّب. ويُفهَم من عرضهم تارة أن الشخصية التاريخية تتابع زمنها، فليست سلطتها سوى حصيلة القوى المختلفة، وتارة أن سلطانها هو القوة التي تخلق الحوادث. ومثال ذلك أن جيرفينوس وشوسر وآخرين أيضًا يبرهنون تارة أن نابليون هو نتاج الثورة وأفكار عام ١٧٨٩، جير، وتارة يعلنون أن حملة عام ١٨١٢ وكذلك بضعة حوادث تاريخية أخرى لا تروقهم مسبَّبة فقط عن إرادة نابليون السيئة التوجيه، وأن أفكار عام ١٧٨٩ نفسها قد قضى عليها، في تطورها، سلوكه الاعتباطي. إن الأفكار الثورية والحالة الفكرية العامة قد صنعت سلطان نابليون، وسلطان نابليون قد خنق الأفكار الثورية والحالة الفكرية العامة.

وليس هذا التناقض الغريب مسبَّبًا عن الصدفة، ونحن لا نلقاه لدى كل خطوة فحسب، بل إن الأوصاف التي يقدمها مؤلفو التواريخ العامة إنما تتألف أيضًا من تسلسل حازم لتناقضات مماثلة، وإن هذا التناقض لَنَاشئ عن الواقع التالي ألا وهو أن المؤرخين من هذا النوع بعدما ينطلقون في ميدان التحليل يتوقفون في منتصف الطريق.

وفي ما نجد الأجزاء المركبة المادية للمركب أو الحصيلة، فيجب تساوي الأجزاء المركبة. وهذا هو بالضبط الشرط الذي لا يلاحظه مؤلفو التواريخ العامة، ولذا لم يكن لهم بد كي يفسروا الحصيلة أن يقبلوا، إلى جانب الأجزاء المركبة غير الكافية، قوة جديدة لا تفسير لها تعمل تبعًا للمركب.

وإن المؤرخ الفردي النزعة الذي يصف حملة ١٨١٣ أو عودة آل بوربون إلى العرش، يؤكد بصورة حازمة أن هذه الحوادث مسبَّبة عن إدارة ألكسندر، لكن جيرفينوس وهو مؤلف تاريخ عام يدحض هذا التأكيد، ويسعى أن يبرهن أن حملة ١٨١٣ وعودة البوربونيين إلى العرش مسبَّبان فيما عدا إرادة ألكسندر عن نشاط شتين ومترنيخ ومدام دي ستال وتاليران وفخته وشاتوبريان وآخرين عديدين. ومن الواضح أن جيرفينوس قد جزَّأ ألكسندر إلى أجزائه المركبة: تاليران، شاتوبريان … إلخ، وأن مجموع هؤلاء

يعني العمل المتبادل لشاتوبريان وتاليران ومدام دي ستال والآخرين لا يساوي الحصيلة، يعني حقيقة خضوع ملايين الفرنسيين للبوربونيين. أما أن شاتوبريان ومدام دي ستال وآخرين قد تبادلوا هذه الأحاديث أو تلك، فهذا لا ينشأ عنه سوى علاقاتهم المتبادلة وليس خضوع ملايين الناس.

وكي تفسر كيف نتج هذا الخضوع عن تلك العلاقات، يعني كيف خرج من أجزاء مركبة مساوية للمقدار «ب» حصيلة تساوي «أ ب»، فالمؤرخ مجبر على قبول تلك القوة التي ينكرها معرفًا إياها كحصيلة عدة قوى، يعني أنه ملزم بقبول قوة لا تفسير لها ناتجة عن المركب. وهذا هو بالضبط ما يفعل سائر مؤرخي التواريخ العمومية، وإنهم ليقعون في التناقض لذلك السبب أيضًا، التناقض مع مؤلفي التواريخ المخصوصة والتناقض مع أنفسهم.

إن سكان الأرياف، الذين لا يعرفون من أين تأتي الأمطار بالضبط، يقولون تبعًا لرغبتهم في الغيث أم الطقس الجميل إن الريح قد طردت السحب، أو إن الريح قد جاءت بالسحب، وهذا هو بالضبط ما يفعله مؤلفو التواريخ العامة، وإنهم ليقولون حين يناسب ذلك نظرياتهم إن السلطان هو نتيجة الحوادث، وحين يحتاجون أن يبرهنوا شيئًا آخر فإنهم يقولون إن السلطان قد أدى إلى الحوادث.

وثمة مقولة ثالثة من المؤرخين يدعون أنفسهم بمؤرخي «الثقافة»، ويدَّعي هؤلاء أحيانًا متأثرين خطى مؤرخي التواريخ العامة أن الكتَّاب والسيدات هم الذين ينتجون الحوادث. بيد أن هؤلاء المؤرخين يفهمون أيضًا هذه القوى على صور مختلفة تمامًا حين يكتشفونها في «الثقافة» أي في الفعالية الفكرية. وإن مؤرخي الثقافة لحازمون تمامًا حيال أولئك الذين أعطوهم مولدًا، يعني مؤرخي التواريخ العمومية. لأنه إذا كان في الإمكان أن نفسر الحوادث التاريخية بكون بعض الشخصيات قد ارتبطت بعلاقات متبادلة معينة، فلمَ لا نفسرها أيضًا بكون هؤلاء الناس أو أولئك قد كتبوا كتبًا معينة؟ إن هؤلاء المؤرخين يستخرجون من الجمهرة الضخمة للتظاهرات التي ترافق كل ظاهرة حية إشارة فعالية فكرية، ويعلنون أن هذه الفعالية هي سبب كل شيء آخر. ولكنه بالرغم من سائر جهودهم للبرهان على أن سبب الحوادث قائم في الفعالية الفكرية، فلا بد من مقدار عظيم من الإرادة الطيبة في سبيل الاعتراف بوجود صلة مشتركة بين الفعالية الفكرية ومحركات الشعوب. ولا يمكننا في حال من الأحوال أن نقبل بأن هذه الفعالية الفكرية توجه الأمم، لأن بعض الظواهر كالمذابح الرهيبة للثورة الفرنسية الناتجة عن إعلان حقوق

الإنسان، والحروب التي لا رحمة فيها والإعدامات الفظيعة الناتجة عن بشارة بناموس المحبة؛ هذه الظواهر تناقض تلك الفرضية بصورة مطلقة.

وعلى أية حال فلنقبل بصحة سائر هذه المقالات الفطنة التي يكيلها هؤلاء المؤرخون، فلنقبل أن الشعوب مُسيَّرة بقوة ممتنعة عن التعريف تحمل اسم «الفكرة»، فالقضية الأساسية للتاريخ تظل غير محلولة مع ذلك، وإلا فإن قوة جديدة هي الفكرة تتطلب صلتها مع الجماهير تفسيرًا جديدًا، تنضم أيضًا إلى قوة الملوك المأخوذة سابقًا بعين الاعتبار، وإلى التأثير الذي قبِله مؤلفو التواريخ العمومية سلفًا، والذي هو خاص بالمستشارين والشخصيات الأخرى، ويمكننا أن نفهم وقوع الحادث الفلاني باعتبار أن نابليون يسيطر على دفة الحكم، ويمكننا كذلك أن نفهم بشيء من التسامح أن يكون نابليون معضوضًا ببعض التأثيرات الأخرى سبب بعض الحوادث. أما أن العقد الاجتماعي كان نتيجة تذابح الفرنسيين، فهذا ما يعني إدراكنا دون إيضاح للرابطة السببية الموجودة بين هذه القوة الجديدة والحوادث.

إن الرابطة الموجودة بين سائر الأفراد الذين يعيشون في عصر واحد لا يتطرق الشك إليها مطلقًا، وهكذا فإنه من الممكن أن نجد بعض العلاقة بين فعالية الناس الفكرية وحركتهم التاريخية، تمامًا كما نجد مثل هذه العلاقة بين تحركات الإنسانية والتجارة والمهن وزراعة البساتين وأي شيء آخر.

ولكن كم تتراءى فعالية بعض الرجال الفكرية في نظر مؤرخي الثقافة كسبب كل حركة تاريخية أو التعبير عنها؟ إن هذا لأمر يصعب فهمه، ولم ينته المؤرخون إلى مثل هذه النتيجة إلا بالاعتبارات التالية: (١) إن العلماء هم الذين يكتبون التاريخ، ولذا فمن الطبيعي والمستحب بالنسبة إليهم أن يعتقدوا أن فعالية طائفتهم تبث الحياة في حركة الإنسانية بأمرها، تمامًا كما يلذ بصورة طبيعية للتجار والمزارعين والجنود أن ينطووا على الفترة ذاتها (وإذا لم يعبروا عنها فما ذلك إلا لأن كَتَبَة التاريخ ليسوا من عدادهم). (٢) إن الفعالية الفكرية والثقافة والحضارة والمدنية والفكرة، هذه جميعًا مفاهيم مجردة غير محددة، يسهل تحت غطائها حتى الدرجة القصوى استعمال كلمات أشد غموضًا أيضًا بحيث يمكن بالتالي تكييفها مع أية نظرية كانت.

ولكنه فيما عدا الجرارات الباطنية لهذا النوع التاريخي المفيد من دون ريب لشخص ما أو لشيء ما، فتواريخ الثقافة التي شرعت تمتص سائر التواريخ العامة يلفت النظر فيها أنها تفصل بصورة جدية حساب العقائد الدينية والفلسفية والسياسية التي تجد

فيها أسباب الحوادث، ومن ثم لا تكاد تتقدم من وصف حادث تاريخي حقيقي كحملة عام ١٨١٢ مثلًا حتى تصفه رغمًا عنها كنتاج سلطان معين، وتعلن دون تردد أن أصل هذه الحملة موجود في إرادة نابليون. وحين يتحدثون هكذا فإن مؤرخي الثقافة إما أن يتناقضوا دون إرادة لذلك منهم، وإما أن يبرهنوا أن الشكل الجديد الذي أبدعوا لا يفسر الحوادث التاريخية، وأن الطريقة الوحيدة لفهم هذه الحوادث هي الرجوع إلى ذلك السلطان الذي يتظاهرون بأفكاره.

الفصل الثالث

ما هو السلطان؟

إن القاطرة حركة، وليتساءل المرء ما هي الحركة؟ فيقول فلاح ما: إن الشيطان يدفعها، ويقول آخر: إن القاطرة تتقدم لأن دواليبها تدور، ويؤكد ثالث أن سبب الحركة هو في الدخان الذي تنفخه الريح وتبعثره.

ولا يمكننا أن نبرهن للفلاح الأول أنه على ضلال، إذ يجب إذن أن نجد الوسيلة الناجعة لإقناعه بأن الشيطان غير موجود، أو يبرهن له فلاح آخر أن من يحمل القاطرة على السير ليس هو الشيطان بل الألماني، والتناقض وحده يمكن أن يثبت لكليهما الخطأ الذي يقعان فيه. بيد أن ذاك الذي يقول إن الحركة ناشئة عن الدواليب يناقض نفسه، وبما أنه انطلق في طريق التحليل فلا بد له من الذهاب قدمًا وتفسير سبب حركة الدواليب، ولن يكون له حق التوقف في التنقيب عن الأسباب ما لم يصل إلى السبب الأخير لحركة القاطرة، ألا وهو ضغط بخار الماء في المرجل. أما من فسر حركة القاطرة بالدخان الذي تبدده الريح فقد اتضح له أن تفسير الحركة بالدواليب غير مقنع، فلجأ إلى الظاهرة الأولى التي وقع عليها ليجعل منها سببًا.

فالمفهوم الوحيد الذي يستطيع أن يوضح حركة القاطرة هو مفهوم قوة مساوية للحركة الظاهرة.

بالتالي فالمفهوم الوحيد الذي يستطيع أن يوضح حركة الشعوب هو مفهوم قوة مساوية لهذه الحركة.

وعلى أية حال فالمؤرخون المختلفون يفهمون من هذا المفهوم فعل قوى متنافرة وليس مساوية للحركة، ويرى البعض فيه قوة لاصقة بالأبطال كما يرى الفلاح شيطانًا في القاطرة، ويرى آخرون فيه قوة منتَجة عن قوى أخرى كحركة الدواليب مثلًا، ويرى فيه آخرون أيضًا تأثيرًا فكريًّا مثل الدخان الذي تبدده الريح.

وما دمنا لا نكتب سوى تاريخ الشخصيات المنعزلة ولو كانت قيصرًا أو ألكسندر أو لوثر أو فولتير، لا تاريخ سائر الأفراد دون استثناء هؤلاء الذين اشتركوا في حادث ما؛ فلن يكون من الممكن تفسير تحركات الإنسانية دون تصور قوة تجبر البشر على توجيه فعالياتهم نحو هدف وحيد، والمؤرخون لا يعرفون لهذا المعنى سوى قوة واحدة ألا وهي السلطان.

وهذا المفهوم هو القبضة الوحيدة التي تسمح لتمليك زمام مادة التاريخ كما تُفهم في أيامنا الحاضرة. وإن تحطيم هذه القبضة دون حيازة أداة أخرى كما فعل باكل، يعني خسارة آخر إمكانية لبحث مادة التاريخ، وإن استحالة عدم اللجوء إلى مفهوم السلطان يبرهنها على أفضل وجه ومؤرخو التواريخ العامة أنفسهم ومؤرخو الثقافة على السواء، وهؤلاء الأخيرون يتظاهرون برفض هذا المفهوم، ومع ذلك فهم يستعملونه بصورة لا خلاص منها لدى كل خطوة.

وفي ما يتعلق بالقضايا المرتبطة بالإنسانية، فقد كان العلم التاريخي حتى يومنا الراهن شبيهًا بالنقد المتداوَل أكان ورقًا أم معدنًا. إن ترجمات الحياة والتواريخ المخصوصة هي أنواع من الورق النقدي، ويمكنها الدخول في التداول، وتقوم بواجبها دون إلحاق الضرر بأي شخص كان، بل بشيء من الفائدة أيضًا ما دمنا لا نثير قضية تغطيتها بالذهب. ويكفي ألَّا نسأل كيف يمكن لإرادة الأبطال أن تنتج الحوادث، كي تصير تواريخ أمثال بيترس باعثة على الاهتمام ومفيدة، بل لا تخلو من الشاعرية أيضًا.

ولكنه سرعان ما نشك في القيمة الحقيقية لورق النقد حين نفكر حتى أية درجة تدفعنا سهولة صنعه إلى إنتاج مقدار أكبر منه، أو إذا أردنا إحالته إلى ذهب. وكذلك فإننا نشك في المعنى الحقيقي للتواريخ من هذا النوع عندما نأخذ بعين الاعتبار عددها الكبير، أو عندما نتساءل بكل بساطة ما هي القوة التي أثرت في نابليون، يعني حين نريد أن نستبدل ورق النقد بقيمته المضبوطة من الذهب.

إن مؤلفي التواريخ العمومية ومؤرخي الثقافة يشهدون أناسًا قرروا بعدما أدركوا عدم صلاح الأوراق النقدية أن يصفوا نقدًا معدنيًّا لاستبدالها، وذلك بمعدن لا يملك الثقل النوعي للذهب ويكون ذلك في الحقيقة نقدًا رنَّانًا لكنه لن يكون أكثر من رنان، ذلك أن الورق النقدي يمكن بعدُ أن يخدع الجاهلين، أما النقد الرنان الذي لا قيمة له فلا يمكن أن يخدع أحدًا. وكما أن الذهب لا يكون ذهبًا حقًّا إلا حين يمكن استعماله لذاته وليس للمقايضة فحسب، كذلك لن يكون مؤلفو التواريخ العامة ذهبًا حقًّا إلا حين يتمكنون من

الجواب على هذا السؤال الأساسي للتاريخ: ما هو السلطان؟ إنهم يعطون عن هذا السؤال أجوبة متناقضة، بينما زملاؤهم الذين يدرسون الثقافة ينفونه تمامًا ويتكلمون عن أشياء مختلفة كل الاختلاف، إن استعمال الحجارة مكان الذهب لا يمكن أن يتم إلا بين أناس يريدون عن طيبة خاطر أن يقبلوها على ذلك الاعتبار أو لا يعرفون أيضًا قيمة الذهب. وكتب المؤرخين العموميين ومؤرخي الثقافة تلعب دورًا مماثلًا، فهم حين لا يعطون أجوبة عن الأسئلة الأساسية للإنسانية يخدمون كحجارة لعب لغاياتهم المخصوصة في الجامعات وعند جمهور القراء هواة الكتب الجدية في ما يزعمون.

الفصل الرابع

مصدر السلطان

بعد رفضي العقيدة القديمة عن الخضوع المفروض من قبل الألوهية، خضوع إرادة شعب لرجل واحد مختار وخضوع هذه الإرادة للألوهية؛ يصير من المحال على التاريخ أن يتقدم خطوة واحدة دون أن يصطدم بالتناقضات إذا لم يختر أحد أمرين: إما الرجوع إلى الإيمان السابق بالتدخل المباشر للألوهية في القضايا البشرية، وإما إعطاء تفسير دقيق لهذه القوة التي تنتج الحوادث وتدَّعي السلطان.

والرجوع إلى التأكيد الأول أمر مستحيل فقد قُضِي على الإيمان، ولذا كان من الضروري تفسير هذا السلطان.

لقد أصدر نابليون أمره بجمع جيش والسير إلى الحرب، ولقد ألفنا بهذه الطريقة في النظر إلى الأمور حتى درجة بعيدة، بحيث إن مسألة معرفة لماذا ينطلق ستمائة ألف رجل إلى الحرب بكلمة واحدة من نابليون تلوح لنا سخيفة لا معنى لها، لقد كان يتربع على سدة السلطة فتنفذت أوامره.

وهذا التفسير يرضينا تمامًا إذا كنا نؤمن بأن نابليون يستمد سلطانه من الألوهية، ولكنه لا يرضينا حين نرفض أن نصدق ذلك، فيصير عندئذ من الضروري تحديد طبيعة هذه السلطة التي يملكها رجل واحد على الآخرين جميعًا.

ولا يمكن أن تكون هذه السلطة هي السلطة المباشرة الناشئة عن التفوق الحكمي الذي يكون لكائن قوي على كائن ضعيف، وهو تفوق يعتمد على استخدام القوة الحكمية أو التهديد باستخدامها وتلك هي سلطة هرقل، وكذلك لا يمكن أن تقوم على التفوق الأخلاقي كما يعتقد ذلك بسذاجة بعض المؤرخين الذين يؤكدون أن صنعية التاريخ هم أبطال، يعني رجالًا يتحلون بقوة أخلاقية وذهنية استثنائية تُدعَى العبقرية. هذه السلطة لا يمكن أن تقوم على تفوق القوة الأخلاقية، لأنه إذا تركنا جانبًا العباقرة الأبطال من

طراز نابليون الذين يُحكَم على صفاتهم الأخلاقية بصورة مختلفة، فالتاريخ يبرهن لنا أن أمثال لويس الرابع عشر ومترنيخ، الذين كانوا يحركون ملايين البشر، ما كانوا يملكون ما يؤلف القوة الأخلاقية بالمعنى الصحيح، بل كان معظمهم على العكس من ذلك أضعف أخلاقيًّا من كل واحد من تلك الجماهير التي كانوا يحكمونها. فإذا كان مصدر السلطة لا يقوم في الصفات الحكمية للمرء الذي يملك السلطة ولا في صفاته الأخلاقية، فلا بد أن يكون قائمًا من دون ريب خارجًا عنه، يعني في علاقته بالجماهير التي يمارس سلطته عليها.

هكذا يرى إلى الأمور علم الحقوق هذا المصرف للتاريخ، الذي يعد باستبدال التفهم التاريخي للسلطة بالذهب الخالص.

إن السلطة هي مجموع إرادات الجماهير الممنوحة للأشخاص المختارين من قبَل الجماهير باتفاق علني أو ضمني. كل هذا واضح في ميدان علم الحقوق، هذا العلم المصنوع من اعتبارات عن كيفية وجوب تنظيم الدولة والسلطة، إذ في حال تمكننا من فعل ذلك. ولكن هذا التعريف للسلطة يتطلب إيضاحًا إذا كنا سنطبقه على التاريخ.

إن عالِم الحقوق ينظر إلى الدولة والسلطة كما كان القدماء ينظرون إلى النار، يعني بصفتها شيئًا قائمًا في ذاته. أما بالنسبة إلى التاريخ فالدولة والسلطة هما على العكس ظاهرتان بكل بساطة، تمامًا كما أن النار بالنسبة إلى فيزياء ليست هي عنصرًا بل مجرد ظاهرة.

وينتج عن هذا الخلاف الأساسي في وجهات النظر بين التاريخ وعلم الحقوق أن علم الحقوق يستطيع أن يتحدث ما شاء عن الأسلوب الذي ينبغي اتباعه في تنظيم السلطة، وعن طبيعة هذه السلطة المعتبرة ثابتة خارج الزمان، لكنه يعجز عن تقديم جواب عن المسائل التي يثيرها التاريخ المتعلقة بمعنى هذه السلطة التي يبدل الزمان في أشكالها.

فإذا كانت السلطة تمثل مجموع إرادات الجماهير الممنوحة لحاكم معين، فهل يكون بوغاتشيف ممثل إرادة الجماهير؟ وإذا لم يكن كذلك فلمَ يكون نابليون هذا الممثل إذن؟ وكم كان نابليون الثالث الموقوف في بولون مجرمًا؟ وكم صار المجرمون فيما بعد هم الذين أُوقِفوا بأمره؟

وفي ثورات البلاط، التي يقوم بها شخصان أو ثلاثة أشخاص، هل تُمنَح الإرادة الشعبية أيضًا للمختار الجديد؟ وفي النزاعات الدولية هل تُمنح إرادة جماهير شعب ما إلى ذاك الذي غزا هذا الشعب؟ وفي عام ١٨٠٨ هل مُنحت إرادة عصبة الدين إلى نابليون؟

وهل مُنحت إليه إرادة الجماهير الروسية عام ١٨٠٩ بينما كانت جيوشنا المخالفة لفرنسا تسير إلى قتال النمسا؟

يمكننا أن نجيب بثلاث طرق عن هذه الأسئلة:

(١) إما أن نقبل بأن إرادة الجماهير تتجه دائمًا دون أي شرط إلى ذاك أو إلى أولئك الذين تختارهم، وبالتالي فإن كل تدخل لسلطة جديدة وكل نضال ضد السلطة الممنوحة من الشعب يجب أن يُعتَبر عدوانًا على السلطة الحقيقية.

(٢) وإما أن نقبل بأن إرادة الجماهير تُعطى للحكام في بعض الشروط المعينة والمعروفة، وفي هذه الحال فإن كل تحديد أو نزاع أو حتى تدمير للسلطة القائمة ينشأ عن كون الحكام لم ينفذوا الشروط التي مُنِحت السلطة لهم بموجبها.

(٣) وإما يجب أن نقبل بأن إرادة الجماهير تُمنح للحكام بصورة مشروطة تبعًا لعقود مجهولة غير محددة، وأن تدخلات السلطات الأخرى وصراعها وانهيارها لا تنشأ إلا عن مبالغة أو تقصير من قبَل الحكام في تنفيذ هذه الشروط المجهولة، التي تنتقل إرادات الجماهير تبعًا لها من شخص إلى آخر.

ويفسر المؤرخون علاقات الجماهير بالحكام بهذه الطريقة الثلاثية الجوانب.

وإن المؤرخين الذين لا يفهمون في سذاجتهم مشكلة السلطة، هؤلاء المؤلفون للسير المذكورة آنفًا هم وحدهم الذين يقبلون في ما يبدو بأن مجموع إرادات الجماهير تُمنح لبعض الأشخاص دون أي شرط، ولذا فإنهم حين يضعون سلطة ما يجعلون منها شيئًا حقيقيًّا ومطلقًا، لا يكون أية سلطة مناهضة سلطة حقيقية حيالها، بل تهجمًا واعتداءً على السلطة ليس غير.

وتوافق نظرياتهم العصور البُدائية المسالمة من التاريخ، لكنها حين تُطبَّق على العصور حيث تعقدت حياة الشعوب واضطربت، وحيث تقوم في وقت واحد سلطات متعددة تقاتل بعضها بعضًا؛ فإنها تبدي السيئة التالية: إن مؤرخًا ملكيًّا يبرهن إذن أن الجمعية التأسيسية وحكومة الإدارة وبونابرت هم جميعًا مغتصبون للسلطة، بينما يبرهن مؤرخ جمهوري وآخر بونابرتي أن الجمعية التأسيسية بالنسبة إلى الأول والإمبراطورية بالنسبة إلى الثاني هما السلطة الحقيقية، وكل شيء آخر لا يعدو كونه اعتداءً على السلطة. ومن الواضح أن التفسيرات المقدمة من قبَل هؤلاء المؤرخين لا يمكن أن تصلح بمثل تلك التناقضات سوى لأطفال صغار العمر.

ولكن نوعًا آخر من المؤرخين الذين يعترفون بخطل هذا الرأي يزعمون أن السلطة تعتمد على تسليم مجموع إرادات الجماهير للحكام بصورة مشروطة، وهكذا لا تملك أية شخصية تاريخية السلطة إلا بقدر ما تنفذ البرنامج الذي أملته إرادة الجماهير عليها ضمنًا. بيد أن هؤلاء المؤرخين لا يقولون في أي شيء يقوم ذلك البرنامج، أو إذا تحدثوا عنه فكي يناقضوا بعضهم بعضًا بصورة أبدية.

ويوافق هذا البرنامج عند كل مؤرخ وجهة نظره عن غاية حركة شعب ما على صورة العظمة، والثروة، والحرية، وثقافة المواطنين في فرنسا أو في دولة أخرى. ولكننا إذا غضضنا النظر بعد الآن عن التناقضات التي يقع فيها المؤرخون في موضوع طبيعة هذا البرنامج، وحتى إذا قَبِلنا بأن ثمة برنامجًا مشتركًا بينهم جميعًا؛ فالوقائع التاريخية تناقض مع ذلك هذه النظرية بصورة دائمة تقريبًا، فإذا كانت الشروط التي تُمنح السلطة بموجبها تقوم في الثروة والحرية وتطور الشعب، فكم كان حكم أمثال لويس الرابع عشر وشارل الأول؟ ويجيب المؤرخون عن هذا السؤال بأن أفعال لويس الرابع عشر التي كانت منافية للبرنامج قد وقعت نتائجها على لويس السادس عشر. ولكن لماذا لم تقع نتائجها على لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر نفسيهما؟ ولماذا وقعت بالضبط على لويس السادس عشر؟ وأخيرًا ما هي مدة هذا الانعكاس؟ ليس هناك ولا يمكن أن يكون أجوبة عن هذه الأسئلة. وكذلك فإنهم يسيئون في هذه النظرية تفسير السبب الذي تظل السلطة من أجله طوال قرون عديدة بين أيدي الحكام وخلفائهم، ثم تنتقل بعدئذ بصورة مباغتة خلال خمسين عامًا إلى الجمعية التأسيسية، وحكومة الإدارة، ونابليون، وألكسندر، ولويس الثامن عشر، ونابليون، وشارل العاشر، ولويس فيليب، وجمهورية ١٨٤٨، ونابليون الثالث. وفي سبيل تفسير هذه الانتقالات السريعة للسلطة في ملء المضاعفات الدولية والغزوات والأحلاف، فلا بد لنفس المؤرخين من الاعتراف رغمًا عنهم بأن جزءًا من هذه الأحداث ليست مسبَّبة عن التحويل المنتظم لإرادة الجماهير، بل عن الصدفة التابعة تارة لخداع، وتارة للأخطاء، أو ضعف دبلوماسي معين، أو ملك، أو رئيس حزب. وهكذا فإن معظم الأحداث التاريخية من حروب أهلية وثورات وغزوات؛ لم تعد بعد الآن في نظر هؤلاء المؤرخين نتاج تحويل إرادات حرة، بل بالأحرى نتاج الإدارة الموجَّهة بصورة مغلوطة لفرد واحد أو عدة أفراد، يعني مرة أخرى نتاج اعتداءات على السلطة، وبالتالي فإن الأحداث التاريخية تُقدَّم من قبَل المؤرخين من هذا النوع على اعتبارها نقضًا ومخالفة للنظرية.

هؤلاء المؤرخون أشبه ما يكونون بعالِم نباتي يدَّعي بعدما شاهد بعض النباتات تنمو بفلقتين، أن كل ما ينبت لا ينمو إلا بفلقتين، وأن شجرة النخيل والفطر والسنديانة أيضًا التي بلغت نموها الكامل وهي لا تظهر لنا الفلقتين البدئيتين ليست سوى استثناءات للقاعدة العامة.

ويزعم المؤرخون من المقولة الثالثة أن إرادة الجماهير تتجه بصورة مشروطة إلى شخصية تاريخية، بيد أن شروط هذا الاتجاه مجهولة منا، ويقولون إن الشخصيات التاريخية لا تتمتع بالسلطة إلا بقدر ما تنفذ الإرادة التي ألقتها الجماهير على عاتقها.

وفي هذه الحال إذا كانت القوة التي تحرك شعبًا ما تقوم لا في الشخصية التاريخية بل في الشعب نفسه، فما هو معنى هذه الشخصيات إذن؟

ويقول المؤرخون إنهم يعبرون عن إرادة الجماهير، وفعاليتهم تفيد في تمثيل فعالية الجماهير.

ولكن سؤالًا جديدًا يُطرح إذن: هل تعبر سائر أفعال الشخصيات التاريخية عن إرادة الجماهير، أو عن أحد مظاهر الإرادة فقط؟ فإذا كانت جميع أفعال الشخصيات التاريخية تعبر عن إرادة الجماهير كما يعتقد البعض، فسيرة نابليون وكاتيرين الثانية بسائر تفاصيلها المستمرة من إشاعات البلاطات وثرثرتها تمثل إذن نفس حياة الشعوب، وهذا سخف واضح. فإذا كانت فعالية الشخصيات التاريخية لا تمثل إذن سوى مظهر واحد من حياة الشعوب، كما يقول ذلك بعض المؤرخين الآخرين المزعومين فلاسفة؛ فالقضية هي تعيُّن ماهية هذا المظهر، وعندئذ يصير من الضرورة أن نعرف في ما تقوم حياة الشعوب.

وحيال هذه الصعوبة تخيل المؤرخون من المقولة الثالثة التجريد الأشد غموضًا والتباسًا وشمولًا، الذي نستطيع أن نضع أكبر عدد من الوقائع تحت جناحه، وهم يقولون إن هذا التجريد هو هدف حركة الإنسانية، وإن التجريدات الأكثر عمومية وانتشارًا والمقبولة من سائر المؤرخين تقريبًا هي التالية: الحرية، المساواة، التطور، التقدم، المدنية، الثقافة. ويستدير المؤرخون بعد أن يعينوا أحد هذه المجردات كهدف لحركة الإنسانية إلى الشخصيات الذين تركوا خلفهم أكبر عدد من الذكريات، من ملوك ووزراء وجنرالات ومؤلفين ومصلحين وبابوات وصحفيين، لكن بقدر ما يلوح لهم أن هؤلاء الشخصيات قد عملوا من أجل هذه المجردات أو ضدها. ولما لم يكن ثمة برهان على أن الأهداف التي تنمو صوبها الإنسانية هي الحرية والمساواة والتطور أو المدنية، ولما لم يكن للرابطة

بين الجماهير والحكام والمصلحين أساس سوى الفرضية الاعتباطية القائلة إن مجموع إرادات الجماهير تنصب دائمًا على الشخصيات الشهيرة؛ فإن فعالية ملايين البشر الذين يهاجرون، ويحرقون المنازل، ويتركون الأرض بائرة، ويفنون بعضهم بعضًا، لا يُؤْتَى حتى على ذكرها في وصف أفعال عشر شخصيات يحرقون المنازل ولم يُعْنَوْا بالزراعة، يقتلون أشباههم.

ويقدم لنا التاريخ برهان ذلك لدى كل خطوة، وهل يُفسر غليان الشعوب الغربية في أواخر القرن الأخير ومطامحهم المتجهة نحو الشرق بنشاط لويس الرابع عشر، ولويس الخامس عشر، ولويس السادس عشر، وعشيقاتهم ووزرائهم، وبحياة نابليون، وروسو، وديدرو، وبومارشيه، وسواهم؟

وهل تُفسر حركة الشعب الروسي نحو الشرق، نحو قازان وسيبريا، بتفاصيل الخُلق المرضي لإيفان الرابع وبمراسلاته مع كوريسكي؟

وهل تُفسر هجرات زمن الحروب الصليبية بسيرة غودفروا دي بويون والقديس لويس وزوجتيهما؟ إن هذه الحركة التي قامت الجماهير بها من الغرب نحو الشرق دون هدف محدد ودون زعماء جديرين، لعصابة من الحفاة، مع بطرس الناسك؛ تظل عصية على الإدراك بالنسبة إلينا. وإن توقف هذه الحركة بعدما أعطى كبار ذلك العصر هدفًا عقلانيًّا ومقدسًا للحروب الصليبية، وهو إنقاذ أورشليم، لأشد امتناعًا عن الفهم. إن البابوات والملوك والفرسان قد استحثوا الشعوب إلى تحرير أماكن مقدسة، بيد أن الشعب لم يتحرك، إما تلاشى السبب المجهول الذي حمله قبلًا على الحركة. إن تاريخ أشباه غودفروا والشعراء الجوالين لا يمكن أن يحتوي كل حياة الشعوب، إن تاريخ أشباه غودفروا والشعراء الجوالين يظل تاريخهم الخاص، بينا تاريخ حياة الشعوب ودوافعهم يظل مجهولًا.

وتاريخ الكتاب والمصلحين أيضًا أقل منه إيضاحًا لحياة الشعوب.

بيد أن تاريخ الحضارة يفسر لنا، مع ذلك، دوافع كاتب أو مصلح وشروط حياته وأفكاره. نحن نعرف أن لوثر كان غضوب الطبيعة، وقد ألقى هذا الخطاب وذاك، ونحن نعرف أن روسو كان متشككًا، وأنه كتب هذه الكتب وتلك، بيد أننا لا نعرف السبب الذي جعل الشعوب تتذابح بعد الإصلاح، ولماذا حكم الناس بالإعدام على بعضهم البعض زمن الثورة الفرنسية.

وإذا ما جمعنا هذين النوعين من التاريخ معًا، كما يفعل ذلك المؤرخون المحدثون، فإننا لن نحصل أيضًا سوى على تاريخ الملوك والكتاب وليس تاريخ حياة الشعوب.

الفصل الخامس

الشعوب والشخصيات

إن حياة الشعوب غير منطوية في حياة بعض الشخصيات، ما دمنا لم نجد الرابطة التي تربط هذه الشخصيات القليلة وتلك الشعوب، وليست النظرية التي تقول إن هذا الرباط يقوم في وقف مجموع إرادات الجماهير على شخصية معينة سوى فرضية لا تؤيدها الحقائق مطلقًا.

ومما لا ريب فيه أن في مكنة هذه النظرية تفسير أشياء كثيرة في ميدان علم الحقوق، كما أنها ضرورية من دون شك في سبيل غايتها المخصوصة، لكننا إذا طبقناها على التاريخ فلا يكاد تحدث ثورة أو غزوة أو حرب أهلية، يعني لا يكاد التاريخ يبدأ، حتى تصير هذه النظرية عاجزة عن تفسير أي شيء البتة.

ومهما يكن الحادث، ومهما تكن الشخصية القائمة على رأس هذا الحادث، ففي قدرة هذه النظرية أن تنزع دائمًا إلى أن تلك الشخصية إنما وُضِعت في ذلك المكان بمجموع الإرادات الموقوفة عليها.

والأجوبة التي تعطيها هذه النظرية عن القضايا التاريخية أشبه ما تكون بأجوبة امرئ يرى قطيعًا من الغنم أثناء مسيره، فلا يأخذ بعين الاعتبار صفة الكلأ المغايرة في مختلف مناطق الرعي، أو فعالية الراعي نفسه، فلا يُعْنَى، كي يعير هذا أو ذاك من الاتجاهات التي يسلكها القطيع، سوى بالحيوان السائر في الطليعة.

«إن القطيع يذهب في هذا الاتجاه، لأن الحيوان السائر في المقدمة يقوده، ولأن مجموع إرادات سائر الحيوانات الباقية قد أحيل إليه»، هكذا يُعفَى المؤرخون من المقولة الأولى الذين يقبلون بالتحويل غير المشروط للسلطان.

«إذ كانت الحيوانات السائرة في الطليعة تتغير، فلأن مجموع إرادة القطيع كله من قائد إلى آخر حسب مقدرة هذا القائد على قيادة القطيع بصورة أفضل أو أسوأ في الاتجاه

الذي اختار أداءه بمجموعهم»، هكذا بعض المؤرخين الذين يزعمون أن مجموع إرادات الجماهير الحكام تبعًا لشروط غير معلومة، وغالبًا ما يحدث للمتفرج في مثل هذه الحال أن يتخذ أدلاء له تبعًا للاتجاه الذي اختاره أولئك الذين يقومون، منذ حدوث تبدل في الاتجاه الذي يتبعه الجمهور، على جانب القطيع بدلًا أن يكونوا في طليعته، أو يكونوا في مؤخرته في الأحايين.

«إذا كانت الحيوانات السائرة في الطليعة تتبدل باستمرار، وإذا كان الاتجاه الذي يتبعه القطيع يتبدل أيضًا، فذلك ناشئ عن كون الحيوانات كي تبلغ هذا الاتجاه المعروف من قبَلنا تضع إراداتها تحت تصرف أولئك الذين نميزهم بين الآخرين. وبالتالي لا بد لنا كي ندرس حركة القطيع أن نراقب سائر هذه الحيوانات التي نميزها، والتي تسير على جوانب القطيع المختلفة»، هكذا يصرح المؤرخون من المقولة الثالثة الذين ينظرون إلى سائر الشخصيات التاريخية، منذ الملوك حتى الصحفيين، على اعتبارهم تعبيرًا عن زمنهم.

إن نظرية وقف إرادة الجماهير على شخصية تاريخية ليست أكثر من اجترار لنفس الكلمات، ليست سوى التعبير عن جوانب المسألة نفسها بكلمات أخرى.

ما هي أسباب الحوادث التاريخية؟ السلطة، ما هي السلطة؟ مجموع الإرادات المنقولة إلى شخص واحد، بأية شروط يحدث هذا النقل؟ بشرط أن يعبر الشخص المنتخَب عن إرادة الجميع. وبكلام آخر فالسلطة هي السلطة، وبمعنى آخر فالسلطة كلمة لا ندرك معناها.

لو كان ميدان العلم البشري ينحصر بالفكر المجرد وحده، فقد كانت الإنسانية تتوصل، بعدما يخضع للنقد تفسير السلطة المعطاة من قبل العالم، إلى هذه النتيجة، ألا وهي أن السلطة ليست أكثر من مجرد كلمة، وهي غير موجودة في الحقيقة. بيد أن الإنسان يملك في سبيل معرفة الظواهر أداة أخرى غير الفكر المجرد، وهي التجربة التي يراقب بواسطتها محاكماته التجريدية، وإن التجربة لتثبت أن السلطة ليست كلمة بل حقيقة.

وإذا تركنا جانبًا أنه ليس ثمة وصف لفعالية البشر الجماعية يستطيع الاستغناء عن تعريف للسلطة، فإن وجود السلطة يثبته التاريخ ومشاهدة الأحداث المعاهدة على السواء.

وكلما وقع حادث ما نرى ظهور شخص أو عدة أشخاص يتم هذا الحادث بفضل إرادتهم: إن نابليون الثالث يصدر أمره فينطلق الفرنسيون إلى المكسيك. إن ملك روسيا وبسمارك يصدران أمرهما فتسير جيوشهما على بوهيميا. إن نابليون الأول يأمر وتسير

جيوشه على روسيا. إن ألكسندر الأول يأمر ويخضع الفرنسيون للبوربونيين. إن التجربة تبين لنا أن أي حادث كان مرتبطًا بإرادة شخص أو عدة أشخاص قد أمروا به.

ويريد المؤرخون بفضل ما اعتادوه قديمًا من مشاهدة تدخل الله في قضايا العالم أن يقوم سبب كل حادث في إرادة شخص يتمتع بالسلطة، بيد أن هذا الاستنتاج لا تؤكده المحاكمة العقلية ولا التجربة العملية.

فمن جهة تبرهن المحاكمة أن التعبير عن إرادة الإنسان — أي كلامه — ليس سوى جزء من الفعالية الكلية المتظاهرة في حادث ما، الحرب مثلًا، أو الثورة أيضًا، وبالتالي فإذا لم نعترف بوجود قوة مجهولة فوق طبيعية، يعني بوجود المعجزة، فمن المستحيل القبول بأن الكلمات وحدها يمكن أن تكون سبب تحرك ملايين الناس. ومن جهة أخرى فالتاريخ يبرهن، حتى إذا قبلنا ذلك، أن التعبير عن إرادة الشخصيات التاريخية لا يؤدي في معظم الحالات إلى أية نتيجة، يعني أن أوامرهم لا تظل دون تنفيذ فحسب، بل إن عكس ما أمروا به يحدث في بعض الأحيان.

فإذا لم نقبل بالتدخل الإلهي في القضايا البشرية، فإننا لا نستطيع أن نرى إلى السلطة على أنها سبب للحوادث.

فالسلطة، من وجهة نظر التجربة، ليست سوى علاقة التبعية القائمة بين الإرادة المعبَّر عنها لإنسان ما، وتحقيق هذه الإرادة من قبَل أناس آخرين.

وكي نفسر شروط هذه التبعية ينبغي بادئ ذي بدء أن نرجع مفهوم الإرادة المعبَّر عنها لا إلى الله بل إلى إنسان ما.

فإذا كانت الألوهية، كما يقول لنا القدماء، تصدر الأوامر وتعبر عن إرادتها، فتعبير هذه الإرادة غير تابع للزمان، وغير مسبَّب عن أي شيء كان، ما دامت الألوهية لا تملك أية علاقة بالحوادث. أما فيما يتعلق بالأوامر المعبرة عن إرادة بشر يتحركون في الزمان ويتمثلون ببعضهم بعضًا، فينبغي لنا كي نفسر العلاقة الموجودة بين الأوامر والحوادث أن نبين: (١) الشرط الضروري لكل ما يقع، ألا وهو اتصال الحركة في الزمان والحوادث وأوامر الشخصية المعينة. (٢) الشرط الضروري لوجود رابطة بين من يصدر الأمر والذين ينفذونه.

الفصل السادس

القيادة والتنفيذ

إن إرادة ألوهية مستقلة عن الزمان تستطيع وحدها أن تؤثر في سلسلة من الأحداث لا بد من وقوعها خلال بضع سنوات أو بضعة قرون، إن الألوهية وحدها تستطيع بإرادتها غير المشروطة أن تحدد اتجاه مسير الإنسانية، أما الإنسان فيفعل على العكس من ذلك في الزمان، ويشارك بنفسه في الأحداث.

وإما حققنا هذا الشرط الأول المهمَل عادة، شرط الزمان، فسوف نرى أنه لا يمكن تنفيذ أي أمر كان ما لم يسبقه أمر آخر يسمح بتنفيذه.

أبدًا لا يظهر الأمر بتوالد عفوي، أو يحتوي في ذاته سلسلة كاملة من الأحداث، كل أمر ينشأ بالضرورة عن أمر آخر، وتكون علاقته لا بسلسلة كاملة من الأحداث بل بلحظة وحيدة في حادث واحد فقط.

فعندما نقول، مثلًا، إن نابليون أرسل جيوشه إلى الحرب، فإنا نرجع إلى أمر وحيد، يلفظ في لحظة معينة من الزمان سلسلة من الأوامر المتتابعة المترابطة. ما كان في مكنة نابليون أن يأمر بالحملة على روسيا، وهو لم يفعل ذلك قط، لقد أمر ذات يوم بإرسال هذه الأوراق أو تلك إلى فينَّا وبرلين وبيترسبورج، وأمر في الغداة بإرسال هذه المراسيم والمعلومات أو تلك إلى الجيش، والأسطول، ومركز الإدارة، وهلمَّ جرًّا. إذن فهو قد أصدر آلاف الأوامر المتعلقة بتلك الحلقة من الحوادث التي قادت الجيش الفرنسي إلى روسيا.

وإذا كان نابليون لم يكفَّ، طوال فترة حكمه، عن إصدار الأوامر المستهدِفة الحملة على إنكلترا، وبذل في ذلك من الجهد أكثر مما بذل في سبيل أي من مشاريعه الأخرى، وإذا لم يجرب مرة واحدة رغم ذلك كله أن يحقق مشروعه، بل انهمك في حملته على روسيا التي كانت محالفتها، كما أكد مرات عديدة؛ تعود عليه بالفائدة الجمة، فمنشأ ذلك أن أوامره الأولى لم تكن تتجاوب مع سلسلة من الحوادث، بينما كانت الأوامر التالية تتجاوب معها.

فالأمر لا يمكن أن يُوضَع موضع التنفيذ ما لم يكن صادرًا بصورة يمكن تنفيذه معها، وإن معرفة ما كان يمكن وما كان لا يمكن تنفيذه هو الشيء المستحيل، لا فقط بالنسبة إلى حملة نابليون على روسيا حيث يساهم ملايين البشر، بل كذلك بالنسبة إلى أبسط حدث، لأن تنفيذ الأمر يمكن أن يُصدَم في كلتا الحالتين بملايين العقبات. وإنا لنجد مقابل كل أمر تم تنفيذه عددًا من الأوامر الأخرى التي لم تُنفَّذ، فالأوامر المستحيلة لا علاقة لها البتة مع الحوادث ولا يمكن إنجازها، والأوامر القابلة للتنفيذ هي وحدها التي ترتبط بسلاسل من الأوامر الموافقة لسلاسل من الأحداث، وإنها لتُنفَّذ.

فإذا ما تخيلنا بصورة خاطئة أن الأمر السابق لحادثٍ ما هو سبب هذا الحادث، فمنشأ ذلك أننا ننسى وقوع الحادث وحقيقة تنفيذ الأوامر التي كانت ذات علاقة به من بين آلاف الأوامر الصادرة، تلك الأوامر التي لم تُنفَّذ لأنه لم يكن في الإمكان تنفيذها، وفي ما عدا ذلك فالمصدر الرئيسي لضلالنا هو أن سلسلة لا حصر لها من الوقائع التافهة، ومثالها كل ما جر الجيوش الفرنسية إلى روسيا، يذوب في العرض التاريخي للحقائق في حدث وحيد تبعًا لنتيجة تلك السلسلة من الوقائع، وبالتالي فإننا نصهر، بصورة متفقة مع ذلك الذوبان، سلسلة كاملة من الأوامر في أمر واحد يعبر عن إرادة الزعيم.

إننا نقول: لقد أراد نابليون الحملة على روسيا وحققها. وفي الحقيقة أننا لا نجد في أيٍّ كان من نشاطه شيئًا يشبه التعبير عن هذه الإرادة، إننا نرى فقط سلسلة من الأوامر أو في تعبير إرادته موجهة بصورة على أشد ما تكون من التنوع والالتباس، ولقد استُخرِج من السلسلة اللامتناهية لأوامر نابليون غير المنفذة سلسلة من الأوامر القابلة للتنفيذ المتعلقة بحملة عام ١٨١٢، ليس لأن هذه الأوامر الأخيرة تتميز في أي شيء كان على الأوامر السابقة، بل لأن هذه السلسلة في الأوامر تتطابق مع سلسلة الوقائع التي قادت الفرنسيين إلى روسيا. وتلك هي الحال بالضبط حين تصور شخصًا بالاستناد إلى أصل مرسوم، فنحن لا نُعْنَى إذن كيف ومن أي جانب تنطبق الألوان، بل نمر فقط اللون على سائر ملامح الوجه الذي يصوره ذلك الأصل.

وهكذا، فعندما نأخذ بعين الاعتبار، في زمن معين، العلاقات بين الأمر والحادث، فإننا نرى أن الأمر لا يمكن في حال من الأحوال أن يكون سبب الحادث، بل إن ثمة علاقة محددة بينهما.

وكيما نفهم جوهر هذه العلاقة، فلا بد لنا من تحقيق الشرط الثاني الذي سكتنا عنه حتى الآن الخاص بكل أمر صادر لا عن الألوهية بل عن الإنسان، والقائم في أن الإنسان الذي يصدر الأمر يساهم هو نفسه في الحادث.

وإن هذه العلاقة بين الآمر والمنفذ هي بالضبط ما نسميه السلطة، وهذه العلاقة تقوم في ما يلي:

إن البشر كي يعملوا بصورة مشتركة يتحدون على الدوام في جماعات، تظل فيها العلاقة بين البشر الذين يساهمون في الفعل واحدة، وذلك بالرغم من الفارق القائم بين الهدف المطلوب والعمل الجماعي.

وإما يتحد البشر هكذا فهم على الدوام تربطهم العلاقة التالية: إن العدد الأكبر يقوم بالنصيب الأكبر المباشر، والأقلية الزهيدة تقوم بالنصيب الأصغر في العمل الجماعي الذي اتحدوا من أجله.

وفي عداد هذه التجمعات حيث يلتقي البشر في سبيل إنجاز أفعال مشتركة، نرى أن الجيش هو في أوضحها وأكثرها تحديدًا.

فالجيش يتشكل بادئ الأمر من أحط العناصر في التراتب العسكري الجنود الذين هم العدد الأكبر به، ومن ثم من أولئك الذين يلحقون بهم في هذا التراتب الجنود الأولون، والعرفاء، وصف الضباط الذين عددهم أقل من ذلك، حتى القيادة العليا المركزة في فرد وحيد.

ويمكن تشبيه التنظيم العسكري بمخروط يشكل الجنود قاعدته، والضباط المقاطع المسطحة منه المتناقصة بقدر ما ترتفع نحو القمة، التي رأسها هو القائد العام.

فالجنود الذين هم الغالبية العظمى يشكلون إذن القسم الأسفل قاعدة المخروط، وإنه الجندي الذي يضرب ويطعن ويحرق ويسلب، وهو يتلقى الأمر بذلك من رؤسائه دومًا، بينما هو نفسه لا يصدر الأوامر قط. وإن صف الضباط، وهم أقل عددًا، لا يقومون بنفس العمل إلا في حالات أندر، لكنهم يأمرون قليلًا، أما الضابط فيساهم في الفعل بنصيب أقل من ذلك، ويصدر الأوامر أكثر فأكثر. ولا يفعل الجنرال سوى قيادة مسير القوى المسلحة نحو هدف يبينه لها، لكنه يكاد لا يلمس السلاح مطلقًا، أما القائد العام فإنه لا يستطيع مطلقًا أن يساهم في الفعل مباشرة، بل يكتفي بأن يصدر الأوامر باتخاذ التدابير الضرورية المتعلقة بالحركة الكتلية للجيوش. وإن الصلة نفسها بين الأفراد تتكرر في كل جماعية تجمعت مستهدفة فعلًا مشتركًا، أكان ذلك في ميدان الزراعة أم التجارة أم أي مشروع آخر. وهكذا، من دون أن نضاعف بصورة مصطنعة مقاطع المخروط أو رتب الجيش أو ألقاب ومراكز دائرة ما أو أية منظمة عامة؛ نرى أن ثمة قانونًا ينبثق من ذلك كله ينص على إيجاد العلاقات بين مراكز الرجال المعينين لإنجاز عمل مشترك، بحيث ينقص اشتراكهم في القيادة بقدر ما يزداد عددهم ومساهمتهم المباشرة في هذا

العمل. وبالمقابل، فبقدر ما ينقص نصيبهم من العمل المباشر ينقص عددهم ويتضاعف اشتراكهم في العمل القيادي، وهكذا بحيث نرتفع من الأسفل إلى الأعلى حتى شخصية وحيدة وأخيرة توجه، رغم أن نصيبها في العمل المشترك هو أقل من نصيب أي شخص آخر، نشاطَها نحو القيادة أكثر من الآخرين جميعًا.

وإن العلاقة بين الشخص الذي يقود وأولئك الذين يخضعون للقيادة هي التي تشكل جوهر المفهوم المسمى سلطة.

ونحن لم نكتشف أن الأمر لا يُنفَّذ إلا عندما يرتبط بالسلسلة الموافقة في الوقائع سوى بتحقيق شروط الزمان التي تتم الأحداث فيها. ولقد اكتشفنا بتحقيقنا لذلك الشرط الذي ينص على ضرورة وجود رباط بين من يأمر ومن ينفذ، أن أولئك الذين يصدرون الأوامر يكون لهم النصيب الأدنى تبعًا لماهيتهم نفسها في الحادث بمعناه الصحيح، وأن نشاطهم موجه نحو القيادة وحدها من دون أي شيء آخر.

الفصل السابع

تغطية المسئولية الأخلاقية

عندما يلوح حدث ما في الأفق فكل امرئ يقدم إذن رأيه الخاص، ولا بد دائمًا أن يوجد شخص يقترب رأيه أكثر أو أقل من الحقيقة، بحيث يرتبط الرأي بالحادث في ذهننا ارتباط السبب بالمسبب.

هؤلاء رجال يجرون كتلة من الخشب، إن كل واحد منهم يعطي رأيه عن كيفية جرها، والمكان الذي يجب أن تُوضع فيه، وينتهي الرجال من جر الكتلة فيتبين أن الشيء قد تحقق تبعًا لأقوال واحد من عِدادهم، ويفكرون أن هذا الرجل هو الذي قام بدور القيادة. وإليكم الأمر والسلطة حسب شكلهما البدائي: إن من اشتغل بيديه أكثر من الجميع كان أقلهم تفكيرًا في ما يصنع، وبالتالي كان أقلهم تفكيرًا أيضًا في ما يمكن أن ينتج عن الفعالية المشتركة وفي الأوامر التي يجب إصدارها. أما الذي قام بدور القيادة أكثر من سواه فقد انحصر فعله في الكلام، وهو بالتالي كان أقوى الجميع عملًا بيديه.

وبقدر ما يعظم تجمع الناس الذين يوجهون فعلهم نحو هدف واحد، فإن مقولات الرجال الذين تنقص مساهمتهم في العمل العام بمقدار ما يكون نشاطهم موجهًا نحو القيادة، تزداد هذه وضوحًا.

إن الإنسان حين يعمل لوحده يملك على الدوام عددًا من الأسباب وجهت في اعتقاده نشاطه السابق، وهي تبرر نشاطه الراهن وتوجهه في اختيار أفعاله المقبلة. وإن الجماعيات لتفعل بالصورة عينها إذ تترك لغير المساهمين في الفعل أمر تخيل الاعتبارات والمبررات والفرضيات المتعلقة بعملهم المشترك.

لقد أخذ الفرنسيون يغرقون بعضهم بعضًا أو يتذبحون لأسباب معروفة أو مجهولة منا، وإن هذه الحادث لترافقه مبرراته الخاصة الموجودة في إرادات الفرنسيين الواضحة، هؤلاء الفرنسيين الذين كانوا يعتبرون هذا الحادث ضروريًّا من أجل سعادة فرنسا ومن

أجل الحرية والمساواة، ولا ينتهون من التذابح حتى يترافق هذا الحادث أيضًا بمبرراته: ضرورة سلطة وحيدة، وضرورة الصمود في وجه أوروبا ... إلخ، ويسيرون من الغرب في اتجاه الشرق، وهم يتبعون أشباههم. ويترافق هذا الحادث أيضًا بخطابات عن عظمة فرنسا وسفالة إنكلترا ... إلخ. ويبين التاريخ أن هذه المبررات كانت خالية من الحس السليم، وأنها تتناقض مثلها مثل قتل الإنسان إثر إعلان حقوق الإنسان ومقتلَ ملايين الناس في روسيا في سبيل إذلال إنكلترا، بيد أن لهذه المبررات عند الناس المعاصرين مغزى ضروريًّا.

وإن الغاية منها هي تغطية المسئولية الأخلاقية لمرتكبي هذه الحوادث، فهذه الغايات لأشبه بالمكانس الموضوعة في مقدمة القطارات بغية تنظيف الخط الحديدي، إنها تنظف طريق مسئولية البشر الأخلاقية. وإن أبسط سؤال ليظل من دون هذه المبررات دون جواب لدى تفحص كل حادثة على حدة، كيف يمكن لملايين الناس أن يرتكبوا بصورة مشتركة الجرائم والحروب والمذابح ... إلخ؟

أيمكننا في الأشكال المعقدة للحياة الحديثة، السياسية والاجتماعية، في أوروبا أن نتخيل أية حادثة كانت لم يقدرها سلفًا الملوك أو الوزراء أو البرلمانيون أو الصحف، ويأمرون بها ويقررون حدوثها؟ أثمة نشاط جماعي لم يجد تبريره في وحدة الدولة أو الدفاع عن الأمة أو التوازن الأوروبي أو مصلحة الحضارة؟ إن كل حادثة واقعة توافق بالضرورة رغبة تم التعبير عنها، وهي تعتبر في سبيل تبريرها كنتاج لإرادة واحد أو أكثر من هذه الشخصيات.

ومهما يكن اتجاه سفينة ما فإننا نجد على الدوام في مقدمتها دوارًا مائيًّا ناتجًا عن الموجة التي تخترقها، وإن هذه الدوامة بالنسبة إلى المسافرين على سطح السفينة هي الحركة الوحيدة المنظورة.

ونحن لا ندرك أن كل حركة من حركات الموجة تحددها حركة السفينة، وأن ما يوقعنا في الخطأ هو كوننا نتقدم نحن أنفسنا دون أن نلاحظ ذلك، نحن لا ندرك هذا إذن إلا إذا تمعنًّا عن قرب لحظة إثر لحظة في حركة دوامة المياه وقارنًّا تجربة السفينة نفسها.

ونصل إلى نفس النتيجة إذا تتبعنا خطوة فخطوة حركات الشخصيات التاريخية، يعني إذا ما حققنا الشرط الضروري لكل ما يجري من حوادث: اتصال الحركة في الزمان، وإذا لم يغب عن أنظارنا الرباط الضروري القائم بين الشخصيات التاريخية والجماهير.

ومهما يكن من أمر فإن الحادث يبدو أنه ذلك الحادث الذي كان متوقعًا ومأمورًا به مهما يكن اتجاه السفينة، فالدوامة التي تطرطش عند مقدمة السفينة لا توجد حركتها كما أنها لا تقوي هذه الحركة، ومع ذلك فهي تلوح لنا عن بعد لا نابضة بحركة مستقلة فحسب، بل موجهة لحركة السفينة أيضًا.

إن المؤرخين حين لا يأخذون بعين الاعتبار سوى هذه التعابير عن إرادة الشخصيات التاريخية التي ترتبط بالأحداث على صورة أوامر، قد افترضوا أن الأحداث تابعة لهذه الأوامر. ولكننا حين تفحصنا الحوادث ذاتها والرابطة التي تجمع بين الشخصيات التاريخية والجماهير وجدنا أن هذه الشخصيات، مثلها مثل أوامرها، هي التي تقع في تبعية الحوادث. والبرهان على ذلك أن الحادث لا يقع مهما تكن الأوامر كثيرة متعددة إذا لم يكن ثمة أسباب أخرى، ولكن الحادث مهما يكن لا يكاد يقع حتى نجد بين الإرادات التي عبر عنها شخصيات مختلفة أسبابًا يمكن أن تُنسَب، تبعًا لمنحاها وساعة وقوعها، للحادث كأوامر أدت إلى وقوعه.

وإما وصلنا إلى هذه النتيجة فإننا نستطيع أن نجيب بوضوح ويقين عن المشكلتين الأساسيتين للتاريخ:

(١) ما هي السلطة؟
(٢) ما هي القوة التي تحرك الشعوب؟

(١) إن السلطة تنشأ عن علاقات شخصية معينة بشخصيات أخرى، وإن هذه العلاقات منظمة بحيث إن هذه الشخصية تعبر عن عدد أكبر من الآراء والفرضيات والمبررات المتعلقة بالحادثة الجارية بقدر ما تنقص مساهمتها في العمل المشترك.

(٢) إن حركة الجماهير لا تحدثها السلطة ولا الفعالية الفكرية ولا اتحاد فلان أو فلان كما يحسب ذلك المؤرخون، بل بفعالية سائر الذين يشتركون في الحوادث والذين يتجمعون، بحيث إن الذين يساهمون في الفعل بصورة أشد مباشرة هم أقل الجميع مسئولية، والعكس بالعكس.

ومن وجهة النظر الأخلاقية يبدو أن السلطة هي سبب الحادث، ومن وجهة النظر الحكمية يبدو أن الخاضعين للسلطة هم سبب ذلك الحادث. ولكنه لما كانت كل فعالية أخلاقية مستحيلة بدون فعالية حكمية، فأسباب الحادث لا توجد إلا في اجتماع كلتيهما.

وبتعبير آخر: إن مفهوم السبب لا ينطبق على الظاهرة التي نحن في سبيل تفحصها.

وإننا لنصل في آخر تحليل إلى الدائرة الأبدية إلى هذا الحد الأقصى الذي يبلغه الذهن البشري في ميدان الفكر، إذا لم يكن لاهيًا في دراسة موضوعه؛ إن الكهرباء مولدة للحرارة والحرارة تنتج الكهرباء، إن الجواهر الفردة تتجاذب وإن الجواهر الفردة تتدافع.

وحين نتحدث عن التفاعلات المتبادلة بين الكهرباء والحرارة، فإننا لا نستطيع أن نقول أين تنشأان، نحن نقول إذن إن ذلك يحدث على هذه الصورة المعينة لأنه يبدو لنا مستحيلًا بأية صورة أخرى، لأن ذلك يجب أن يكون هكذا، لأن هذا قانون مطلق. وكذلك الأمر بالنسبة إلى القضايا التاريخية، فنحن نجهل لماذا توجد هذه الحرب أو تلك الثورة، ولا نعرف سوى أن البشر يتحدون في جماعية يساهم كلٌّ منهم فيها كي ينجزوا هذا الفعل أو ذاك، ونحن نقول إن الأمور هكذا، وإن الأشياء غير معقولة بصورة أخرى، وإن ذلك هو القانون.

الفصل الثامن

الحرية الإنسانية

لو كانت علاقة التاريخ منحصرة بالظواهر الخارجية فحسب، فقد كان يكفي طرح هذا القانون في بساطته ووضوحه، وبذلك تنتهي محاضرتنا، بيد أن قانون التاريخ يرتبط بالكائن الإنساني؛ إن ذرة في المادة لا تستطيع أن تقول لنا مطلقًا إنها تحس حاجة الانجذاب أو الدفع، وهي لا تستطيع أن تقول لنا أيضًا إن هذا القانون مغلوط. أما الإنسان الذي هو غرَض التاريخ فيؤكد على العكس بصورة حازمة: إني حر وغير خاضع للقوانين.

وإن هذا الوجود الخفي لقضية الحرية الإنسانية ينبثق أمامنا لدى كل خطوة يخطوها التاريخ.

ولقد انتهى سائر المؤرخين الجديين، بصورة غير إرادية، إلى هذه المشكلة. وما منشأ سائر تناقضات التاريخ وشكوكه، وتلك الطريقة الخاطئة التي يسلكها هذا العالم، سوى من بقاء هذه القضية دون حل.

فإذا كانت إرادة كل من الأفراد حرة، يعني إذا كان في مكنة كل امرئ أن يتصرف بحرية يعني على هواه، فمن الواضح أن فعلًا وحيدًا حرًّا يقوم به هذا الشخص بصورة مناقضة للقوانين يقضي قضاءً مبرمًا على إمكانية وجود أية قوانين بالنسبة إلى الإنسانية بأسرها.

وإذا كان ثمة قانون واحد يسيِّر الأفعال البشرية فلا يمكن إذن أن تكون ثمة حرة، لأن إرادة كل امرئ يجب عندئذ أن تكون خاضعة لذلك القانون.

ويطرح هذا التناقض مشكلة حرية الاختيار التي تشغل منذ العصور القديمة أدمغة النخبة دون أن تفقد قط شيئًا من أهميتها العظيمة.

وتُطرح هذه القضية كما يلي: إما ننظر إلى الإنسان كموضوع للملاحظة من أية وجهة نظر كانت، لاهوتية أم تاريخية أم أخلاقية أم فلسفية، فإننا نجد على الدوام قانون الضرورة المحتوم المشترك بين سائر الكائنات الحية. وإما ننظر إليه على العكس من وجهة نظر تجربتنا الصميمية، من وجهة نظر وجداننا، فإننا نحس الحرية إذن.

فالوجدان هو ينبوع معرفتنا بذاتنا، المنفصلة والمستقلة تمامًا عن العقل. إن الإنسان يتمكن بفضل العقل أن يراقب نفسه بنفسه إلا بواسطة الوجدان.

وبدون وعي الذات لن يفيدنا شيئًا أن نفكر في أية ملاحظة أو أي تطبيق عملي للعقل.

وينبغي للإنسان كي يفهم ويراقب ويستنتج أن يعي نفسه في البدء بصفته كائنًا حيًّا، ولا يعرف الإنسان ذاته كائنًا حيًّا إلا حين يدرك أنه يتحلى بالإرادة، وبتعبير آخر فهو لا يعي سوى إرادته، وهذه الإرادة ماهية حياته لا يمكنه أن يتصورها سوى حرة.

وخلال ملاحظاته عن نفسه إذا أدرك الإنسان أن إرادته موجهة بصورة متصلة نحو نفس الهدف الواحد، أكان هذا الهدف ضرورة إيجاد غذائه أم قيام دماغه بالعمل أم أي شيء آخر، فإنه لا يستطيع أن يفسر ذلك لنفسه سوى كتحديد لإرادته. إن ما ليس هو حر لا يمكن حده، والإنسان يعتبر إرادته محدودة بالضبط لأنه لا يتصورها سوى حرة.

أنت تزعم أنك غير حر، وأنا أستطيع مع ذلك أن أرفع ذراعي وأخفضه، وإن كل امرئ ليفهم أن هذا الجواب غير المنطقي هو برهان على الحرية لا يمكن دحضه، بيد أن هذا الجواب ينشأ عن الوعي غير الخاضع للعقل.

فإذا كان الوعي الذي نملكه عن حريتنا غير مستقل عن عقلنا، فهذا الوعي سيكون إذن خاضعًا للعقل وللتجربة، بيد أن مثل هذا الخضوع غير موجود مطلقًا في الواقع، بل هو غير معقول البتة.

إن سلسلة من المحاكمات والتجارب تبرهن لكل امرئ أنه خاضع بصفته موضوع الملاحظة لبعض القوانين؛ وأنه ليخضع لها، إنه لا يتمرد أبدًا على قانون الجاذبية أو قانون عدم النفوذ عندما يلم بهما مرة. بيد أن هذه السلسلة عينها من التجارب والمحاكمات تبرهن له أن الحرية التامة التي يعيها في ذاته مستحيلة، وأن كلًّا من أفعاله تابع لعضويته، وخُلقه، والمحركات التي تؤثر عليه، ومع ذلك فإنه لا يخضع قط لهذه الاستنتاجات.

إنه يعرف بالتجربة والمحاكمة أن الحجر يسقط، إنه يعتقد ذلك دون تحفظ، وينتظر في مختلف المناسبات أن يجد هذا القانون الذي يعترف به مطبَّقًا.

ولكنه رغم معرفته بمثل ذلك اليقين أن إرادته خاضعة لقوانين، فإنه لا يؤمن بذلك ويرفض أن يؤمن به.

ومهما يكن عدد المرات التي برهنت له فيها التجربة والعقل أنه سيفعل في ذات الشروط ونفس الخُلق بالضبط ما قد فعله سابقًا، ورغم أنه توصل آلاف المرات عندما يفعل في نفس الشروط ونفس الخُلق إلى نتائج متماثلة، فإنه لا يبرح يؤمن دون أدنى ارتياب في حريته في التصرف على هواه، تمامًا كما كان يؤمن بذلك قبل تجاربه تلك. فكل إنسان، المتوحش والمفكر على السواء، يحس رغم المحاكمة والتجربة اللتين برهنتا له بصورة لا تُدحَض تماثل أفعاله في الشروط المتماثلة، أنه لا يستطيع دون هذا الإيمان غير المعقول الذي يشكل ماهية حريته أن يتصور الحياة لحظة واحدة. إنه يحس أن ذلك حقيقي مهما يكن نصيبه من المحال، وأنه إذا ما حُرم من هذا الاعتقاد في الحرية فلن يكون عاجزًا عن فهم الحياة فحسب، بل لن يستطيع أيضًا أن يعيش لحظة واحدة.

إنه لا يستطيع أن يعيش لأن كلًّا من جهود الإنسان وكلًّا من انطلاقاته لا يستهدفان سوى زيادة حريته. الغنى والفقر، المجد وعدم الشهرة، السلطة والخضوع، القوة والضعف، الصحة والمرض، المعرفة والجهل، العمل والبطالة، الشبع والجوع، الفضيلة والرذيلة؛ ليست هذه الأمور جميعًا سوى درجات أكثر أو أقل ارتفاعًا من الحرية.

وإن تصور إنسان محروم من الحرية يعني تصوره محرومًا من الحياة.

وإذا كانت فكرة الحرية لا تخلو من تناقض سخيف بالنسبة إلى العقل، مثلها مثل فكرة إنجاز فعلين في وقت واحد أو فكرة نتيجة دون سبب، فذلك لا يبرهن سوى كون وجداننا غير خاضع لأحكام العقل.

وإن هذا الوعي لحريتنا، هذا الوعي الذي لا يتزعزع ولا يتدمر، غير الخاضع للتجربة أو للمحاكمة، الذي يعترف به سائر المفكرين، ويحسه سائر البشر دون استثناء؛ إن هذا الوعي الذي لا غنى عنه ليفهم الإنسان هو ما يشكل المظهر الآخر من القضية.

إن الإنسان خليقة إله كلي القوة، كلي الطيبة والصلاح، قادر على كل شيء، فما هي الخطيئة إذن هذه التي ينشأ مفهومها عن وعي حرية الإنسان؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه عالِم اللاهوت.

إن أفعال الإنسان خاضعة لقوانين عامة لا تتغير قد سجلتها الإحصائيات، ففي أي شيء تقوم إذن مسئولية الإنسان حيال المجتمع التي ينشأ مفهومها عن وعي حريته؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه عالِم الحقوق.

إن أفعال الإنسان تنشأ عن صفاته الموروثة، وعن المحركات التي تحمله على الفعل، فما هو الوجدان ومفهوم الخير والشر في الأفعال التي تصدر عن وعي حريته؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه عالِم الأخلاق.

إن الإنسان المرتبط بحياة الإنسانية العامة يبدو خاضعًا للقوانين التي تُسيِّر هذه الحياة، بيد أن الإنسان يظهر بصورة مستقلة عن هذا الرباط كأنه مطلق الحرية. كيف ينبغي لنا أن ننظر إلى الحياة الماضية للشعوب والإنسانية، أهي نتيجة فعالية الناس الحرة أم المقيدة؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه عالِم التاريخ.

وإن قضية الإرادة الحرة لم تنته إلى ميدان لا يمكنها حتى أن تُطرَح فيه سوى في عصرنا المغرور الذي يدعي تعميم المعرفة، وبفضل هذه الأداة الكلية القوة لنشر الجهل التي هي المطبعة. وإن غالبية الناس الذين يدعونهم الطليعة في عصرنا يعني هذه الجمهرة من الجاهلين، قد حسبوا أنهم وجدوا في أعمال العلماء الطبيعيين الذين لا ينظرون سوى إلى جانب واحد من القضية حلَّ المشكلة كلها.

وإنهم ليقولون وينشرون: ليس ثمة نفس أو إرادة حرة ما دامت حياة الناس تتظاهر بحركة عضلاته، وما دامت العضلات تخضع لأوامر الجهاز العصبي. ليس ثمة نفس أو إرادة حرة ما دام الإنسان قد انحدر عن القرد في زمن غير معروف، ولا يخطر في بالهم مطلقًا أن سائر الديانات وسائر المفكرين منذ آلاف السنين لم يعترفوا فحسب، بل لم يفكروا لحظة واحدة في إنكار نفس قانون الضرورة، هذا الذي يتكبدون هم كل هذه المشقات كي يثبتوه اليوم بواسطة الفيزيولوجيا وعلم الحيوان المقارن. إنهم لا يدركون أن دور العلوم الطبيعية لا يقوم ها هنا سوى في إيضاح جانب واحد من القضية. وفي الحقيقة أن المناداة بأن الملاحظة والعقل والإرادة ما هي سوى إفرازات دماغية، وأن الإنسان الخاضع للقوانين المشتركة قد تمكن في زمن مجهول أن يتملص من الحيوانية السفلى، لا تعني سوى تفسير مستحدث لهذه الحقيقة المعترف بها منذ آلاف السنين من قبل الأديان والفلاسفة، ألا وهي أن الإنسان من وجهة نظر العقل يرتبط بقوانين الضرورة. بيد أن هذا لا يتقدم بالمشكلة حتى ولا خطوة واحدة نحو الحل المرجوِّ، لأن لتلك المشكلة وجهًا آخر مقابلًا يتركز على وعي الحرية.

فإذا كان الإنسان قد انحدر في زمن مجهول من القرد، فإننا نستطيع كذلك أن نقبل بخروجه في زمن معروف من قبضة من تراب، وإن الزمن هو المجهول في الحالة الأولى، أما في الحالة الثانية فالمجهول هو أهل الإنسان. بيد أن المشكلة لا تكمن ها هنا، المشكلة هي أن نعرف كيف يتحد الوعي الذي يملكه الإنسان عن حريته بقوانين الضرورة

التي يخضع لها، وهذه المشكلة لا يمكن حلها بالفيزيولوجيا وعلم الحيوان المقارن، لأننا نلاحظ في الضفدع والأرنب والقرد مجرد فعالية عضلية وعصبية ليس غير، بينما نلاحظ في الإنسان بالإضافة إلى هذه الفعالية العضلية العصبية وجود الوعي.

إن العلماء الطبيعيين والمعجبين بهم الذين يزعمون حل هذه المشكلة، لَأشبه بعمال بناء قد تلقوا الأمر بتكليس أحد جوانب كنيسة ما، فهم يغتنمون فرصة غياب رئيس العمل كي يزيدوا، بدافع من فرط الحمية الدينية، في طلي النوافذ والصور والصقلات والجدران التي لم تصبح ثابتة مكينة بعد، ثم يسيرون بعملهم لأن سائر أقسام البناء، من وجهة نظرهم كبنائين، قد تلقت نفس الطبقة من الطلاء.

الفصل التاسع

الحرية والضرورة

إن حل مسألة الحرية والضرورة يعطي التاريخ ميزة على سائر فروع المعرفة الأخرى التي سعت إلى حلها، ألا وهي أن هذه المسألة لا تتعلق بذات ماهية الإرادة البشرية بل بتظاهرها في الماضي وفي شروط معروفة.

وفي هذه القضية يجد التاريخ نفسه حيال العلوم الأخرى في مركز العالم التجريبي حيال العلوم النظرية.

فليس غرض التاريخ إرادة الإنسان نفسها، بل الفكرة التي تشكلها عنه. وهذا هو السبب في أن التاريخ لا يقف مثل اللاهوت والأخلاق والفلسفة حيال ذلك السر الغامض الذي لا يُسبَر غوره، سر اتحاد النقيضين الحرية والضرورة، إن التاريخ يدرس تظاهرات الحياة البشرية التي تحقق فيها سلفًا هذا الاتحاد.

ففي الحياة الواقعية يصير إدراك كل حدث تاريخي وكل فعل إنساني بوضوح ودقة كاملَيْن ودون أن يَبِين فيه أدنى تناقض، هذا رغم ظهوره بعد اكتماله حرًّا ومحدَّدًا في وقت واحد.

وحين يتوجب حل قضية اتحاد الحرية والضرورة وقضية ماهية هذين المفهومين، ففلسفة التاريخ يمكنها ويجب عليها أن تسلك طريقًا معاكسًا للطريق الذي تتبعه العلوم الأخرى. فالتاريخ ينبغي له بدلًا من محاولة تعريف مفهومي الحرية والضرورة في ذاتهما قبلًا، ومن ثَم إخضاع ظواهر الحياة لهذا التعريف؛ أن يستخرج من كتلة الظواهر الضخمة المطروحة أمامه بصفتها مسيَّرة بالحرية والضرورة، وتعريف هذين المفهومين.

فبأية صورة تطلَّعنا إلى أفعال إنسان واحد أو عدة أشخاص، فإننا نجد فيها أثر الحرية الإنسانية من جانب وأثر قوانين الضرورة من جانب آخر.

وسواء أخذنا بعين الاعتبار هجرات الشعوب، أم غزوات البرابرة، أم سياسة نابليون الثالث، أم العمل الذي أنجزه شخص ما قبل ساعة واحدة والذي لم يكن سوى اختياره القيام بنزهة في هذا الاتجاه بالأحرى منه في أي اتجاه آخر؛ فإننا لا نجد في ذلك كله أدنى تناقض البتة، فنصيب الحرية والضرورة الذي حدد هذه الأفعال يبدو لنا بكل وضوح.

وتختلف الآراء غالبًا حول نصيب الحرية الموجودة في فعل ما، وذلك تبعًا لوجهة النظر التي نتفحص القضية منها، بيد أن الفعل الإنساني يتراءى على الدوام في جميع الحالات كمزيج محدد من الحرية والضرورة، وأن كل حالة نتفحصها تظهر لنا مقدارًا معينًا من الحرية والضرورة التي نراها في هذه الحالة نفسها، وبقدر ما يعظم نصيب الضرورة نرى أن الحرية قد تناقضت وتقلصت.

فعلاقة العنصرين اللذين يزداد أحدهما أو ينقص تبعًا لوجهة النظر، تظل على الدوام متناسبة عكسًا.

الإنسان الذي يغرق فيتعلق بإنسان آخر يجره معه، الأم الجائعة التي ينهكها إرضاع وليدها والتي تسرق الغذاء، الرجل الخاضع للانضباط الذي يقتل تنفيذًا لأمر يتلقاه رجلًا آخر أعزل؛ هؤلاء جميعًا يتراءَوْن أقل جرمًا يعني أقل حرية وأكثر خضوعًا لقوانين الضرورة في عينَي الإنسان الذي يعرف أية شروط كانوا يخضعون لها؛ وإنهم ليتراءَوْن أكثر حرية على العكس في عينَي الإنسان الذي لا يعرف أن ذلك الرجل كان بسبيل الغرق، وأن هذه الأم كانت جائعة، وأن ذلك الجندي كان في الصف … إلخ. وتلك هي الحال أيضًا بالنسبة إلى رجل ارتكب جريمة قبل عشرين عامًا، وهو يعيش منذ ذلك الحين في المجتمع حياة هادئة دون أن يلحق الأذى بأي مخلوق البتة؛ إنه يبدو أقل جرمًا، ويبدو عمله في عينَي من يحكم على ذنبه بعد عشرين سنة أكثر خضوعًا لقوانين الضرورة، وإن الجريمة عينها تلوح أكثر حرية في نظر من يتفحصها بعد اقترافها بيوم واحد. وكذلك الأمر في حال أفعال رجل مجنون أو سكران أو مهتاج، فهي تبدو أقل حرية وأكثر ضرورة عند من يعرف الحالة الذهنية لهؤلاء الناس، وأكثر حرية وأقل ضرورة في عينَي من يجهلها. فالحرية والمسئولية تزدادان وتتناقضان في هذه الحالات المتنوعة، حسب ما تعظم الضرورة أو تنقص، وتبعًا لوجهة النظر التي نتطلع منها. إننا نجد على الدوام أن الضرورة أعظم حين تكون الحرية ضئيلة، والعكس بالعكس.

وإن الدين والحس السليم وعلم الحقوق والتاريخ نفسه يفهم هذه العلاقات بذات الطريقة.

وإن جميع الظروف دونما استثناء التي تعظم فيها أو تنقص فكرتنا عن الحرية والضرورة، ليس لها سوى ثلاثة أسس:

(١) علاقات الإنسان الذي ينجز عملًا مع العالم الخارجي.
(٢) مع الزمان.
(٣) مع الحركات التي تدفعه إلى العمل.

الأساس الأول للفحص: العلاقات الأكثر أو أقل وضوحًا لأعيننا التي تربط الإنسان بالعالم الخارجي، وتفهم المكان المضبوط الذي يحتله كل إنسان بالنسبة إلى وسطه. ومن هنا نرى أن الإنسان الذي يغرق هو أقل حرية وأكثر ضرورة من الإنسان الواقف بثبات على الأرض الصلبة. وكذلك نرى من هنا أن أفعال إنسان يختلط بجمهور كبير من الناس الآخرين في مكان مزدحم، وأن أفعال إنسان مرتبط بقيود عائلته وخدمته ومشروعه، لهي بكل تأكيد أقل حرية وأكثر خضوعًا لقوانين الضرورة من أفعال إنسان وحيد منعزل.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار إنسانًا وحيدًا، دون الاهتمام بعلاقاته مع محيطه، فإن كلًا من أفعاله يبدو لنا إذن حرًّا طليقًا. ولكننا إذا رأينا إلى أية علاقة كانت من علاقاته مع وسطه، إذا رأينا إلى الروابط التي تقيده إلى أي شيء كان: الإنسان الذي يحدثه، الكتاب الذي يقرؤه، العمل الذي يشغله، حتى الهواء الذي يحيط به والنور الذي يقع على الأشياء التي يستخدمها؛ رأينا أن لكل من هذه الشروط صداه، فهو يوجد مظهرًا واحدًا على الأقل من مظاهر فعاليته. وبقدر ما ندرك هذه المؤثرات بصورة أفضل، فإن فكرتنا عن حريته تنقص، ويزداد شعورنا بخضوعه للضرورة.

الأساس الثاني للفحص: العلاقات المؤقتة، الأكثر أو أقل بينة، بين الإنسان والعالم، الفكرة الأكثر أو أقل وضوحًا عن المكان الذي تشغله فعاليته في الزمان. ومن هنا يبدو أن سقوط الإنسان الأول الذي كان مولد الجنس البشري نتيجة له، وأقل حرية من دون ريب من زواج الإنسان في الأيام الراهنة. وكذلك فإن حياة وفعالية البشر في القرون المنصرمة وهم مرتبطون بي في الزمان، لا يمكن أن تلوح لي على مثل حرية حياة البشر المعاصرين لي، التي لمَّا تبرح نتائجها مجهولة عندي.

وهكذا فإن درجة الحرية أو الضرورة التي ننسبها إلى فعل تابعة لفترة الزمن الأكثر أو أقل امتدادًا، التي انقضت بين تحقيق ذلك العمل والحكم الذي تصدره بحقه.

فإذا نظرت إلى عمل أنجزته لقوي قبل لحظة في شروط مماثلة تقريبًا للشروط التي أنا فيها حاليًّا، فإن عملي يلوح لي حرًّا بصورة لا تقبل الجدل. بيد أني إذا حكمت على العمل بعد شهر من إنجازي له حين أكون في شروط مختلفة، فإني أعترف إذن مرغمًا أن عددًا كبيرًا من الأشياء النافعة والمسرة، بله الضرورة، التي نشأت عنه ما كانت تحدث لو لم يكن ذلك العمل. وإذا عدت بالذاكرة إلى عمل أقدم من ذلك يبعد عني عشر سنوات ونيفًا، فإن نتائجه تلوح لي أشد وضوحًا أيضًا، حتى ليصعب عليَّ أن أتصور ما كان يمكن أن يحدث لولا ذلك العمل. وهكذا فبقدر ما تعود الذاكرة بي القهقرى، أو بقدر ما أتقدم إلى الذاكرة في أحكامي، وهذا يؤدي إلى ذات الشيء، ازدادت استنتاجاتي عن حرية أحد أفعالي ترددًا وحيرة.

وإننا لنرى في التاريخ مثل هذا التقدم تمامًا بشأن اعتقادنا في مساهمة الإرادة الحرة في الأفعال الإنسانية، فهذا الحادث الذي تم حديثنا يلوح لنا كعمل لا يتعرض للشك قامت به شخصيات معروفة. بيد أن الحادث لا يكاد يبتعد عنا حتى تمنعنا نتائجه المحتومة الواقعة تحت أنظارنا عن رؤية أي شيء آخر سواها بعد الآن، وبقدر ما نعود القهقرى في تفحص الحوادث فهي تظهر لنا أقل حرية وعضوية.

إن الحرب النمساوية البروسية تلوح لنا كنتيجة حتمية لأحابيل بسمارك … إلخ، وتبدو الحروب النابليونية لنا، مع بعض الشكوك الآن، مسببة عن إرادة بعض الأبطال. بيد أننا نرى حقًّا في الحروب الصليبية حادثة تشغل مكانًا محددًا كان تاريخ أوروبا الحديث يخلو بدونها من كل معنى، ومع ذلك فإن كُتَّاب القرون الوسطى لم يجدوا فيها يومذاك سوى نتيجة لإرادة بعض الأشخاص. وإذا ما نظرنا إلى الغزوات الكبيرة، فإن أحدًا لن يعتقد اليوم أن تجدد العالم كان متعلقًا بهدى أنيلا، فبقدر ما تعود القهقرى في التاريخ تنقص شكوكنا حول حرية فَعَلة الحوادث، بينما يزداد قانون الضرورة يقينًا.

الأساس الثالث للفحص: القدر الأكبر أو الأقل المتوفر لنا في إمكانية النفوذ إلى تسلسل الحوادث الذي لا نهاية له، والذي هو من متطلبات عقلنا المحتومة، والذي يجب أن يكون فيه لكل حادث معقول وبالتالي كل فعل من أفعال الإنسان، مكانه المحدد كنتيجة للحوادث السابقة وسبب للحوادث اللاحقة به.

وينتج عن ذلك أن أفعالنا وأفعال الآخرين تتراءى لنا أكثر حرية وأقل خضوعًا للضرورة بمقدار ما تزيد معرفتنا للقوانين الفيزيولوجية والبسيكولوجية والتاريخية

المستخرجة في الملاحظة الخاضع الإنسان لها، وبقدر ما ندرس بدقة أعظم السبب الفيزيولوجي والبسيكولوجي أو لحادث ما. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الفعالية الخاضعة للمراقبة تبدو لنا أشد بساطة بقدر ما يكون خلق وفكر الإنسان الذي نعرفه أقل تعقيدًا.

عندما لا نفهم سبب عمل ما شرير أو صالح أو معتدل بالنسبة إلى الخير والشر، فإننا نميل نحو أن نرى فيه أعظم مقدار من الحرية. وإذا كان جريمة فإننا نطلب عقابه قبل كل شيء، وإذا كان عملًا فاضلًا غمرناه بالإطراء والمديح، وإذا كان معتدلًا وجدنا فيه دلالة على قوة الشخصية والجدة والحرية، ولكننا إذا عرفنا حتى مجرد سبب واحد من أسباب هذا العمل رحنا نجد فيه إذن مقدارًا معينًا من الضرورة، فنحن أكثر تسامحًا عندئذ بالنسبة إلى الجريمة وأقل حماسة لعمل الخير، نرى مقدارًا أقل من الحرية في العمل الذي كان يلوح لنا جديدًا مستحدثًا. فحقيقة نشوء المجرم في وسط من الأشراف يخفف من ذنبه، والتضحية التي يقوم عليها أب أو أم وتترافق بإمكانية المكافأة لَأقرب إلى أفهامنا من التضحية التي ليس لها سبب ظاهر، ولذا فهي أقل إثارة لعطفنا وأقل حرية في أنظارنا. وإن مؤسس عصبة أو حزب يصير أقل إثارة لدهشتنا عندما نعرف كيف وبأي شيء تم تحضير عمله ومهنته. وإذا كنا نملك سلسلة طويلة من التجارب، وإذا كانت ملاحظتنا موجهة بصورة متصلة نحو التفتيش عن العلاقات الموجودة بين الأسباب والنتائج، فإن الأفعال البشرية تبدو لنا أشد ضرورة وأقل حرية بقدر ما نربط بيقين أعظم بين النتائج والأسباب. وإذا كانت الوقائع التي نتفحصها بسيطة، وإذا كنا نملك لدراستها كمية عظيمة من الوقائع المماثلة، فإن الفكرة التي نشكلها عن ضرورتها تصير أكمل إذن. إن عدم أمانة ابن أب شرير، والسلوك الشائن لامرأة وقعت في وسط شرير، وعودة سكير إلى عربدته؛ هي جميعًا وقائع تبدو لنا أقل حرية بقدر ما تزداد معرفتنا بأسبابها. وإذا كان الرجل الذي نتفحص سلوكه يقف في أخفض درجة من سلم الذكاء، إذا كان طفلًا أو مجنونًا أو معتوهًا، فإننا نرى فيه إذن وقد عرفنا أسباب سلوكه وحالة خُلقه المنحطة، نصيبًا كبيرًا من الضرورة ونصيبًا ضئيلًا جدًّا من الحرية، بحيث لا نكاد نعرف الدافع الذي يحركه حتى نستطيع أن نتنبأ بالعمل الذي سينتج عن ذلك الدافع.

على هذه العناصر الثلاثة في الفحص ترتكز عدم المسئولية في الجرم والظروف المخففة المقبولة من قبل سائر التشريعات، فالمسئولية تبدو أكبر أو أصغر بقدر ما نعرف أكثر أو أقل الظروف التي كان المجرم خاضعًا لها، وتبعًا للفاصل الزمني الأطول أو الأقصر الذي يفصل بين الفعل والحكم، وتبعًا لدرجة المعرفة التي نملكها عن أسباب الفعل.

الفصل العاشر

اتحاد الحرية والضرورة

وهكذا فالتعقيب الذي ننسبه للحرية والمسئولية ينقص أو يعظم حسب الرابطة الأشد أو الأضعف بين العقل والعالم الخارجي، ودرجة بعده في الزمان وتبعيته العظمى أو الصغرى للأسباب، التي نرى في ما بينها بروز ظاهرة في ظواهر الحياة البشرية.

فإذا أخذنا بعين الاعتبار حالة امرئ معروفة جيدًا علاقاته مع العالم الخارجي، الذي يطول بالنسبة إليه الفاصل الزمني بين العمل والحكم عليه حتى الدرجة القصوى، والذي دوافعه واضحة لنا كل الوضوح؛ فإننا نرى في هذه الحالة المقدار من الضرورة، والمقدار الأقل عِظمًا من الحرية. أما إذا أخذنا بعين الاعتبار على العكس حالة امرئ أعماله أقل ما تكون تبعية للعالم الخارجي، فإذا كان عمله قد جرى هذه اللحظة بالذات، وإذا كانت أسباب هذا العمل غامضة علينا؛ فإننا نجد أدنى مقدار من الضرورة وأعظم مقدار من الحرية.

ولكننا في كلتا الحالتين مهما بدلنا في وجهة نظرنا، ومهما دققنا في رابطة الإنسان مع العالم الخارجي أو اعتبرنا هذه الرابطة ممتنعة على معرفتنا، ومهما أطلنا الفاصل الزمني بين العمل والحكم عليه أو قصرناه، ومهما فهمنا الأسباب أو جهلناها؛ فإننا لن ننتهي قط إلى حرية تامة أو إلى ضرورة تامة.

(١) فمهما تصورنا الفرد غير خاضع لأي تأثير خارجي فإننا لن نتوصل إلى فهم الحرية في المكان. إن كلًّا من أعمال الإنسان مشروط أنْ لما يحيط به أو بذات جسده، إني أرفع يدي وأخفضها ويبدو لي أن حركتي حرة، بيد أنني حين أتساءل عما إذا كان في مكنتي أن أرفع يدي في سائر الاتجاهات أجد أن حركتي قد تمت في الاتجاه حيث مقاومة الأشياء المحيطة بي وجسدي نفسه هي أقل ما يمكن، فإنا قد اصطفينا من سائر الاتجاهات الممكنة الاتجاه الذي يكلفني أقل جهد ممكن، وكي تكون حركتي حرة لم يكن

بد من انعدام أية عقبة تمامًا. إذن فنحن لا نستطيع أن نتصور إنسانًا حرًّا إلا خارجًا عن المكان، الأمر المستحيل بكل تأكيد.

(٢) ومهما قربنا الحكم على عمل ما من الزمن الذي ارتُكب هذا العمل فيه، فإننا لن نتمكن قط أن نفهم الحرية في الزمان. وفي الحقيقة أني إذا أخذت بعين الاعتبار عملًا حدث قبل لحظة واحدة فقط، فإني لا أستطيع أن أحكم عليه بالحرية ما دام مقيدًا إلى الوجهة التي صار إنجازه فيها. هل أستطيع أن أرفع ذراعي؟ إني أرفعها لكنني أتساءل عما إذا كنت أستطيع ألا أرفعها في هذه اللحظة التي انقضت لتوها، وكي أتأكد من ذلك فأنا لا أرفع ذراعي في الثانية التي تتلو ذلك، بيد أنني لم أرفع في ذات اللحظة التي تساءلت فيها عما إذا كنت أملك الحرية لذلك، لقد فرق الزمان وما كنت أملك القدرة على الإمساك به، والذراع التي رفعها الآونة والهواء الذي قمت بالحركة فيه لم يعودا لا ذلك الهواء الذي كان يحيط بي في اللحظة المعينة، ولا الذراع التي أحتفظ بها ثابتة الآن. إن البرهة التي تمت فيها الحركة الأولى لن تعود قط، وفي تلك البرهة كنت أستطيع أن أفعل سوى حركة واحدة، ومهما تكن هذه الحركة فلا يمكن أن تكون سوى وحيدة. ومهما يكن من أمر فكوني لم أرفع ذراعي في الثانية التي أعقبت ذلك لا يبرهن قدرتي على عدم رفعها عندئذ، وما دمت لا أستطيع أن أفعل سوى حركة واحدة في تلك اللحظة المعينة فهذه الحركة لا يمكن أن تكون حركة أخرى البتة. فلا بد لي كي أتصور هذه الحركة حرة من شعورها في الوقت الحاضر عند حدود الماضي والمستقبل، يعني خارج الزمان، الأمر الذي يستحيل حدوثه.

(٣) ومهما عظمت صعوبة الوصول إلى السبب فإننا لم نتوصل مطلقًا إلى تصور حرية تامة، يعني إلى شعور عدم وجود أي سبب. مهما يكن تظاهر الإرادة في فعلٍ ما نقوم به نحن أو الآخرون غامضًا علينا، فإن أول متطلبات فكرنا هو البحث عن السبب الذي لا يمكن بدونه أن نتصور أية ظاهرة مطلقًا. إني أرفع يدي كي أقوم بعمل لا سبب له، بيد أن مجرد إرادتي عملًا سبب له يشكل له سببًا في الحال.

وحتى إذا افترضنا امرءًا حرًّا تمامًا من أي تأثير، فإننا لن نستطيع قط إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أحد أعماله في ذات اللحظة التي يقوم فيها إنجازه دون أن نربطه بأي سبب، بل حتى بقبولنا لبقية في الضرورة لا متناهية في الصغر تساوي صفرًا، لن نستطيع قط إذن أن نتوصل إلى فهم حرية الإنسان التامة، ذلك إن كان خارجًا عن أي تأثير خارجي، خارجًا عن الزمان ومستقلًّا عن كل سبب، هذا الكائن لا يمكن أن يكون إنسانًا.

وكذلك يستحيل علينا أن نتخيل فعلًا بشريًّا تغيب فيه الحرية ويكون خاضعًا لقانون الضرورة وحده.

(١) مهما تكن معرفتنا بالشروط المكانية التي يخضع لها الإنسان واسعة فلا يمكن أن تكون كاملة، لأن عدد هذه الشروط لا متناهٍ تمامًا كما أن المكان لا متناهٍ، وبالتالي فما دامت الشرور التي تؤثر في أحد الأفراد غير محددة جميعًا فليس ثمة ضرورة مطلقة، ويبقى بعدئذ نصيب ما من الحرية.

(٢) مهما فعلنا كي يظل الفاصل الذي يفصل الظاهرة المفحوصة عن اللحظة التي نحكم عليها فيها، فإن الفترة المأخوذة بعين الاعتبار تظل محددة على الدوام، بينما الزمان نفسه لا متناهٍ، وبالتالي فلا يمكن أيضًا من وجهة النظر هذه أن يكون ثمة ضرورة تامة.

(٣) مهما تكن معرفتنا بتسلسل الأسباب التي أدت إلى فعل معين، فإننا لا نبلغ حتى معرفتها التامة ما دام هذا التسلسل لا متناهٍ، وبالتالي فإننا لا نبلغ الضرورة المطلقة أيضًا.

وفي ما عدا ذلك فحتى إذا قبلنا بوجود بقية من الحرية لا متناهية في الصغر مساوية للصفر، فإننا نتحقق في أية حالة كانت؛ حالة رجل يموت، أو جنين، أو أبله، من الغياب المطلق للحرية، وبذلك نقضي تمامًا على مفهوم الإنسان، لأنه حيث لا يوجد حرية فالإنسان غير موجود. ولذا كان تصور الفعل الإنساني خاضعًا لقانون الضرورة وحده دون أي أثر من الحرية، مستحيلًا بقدر استحالة تصور ذلك الفعل حرًّا بصورة مطلقة.

وهكذا فكي نعتبر فعلًا إنسانيًّا أنه خاضع لقانون الضرورة وحده، ينبغي لنا أن نعترف بأننا نعرف الكمية اللامتناهية من الشروط المكانية، والفترة اللامتناهية لزمن الديمومة، والسلسلة اللامتناهية من الأسباب.

وكيما نتخيل على العكس إنسانًا حرًّا تمامًا من قانون الضرورة، ينبغي لنا أن نعتبره بصفته وحيدًا خارج المكان والزمان والسببية.

ففي الحالة الأولى: إذا كانت الضرورة ممكنة دون الحرية، فإننا نصل إلى تعريف لقانون الضرورة بالضرورة نفسها، يعني إلى شكل بدون محتوى.

وفي الحالة الثانية: إذا كانت الحرية ممكنة بدون الضرورة، فإننا نبلغ إلى حرية غير مشروطة خارج الزمان والمكان والسببية، حرية لن تكون لكونها غير مشروطة أو محددة بأي شيء سوى محتوى بدون حاوٍ.

وإننا نصل بصورة عامة إلى هذين الأساسين لكل فلسفة: ماهية الحياة العصية على الإدراك، والقوانين التي تعرفها.

وإليكم ما يقول العقل:

(١) إن المكان، مع سائر الأشكال التي صار بها مرئيًّا يعني المادة، هو لا متناهٍ ولا يمكن إدراكه بصورة أخرى.

(٢) إن الزمان حركة لا متناهية دون لحظة واحدة من التوقف، ولا يمكن إدراكه بصورة مغايرة.

(٣) إني خارج أي سبب كان، لأني أستشعر أني سبب كل تظاهرة في حياتي.

إن العقل يعبر عن قوانين الضرورة، والوعي يعبر عن ماهية الحرية.

إن الحرية غير المشروطة هي ماهية الحياة في وجدان البشر، وإن للضرورة محتوى هي العقل البشري تحت أشكاله الثلاثة.

إن الحرية هي ما نتفحصه، والضرورة هي ما جرى فحصه، إن الحرية هي دون المحتوى، والضرورة هي الحاوي.

ونحن إذ نفصل هذين الينبوعين للمعرفة، اللذين هما بالنسبة إلى بعضهما بعضًا مثل الحاوي والمحتوى، نتوصل بذلك وحده إلى مفاهيم عن الحرية والضرورة تنفي بعضها البعض، وتظل ممتنعة على الإدراك.

ونحن إذ نوحد بينهما نتوصل بذلك وحده إلى تصور واضح عن الحياة الإنسانية. وخارج هذين المفهومين اللذين يحددان بعضهما بعضًا في اتحادهما، تمامًا مثلما يتحد المحتوى بالحاوي؛ ليس ثمة أي تصور ممكن عن الحياة.

وكل ما نعرفه عنها لا يعدو كونه علاقة ما بين الحرية والضرورة، يعني بين الوجدان وقوانين العقل.

وكل ما نعرفه عن عالم الطبيعة الخارجي لا يعدو كونه علاقة ما بين قوى الطبيعة والضرورة، أو بين ماهية الحياة وقوانين العقل.

إن القوى الحياتية للطبيعة موضوعة خارجًا منا ومن وجداننا، ونحن ندعوها الثقالة، وقوة العطالة، والكهرباء، والقوة الحياتية ... إلخ، بيد أن قوة الإنسان الحياتية معروفة عندنا بواسطة وجداننا، ونحن ندعوها الحرية.

والثقالة التي يحسها كل إنسان ممتنعة عن إدراكنا في ماهيتها، ونحن لا نستطيع أن نفهمها سوى بقدر ما نعرف قوانين الضرورة التي تخضع لها (منذ أول فكرة عن سقوط

الأجسام حتى قانون نيوتن)، وكذلك فإن قوة الحرية التي يحسها الوجدان لهي ممتنعة عن الإدراك في ماهيتها أيضًا، وهي لا تصير مفهومة عندنا إلى بقدر ما نعرف قوانين الضرورة التي تخضع لها منذ حقيقة موت كل إنسان، حتى أكثر القوانين الاقتصادية أو التاريخية تعقيدًا.

فكل من معارفنا ليست سوى فعل خضوع من ماهية الحياة لقوانين الضرورة.

وتتميز حرية الإنسان عن سائر القوى الأخرى لأننا نعيها، بيد أنها عند العقل لا تختلف البتة عن أية قوة أخرى، إن قوة الثقالة والكهرباء والجاذبية الكيموية لا تتميز عن بعضها البعض إلا لأن عقلنا قد عرفها كلًّا على حدة.

وكذلك الأمر فيما يتعلق بقوة الحرية، إنها لا تتميز بالنسبة إلى العقل عن قوى الطبيعة الأخرى سوى بالتعريف الذي يمنحها إياه هذا العقل، فالحرية دون الضرورة يعني دون قوانين العقل التي تحددها لا تتميز عن الثقالة والحرارة، أي عن قوة الإنبات، ما هي سوى إحساس آني غير محدد عن الحياة. وكما أن الماهية غير المحددة للقوة التي تحرك الأجرام السماوية والقوة الحرارة والقوة الكهرباء وقوة الانجذاب الكيموي أو القوة الحياة، تشكل محتوى علم الفلك والفيزياء والكيمياء وعلم النبات وعلم الحيوان ... إلخ؛ كذلك فإن ماهية القوة الحرية تشكل محتوى التاريخ. ولكنه كما أن غرض كل من العلوم هو تظاهر هذه الماهية المحولة للحياة، وأن هذه الماهية بدورها يمكن أن تكون غرض ما وراء الطبيعة فقط؛ كذلك فإن تظاهر الحرية الإنسانية في المكان والزمان والسببية يشكل غرض التاريخ، بينا الحرية هي غرض ما وراء الطبيعة.

في العلوم التجريبية ندعو ما هو معروف عندنا قوانين الضرورة، وما هو غير معروف عندنا القوة الحياتية، وليست القوة الحياتية سوى الاسم المعطَى للأثر المجهول مما نعرفه عن ماهية الحياة.

كذلك في التاريخ ندعو ما هو معروف عندنا قوانين الضرورة، وما هو غير معروف الحرية، وليست الحرية بالنسبة إلى التاريخ سوى التعبير عن الأثر الباقي غير المعروف لما نعرفه من قوانين الحياة البشرية.

الفصل الحادي عشر

غرض التاريخ

إن التاريخ يدرس تظاهرات الحرية البشرية في علاقاتها مع العالم الخارجي ومع الزمان وفي تبعيتها حيال السببية، يعني أنه يحدد الحرية تبعًا لقوانين العقل، ولذا ما كان يمكن أن يكون عالمًا إلا بقدر ما تخضع الحرية لهذه القوانين.

وإن الاعتراف بالحرية الإنسانية كقوة على قدر كافٍ من الكبر بحيث يكون لها تأثيرها في الحوادث، يعني أنها غير خاضعة لأية قوانين، ليعادل بالنسبة إلى التاريخ الاعتراف بقوة تحرك الأجرام السماوية بالنسبة إلى علم الفلك.

وإن القبول بذلك يعني القضاء على إمكانية وجود أية قوانين وبالتالي وجود أي علم كان، فإذا كان في مكنة جسم واحد أن يتحرك بحرية فقوانين كبلر ونيوتن لم يعد لها وجود إذن، وما عاد في الإمكان تصور حركة الأجرام السماوية، وكذلك إذا كان ثمة فعل إنساني واحد حر فليس ثمة إذن أي قانون تاريخي ويصير من المستحيل تصور وقائع التاريخ.

وبالنسبة إلى التاريخ فإن الإرادات الإنسانية تتحرك تبعًا لخطوط يختبئ أحد أطرافها في المجهول، بينما وعي الحرية في البرهة الراهنة يتحرك عند الطرف الآخر في المكان والزمان والسببية.

وبقدر ما يبتعد حقل هذه الحركة في أنظارنا فإن قوانينها تزداد وضوحًا، وإن إدراك هذه القوانين وتعريفها يشكلان غرض التاريخ.

وإذا انطلقنا من وجهة نظر العلم الراهن، وإذا سلكنا الطريق التي يتبعها في البحث عن أسباب الظواهر في الإرادة الإنسانية الحرة؛ فإنه من المستحيل تعريف هذه القوانين، ذلك أنه مهما تكن الحدود التي نعينها للحرية فإن وجود القانون يصير محالًا منذ اعترافنا بها كقوة غير خاضعة لقوانين.

ولن نقتنع باستحالة النفوذ حتى الأسباب بصورة مطلقة إلا بإبعادنا حدود هذه الحرية إلى ما لا نهاية، يعني باعتبارنا إياها كمية لا متناهية في الصغر، وعندئذ يأخذ التاريخ على عاتقه بدلًا من البحث عن هذه الأسباب مهمة البحث عن قوانين.

ولقد بُدئ هذا البحث منذ زمن طويل، وإن طرق التفكير الجديدة التي يجب أن يتمثلها التاريخ تنضج، بينما التاريخ القديم الذي كان يجزِّئ أكثر فأكثر أسباب الحوادث يتهدَّم من تلقاء نفسه في الوقت ذاته.

وعلى أية حال فالعلوم البشرية تسلك نفس الطريق، إن الرياضيات هذه العلوم المضبوطة حتى الدرجة القصوى تهمل طريقة التجزيء المتدرج عندما تبلغ اللامتناهي في الصغر، في سبيل الطريقة الجديدة عن تكتيل العناصر المجهولة اللامتناهية في الصغر. إن الرياضيات تتنازل عن مفهوم السبب كي تفتش عن قانون، يعني عن خصائص مشتركة بين سائر العناصر المجهولة اللامتناهية في الصغر.

وتفعل العلوم الأخرى الشيء نفسه وإن بصورة مغايرة، عندما برهن نيوتن قانون الجاذبية لم يقل إن الشمس أو الأرض تملكان خاصة جذب الأجسام الأخرى، بل قال إن سائر الأجسام من أكبرها حتى أصغرها تملك خاصة التجاذب، يعني أنه عبر وقد ترك جانبًا سبب حركة الأجسام عن خاصة مشتركة بين سائر الأجسام، من اللامتناهي في الكبر حتى اللامتناهي في الصغر. وهذا ما تفعله أيضًا العلوم الطبيعية، لقد وضعت الأسباب جانبًا كي تفتش عن القوانين. وإن التاريخ ليسلك الطريق نفسه، وإذا كان غرضه دراسة حركات الشعوب والإنسانية لا وصف مقاطع مخصوصة من الحيوات، فينبغي له أن يبعد مفهوم الأسباب كي يفتش عن القوانين المشتركة بين سائر عناصر الحرية اللامتناهية في الصغر، المتساوية والمتماسكة بصورة متينة لا سبيل إلى حلها.

الفصل الثاني عشر

الضرورة والقوانين

منذ صار اكتشاف قانون كوبرنيك وبرهانه، فإن تأكيد دوران الأرض حول الشمس قد دمر كل علم الفلك القديم، ولقد كان في الإمكان رفض هذا القانون والاحتفاظ بالمفهوم القديم عن حركة الأجسام، بيد أننا إذا لم نرفضه فقد كان يتراءى من المستحيل الاستمرار إذن في دراسة عوالم بطليموس، ومهما يكن من أمر فإن عوالم بطليموس قد استمرت دراستها فترة طويلة حتى بعد اكتشاف قانون كوبرنيك.

ومنذ أن أعلن رجل وبرهن للمرة الأولى أن عدد الولادات أو الجرائم خاضع لقوانين رياضية، وأن ظروفًا جغرافية وسياسية اقتصادية معينة تؤدي إلى هذا الشكل أو ذاك من الحكومة، وأن علاقات معينة بين الأرض والسكان الذين يشغلونها تنتج حركات هؤلاء السكان، منذ ذلك الحين انهارت القواعد التي بُنِي عليها التاريخ من أساساتها.

وإنه لفي الإمكان رفض هذه القوانين الجديدة والاحتفاظ بوجهة النظر القديمة، بيد أنه كان يبدو من المستحيل دون رفضها الاستمرار في دراسة الوقائع التاريخية على اعتبارها نتائج إرادة البشر الحرة، ذلك أنه إذا كان هذا الشكل المعين من الحكومة وهذه الهجرة المعينة للشعوب مسبَّبَيْن عن هذه أو تلك من الظروف الجغرافية والقومية والاقتصادية، فإن إرادة البشر الذين يلوح لنا أنهم أقاموا ذلك الشكل من الحكومة أو أدَّوْا إلى تلك الهجرة التي قامت الشعوب بها لا يعود في الإمكان اعتبارها سببًا فعالًا.

ومع ذلك فإن التاريخ القديم ما برح يُدْرَس إلى جانب القوانين الجديدة للإحصاء والجغرافيا والاقتصاد السياسي، ويقارنها مع الفلسفة وعلم طبقات الأرض التي لها مبادئ معاكسة بصورة مباشرة لهذه التأكيدات.

أما عن فلسفة الطبيعة فقد كان الصراع داميًا ها هنا بين النظريات القديمة والجديدة، لقد كان اللاهوت يقوم بواجب الحراسة حول المبادئ القديمة ويتهم المبادئ

الجديدة بتدمير الوحي، ولكن الحقيقة ما انتصرت حتى تمركز اللاهوت في الأرض الجديدة بما لا يقل من ثبات عنه قبلًا.

وإن الصراع القائم في عصرنا بين المفهومين القديم والجديد عن التاريخ قد ظل غامضًا عنيدًا، إن اللاهوت لَمَّا يبرح يقوم بواجب الحراسة حول وجهة النظر القديمة، وهو يتهم دومًا وجهة النظر الجديدة بإنكار الوحي.

وفي كلتا الحالتين تثير المعركة الأهواء وتخنق الحقيقة، فمن جهة يظهر الخوف والأسف على البناء الذي رُفِع طوال قرون، ومن الجهة الثانية يبدو حب التدمير.

وإن الناس الذين يرفضون الحقائق الجديدة في حقل فلسفة الطبيعة يحسبون أن قبولهم لهذه الحقائق يعني دمار الإيمان بالله وبخليقة العالم وبمعجزة يشوع بن نون، أما المدافعون عن قوانين كوبرنيك ونيوتن، فولتير مثلًا، فقد كان يبدو لهم أن قوانين علم الفلسفة تدمر الدين، ولقد كان فولتير يستخدم قوانين الانجذاب كسلاح ضد الإيمان.

ويبدو اليوم بذات الطريقة بالضبط أنه يكفي أن نعترف بقوانين الضرورة كي تنهار مفاهيم النفس، والخير والشر، والمؤسسات الحكومية والإكليريكية المبنية عليها.

إن حماة قانون الضرورة يجعلون اليوم، فولتير تمامًا، من هذا القانون سلاحًا ضد الدين. إن قانون الضرورة في التاريخ مثله مثل قانون كوبرنيك في علم الفلك بالضبط، لا يدمر المؤسسات السياسية والدينية بل يزيد أسسها متانة وثباتًا.

فنحن نقع اليوم إذن في التاريخ على نفس القضية التي واجهت علماء الفلك، إن الفارق بين النظريات يقوم على قبول أو رفض وحدة مطلقة تخدم كمقياس للحوادث الظاهرة، وفي الفلك كانت هذه الوحدة هي ثبات الأرض، وفي التاريخ كانت استقلال الشخص، حرية الإنسان.

وفي علم الفلك كانت صعوبة قبول حركة الأرض والكواكب الأخرى تقوم في كوننا نتنازل عن الإحساس المباشر بثبات الأرض وبحركة الكواكب، وفي التاريخ تقوم صعوبة قبول خضوع الشخص لقوانين المكان والزمان والسببية في ضرورة التنازل إذن عن الإحساس المباشر، الذي يملكه كل شخص عن استقلال ذاته. ولكنه كما أن النظرية الجديدة في علم الفلك تقول: «هذا صحيح، نحن لا نملك إحساسًا بحركة الأرض، لكننا نتوصل إلى أشياء غير معقولة إذا قبلنا بثباتها، أما إذا قبلنا على العكس هذه الحركة التي لا نحسها فإننا نتوصل إلى قوانين»، كذلك تقول النظرية الجديدة في التاريخ: «صحيح أننا لا نملك الإحساس بتبعيتنا، لكننا إذا قبلنا بحريتنا فإننا نتوصل إلى شيء غير معقول،

أما إذا قبلنا على العكس بتبعيتنا حيال العالم الخارجي والزمان والسببية، فإننا نتوصل إلى قوانين.»

ولقد اضطُرِرنا في الحالة الأولى أن نتنازل عن إحساس الثبات في المكان والقبول بحركة لا تدركها حواسنا، وإنه لينبغي لنا في الحالة الراهنة أيضًا أن نتنازل عن هذه الحرية التي نعيها ونقبل بتبعية لسنا نشعر بها.

كانون الثاني، ١٩٥٦م

